

مهرجان القراءة للجميع مكتبة الأسرة



موسوعة

# وصف مصر

العرب في ريف مصر وصحراواتها

تأليف: علماء الحملة الفرنسية

ترجمة: زهير الشايب

الجزء الثاني





## · وصف مصر

العرب في ريف مصر وصحراواتها

---

سم العمل الفني: خيمة بدوى

التقنية: رسم بالحبر الأسود

المقاس: ٥٠ x ٧٠ سم

خاض معظم علماء بعثة الحملة الفرنسية فى تصوير العادات والتقاليد والمناسبات والأعياد، فرسموا كل ذلك فى لوحات تحمل التفاصيل المتسببة بالإثارة. وكانت مصر فى أذهان الغرب وطن غامض الملامح يفص بالجان والأقزام والوحوش الخرافية... ولم تر الصورة الواقعية لمصر إلا بعد رسائل من مصر لإثنين سافرى، ورحلة إلى سوريا ومصر للكونت شامسييف دى هولنى. وهنا أحس الغرب بقدر هذين الكتابين ورحبوا بهما أيما ترحيب، وترجما إلى الألمانية والإنجليزية وما إلى ذلك من اللغات.

يقول سافرى: (بين احتشاد الأشجار الظليلة تتناثر أحواض الزهور التى يعبق بها الجو، أريجها العطر رغم لفح الظهيرة جعل منها الفردوس الموعود للظامى العطشان).

ويقول هولنى: (بيوت القرى تشبه الأطلال المتداعية، والدلتا سهل لا نهاية له، يتبدل شكله حسب المواسم....)

محمود الهندى

---

# وصف مصر

العرب في ريف مصر وصحراواتها

الجزء الثاني

تأليف: علماء الحملة الفرنسية

ترجمة: زهير الشايب



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٢

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

موسوعة وصف مصر

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

وصف مصر

العرب في ريف مصر وصحراواتها

تأليف: علماء الحملة الفرنسية

ترجمة: زهير الشايب

الغلاف

والإشراف الفني:

الفنان : محمود الهندى

الإخراج الفني والتنفيذ :

صبرى عبدالواحد

المشرف العام :

د. سمير سرحان

---

## على سبيل التقديم :

نعم استطاعت مكتبة الأسرة بإصداراتها عبر الأعوام الماضية أن تسد فراغا كان رهيباً في المكتبة العربية وأن تزيد رفعة القراءة والقراء، بل حظيت بالتفاف وتلف جماهيرى على إصداراتها غير مسبوق على مستوى النشر فى العالم العربى أجمع، بل أعادت إلى الشارع الثقافى أسماء رواد فى مجالات الإبداع والمعرفة كادت أن تنسى وأطلعت شباب مصر على إبداعات عصر التنوير وما تلاه من روائع الإبداع والفكر والمعرفة الإنسانية المصرية والعربية على وجه الخصوص. ها هى تواصل إصداراتها للعام التاسع على التوالى فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية بالنشر الموسوعى بعد أن حققت فى العامين الماضيين إقبالاً جماهيرياً رائعاً على الموسوعات التى أصدرتها. وتواصل إصدارها هذا العام إلى جانب الإصدارات الإبداعية والفكرية والدينية وغيرها من السلاسل المعروفة وحتى إبداعات شباب الأقاليم وجدت لها مكاناً هذا العام فى «مكتبة الأسرة».. سوف يذكر شباب هذا الجيل هذا الفضل لصاحبه وراعيته السيدة العظيمة/ سوزان مبارك..

د. سمير مبرحان

---





## مقدمة الطبعة الأولى

صدر منذ نحو عامين المجلد الأول من الترجمة العربية الكاملة لكتاب وصف مصر — وتعنى الترجمة الكاملة هنا أننا ننشر النص الكامل دون تصرف من أى نوع ، أما تقديم ترجمة كاملة لكل وصف مصر فسيظل مطمحاً نرجو أن تساعدنا الأيام فى تحقيقه — مشتملاً على إحدى دراسات هذا السفر الضخم ، وكان موضوعها « دراسة فى عادات وتقاليد سكان مصر الحديثين » ، وهى من وضع المهندس الشاب ، ج. دى شابرول ، الذى يشار إليه باسم شابرول دى فولفيك ، والذى شارك فى الحسلة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ .

ولقد كانت النية تتجه الى مواصلة نشر أجزاء من وصف مصر تبعاً لكن الظروف لم تكن مواتية ، فتأخر نشر المجلد الثانى منه الى اليوم ، ولابد ان القراء سوف يلتبسون العذر حين يعلمون ان نشر هذه الترجمة ، فضلاً عن الترجمة ذاتها ، يتم بجهود ذاتية .

● وفى مقدمة المجلد الأول ذكرت أنه على الرغم من أية دوافع ذاتية ، قد تكون وراء نشر مؤلف كهذا ، الا اننى احب ان اربط الجهد كله بذاك الحركة التى دبت فى مصر ، منذ يونيو ١٩٦٧ ، والتى زادت بعد أكتوبر ١٩٧٣ : الذى أعاد لمر بعض توازنها وبعض ثقتها بالنفس ، واستمرت فيما بدأت فيه فى محاولتها التفتيش والبحث عن الذات ، ساعية الى استقرار كافة تاريخها ، لاسيما تاريخها الحديث الذى بدأ فى بعض فترات حياتها المعاصرة وكأنه لا يلقى الاهتمام الكافى . وحين احاول ان اجد ما اقدم به هذا المجلد الثانى ، فأتى اجدنى اكاد اكرر نفس ماقلته آنذاك . ان التاريخ حلقات متصلة ، كل حلقة منه تحمل ظل سابقتها ، كما أنها تشكل على نحو ما ملامح الحقبة القادمة حتى ولو قامت ثورات شاملة ، تسعى لتغيير كل شيء ، فمعطيات الواقع وعناصره ، التى يتشكل منها الحاضر . الذى يصبح بعد ذلك « تاريخاً » قادرة على التحور: لتوجد فى أشكال جديدة ، بتسميات جديدة . واكثر من ذلك فان ما « مضى » — أى ماحدث واصبح تاريخاً — هو أكثر أبعاد الزمن صلداً،

لانه تشكل بصفة نهائية ، فى حين يظل الحاضر افتراضا زئبقيا ، يقفز دوما الى الامام ، او يتشبث بمعطيات الماضى ، أو يفعل الاثنين فى وقت معا فى أغلب الأحيان . نعم ، قد تضطرنا الظروف لاستقراء الماضى على نحو ما ، كما ان من المشروع — من الناحية الأكاديمية البحتة وليست السياسية المعارضة فقط — أن نختلف فى تفسير دروس التاريخ ، ومغزى معطياته ، لكن الوقائع مع ذلك لابد لها أن تحترم هذا الوازع الأخلاقى ، ليس فقط لأن الصدق مع النفس يقتضى ذلك ، وإنما لأننا — أيضا — اذا ماسلكنا هذا الدرب — درب عدم احترام الوقائع التى تمت أو تجاهلها — لن نستطيع مطلقا أن نفهم الحاضر الذى نعيشه ، وسيصبح هذا الحاضر مجرد محاولات تتصل متخبطة ، فى حين يصبح المستقبل نفسه مغبرة غير ماثورة الى أن يأتى اليوم الذى يصبح فيه المستقبل واقعا مريرا ، أو حاضرا لم تكن نتوقع أننا نسير اليه .

لكن هذا الذى نقر به لا يعنى مطلقا أننا نحبذ الجهود أو ندعو اليه ، فالتطور حتى شئنا أم أبينا ، والماضى لا يعود مطلقا ، كما أنه ليس خيرا كله ، وفى نفس الوقت ، فلا بد أن تكون لنا أحلامنا وطموحاتنا فى مستقبل أفضل ، نصنعه ، ولا ندع الأيام تصوغنا كما تهوى . ولكن يبقى هناك على الدوام الفرق بين الطموح المشروع وبين الخيال المبهض ، وبين الاعتراف بالواقع وبين الجنود ، وفى كلمة ، بين أن نبنى فوق أسس متين ، وبين أن نشيد تصور الوهم العالية فوق الرمال الناعمة ، المتحركة .

لا بد أن هذا كله ، أو بعضا منه ، أو أكثر من ذلك ، هو الذى جدا بالحركة المصرية فى مصر أن تنقب فى تاريخها الحديث ، وأن تتصدى له ، وأن تحاول إعادة النظر فى أمور كادت تعدد من المسلمات . ومن اللافت للنظر أن الذين تصدوا لهذه الحركة الفكرية التى ارتبطت بالتاريخ لم يكونوا كلهم من أساتذة التاريخ ، مما يعنى أن التاريخ كعلم قد أصبح « ثقافة » يحرص المثقفون جميعا ليس فقط على الإلمام بها واستيعابها ، وإنما كذلك على الإسهام فيها ، دون أن يعنى ذلك مطلقا أى مساس بقدر وانجاز أساتذة التاريخ الاجلاء ، الذين سقتل منوطة بهم بطبيعة الحال الانجازات الرئيسية فى هذا المجال .

ومن جهة أخرى لمأني لا أريد أن اتحم رأيي هنا ، ولست أريد بالذات أن يكون تقديم هذه الدراسات هو المناسبة التي يقال فيها رأى خاص أو يدور جدل لا ينبغي أن يتحمل هذا العمل وزر خطئه ان كان مخطئا ، أو يقال دعما بسببه قد لا يستحقه ان كان هذا الرأى صائبا . فلمسنا هنا على الأقل ازاء مؤلف نضمه فى الوقت الحاضر ، نساهم به فى جدل قائم ، لسكنه « ترجمة » لدراسات كتبها « اجانب » عن ظروف بعينها عاشتها مصر فى بعض مراحل حياتها ، كما انها قد كتبت من وجهة نظر هى ليست وجهة نظرنا . وقد حملت وجهة النظر هذه بالطبع بصمات الظروف التى كتبها فيها أصحابها ، كما عبرت أكثر من ذلك عن رغباتهم وطموحاتهم ومقاييسهم هم . . وان كان ذلك لايعنى انكار الوقائع، كما لا يعنى كذلك أن تصدر حكما قاطعا بموجبها ، فليست هى الحثيات الوحيدة ، أو التى لا يأتىها الباطل من بين يديها أو من خلفها ، وأكثر من ذلك فمأنا لاينبغى أن ننظر الى الحاضر من معطيات ماضى ولى ، بل وبمثلنه مصر وأصبح جزءا منها . بل انما قد نرى فى هذه اللوحة القسمة التى تقدمها هذه الدراسات التسع فى مجلداتها - بخصوص علاقة مصر بالقبائل العربية التى كانت تحيط بها وتنفذ الى اعماق واديها وطلاتها وعلى الرغم من كل التحفظات الضرورية التى سبق ابرازها - أمرا ايجاليا ينبغى ابرازه، الا هو تلك القدرة العبقريّة الفذة التى لمصر ، والتى تمكّنها من استيعاب كل المتناقضات ، واحتواء كافة نواحي السلب ، ثم تمثّل ذلك كله بخطو وثيد لسكنه واثق ، ثم افرازه فى النهاية كيانا سويا ، متناغيا ، وفوق ذلك كله ، مصرىا . . كأنها كانت هذه الحركة العنيفة من الشد والجذب بوتقة ينصهر فى اتونها شعب مصر ، ليمنبج واحدا من أكثر شعوب العروية امزاجا وتوحدا . . وليس صدفة ان مصر وحدها دون كل شعوب المنطقة ، هى التى لا تشكو من وجود اقلية عصرية فى داخلها ، على الرغم من كثرة من وفدوا اليها . . وبخلاف شعوب أخرى من حولنا .

بل انما نؤكد نقف فى هذا المثال الفذ على درس حضارى ، بل انسلنى عظيم فى هذه القدرة على التمثل والهضم ، فحين تمثلت مصر العناصر المملوكية والتركية مثلا ، فقد جعلتهم ابناءها ، لا يكاد يميزهم أحد عن سواهم ، وبغض النظر عن بعض التفاصيل الوقتية أو المرحلية ، فقد أصبحوا محض مصريين ! وهكذا ذاب الغالب فى المطلوب ، وأصبح تدره قدره ، وهو نفس قدر مصر ، يجوز عليهم بالمجوز عليها .

وإذا ما تركنا كل هذا لنقترب من العمل الذى بين يدينا فلنأخذ نجاه كما سبق القول ، يشتمل على تسع دراسات لثمانية مؤلفين من الذين تساركون فى الحملة الفرنسية على مصر ، وبالتالى فى وضع وتأليف كتاب وصف مصر .

وإذا كان من المقبول والممكن أن نقدم الدراسات الكبيرة من هذا المؤلف الكبير فى كتب مستقلة كما هو الحال بشأن المجلد الأول ، وبشأن دراسات أخرى كثيرة : كدراسة جومار من مدينة القاهرة ، ودراسة ديجينيت ولارى . عن الأمراض ، ودراسة جيرار من المزارعة والصناعة والتجارة ، ودراسة فيوتو عن الحالة الحالية لفن الموسيقى والفناء عند المصريين ، فإنه من غير الممكن أو المتصور كذلك أن نقدم الدراسات القصيرة على نفس النحو ، أى فى كتب مستقلة ، كما لا يحسن تقديمها مجمعة كيما اتفق . ولكى يكون القارئ فى الصورة معنا ، فلنأخذ أوضح له دون أن يعنى ذلك أى مأخذ — أن الدراسات فى كتاب وصف مصر تتجاوز فى نفس المجلد ، قصيرة وطويلة ، دون نسق منهجى واضح . هى إذن أشبه بكتب وكتيبات مستقلة تتجاوز أو تتلاقح دون رابطة منهجية ، وأن كانت تدخل كلها بالطبع ضمن إطار « وصف مصر » .

ولقد حاولنا أن نضفى هنا طابعا منهجيا على هذه الدراسات ، محاولنا تجسيمها حسب الموضوع الرئيسى الذى تدور حوله . فجاء هذا المجلد بدراساته التسع التى تدور كلها حول القبائل العربية ودورها فى مصر .

ومثل هذا المنهج — مع أنه فى تقديرنا أفضل مما يمكن اتباعه — لا يمكن أن يكون مبررا من العيوب ، أن لكل دراسة من هذه الدراسات التسع ظروفها التى كتبت فيها ، كما أنها تختلف باختلاف نظرة كل من مؤلفيها الثمانية إلى الأمور ، ما بين منصف ومتحامل ومجايل أيضا . . وما بين نظرة استعمارية تنشد الإصلاح لغرض بعينه ، وما بين فهم إنسانى شامل وعميق للأمور .

ومن جهة أخرى فإن معطيات هذه الدراسات تتجاوز فى الحقيقة الإطار الذى وضعت داخله فى ترجمتنا العربية ، فلسوف تقابلنا فى ثناياها :

— أمور تختص بجغرافية مصر وطبوغرافيتها

— وأمور أخرى تتعلق بمسيرة الحملة الفرنسية ذاتها على مصر والمتاعب والصعوبات التي كلفت توليها .

— وأمور ثالثة قد تدخل في نطاق تاريخ العلم، فالأحداث والاكتشافات اليوم قد تجاوزتها .

— وهناك أمور رابعة تعد من قبيل جغرافية التاريخ . أي تناول التاريخ في مرحلة بعينها بشكل سكني .

وهذه بالتأكيد عيوب ليست من صنع واضعي هذه الدراسات ، الذين لم يقصدوا وقتها أن يضعوا دراستهم في نفس السياق الذي نضعها نحن فيه اليوم ، وإنما هي نتيجة بالتأكيد من محاولة إضفاء منهج لامنص من اتباعه في واقع الأمر — لكنه بالتأكيد يأتي من خارجها . وعلى كل فإن مثل هذه العيوب تختفي كلية لو أننا حذفنا العنوان الذي أقمناه على هذه الدراسات التسع ، واكتفينا بالإشارة إلى هذا المجلد باعتباره المجلد الثاني في الترجمة العربية الكاملة ، وإن كان هذا بدوره غير متصور ، إلا بعد أن تتم ترجمة ونشر هذا السفر كاملا ، أو على الأقل المجلدات الثلاثة الخاصة بالدولة الحديثة .

ولقد شارك في تأليف هذه الدراسات كما سبق القول ثمانية من علماء الحملة الفرنسية ، وأبرز هؤلاء بالتأكيد الرياضى الشهير العلامة مونج ، رئيس الجمع العلمى الذى أنشأه بوناپرت في القاهرة . وتوضح الدراسة التى « يشارك » بها هنا — الدراسة الرابعة « دراستهوجزة عن عيون موسى » — أسلوبه المركز والملىء ، والصالح فى دقته وموضوعيته ، وإن كنا نأسف حقا لأننا لم نجد له فى هذا الاطار الذى اخترناه دراسات كبرى وأطول .

وأول دراسات هذا المجلد الذى بين يدينا من وضع أميديه إميليان جوير وهو مستشرق فرنسى ، وعضو مجمع العلوم فى فرنسا ، وقد شارك فى حملة مصر بوظيفةسكرتير أول مترجم للقائد الصام بوناپرت، وتولى تدريس اللغة التركية عقب عودته إلى فرنسا ، ثم قام ببعض المهام الدبلوماسية فى مارس وتركيا خدمة لنابليون . وقد عين بعد عودة الملكية

الى فرنسا سكرتيراً مترجماً علم ١٨١٩ ، وفى علم ١٨٣٠ عين مدرسا للغة الفارسية فى الكوليج دى فرانس ، وله مؤلفات عن رحلاته الى ارمينيا وفارس ، وعن قواعد اللغة التركية . كما ترجم عن العربية جغرافية الادريسي . وله بالاضافة الى ذلك مقالات كثيرة .

اما الدراسة الثانية فهى لأحد شبان مهندسى وضباط الحملة الفرنسية الذين تصمت كثير من المراجع عن ذكرهم للأسف ، جراتيان لوبير وهو الشقيق الأصغر للمهندس لوبير كبير مهندسى الحملة الفرنسية ، الذى اشرف على الدراسات الهندسية الخاصة بقناة السويس . ومن دراساته فى وصف مصر ، يتضح انه كان من معاونى الجنرال مينو ، وقد أصيب كما ذكر بالطاعون مرتين ونجا من الموت بأعجوبة وتوضح دراساته تشبعه بتخصصه كمهندس اذ يكاد يكون العالم فى نظره اطوالا ومتفيس . ومفضلا عن ذلك فان نظريته للامور يشوبها — فى بعض الدراسات — نوع من التعالى والتعصب .

اما الدراسة الثالثة فهى من وضع الجنرال اندريوسى ( انطوان — فرانسوا اندريوسى ) ، وهو جنرال ( عسكري ) وديپلوماسى ، وهو الحفيد الأصغر لاندريوسى المهندس والعالم الرياضى ، كان عضوا فى مجمع القاهرة وبعد عودته الى فرنسا عين سفيرا لبلاده فى لندن ثم فيينا ثم استأببول على التوالي . وخلال المائة يوم عاد الى الخدمة تحت قيادة نابليون ، وبعد واترلو شارك فى المفاوضات لاتخاذ ما يمكن اتقاذه ، وله دراسات هامة أبرزها دراسة عن تناقص مساحة كوكب الأرض .

أما ج. كوتل مؤلف الدراسة الخامسة فهو مهندس ، ولد فى مائس ١٧٤٨ ومات بها عام ١٨٣٥ ، أى أنه جاء مصر وعمره نحو خمسين عاما ، وقد درس منذ طفولته الفيزياء والكهرباء ، وكان رئيس اركان لجنة السلام العالم ، وقد أدت معركة أبى قير الى ضياع كثير من المادة التى جمعها عن مصر .

والدرستان السادسة والسابعة من وضع مؤلف واحد هو دى بوا — ايميه ، ومن المعلومات القليلة التى تذكرها المصادر عنه نعرف انه طالب مهندس ، واثمه قدم الى مصر وعمره نحو تسعة عشر عاما . لكننا حين نقرأ دراستيه ، وكذا الأعمال الأخرى التى ساهم بها فى وصف

مصر ، سوف نظن أنفسنا بأزاء شيخ كبير عركته الأيام وباحت له بمكونات سرها وتجاربها . وتجمع أعماله الشابة بحق بين غزارة المعلومات ، وسلاستها ، وبين عذوبة الأسلوب ورقته وشاعريته . وهو لا يصدر فقط عن روح منصفة وإنما يتجاوز ذلك بكثير فيصدر بحق عن روح إنسانية عظيمة ، لا تتقف عند حدود الأجناس والحضارات بل تتداح عندها الحدود وتتداخل الحضارات ، وتلمس في كتاباته حبه العظيم لمصر وإنبهاره الشديد بها . ومن عجب أننا لم نسمع به واحدا من كبار أبناء فرنسا وعظماؤها ، ولقد يعود ذلك لأن عمره المبكرى كان قصيرا ، فقد مات وعمره لما يتجاوز ٣٦ عاما .

وإذا كانت نقصنا المعلومات الوفيرة كذلك عن م.م. مارتان مؤلف الدراسة الثانية ، وإن كنا نتعرف عليه من خلال دراسته ، ونلاحظ أنه كان متشبعا الى حد ما بالفكر ميؤو الاستعمارية بخصوص مصر ، مع أننا نحى فيه حقا رغبته الجليحة في معرفة مصر والوقوف حتى على مجموعة أبحارها ، فلما ولا شك نعرف الكثير عن جومر أو آدم — فرانسوا جومر مؤلف الدراسة التاسعة عن عرب مصر الوسطى ، وهو مهندس وجغرافى واركيولوجى. وقد ولد في فرساي عام ١٧٧٧ ومات عام ١٨٦٢ — أى أنه قد قدم الى مصر وعمره لما يتجاوز ٢١ عاما ، وعلى الرغم من ذلك جاءت دراساته الكثيرة لتشهد له بالدقة وسعة الأفق واتساع المعارف ، وسلاسة الأسلوب لذلك فقد حل محل مونج عندما غادر الأخير مصر في صحبة بونابرت . وقد ساهم بجهد كبير في نشر وصف مصر ، وقد كانت له مكانة كبيرة عند كل من محمد على وسعيد باشا ، وأنعم عليه بلقب بك ، ولما أعيد إنشاء المجمع العلمى المصرى أسندت اليه رئاسته المؤقتة عام ١٨٦١ ، وكان معنودا من بين كبار علماء الجغرافيا والآثار القديمة في فرنسا .

ولقد ترددت كثيرا في اختيار بعض هذه الدراسات كي أدخلها في هذا الإطار ، وتكاد الدراسات الثانية والثانية تحظيان بأكثر قدر من هذا التردد ، خاصة وأتني قد أعددت مجلدا آخر من هذه الدراسات القصيرة يدور حول « وصف بعض المسكن والأقاليم المصرية » ، لكننى فضلت بعد تفكير طويل وضع هاتين الدراستين على الرغم من انتمائهما أكثر الى هذا النسق ، بسبب كبر حجم المجلد الخاص بالمدن من ناحية ، وبسبب وجود

اشارات هامة ومسببة حول القبائل العربية فى الدراساتين ، وكذلك بسبب وجود قائمة بالقبائل العربية فى بنى مسويف والفيوم ، وهو أمر تتضح جدواه حين تربط هذه الدراسة بالدراسة الاخيرة التى تدور حول العرب فى مصر الوسطى .

ويحتم واجيب الامانة ان اقر بالمصاعب التى واجهتنى فى تحقيق اسماء القرى والامكن والقبائل ، بسبب الأخطاء الإملائية ، وأخطاء النطق من جهة وتشابه هذه الأسماء نفسها من جهة أخرى، مع غيبة الإرشادات التى تستخدمها اللغات الأجنبية اليوم حين تكتب الأسماء العربية. وقد اقتضى ذلك منى بذل الكثير من الجهد والوقت والاستماتة بالأصدقاء والمراجع وكلمة المظان المقيمة . . ومع ذلك فأتنى أرجو المصفرة ان كانت تسد تسربت رغم ذلك كله بعض الأخطاء فى هذا الخصوص . وهذا تصور لاشك بمه فى حالة حدوثه لا يمكن تبريره وأتنى فى هذا المسند أعتل بصدر رحب كل توجبه أو حتى تصويب .

كما يدلمنى واجيب الامانة ان اقرر أيضا أنني قد تصرفت فى موطن أو اثنين فى ترجمة عبارتين وجدت من اللائق أن أنصرف فى ترجمتهما . وقد اشرت الى ذلك فى موضعه .

كما ان الامانة تقتضى كذلك ان اشير الى تلك المساعدات القيمة التى لقيتها فى سخاء وروح علمية عالية من الاساتذة والأصدقاء ، أستأذنا الدكتور عبد الرحمن زكى والأخوين الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن أستاذ التاريخ بكلية البنات الاسلامية والاستاذ رينيه خورى .

كما لا يفوتنى أن أوجه شكرا خاصا للأخ الدكتور عبد العزيز المسوقى رئيس تحرير مجلة الثقافة الذى أفسح لهذا الجهد مساحات مطولات من مجلته القيمة ، بشكل يستحق عليه من جاتين كل الشكر ، كما كان لتشجيعه بالكتابة عنسه بقلبه أو بإتلام آخرين أفضل الأثر فى نفسى .



وحين اختتم ذلك بإسداء الشكر الى السيدة زوجتى على ما تقدمه من  
عون وتشجيع من أجل انجاز هذا العمل فاننى لا اعمل ذلك لىاقة أو  
بجائلة وانما اقرارا لحق واعترافا بواجب ملموس ومشكور .

كما اتقدم الشكر لكل من ساهم فى تشجيعى على هذا العمل ولو  
بمجرد التشجيع الضئيل — واتقدم الشكر سلفا لكل من يتطوع  
بالنصح والتوجيه .

وكل ما ارجوه أن يكون هذا الجهد نافعا لوطنى مصر واطمنى  
المصريين وسيكون هذا — لو تحقق — هو افضل الجزاء .

والله تعالى هو الموفق ”

زهير الشمايب

مارس ١٩٧٨



الدراسة الأولى :

# جولة في إقليم المريوطية جراتيان تومير

العنوان الأصلي للدراسة هو :

دراسة موجزة عن الجزء الغربي من  
ولاية البحيرة والذي كان يعرف قديماً باسم  
إقليم المريوطية .



حين نتذكر وجود منطقة قديمة لم تتضرر طبيعتها (١٠) . لسكها مع ذلك لم تعد كما كانت في الماضي أهلة بالسكان أو مزرعة ، بمعنى ذلك أننا نحاول النظر في امكانية استجلاب سكان جدد اليها ، وبخاصة عندما لا تكون هذه الاراضى قد فقدت العوامل الطبيعية لخصوبتها . ونحن نقصد هنا بهذا الحديث تلك الاقليم الذى يقع في أقصى الغرب من شمال مصر والذي كان يعرف في زمن الامبراطورية الرومانية باسم اقليم المريوطية ، والذي لا يحل اسم مريوط الحالى الا مجرد نكري باهتة لوجوده . وهذا الاسم — مريوط — قد أطلقه العرب على مدينة قديمة في هذا الاقليم .

وعلى الرغم من ان هذه المنطقة تقع على مشارف الاسكندرية ، فانها في ايامنا هذه مهجورة وخالية من السكان حتى أننا لا نكاد نعرف — مجرد معرفة — عدد المدن الخربة الموجودة فيها والتي لا يتردد عليها سوى العربان الرعاة او الرحل ، الذين يأتون ليقيموا فيها خيامهم في اوقات معينة من السنة . وسوف يساهم الوصف السريع الذى نقدمه هنا عن حالة هذه المنطقة في الماضي وكذلك بعض المعلومات التى تقدمها عن

---

(١٠) في الرابع من جرمينال من العام التاسع بالتقويم النورى الفرنسى ، الموافق ١ أبريل ١٨٠١ ، قطع الجيش الانجليزى — التركى جسور ترعة الاسكندرية ، عند الطرف الغربى لبحيرة المعديّة ، على بعد ٧ كيلومترات من باب رشيد ، الواقع الى الشرق من السور القديم لمدينة الاسكندرية ، فتدفقت مياه هذه البحيرة الملحة ، وكذا مياه البحر الذى يتصل بها . . وبعد سبعين يوما اى في نهاية شهر بريريل ( ١٥ يونية ١٨٠١ ) امتلا الحوض القديم لبحيرة مريوط .

ولكى تتبين فرق الجيش العسكرية بالاسكندرية حقيقة حالها ، وطبيعة الموقف الذى اصبحت فيه ، قامت دورية استطلاع من الجيش لمسح هذه المنطقة ، فكانت هذه الدراسة ( المترجم )

حالتها الراهنة في رسم خريطة مصر الجديدة وفي اعطاء أفكار دقيقة الى  
هدما عن هذا الجزء من ارض مصر (١) .

وقد أطلق الرومان اسم اقليم المريوطية على كل البلاد الواقعة بين  
بحيرة ماريوتيس « مريوط » والبحر في الشمال . ويحد هذا الاقليم من  
جهة الغرب : البحر بلا ماء ، ومن جهة الجنوب وادي اقليم نكريوتيس ،  
ومن الشرق القرعة التي كانت تحمل مياه النهر الى البحيرة التي اعطت  
الاقليم اسمها . وكانت بحيرة ماريوتيس تمتد حسيما يقول سقراطون حتى  
مخينة تابوزيريس على الخليج البلتيني ، وكانت محاطة بالمسكن الفخمة  
والقرى والمدن وكانت مدينة ماريا عاصمة لهذا الاقليم . وقد عاشت هذه  
المدينة قبل مجيئ تمييز بوقت طويل في العام ٢٢٩ من تأسيس روما اي  
قبل الميلاد بـ ٥٢٥ سنة . ويقول هيرودوت حول هذا الموضوع :  
« وعندنا شعر سكان ماريا بالنفور من الحملات الدينية التي كانت  
للمصريين ، ارسلوا يستلهمون الوحي من جوبيتر آمون كي يعرفوا ما ان  
كان ينبغي عليهم ان يخضعوا لهذه القوانين . لاثم كانوا يظنون انفسهم  
من شعوب ليبيا لكن الوحي اجلب بأن كل البلاد التي يغطيها النيل  
ببياهه تابعة لمصر ، وان الاقوام الذين يشربون من مياهه انما هم  
مصريون » . وهذا الاقليم الذي يقع على تخوم الصحراء الليبية هو في  
الواقع اقليم مصرى ، وكان على الدوام خاضعا لحكم الأمراء المصريين ،  
وفضلا عن ذلك ، فهو يدين بكل مباتيه وزراعاته لمياه النيل . وعلى هذا،  
فان اجلبة وحي آمون تهدو صحيحة وطبيعية .

وترجع أسماء أهم المدن والقرى في هذا الاقليم — كما نوردتها  
هنا — الى العالم الجغرافي بطليموس الذي يحدد مواعنها الجغرافية  
على النحو التالي :

(١) مريوط . واسمها القديم ماريوتيس . يقول عنها عبد الرشيد  
في معجمه : انها مدينة تقع بالقرب من الاسكندرية ، وكانت فيها مقي  
مدينة كبيرة ، واشتهر عن سكاتها انهم يعمرون طويلا .

اسم المدينة	خط الطول	خط العرض
شيموفيكس	٣٠° ٤٠'	٣١° ٠٠'
بلتين	٤٥° ٥٩'	٣١° ٠٠'
جزيرة ثرمونيسيس ومدينة بورتس	٠° ٦٠'	٣١° ٠٠'
مونوكامينيم	١٠° ٥٩'	٣٠° ٣٠'
هالميرا	٤٠° ٥٩'	٣٠° ٥٠'
تاجوريرس	٥٠° ٥٩'	٣٠° ١٥'
كوبي	١٠° ٥٩'	٣٠° ٢٠'
أنيفيل	٣٠° ٥٩'	٣٠° ٢٠'
هيراكس	٤٠° ٥٩'	٣٠° ٤٠'
فومونيس	٠° ٦٠'	٣٠° ٤٠'
بال ماريا ليكس	٠° ٦٠'	٣٠° ١٠'
ماريا بالوس	١٥° ٦٠'	٣٠° ٥٠'
الإسكندرية ورا كوتيس	٣٠° ٦٠'	٣١° ٠٠'
كانوبوس ، مينلاي ، متروبوليس	٤٥° ٦٠'	٣١° ٠٠'

ويمكن بواسطة هذا الجدول ، ان نستدل بسهولة على الموقع الخاص بأهم الأماكن في هذا الاقليم القديم ، وان نرسم خريطة له ، ولكننا سرعان ما نلاحظ عند تحييص هذا الجدول ، بعض الأخطاء التي تعود بلا ريب ، الى معطيات خطوط العرض ، اذ كيف نجد جزيرة ثرمونيسيس ، التي لا جدال في انها هي الموقع الحالي لاريوت ( العجمي ) ، وهو رأس صغير به حصن ، ويقع على بعد فرسخين صغيرين ، على الشاطئ الذي يتحدر الى الجنوب الغربي من الاسكندرية — كيف يمكن لنا ان نجدها مبنية على ارض الى الشمال من خط عرض هذه المدينة .

ويمكننا ان نقول المزيد بخصوص موقع بلتين ، التي تبين على نفس خط الاسكندرية ، على الرغم من انها اكثر ابتعادا ، نحو الجنوب الغربي .

ومع ذلك فإن من العسير أن ننقل أن يكون بطليموس - وهو العالم الجغرافى والفلكى الذى ينتهى الى مدرسة الاسكندرية ، والذى كان يقيم بهذه المدينة من عام ١١٧ الى ١٦١ من العصر الحديث - هو الذى يمكن أن يقع فى اخطاء كهذه حول مواقع امكن شديدة القرب من عاصمتهمصر، كانت تربطها بها علاقات قوية بسبب روابط السياسة والتجارة والدين.. ولعل من الاقرب للصواب أن ننسب هذه الأخطاء الى الناسخين والى مترجمى هذا العالم الجغرافى كما يمكن أن ننسبها كذلك الى شراحه كما يرى جوسلان Gosselin (٢) فى كتابه : الجغرافيسا عند الاغريق Géographie des Grecs

ويحدد سترابون مواقع المدن الساحلية لهذا الاقليم بشكل مخالف فيتحدث عن كينوسيميا وعن تابوزيريس التى يقول عنها بأنها لاتقع مباشرة على شاطئ البحر وأنه كان يحتل فيها بأعياد كبرى ، ثم يتحدث عن تابوزيريس اخرى تبعد عن الاولى بمسافة كثيفة ، وكان يجرى فيها كل عام . فى فصل الربيع - مسابقة للشعب وبخاصة بين الشبان الذين كانوا يساهمون فى الاحتفالات بالنصيب الأكبر . ونفهم من كلام سترابون انه كانت تحدث هناك كما كان يحدث أيضا فى كانوبى ومنديس Mendis مشاهد شهرانية خليعة كان يغطيها السكينة بالنعمة من أسرارهم (٣) .

(٢) يقول جوسلان Gosselin فى كتابه : الجغرافيسا عند الاغريق ، الذى شرح فيه ملاحه القدماء ان بوزيدونيوس Posidonius قد اقترح على مدرسة الاسكندرية مقياسا جيدا للدرجة الأرضية ، وينقص هذا المقياس الذى أخذ به ، قيمة الدرجة الى ٥٠ غلوة ، فكانت الدرجة تقاس من قبل بـ ٧٠٠ غلوة للمسافات التى تؤخذ باتجاه خطوط العرض ، وفى الاسكندرية تغيرت المسافات القديمة ، لكن بعضها قد نسي بلا جدال. وينسب جوسلان الأخطاء التى تسربت الى جداول بطليموس الى هذا التغير .

(٣) فى كتابه عن تاريخ المصريين ، لا يتحدث هيرودت عن الأعياد السنوية التى كانوا يحتفلون بها فى منديس Mendis الا فى تكتم غامض عادة كالأسرار المصرية نفسها ، على الرغم من انه قد شارك فى هذه الأعياد وتطلعا ، ومع ذلك ، فإذا كان هذا المؤرخ قد استطاع أن يحتفظ بالسر الذى اقسم على الحفاظ عليه للسكينة المصريين ، وبخاصة فيما يتصل بديانتهم ، فإن بطارقة الاسكندرية ، وآباء الكنيسة الاول ، لم يتخرجوا من أن يكشفوا عن خسة وبذاءة هذه الأعياد فى كتاباتهم ، ويمكن الرجوع فى هذا الصدد الى لارشيه Larchet ، الترجمة الفرنسية لهيرودت ، الكتاب الثانى ، ص ٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، باريس ، ١٨٠٢ ، ( الملاحظتات أرقام ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٨١ ، ١٨٢ ) .



وبعد هاتين المدينتين اللتين تحملان اسم تلوزيريس ثلثى مدن :  
بلنتين ، نيسيى ، بلجويس ، شرسونفيسيس ، والأخيرة مبلرة من رأس  
سفيرة بها حصن وحامية ، ولم تكن تبعد عن الاسكندرية الا بـ ٧٠ غلوة  
« الغلوة الاغريقية = ٧٦٥٠ قامة وتساوى الغلوة الاولى ٩٥ قامة » .

وكنت هذه المنطقة تشتهر بجودة نبيذها — وكان من خاصيته انه  
يعيش لوقت طويل — وكانت الاسكندرية تصدر منه كميات كبيرة الى روما  
والى بلدان اجنبية أخرى . كما كانت هذه المنطقة ايضا تغطىء بالشجار  
الزيتون وان كان نوعه هناك اقل جودة من نوع الزيتون الذى كان  
يزرع بالقليم ارسينويت Arsinoite حيث يملأ الزيتون هناك كبيات  
وفيرة من الزيت .

وكان يسكن الجزء الأكبر من هذا الاقليم فى القرون الاولى للمسيحية،  
فى عصر اباطرة القسطنطينية ، المسيحيون الذين كانوا يفرون هربا من  
اضطهاد وملاحقة الأريوسيين والدوناتيين واتباع المذاهب الأخرى  
ليجدوا ملاذا فى صحراوات مصر الغربية وفى الصعيد . وكان وادى  
مريوط مزدحما بالسكان ، وبلغ عدد الأديرة التى بنيت هناك حدا  
دعا الامبراطور فالون Valens فى القرن الرابع ان يكلف الكونت دوريان  
d'Orient حاكم الاسكندرية ان يجرد حيلة على الرهبان الذين يجدهم  
هناك تالدين على حمل السلاح (٤) .

(٤) يقول فلورى Fleury فى كتابه ، موجز التاريخ الكنسى  
Abrégé de l'Histoire ecclésiastique . ان الامبراطور فالون Valens  
قد امر عام ٣٧٦ بان يجند الرهبان وأن يرغموا على حمل السلاح  
كجنود . وعلى الرغم من انه قد ينظر الى هذا الأمر على انه صادر عن  
حكم يضطهد الكنيسة ، الا أنه يمكن القول بأن هذه الألوف الهائلة من  
الرهبان قد جعلت مثل هذا الأمر ضروريا ، فلقد بلغ عدد الأديرة فى مصر  
العليا وحدها خمسة آلاف دير وكانت مدينة أوكسيرينشيس Oxyrynchus  
الواقعة فى الصعيد الأدنى تضم عشرة آلاف راهب وعشرين ألف راهبة  
كما كان دير التبين Tabenne الذى أنشاه القديس باخوم فى الصعيد الأعلى  
يضم خمسة عشر ألف راهب ، أما الدير الذى أنشأته أخيه والذي يقع فى  
مواجهة ديره فكان يضم أربعمائة فتاة ، وكان عدد الذين يحضرون  
الاجتماعات العامة السنوية التى تعقد تحت رياسته يصل الى خمسين

وقد بلغ عدد الذين جندوا تسرا في اتليم الجنوب حوالى خمسة آلاف رحلوا جميعا الى القسطنطينية ، حيث التحقوا بجيش الإمبراطور . أما الأديرة التي نجدها حتى اليوم في وادي بحيرات التطرون وفي المناطق الأخرى من مصر ، فليست سوى بقايا هذه الألوف من الأديرة التي كانت تنص بها فيها مضي هذه الصحراوات ، كما أن الخرائب التي عثر عليها الفرنسيون في كل مكان في جولايم الاستكشافية العسكرية التي قاموا بها في هذا الجزء الغربى من مصر ، تشهد بصحة مايقول به التاريخ عن ازدهار هذه المنطقة المهجورة اليوم بالسكان في الزمن القديم . وسنقدم هنا بعض التفاصيل باعتبارها ذات نفع .

قام اللواء فيستاق Destaing قائد منطقة الرحمانية بعد موادة الجيش من الصلة على سوريا ببعض حملات ضد العربان في شهر ترميدور من

الف راهب . وكان عدد الرهبان المقيمين في الأديرة الكبيرة وحدها في مصر يبلغ ٧٦ ألف راهب ، أما عدد الراهبات فقد بلغ حوالى المشرين الفا . ولا يتضمن هذا الرقم أعداد الرهبان والراهبات في الأديرة الصغيرة التي لا يحصيها عد ، وكان يخضع لسلطة الأب سيرابيون Sérapion بالقرى من أرمينويه Arminois عشرة آلاف راهب .

ويمكن أن نرجع سبب هذا الحيلاس لحياة الأديرة في ذلك الوقت الى نقى روح الحزبية التي مزقت الكنيسة في القرون الأولى من انشائها ، أكثر مما يمكن أن نرجعها الى الاضطهادات التي تعرضت لها الكنيسة : فقد كانت الاسكندرية مسرحا دائما لانشقاقات الدوناطيين والأريوسيين ، ذلك أن المسيحية التي انتشرت بعد المسيح في صمت وسلام ، بدأت في عهد قسطنطين ( حوالى عام ٣٣٠ م ) تنتشر بالاغراء والارهاب وقوة السلاح ، وهنا يبدأ الصليب يخضب الأرض بالدماء ، وتسبب أريوس ، اللبى المولد وزعيم الطائفة التي تحول اسمه ، وانشاس بطريك الاسكندرية ، بانتسابهما ، في قيلم حروب أهلية عديدة في هذه المدينة ، وقد استطاع أريوس ، الذى أدانته مجمع نيس عام ٣٢٥ ، والذى اعاده قسطنطين من المنفى ، أن يضم الى حزبه أكثر من ٧٠٠ فتاة من الاسكندرية ومربوط .

انظر :

L'Histoire des Bas - Empires, t. Ier, liv IV et t. III liv. XVIII

p. 262.

وكذلك :

L'Histoire de la décadence de l'Empire Romain, t. VI. p. 68.

العام السابع « أغسطس سنة ١٧٩٩ » فاخترق العظيم البحيرة الى منطقة مريوط وقال انه قد شاهد هناك عددا كبيرا من المدن والمساكن المتهدمة .

ولى شهر نيفوز من العام التاسع ( يناير ١٨٠١ ) قام فريان Friant قائد حامية الاسكندرية بحملة غسد بعض قبائل العربان ، وانفتح عجنوده حتى برج العرب ، الذى يقع على مسيرة تسع ساعات على الشاطئ الجنوبى الغربى من الاسكندرية . وكانت هذه أول مرة منذ الاحتلال الفرنسى لمصر تكتشف فيها هذه البقعة من السطح المصرى . وقد أبدى هذا القائد فى تقريره العمام من الحملة ، أسفه لأنه لم يصحب معه بعض الأشخاص من العمارين بالآثار القديمة .

وقد قام كبير مهندسى الحملة ، لوبر Lepère — وهو أخى الأكبر — صاحبه السادة ماي Faye وشابلرول Chabrol ولانكريه Lancrét وهم من مهندسى الطرق والسككلى ، قام كل هؤلاء بجولة فى اقليم رشيد والبحيرة ، كان القصد من ورائها استكشاف ترعة الاسكندرية ، التى تبدأ من الرحمانية ، حاملة مياه النيل الى المدينة ، ومن هناك رحل هؤلاء المهندسون فى الرابع من بليفوز من العام التاسع ( ٢٤ يناير ١٨٠١ ) لمساعدة الأتار الموجودة عند برج العرب . وقد سجلت نتائج هذه الجولة للاستطلاعية تحت رقم ١٠٧ من بريد مصر Courier de l'Egypte . ومنذ نزول الانجليز فى أبى قير ، قام قائد الحامية من سلاح الهجانة بعض الحملات فى هذا الجزء ، وقد أخبرنى بأنه قد مر هناك بأطلال هامة (٥) وقد تمثلت جيدا كل هذه المخطومات ، وانتهازت فرصة آخر حملة استطلاع كلف بها هذا الضابط من قبل الجنرال مينو ، لكى اتأكد من حجم المساحة التى تفرقها بحيرة ماريوتيس ( مريوط ) وإن كانت كل المنطقة قد غرقت بأكملها فى نهاية شهر بريريال من العمام التاسع ( يونية ١٨٠١ ) . وهذا ما سأحدث عنه بالمفصلة فى مقالى عن البحيرات فى مصر . وقد كان

---

(٥) نفرا فى رحلات جرائجه Les Voyages de Granger  
( ص ٢٢٢ ) انه يوجد على بعد ستة فراسخ الى الغرب من برج العرب ، برج آخر قد تحول الى أنقاض ، وقد لاحظ هذا الرحالة ( فى عام ١٧٣٠ — ١٧٣١ ) وجود كتلبات عربية على جدرانها .

الغصد من وراء هذا الإغراق الذي تم ، حصار الفرنسيين في الإسكندرية ،  
وذلك بقطع اتصالهم بفرقة الجيش الموجودة بالقاهرة .

رحلنا من الإسكندرية في السادس عشر من غلوريال من المصام  
التامع ( ٦ مايو ١٨٠١ ) ، مع قائد الحامية المسو كافالييه Cavalier  
على راسي أربعين رجلا من الهجاة ، وكان معنا أحد ضباط البحرية  
هو المسو جار Gard الذي تلقى تعليمات بأخذ مجسات في نقاط مفرقة  
من البحيرة ، وبعد مسيرة ثلاث ساعات ونصف الساعة ، وصلنا إلى  
أول جزيرتين في وادي مريوط . كانت المياه بالفعل قد تجاوزتها بكثير ،  
وكاننا في ذلك الوقت قد خصصنا للدفاع عن هذا الجزء المحصور من  
البحيرة والذي يشكل الرأس الشمالية لهذا الوادي . عبرنا إلى هاتين  
الجزيرتين في قارب من تلك القوارب التي كانت تتبعنا ، في الساعة  
الخامسة من مساء هذا اليوم ، ووجدنا أكبر عمق لمياه البحيرة الذي يبلغ  
٥٥٠ إلى ٦٠٠ قامة يبلغ عند هذه النقطة ٤٠ بوصة ، ويصدق أن نمسنا  
خيامنا بالجزيرة واصلنا في اليوم التالي إبحارنا داخل البحيرة التي وصلنا  
اليها في الوقت الذي كانت قد وصلت اليها فيه ميساه الإغراق .  
وتوغلنا لمسافة مرسخين إلى غرب الجنوب الغربي ، تتبعنا فرقة الحرس  
التي كانت تسير بخذاء الشاطئ الغربي للجزيرة . وعلى هذا البعد ،  
وكنا في حوالي الساعة الثانية من صباح السابعة عشر من غلوريال ،  
وجدنا أن عمق المياه لم يعد يتجاوز أكثر من ٧ إلى ٨ بوصات . وعندما  
فشلت قواربنا في التقدم لأبعد من ذلك ، غادرناها لكي نكمل مهمتنا  
الاستطلاعية سيرا على الأقدام . وبعد ذلك بحوالي نصف مرسخ انتهى  
المدى الذي وصلت إليه مياه الإغراق . وكانت هذه المياه تواصل حركتها  
حينها . وفي نفس الوقت واصلنا صعود الوادي حتى نتعرف على زاوية  
اتجاهها وحتى نمنح أنفسنا الوقت الكافي للملاحظة المدى والحد اللذين  
سيبلغهما الشرق في الأيام التالية .

وبعد قليل وصلنا إلى ضريح ، كانت المياه ملازال على مسيرة ثلاثة  
أرباع الساعة منه ، ويطلق على هذا الضريح اسم القبة الكبيرة ، وهو  
حسب العادة عبارة عن مقبرة لبعض شيوخ العربان ، وهؤلاء ينظرون  
اليها بتقديس كبير ، وهي تقع على بعد حوالي مئتي خطوة من شواطئ

البحيرة في شعب صغير لأحد التلال وتحيط بها أشجار النخيل التي تحيها من رياح البحر مرتفعتات هذا التل نفسه والذي يمتد بطولشاطيء البحيرة . وبعد أن عبرنا مرتفعتات هذا التل في الشمال هبطنا الى واد صغير مواز للبحيرة وللشاطيء ، ويمتد بطول البحر ابتداء من الضريح والمسافة ١٠ - ١٢ فرسخا الى الجنوب الغربي ، ويجد المرء هنا وهناك بعض جنوع النخيل وآثار خضرة وأشمارات لم تستغرق علينا تدل على وجود مياه غنية تحت رمال الصحراء . وتغلق هذا الوادي الصغير من جهة الجنوب سلسلة متصلة من المرتفعت التي تحفنا عنها والتي تشرف على بحيرة مريوط ، أما من جهة البحر « الشمال » فتحده سلسلة صغيرة من المرتفعتات الصخرية التي تماذى الساحل بأكمله ، وهي مغطاة برمل أبيض يكونه البحر ويلقى به بلا انقطاع على شواطئه ، فنبعثره الرياح أو تجمعها في شكل كتبان صغيرة متحركة . وهناك ، توجد مياه حلوة ، ولو أنها تبيل للملوحة بعض الشيء وذلك في حفرات ضحلة حفرها العريان لسقاية ماشيتهم . تتبعنا هذا الوادي من القبة الكبيرة حتى برج العرب حيث وصلنا الى هناك بعد مسيرة ثلاث ساعات .

وبرج العرب ، عمود له قاعدة مربعة تحمل جذما مثن الزوايا تطوله كطلة دائرية ضخمة على غرار عمود مبثور لم يعد يتناسب ارتفاعه مع الارتفاع الذي يفترض له من طول قطره. وهذا المبنى القائم على الشاطئ ، لا يبدو في الواقع إلا كعمود هائل معكوس بشكل جزئي . وفي الخارج ، على أحد وجوه الجزء المثلث منه ، وهو الوجه المقابل للبحر ، نجد عدة درجات لسلم لأبد أنه ينتهي الى بداية البرج على عمق حوالي عشرة أمتار تحت سطح الأرض ، وهذا المبنى الذي قام بفضه مهندسوننا فحاصبيدا ، جبد البناء ولابد أنه كان يستخدم كנקطة مراقبة بحرية شأنه شأن كل الأبراج الأخرى التي تقع بالمثل على الشواطئ قليلة الارتفاع في مصر وفي هذا الجزء من صحراواتها الغربية .

وقبل أن انتقل الى موضوع آخر ، ينبغي أن أتحدث من شيء لم ألق عليه سوى نظرة عابرة ، حيث كنت على الدوام متغللا عن رجالنا لكثرة ما كنت أتوقف لتفحص الأنقاض والمواقع ، لريد أن أتحدث من ربوة مرتفعة بعض الشيء نلاحظها على نفس السلسلة التي تفصل البحيرة

عن البحر ، فخلف هذه الريوه الواصلة على بعد ١٠٠٠ — ١٢٠٠ متر من برج العرب عند الاتجاه نحو الاسكندرية طبع انواما من النواطير وكجزءا مبنية من الحجارة ولخيرا واجهت مربعة الزوايا ومائلة لتعطي لى مجملها شكلا هرميا . وفى أسفل هذه الريوه ، يوجد قناع به انقاسى خزان جيل البياه كما توجد مناسبات لخرى . واسم كوم أبوصير (٦) الذى يطلقه العرب على هذا المكان انما هو مشتق من اسمه القديم ، تلبوزيريس ، وهى المدينة التى يحدد مكانها كل من سترابون وبطليموس . وقد سبق ان ذكرنا ذلك فيما سبق عن هذا الموقع ، وان كان موقعها هذا يتفق مع الواقع مع تلبوزيريس اخرى كلفت كما سبق ان حدد العالم الجغرافى اليونانى تقع على بعد مسافة من مدينة تحيل هذا الاسم (٧) ، والتي نظن ان موضعها كان لى نفس موقع برج العرب كما سنوضح فيما بعد .

وبمواصلة السير بحذاء الساحل الى الجنوب الغربى يجد المرء على بعد ٤٠٠ متر من البرج ، اطلال مبنى واسع مربع الشكل تحيط به جدران يبلغ ارتفاعها من ١٢ — ١٥ مترا ويبلغ طول واجهاته حوالى ٢٤ مترا . ويتجه مدخل هذا المبنى باتجاه الاسكندرية . وتطل هذا المدخل قبتان ويضم المبنى لى داخله حجرات بها بعض النوافذ الصغيرة والعالية مما لا يسمح الا بدخول تسدر كاف من الضوء وهذا يعنى بوضوح انها خلوات سرية والحجرات متينة البناء كما انها سهلة ومريحة ، وجدرانها مبنية من العجارة ولها مظهر جذاب . ويبدو للوهلة الاولى ان هذا المبنى ينتمى

---

(٦) فى رأينا ، ان اسم « ابو صير » يحتفظ بكل معنى الاسم القديم الذى كان يعنى عند الاغريق ، كما لاحظ ديودور ، مقبرة أوزيريس ، وبوزيريس التى يلفظها العرب بوصير هى الاسم الذى كان المصريون يطلقونه على الأماكن التى توجد بها مقبرة لأوزيريس . وتوجد كذلك قرية تحيل هذا الاسم غرب اطلال ممفيس عند سفح الجبال التى اتيت عندها اهرام ستارة . ويقول المترجم الخائف لهيروت المسيلارثيه Larchet فى شروحه ، ان بو باللغة المصرية تعنى مقبرة . ويضيف هذا المترجم الطامحة ان بلو تارك يخبرنا انه نقل عن اودوكس Eudoxe انه على الرغم من وجود مقابر عديدة لأوزيريس فان جسمه كان مدفونا فى بوزيريس .

(٧) انظر الوصف الخاص بمدينة تلبوزيريس القديمة والذى قدمه مسلمان جنيى Saint Genis — وصف آثار العصور القديمة ، وصف مصر .

الى البحارة المصرية . لكنه في واقع الأمر ليس سوى تقليد لها ، وهو مبنى جميل . وتدل اتفاقية أعمدته المضلعة وقبته ذات النمط القوطي التي نجدها في أطلال السور ، على أن هذا المبنى يعود تاريخه ، مثل برج العرب ، الى العصر الروماني ، وفي نفس الوقت ، نلحق نستطيع والتبين أن تنسب بنسبه الى جوستينيان الذي عمل في حوالي منتصف القرن السادس عشر - كما يذكر بروكوب Procobe - على بناء عدد كبير من المنشآت في تبوزيريس ، الواقعة - كما يقول هذا المؤرخ - على الشاطئ الإمبريقي ، على مسيرة يوم من الاسكندرية ، والتي كانت تضم كما يذكر مؤرخ لاوزيريس ، وليس ثمة شك ، في أن هذا هو المكان الذي حدد فيه هيرودت ، النقطة الغربية لقاعدة الدلتا ، والذي كانت تنام فيه الأعياد على شرف أوزيريس ، وهي الأعياد التي كانت تجذب كل عام ، أعدادا هائلة من الناس ، وبخاصة الشعب كما فكرنا ، وكما يذكر سقراطون .

وتقدر المسافة بين الاسكندرية وتبوزيريس الواقعة على الخليج البلطيني حسب جدول تيودميديوس بـ ٢٥ ألف خطوة في مقابل ٢٥٦ قامة ( ١٢٧٣ مترا و ٤٧ سم ) بالميل الروماني ، أي ما يساوي ١٨٩٠٠ متر . قامة ( ٣٦٨٣٦ مترا ) ، لكن يبدو أن هذه المسافة هي تلك التي تقع بين الاسكندرية وتبوزيريس التي كانت توجد كما سبق القول ، عند كوم أبي منير ، والتي عثرنا على خرائبها على بعد ١٠٠٠ ر إلى ٢٠٠٠ متر ، الى الشمال الشرقي نحو الاسكندرية ، ونحن نقدر المسافة بين اطلال تبوزيريس ، التي تقع على الخليج البلطيني ( ويسمى حاليا خليج العرب ) بمسيرة تسع ساعات ونصف الساعة ، أي أنها ، اذا قلنا مسيرة القوائم بـ ٤٠٠٠ متر في الساعة الواحدة ، حسب ملاحظتنا في مصر ، تساوي ٢٨٠٠٠ متر .

وفيما بين برج العرب ، والمبنى الذي انتهينا من الحديث عنه ، ترتفع سلسلة من الجبال تخترقها محاجر أدى استغلالها الى انشاء المباني والمدن التي ذكرناها ، وقد حفرت بعض هذه المحاجر وانصلطت على شكل مقارنات . ويمكن أن يبلغ عرض الساحل في هذه النقطة ابتداء من حافة البحر حتى حافة وادي مريوط والذي يبدو كما لو كان حوضا للبحيرة ، من ١٠٠٠ الى ١٢٠٠ متر ، ويلاحظ في حوض هذا الوادي

ننوات أو ستود صغيرة تعترضه وهى التى عملت على تسهيل الاتصال بين الساحل وبين كل البلاد فى الجنوب . وتخترق هذه القنوات بعض الجسور الصغيرة المخصصة لتصريف مياه المطر فى الشتاء . وتتوقف المياه المنسربة من بحيرة مريوط على بعد حوالى الألف متر الى الشمال الشرقى حسب تقرير المسيو لوجنتى ، ذلك الضابط المهندس الذى قام بالاستطلاعات الأخيرة فى هذه المنطقة . وفى نفس الوقت ينبغى أن يكون من المؤكد - بحسب حالة هذه الأماكن - أن مياه البحيرة قد تتجاوز كثيرا هذه السدود فى الجنوب الغربى حيث كان النيل غيما مضى يصب مياهه فى هذه البحيرة مما أدى الى اتساع مساحتها الى حد كبير كما لاحظ سترابون .

وعلى بعد بضعة ميريترات « الميريتر = ١٠٠٠ متر » يظل يحتفظ الشاطئ الذى يتبع على الدوام اتجاه غرب جنوب الغرب بنفس طبيعته ، بنفس تكوينه من الحجر الجيرى والرملى الشديد البياض .

أما عن الوادى الثانى الذى سبق أن تحدثنا عنه والذي تفضى زاوية اتجاهه موازية للشاطئ ولوادى مريوط الكبير فإنه يصبح ابتداء من برج العرب جزءا سهليا محصورا ينظم اتساعه على نحو كبير بين ٢٠٠ و ٢٠٠ متر حتى ليبدو وكأنه ثمة حفرتها يد الإنسان . وتنبو الخفرة هناك بوفرة متصلة فى شجيرات ونباتات بحرية . وقد سرنا فى هذا الوادى لمدة ثلاث ساعات متصلة ، وعند بلوغنا القمة التى يقود إليها الطريق لم نر سوى امتداد لنفس هذا المنظر . وعندما عيلت على حفر حفرة فى هذا الجزء من الشاطئ استخرجت رمال كبيرة الحجم وشديدة الرطوبة ، وعلى عمق قدم واحدة فقط ظهرت مياه ملحية الطعم مما يؤكد أن الأرض فى هذا الوادى الصغير أدنى من مستوى سطح البحر . وقد نصبنا خيلنا فى هذا المكان الذى شكل بالنسبة لنا بلجا آمينا يسمل الدفاع منه إذا ماحدثت أية مفاجأة لنا من جانب العربان

وفى اليوم التالى ، الثامن عشر من فلوريال . عبرنا الى جنوب وادى مريوط الكبير . الذى يبلغ اتساعه مابين ١٠٠ و ١٢٠٠ متره ووجدت نفس الشكل الذى سبق أن وجدته عند برج الغرب ، شكل السهل الواحد ، المكون من رمال كبيرة الحجم ، وإن كانت أقل طينيه ، وتغطيه



بعض التبتات ، ومن أعلى سلسلة المرتفعات التي تحد هذا الوادي الكبير ، والتي تمتد بطوله من الجنوب الغربي وحتى الشمال الشرقي ، لحنا راسا يبدو أنها تشكل نهاية للخليج البلتيني القديم ، من جهة الغرب ، في الوقت الذي تشكل فيه نهائيه من جهة الشمال الشرقي رأس شرسونيوس والتي تسمى اليوم بالفريخ أو الشيخ . ومن هذه النقطة ، لحث كذلك سلسلة أخرى من الجبال تتجه نحو الجنوب الغربي لتنتهي بنفس هذه الرأس . وينبغي أن نستنتج أن هذه السلسلة ، تنتهي إلى السلسلتين من الجبال ، اللتين تشكلان حوض البحر بلا ماء .

لم يبقَ فائد الحملة ، المسيو كافييه ، الذي كان يشترك في نفس اهتمامي أن ينهي استطلاعاتي التي كانت قد تجاوزت الغرض من استطلاعاته هو ، وأن كان قد رفض أن نمشي لأبعد من ذلك يمثل هذه الحراسة الضعيفة وفي هذه المنطقة من الصحراء التي يتجول فيها عديد من قبائل العريان . نزلنا إلى السهل وسرعان ما صعدنا إلى الشمال الشرقي محاذين سلسلة جبال مريوط . وقد دلفنا الخضرة الوئسرة . والآثار التي خلفتها الماشية أثناء في منطقة يتردد عليها العريان الرحل . واستولى رجلانا على ٦٠ من المعجول والأبقار والخراف التي فر حراسها ، وقد شاهدنا بعض العريان يهربون عدوا نحو أماكن غير مكتشفة تشكل لهم ولا شك خطوط الرجعة إذ أننا حين تبصناهم وجدناهم اختلوا نجاة .

وبعد قليل ، وجدنا أطلال مدينة صغيرة ، وبين الانقراض والأحجار وجدنا بعض خزائن المياه والكثير من الآبار المبنية المصنوعة بها ، وثمة جداول مرصومة تتجمع فيها مياه الأمطار وتحملها بفعل انحناءات محسوسة في نفس الانحناءات الموضوعة نحو هذه الآثار . وبعد أن استقرحنا بعض الشيء في هذا المكان توفقتنا مياهه لموجدناها طيبة مملأنا منها قربنا . وقد مرت الماشية التي استولينا عليها من العريان بهذا المكان دون أن تشرب ، ومن هنا نفهم بالطبع أن المياه لا تنقصها .

وبعد مسيرة نصف الساعة إلى الشمال الشرقي ، وعلى مسافة ٨٠٠ — ٩٠٠ خطوة من سطح سلسلة الجبال التي سرنا بحذاءها وعن شمالها وجدنا ، بقايا مدينة أخرى صغيرة ، لإبد أن مبقها كانت على قدر من الفخامة ، وشاهدنا هناك أطلال منشآت جميلة من الحجر . ومن الطوب

الأحمر وإبراجا وأرسله تحته وخزانات مياه .. ومواصلة مسيرنا في نفس الاتجاه وجدنا بعد ثلاثة أرباع الساعة خرائب هائلة لمدينة ثلاثية تلتفت على مساحة واسعة اكوارم من الحجارة الضخمة والمكتسبة بشكل مضطرب ينتج عن حال مدينة ظلت رأسا على عقب وأخيرا وعلى بعد مسافة مشابهة وخلال سيرنا الى الأمام ، عثرنا على خرائب جديدة لمدينة رائعة . وينبئ أن نلاحظ أن المسافات التي حسبناها ، هنا بالزمن ، إنما قد حسبت بحسب المسير السريع للجمال .

ونظن أن بإمكاننا أن ننسب الى خرائب المدن الأربع ، الكبيرة منها والصغيرة ، والواضحة في اتساع يقل عن أربعة فراسخ أسماء المدن والقرى المبينة بجدول بطليموس بحسب الموقع الخاص بكل منها وهي كما يلي بالثلاثين بأكثرها بعداً : كوى ، أنتيليلى ، هيراكس ، نوموثيس .

وكل هذا الجزء من الصحراء تكسوه الخضرة والأشجار . ويبدو أن تربتها الغنية للزراعة تحتوي على رمل أثل وطن صالح للزراعة أكثر مما تحتوي سهول البحيرة . وعند صعودنا الى الشمال عبرنا من جديد سلسلة الجبال التي تشرع على جنوب منطقة مريوط ، وعند قممتها لحنا على بعد حوالى الفرسخ الى الجنوب الغربى برج العرب . ويكفى هذا لتحديد الموقع الجغرافى بدقة كاملة لخرائب المدن والقرى الأربع التي تحدثنا عنها عند اتجاهنا من جديد نحو الجنوب الغربى .

كان المسير كافاليه تقلد الحملة يجد في البحث عن خرائب أكثر إثارة سبق له أن زارها ويريد أن يرى أياها . وتوجد هذه الخرائب على الشاطئ الجنوبي لبحيرة ماريوتيس « مريوط » تجاه ضريح أبى الخير الواقع على حافة الشاطئ المقابل والذي سبق أن زرناه منذ يومين ، وهي عبارة عن انتقال سور مزدوج لمدينة حصينة يبلغ ارتفاعه مترا أو مترين فقط وتطوه أبراج ، وينتهى في شماله الشرقى برصيف متقدم داخل البحيرة . ولا يمكن أن يتطرق إلينا الشك للحظة واحدة في أن هذه الخرائب الهائلة والتي تقع على بعد حوالى ٢٠ ألفا من الأمتار الى جنوب الجنوب الغربى للاسكندرية ، ليست سوى أطلال مدينة ماريا ، العاصمة القديمة لأقليم المريوطية .

وتبل أن أمضى لأبعد من ذلك ، سأحدث عن مبنى هام يقع بأكمله تقريباً وسط حوض البحيرة على مسافة ١٢٠٠ — ١٥٠٠ متر إلى الجنوب الغربي من مدينة ماريا ، ومع ذلك فليس بمقدورى أن أقدم عنه إلا مقاييس جزائية إذ كان على — وقد أصبحت وحيداً بعد أن تمت زيارة بعض الجزر والفرائث الأخرى بالبحيرة — أن أسرع للحاق بالفرقة التى أصبحت بعيداً عنها والتى كانت فى هذه اللحظة قد وصلت إلى ماريا ، لهذا لم أستطع أن أتوقف طويلاً عند هذا المبنى الهام على الرغم من أننى جئته دون قصد منى ، ذلك أن القارب الذى كنت أركبه قد ساقنى نجاة بينما هو يصارع سهل البحيرة الرطب وانزلق إلى هذا المكان .

وهذا المبنى عبارة عن سور مستطيل الشكل يبدو أن طول واجهته الكبيرتين يبلغ ٥٠ — ٦٠ متراً بينما يبلغ عرض الواجهتين الصغيرتين من ٢٠ إلى ٢٥ متراً . وجدرانها مبنية بحقق شديد وعلى هيئة مراقيء ماريا التى لم أكن بعد قد زرتها والتى توجهت إليها للحاق بالمسيو كاتالييه الذى كان ينتظرنى هناك . ويبلغ سمك هذه الجدران من ٣ — ٤ أمتار ويبلغ ارتفاعها نفس الطول عند قياسه من فوق التربة الخارجية باعتبارها فراغاً خالياً . وكان الموقع المنزول لهذا المبنى الواقع فى الحوض الجانـبـي لبحيرة مريوط والذى لم تكن مياه الاغراق تبعد عنه فى ذلك اليوم بأكثر من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ متر ، وكانت الفتحة الوحيدة التى لمحتها فيه توجد نحو البحيرة من عرضها ٠٠ كان كل هذا يجعلنى أظن بأن هذا المبنى لا يمكن أن ينشأ فى هذا الجزء الذى يمكن مياه البحيرة أن تفرقه إلا لى يستخدم فى بناء أو ترقيم أو تلفطة سفن شراعية حربية وبوارج وأنه كان من الممكن أن يفتح أو يخلق حسب الحاجة للثمة بالمياه أو لتجفيفه هو والمباني التى بداخله منها ، ومن الصعب أن نستنتج غاية أخرى للأفادة من مثل هذا المبنى الذى يبدو ترسانة لبناء السفن فى طولون ، وروشيل ، وبريست فى فرنسا ، وفى بعض الموانئ الكبرى فى أوروبا ، مجرد محاولة للاقتراب من عظمته .

وبعد أن زرنا موقع ماريا عبرنا البحيرة متجهين إلى الشمال الغربى نحو ضريح أبى الخير الواقع فى الجهة المقابلة كما سبق أن قلنا ، وقد عبرناها بواسطة طريق صغير مرصوف ، ثم ينأوه فى هذه الجهة كما

تم بنسائه غيره في نقله أخرى على يد العربان حتى يحصلوا على طرق  
ميسورة لكي يتوهموا بجولاتهم عبر سهول هذه البحيرة القديمة ، الطينية  
والرطبة .

كانت مياه الاغراق قد وصلت بالفعل الى علو يبلغ ١٠ - ١٢ بوصة  
على الاكثر وذلك عند النقطة الاولى من هذا الطريق الذي يبلغ طوله  
- وهو قليل التعاريف - حوالي ١٤٢٠ خطوة من شاطئ آخر من شواطئ  
البحيرة أي ما يبلغ ٥٨٠ قامة اذا ما حسبنا خطوة كل من الجنديين اللذين  
ارسلتهما الى هناك لاجراء هذا القياس باعتبار قديمين ونصف القدم للخطوة  
الواحدة وكانت مياه البحر تتقدم حثيثا نحو برج الصرب الى الجنوب  
العربي . ويمكننا تصور أن هذه المنطقة يمكن أن تصبح نقطة الاتصال بين  
الاسكندرية وغزوة الجيش التي لا تزال تحتل الرحمانية وبالتالي مع بقية  
الجيش في القاهرة . تلك كانت نقطة هامة وثمينة قد حصلنا عليها ويمكننا  
تقديمها الى القائد في الاسكندرية ، فلقد كانت هذه هي الهدف من  
استطلاعنا .

ولذا ، ملكي نتأكد من الارتفاع المحتمل للمياه في هذه المنطقة ، في  
حالة الاغراق الكامل للبحيرة ، فقد تمت بعمل تقنين ( أي تعيين الارتفاع  
النسبي لمختلف اجزاء الأرض ) ابتداء من البحيرة وحتى البحر ، مروراً  
بالضريح ، وكذلك فوق جزء منخفض من الجبل الذي يفصل بينهما ، وارسلنا  
لهذا الغرض من يقوم بقياس مقسوب المياه في الجزر الاولى التي تحدثنا  
عنها ، والتي كما نقوم عنده بتقويتها . وفي اليوم التالي ، تمت بعمل هذا  
التقنين أولاً من البحر الى البحيرة ، لكي نحصل على تقدير مؤكد . واليكم  
ما حصلت عليه من نتائج :

في التاسع عشر من فلوريال من العام التاسع ( ٩ مايو ١٨٠١ ) ،  
كانت مياه البحيرة تنخفض عن مستوى مياه البحر بنحو ١٠ لفة ، ١ بوصة ،  
٢ قدم ، ومن جهة أخرى ، بلغ ارتفاع المياه في الجزء الاكثر انخفاضاً من  
الطريق المرسوف الذي يعبر البحيرة ، في نفس اليوم ٨ بوصة ، اقدم ،  
ويؤكد هذان التقديران ، أن عمق المياه في هذا الجزء من البحيرة ينبغي  
أن يصل الى ١٠ لفة ، ٢ بوصة ، ٤ قدم ، بل ويمكننا ان نصل بهذا

العمق الى خمسة اقدم ، بسبب اندفاع المياه نحو هذا الطرف من البحيرة ،  
وبسبب اختلاف المتوسطات في مياه البحر الواطئة (٨) .

وتبلغ مسافة الأرض المحفورة من الشتلان ، من البحيرة الى البحر  
حوالى ٣٥٢٠ خطوة او ١٥٦٧ قامة حسب تقديرنا السابق للخطوة ، لكن  
هذه المسافة تشتمل على ارتفاع وانخفاض الجبل وهو الأمر الذى يستوجب  
منا ان نزيد هذا التقدير بحوالى العشر . وقد جعلنا هذا التدوين نتوصل  
الى ان النقطة الأكثر ارتفاعا من سلسلة الجبال التى تشرف على البحيرة  
والبحر كما قلنا تصل الى ٦٠ قدما فوق مستوى سطح البحر ، وان أدنى  
نقطة في الوادى الصغير المتاخم والواضى للشاطئ تصل الى ١٠ اقدم  
فوق منسوب البحر .

ومن ذلك نستنتج ان المياه المالحة بعض الشيء ، والتى هي برغم  
ذلك مالحة للاستعمال ، والتى نجدها على عمق ٢ الى ٣ اقدم الى كل  
اتحاء هذا الوادى المنقير ، الممتد حتى برج العرب ، حيث يحصل من  
طبيعته ، ليتخذ مستوى أدنى ، يبلغ مستوى منسوبها هي الأخرى من ٧  
الى ٨ اقدم ، أعلى من مستوى سطح البحر .

وأضيف الى هذه التفاصيل ان قائد الحملة المسيو كافالييه وكذلك  
ضبط البحرية المسيو جاز قد أسعدهما ان مناظر الارتفاع قللت تعمل  
طيلة النهار الذى استغرقته هذه العملية الدقيقة التى زاد من صعوبتها ،  
وبالذات من ناحية الرؤية ، كثرة الوتفت والراحل وشدة الحرارة والفتوح

(٨) قلت من قبل ، انه في اليوم السابق على عبورتنا للبحيرة تجاه  
ضريح أبى الخير ، كانت مياه الاغراق قد بلغت بالفعل ارتفاعا قدره ١٠  
— ١٢ بوصة عند أدنى نقطة من الطريق المرسوف ، وعندما ثبت علامة  
على الشاطئ الشمالى للبحيرة في هذا اليوم ١٨ غلوريال وجدت في اليوم  
التالى ١٩ منه زيادة في ارتفاع المياه قدرها ٨ بوصسات في مدى أربع  
وعشرين ساعة ، مما جعلنى أقدر هنا ارتفاع المياه فوق أدنى نقطة من  
الطريق المرسوف بـ ٢٠ بوصة .

الشديد في طبقات الجو فوق رمال الصحراء (٩) .

وكنت قد لاحظت خلال الأربع والعشرين ساعة التي أمضيها عند ضريح أبى الخير ، أن مياه الأغراق التي كانت قد امتلأت بالفعل الى بعد نصف فرسخ ، الى الجنوب الغربى من ماريا ، نحو برج العرب ، قد ارتفعت في هذه النقطة الى ٤ لنية ، ٨ بوصة ، وعند عودتنا من الاسكندرية ، وجدنا ان العمق عند الجزر الصغيرة التي قمنا بتحصينها ، والتي أجرينا عندها أولى ملاحظتنا منذ أربعة أيام ، قد أصبح ٧ بوصة . ان ، فقد بلغ الأغراق هناك غيبا بين ١٦ ، ٢٠ من غلوريال حوالى ٦ بوصة ، ٨ قدم ، ولقد سبق لنا القول بأن هذا العمق لم يكن يبلغ في السلكس عشر من غلوريال الا حوالى ٤ بوصة . واختتم هذه البيانات ، بأن هذا العمق ينبئ أن يكون قد بلغ اليوم ١٠ أقدام ، في هذا الجزء من البحيرة ، وخمسة عند قمة ماريا .

(٩) قلة فقط من الفرنسيين الذين اتفوا في الاسكندرية هم الذين لم يكن يعتقدوهم أن يلاحظوا أثر انكسار الأشعة على هذه المنطقة من سواحل مصر ، وعندما تروى في هذه المدينة نحو برج العرب هناك تلاحظ على الدوام قوما من البخار يرتفع من الأرض والبحر ، مشكلا درجات محسوسة جدا للونين متمايزين ، لون يميل الى الشقرة ولون يميل الى الزرقة : وهذا ناتج عن انكسار أشعة الشمس في الطبقات الدنيا من الجو عند الأفق ، وترسم هذه الأشعة الملونة وتشكل أمام البصر بشكل واضح هذه الألوان ، التي تعود الى تأثير انكسار الأشعة فوق رمال الصحراء ومياه البحر .

وبعد متاعب ذلك اليوم ذبح جنوبنا في المساء ، وفي خيمتنا ، عند الضريح ، ووسط القطيع الذى استولوا عليه ثورا باطلاق رصاص البندقية عليه من على بعد خمس عشرة خطوة ، وبلى الحيوان الذى أصيب في منتصف جبهته لحظة بلا حراك ، ثم تروح وسقط . أن العبور من الحياة الى الموت ليس سوى وميض ، وأحاط بالحيوان للحظة كل ثيران القطيع ثم أطلقوا جميعا خوارا طويلا ، أخذ بعده البعض منهم في الابتعاد ، والبعض الآخر في الهرب ، وقد أصابهم ذهول مبيق . ولقد تكررني هذه الملاحظة التي هزنتى ، وأرجو ألا يعتبر البعض تكوين ذلك أمرا لأجدوى من ورائه ، بهذا البيت الجميل لفرجيل :

وارتجف الثور بفعل الضربة ، وترنح ، ثم سقط

وقد جاء تذكرى لهذا البيت طبيعيا ، لأن الصورة التي رسمها الشاعر اللاتيني صحيحة وحقه . وقد قام بترجيته ترجمة أمينة الميسو ديليل Delli في ألبادته الفرنسية .

تحركنا من هذه الجزر الصغيرة متوجهين الى الشمال الغربى نحو الضريح عابرين سلسلة الجبال حيث توجد محاجر واسعة لابد انها قد استغلت فى بناء الاسكندرية . ويتكون الشاطئ فى كل هذه المنطقة من تربة حجرية ورملية تسير فيها الجبال بشقة بالفة . فى هذه المنطقة ، والى الغرب من هذا الضريح نزل الجيش الفرنسى ، اول يولية ١٧٩٨ « . ومن منطقة الضريح توجهنا الى الاسكندرية حيث دخلناها « ١٠ مايو ١٨٠١ » وهو اليوم الخامس لمغادرتنا هذه المدينة .

وفى يوم ٢٣ التالى تمت بتفدين آخر عند قطع فى الساحل يبدو انه كان ترعة قديمة تصل بين خليج الاسكندرية والبحيرة على مسافة ٥٨٥٠ مترا الى الجنوب الغربى للعمود .

ويمكننا ان نرى هناك آثار مجرى هذه الترعة القديمة التى لايجاوزا متوسط ارتفاع الجزء الثانى منها ٤ اقدام فوق مستوى البحر ، كمالاحظ انها لا تتطلب الا جهدا ضئيلا لكى يعود عن طريقها الاتصال القديم بين مينائى الاسكندرية وموانئ مريوتيس . وقد لاحظت كذلك ان مياه البحيرة فى الفترة التى تمت فيها بهذه العملية كانت قد ارتفعت الى حوالى ٣ اقدام و١١ بوصة ٣ شرطت ذلك ان قياس الارتفاع الأخير قد اخذ بالنسبة لمستوى مياه البحيرة لكى نحصل على مستوى مياه البحر ، وقد ظلت تزايد الأطوال التى تقدمها المجسات التى اقلبتها فى البحيرة باتجاه هذه الترعة القديمة التى بلغت من ٨ اقدام من المياه الى ٥٠٠ قامة .

وفى الثامن والعشرين من هذا الشهر ، تراوحت الأطوال التى اعطتها المجسات ، بين ١١ قدما و ٧٠٠ الى ٨٠٠ قامة ، بحيث ينبغى ان تملأ المياه عند اقصى درجات الافراق من ١٥ الى ١٧ قدما .

وفى يوم ٢ من بريريل التالى ، حصلنا بالمثل على ٧ - ٨ اقدام من المياه ، فى المسافة بين الجزر الصغيرة المحصنة على الشاطئ والجنوبى للبحيرة من نفس النقطة التى تمنا بقياسها منها ، يومى ١٦ و ٢٠ من فلوريل .

لم أشأ ان اتحدث عن عدد من الخرائب الأخرى ، كبيرة كانت أم صغيرة وجدها فى كل مكان وبخاصة على الشواطئ الجنوبية للبحيرة ،

نيكينا من هذه الجولة الاستطلاعية أنها جعلتنا نسير على موقع سبع مدن أو قرى هامة نعتقد أنها تنتمي الى مدينتين باسم تابوزيريس ، واحدة منهما تقع على الشاطئ والآخرى تقع بالداخل ثم مدن وقرى كوي ، وانتيفلي ، وهيراكس ، ونوموثيس واخيرا مدينة ماريا عاصمة هذا الاقليم والتي تقع على شاطئ بحيرة تحمل اسمها .

وقد جعلتنا هذه الجولة ندرك أن كل الشاطئ وكل داخل هذه الصحراء التي تغطيها الخرائب والتي تهرج فيها قبائل عديدة من العرب الرحل والرعاة قد ظلت على الدوام صالحة للسكنى ، بحيث يمكننا أن ننزع أى ظل من شك قد يحيط بشهادة المؤرخين الذين يقولون بأن هذه المنطقة كانت فيما مضى منطقة زراعية مزدهرة وأهلة بالسكان . ونرى فى النهاية أنه يكفى لكى تعود هذه المناطق الى حالتها القديمة ان يصاد حفر الترع المتفرعة عن النيل والتي كانت تجلب اليها كل عام مصادر انخسوبة .

أما بخصوص مختلف القبائل العربية التي يبدو أنها وضعت يدها على المنطقة فإنه ينبغي على حكام مصر أن يتركوا لها حرية استغلالها شريطة أن يصبحوا مزارعين مسالمين ، والا فعلى هؤلاء الحكام أن يجلوهم عنها بقوة السلاح .

أما القبائل العربية التي تجوب صحاروات مريوط ، والتي تقوم بغاراتها حتى وسط اقليم البحيرة ، فهى قبائل الجومات والطزوات ، بنى عون ، الجوابى ، الهنادى ، اولاد على (١٠) ، ويزرع عربان القبائل الثلاثة الاولى بعض أجزاء من اقليم البحيرة ، وهى الأجزاء المتاخمة للصحراء . وقد استقر عرب بنى أونوس فى قريتي جوامى والحوش حيث يزرعون الشعير . ولكى نعمل على توطين هؤلاء نهائيا هناك فلا

---

(١٠) حصلت على جزء من هذه المعلومات عن طريق المسير شابلول Chabrol الذى قام ببحث واسع حول مختلف القبائل العربية التي تجوب هذه الصحاروات ، ومهما تكن هذه اللوحة سريعة ، فمن الأفضل أن نورد هنا ، ذلك أن المسير شابلول قد أخبرنى بأنه يخشى أن يكون قد فقد المادة التي جمعها حول هذا الموضوع .

( جراتين لويير )



ينبغي ان نسلك معهم مسلك العنف والتمسر بقدر ما ينبغي ان نخلع عليهم حمايتنا ضد القبائل التي تنف منهم موقف العداء ، فلقد أصبح هؤلاء يصطنعون شيئا فشيئا عادات الفلاحين وتقاليدهم ، ويبدو انهم مؤهلون لكي يصبحوا مزارعين .

وفي الوقت نفسه ، فمن الميسور ان يترك عربان الهنأى حياة الترحال ، وينبغي على حكاه مصر ، حتى ييلفوا بهم هذه الحال ان ينتزعوا منهم ، عن طريق هجمات خاطفة ماشيتهم ، ويخلصه خيولهم ، ذلك انهم سيصبحون مضطرين للاستقرار وممارسة الزراعة ، اذا ملحموا من وسائل الهرب السريعة وهو الأمر الذي سيحد من غاراتهم وانتهاكاتهم . وينبغي حتى نرغمهم على ذلك ان نستولى على الجيوب التي يحصونها من بعض المناطق التي تساعد مياه الأمطار على زراعتها ، وذلك قبل ان يقوموا بحصادها وفي النهاية فإن وطاة العوز : عندما يصبح هؤلاء محرومين من كل مصدر دخل — ستضطرهم الى اللجوء الى طلب عون الحكومة وحمايتها .

ان هذه الوسائل التي عدناها باعتبارها اساليب يمكن اللجوء اليها ضد بعض قبائل العربان هذه ، لتتناسب عموما مع نوع الحرب التي ينبغي دعمها ضد كل القبائل التي تخرب وتروع حدود مصر ، والتي يمكن ان يبلغ تعداد محاربيها مجتمعين كما يقول الجنرال رينيه Reynier في كتاب « الأوضاع في مصر » Situation de l'Egypte من ٣٠٠٠ الى ٤٠٠٠ فارس ، هذا ان لم تفرق المصالح فيها بينهم ، وتجرحهم الى حالة من الحرب المستمرة بينهم وبين بعضهم البعض .

ويشكل عربان اولاد على بشكل دائم ، حين يراد حماية مصر من غاراتهم عقبات اكبر من تلك التي تشكلها القبائل العربية الاخرى ، فهؤلاء العربان ياتون كل عام لقضاء عدة شهور على الحدود الغربية لمصر ويعيشون في حالة حرب دائمة مع بقية القبائل . ولقد جعلت منهم الاتاوات التي يحصلونها والمصادر التي يحصلون عليها اثناء رحلاتهم الطويلة في الصحراء الممتدة بحذاء سواحل البحر في غرب مصر ، بالاضافة الى ما يحصلون عليه من مكاسب من ماشيتهم وما يستحوذون عليه بفعل القوة ، كل هذا جعل منهم اعداء لشدهاء يخشى بأسهم بالنسبة لولايات مصر الغربية ، حيث

يقتررون دائما في موسم الحصاد السنوى كى يقوموا بالانتهلب والسلب  
ولكى يبنوا الرعب والاحزان في هذا الوقت من العام . لذلك ينبغي أن  
تخصص قوة متحركة ، كحلك التى يملكونها هم ، لكى يمكن اتقاء شرهم،  
ويمكن أن يقوم سلاح الهجئة الذى انشاء قائد الجيش الفرنسى في مصر  
بهذه المهمة المرجوة ، والتى لابد أن تصبح الشغل الشاغل لاهتمام الحكومة  
الام ، بخصوص هذه المنطقة القديمة والبغمة .

الدراسة النقدية :

## رحلة الى وادي النطرون

الجنرال اندريه

العنوان الاصلى للدراسة هو :

دراسة موجزة عن وادي بهيرات  
القطرون وعن النهر بلا ماء ، حسب  
المعلومات التى حصلنا عليها من جولة  
استكشافية تمت فى ٨٧٤٦،٥٤٤ بليغوز  
من الصام السابع ، ( ١٢٣،٢٤،٢٥  
٢٧،٢٦ من يناير ١٧٩٩ ) .

( المترجم )



يكاد لا يعرف الناس عادة من كل أرض (١) مصر ، الا وادياها الذى يرويه النهر ، ومع ذلك ، فهناك من الاعتبارات الجغرافية والحكايات التى يرويها مؤرخون قدامى ورحالة محدثون ، ما ينفج على الاعتقاد بان مياه النيل كانت قد انتحمت فى ازمة ضارية فى القدم ، أعماق صحراوات مصر الغربية ، وأنها قد تركت هناك أثرا لجراها .

واذا صح أن ملوك مصر القدامى قد أمكهم — كما يدعى هيروت — دفع النيل واحتواءه فى حوضه الحالى ، عن طريق قيامهم بأعمال هائلة ، فلا بد أن يعد هذا العمل من جانبهم ، واحدا من تلك الأمور العظيمة التى يمكن لذاكرة البشر أن تحتفظ بها .

ان البحث فى هذا المجرى الإبتدائى للنيل ، ينبغى أن يلتقى الضوء على الجغرافيا الفيزيائية لمصر ، وعلى تلك الأعمال التى بذلت كى تصبح أرضها خصبة ، كما لابد أن يفهى بنا الى الطريق الواجب اتباعها لاصلاح نواحي الخلل ، التى أحدثتها حقبات الأزمان ، وادت الى تراكبها ، الهجية والجهل فوق أرض محرومة من مزايا الأمطار ، لن يكون لها من مصر فى غيبة الفيضانات او وسائل الري الصناعى سوى القحولة والمعدم .

ويشير الجغرافيون لهذا المجرى القديم للنيل باسم « بحر بلا ماء » ويسميه أهالى البلاد باسم « البحر الفارغ » . ومن المعروف أن هذا المجرى لا يبعد كثيرا عن بحيرات النطرون التى بدىء فى استغلالها من جديد منذ حوالى خمسة عشر عاما ، والتي يشتد الطلب على منتجاتها فى مجالات صناعية عديدة فى فرنسا . ومن المعروف كذلك أنه يوجد بالقرب منه اديرة ومغارات لرجال الدين الأقباط ، انشئت فى القرن الرابع الميلادى أى فى ذلك الوقت الذى انتخب فيه الى أعماق صحراوات الغرب ، وبشمل الوله بحياة الأديرة ، رجال يتقنون حبة وحياسة لحياتهم أو آخرون هيابون

---

(١) سبق أن نشرت هذه الدراسة فى *Décade égyptienne* دورية تصدر كل عشرة أيام ) التى كانت تطبع فى القاهرة .

أثروا السلامة لميتعمدوا. عن الغير ، وإن كانوا قد ظلوا مرغبين بفعل احتياجاتهم على الاقتراب من هذا الغير ، سميا وراء استقارة شفتتهم أو تأجيج ايمن ساذج لديهم .

ولقد كان بما يثير فضولنا ، وهو في نفس الوقت أمر مفيد لاعتبارات عدة أن نتعرف على ذلك الجزء من أرض مصر الذي انتبهنا من الحديث عنه. ومن أجل تقدير كل الأمور التي يمكن أن تفيد منها كل من الجيولوجيا وضروب الصناعة المختلفة فلقد دعا لاعداد هذا البحث السادة برتوليه Bertholet وفورييه Fourier وريدوتيه Redouté الشاب (٢) .

ولقد كان لدى أنا الأمر ، أثناء تيملي ببعض العمليات العسكرية ، بأن أحمي أبحاثهم في مناطق تتعرض على الدوام لغارات العربان الرحل، الذين يأتون أحيانا من الصعيد وأحيانا أخرى من اطراف إقليم البحيرة ، الى مشارف هذه الصحراوات لسلب بل ولاغتيل هذا المزارع المسالم، والفلاح البائس . ولقد تجمعنا هناك لكي نحاول جميع كل الملاحظات التي تبدو لنا على درجة من الاهمية وسأقدم في هذا الموجز عرضا لتفاصيل الرحلة ، تاركا للمسيو برتوليه مهمة أن يقدم بنفسه نتيجة التجارب الهامة التي قام بها ، لكي يتعرف على طبيعة المادة ، وسوف تكون هذه النتائج ذات فائدة قصوى ، بمجرد أن يبين لنا المجالات التي يمكن استغلالها فيها.

---

(٢) فنان ماهر في رسم اللوحات والحيوانات ، وبخامسة الأسماك الملونة ، كما الحق باللجنة المسيو ديشانوى Duchanoy والمسيو رينو Regnault ، تلميذ برتوليه .

## الفصل الأول

### عن وادى القطرون

رحلنا من الطرانة فى ٢٤ يناير « الساعة الثانية صباحا ، وبعد مسيرة أربع عشرة ساعة لحنا الوادى الذى توجد به بحيرات النطرون .

#### الحالة الطبوغرافية :

يفصل وادى النطرون عن وادى النيل هضبة مسيحة ، يتدرج سطحها ببطء وتوازى النيل على الدوام ، ويبلغ عرض هذه الهضبة التى تظل على الدوام ، تقريبا محافظة على نفس مستواها ، ثلاثين ميلا ، وتغطى أرضها المتينة والصلبة بالحمى من مختلف الأحجام ، وبزلط صغير مستدير يتلون بألوان مختلفة . وبعض الزلط المختلط بالمعقيق .

وقد دلت الرياح القوية القادمة من جهة الغرب ، الى الجهة الأخرى من التلال التى تحف بالنيل ، وكذلك الى داخل الوادى ، كل الرمال المتحركة ، ويبعد الحجر الجيرى فى بعض المناطق على سطح الأرض . وفيما عدا ذلك ، فإن المرء لا يلمح فى هذه المنحراء التى تد يظن المرء بأن الطبيعة قد تركتها نمسا نمسا ، إلا ثلاثة أو أربعة أنواع من النباتات الضعيفة والصغيرة والمبعثرة للفضاية ، مثل نبات الشوكية (٣) *Nitraria* والبنج البنفسجى (٤) أو « الداتورة » .

وسواء يكون من العسير أن يستطيع أى كائن حي أن يجد ما يعيش عليه ، فوق أرض على مثل هذه الدرجة من القحولة ، وفى نفس الوقت

(3) *Nitraria Schoberi*, Lin.

(4) *Ayoscyamus daturas* Fors.

فلما لم نجد هناك سوى نوع واحد من الحشرات ، ليس من هذا النوع من الأنواع الشائعة ، ويطلق عليه اسم *mente obocure* ، والصفة التي تحملها هذه الحشرة ، « صفة العتمة » ، تبائل تماماً حالة العزلة التي تحياها ، في أعماق مثل هذه الصحراوات .

وعند الرحيل من الطرانة ، يتخذ الطريق اتجاهه في البداية من الشرق إلى الغرب . وقبل الوصول إلى النطرون بحوالى الساعتين ، وبعد أن يكون المسافر قد اجتاز ممراً جلياً بالغ الانخفاض ، يسميه الناس رأس البقرة ، يمشى الطريق نحو الشمال الغربى ، مع ميل أكبر إلى جهة الغرب ، وعندما هبطنا ، وجئنا إلى منتصف هذا الجنب ، وفوق ربوة ، قصراً أو حصناً مهدماً ، بنى سور المربع والسدى تطوء أبواب مستديرة عند اثنين من زواياه ، بواسطة قطع صغيرة من النطرون ، مما يدل على أن الأمطار ليست بذات حال في هذه المنطقة ، كما رأينا في الانحدار المقابل دير براموس أو دير الأروام ، كما يوجد إلى الشمال وعلى نفس المسافة تقريباً دير السريتين أو دير بيشوى حيث يجاور كل منهما الآخر .

أعينا مثلاً يربط القصر ودير البراموس ودير السريتين . وإذا ما اتخذنا كمادة ، تلك المسافة التي تفصل بين القصر ودير البراموس ، والتي قمنا بقياسها فوجدناها تبلغ  $723\frac{1}{2}$  متراً فإن ضلعى المثلث الآخرين يبلغان  $743.2$  متراً للمسافة بين القصر ودير السريتين ، و  $928\frac{1}{2}$  متراً للمسافة بين هذا الدير ودير البراموس ، وإذا أردنا الذهاب بين واحد من هذه الأماكن وبين غيره يكون علينا أن نجتاز طريقاً هو عبارة عن رمال متحركة أو ثلجة في بعض الأحيان بفعل بعض الطحالب النباتية ، ويلمح المرء هناك بعض النباتات ، ويقابل في كل مكان الجبس وكل الصخور الجيرية ، كما يرى أجبال الأحجار الطباشيرية بين دير البراموس ودير السريان .

#### الجغرافيا الفيزيائية للوادي :

يصنع وادى النطرون زاوية ٤٤ درجة إلى الغرب مع خط الزوال المنطليبيش أما فيما يختص بالمواقع التبالية للبحيرات وأطوالها ، فاتها تقع في نفس الاتجاه الذى للوادي ، ويحدد الأب سيكار حوضها العمودى



باتجاه الوادى ، وهو ما يتعارض بصفة عامة مع الهيدروجرافيا « علم وصف المياه او طبوغرافيا البحار » . ولم يبين سيكار على خريطته ، سوى بحيرة واحدة كبيرة ، فى الوقت الذى توجد فيه ست منها : ثلاث الى الشمال من القصر وثلاث الى الجنوب منه ، بل ان اهالى الطرانة يذكرون ان عددها سبع . فقد كانت البحيرة رقم ٤ منفصلة بالفعل الى بحيرتين بواسطة سد تحطم فى الوقت الحاضر . ويبين دانفيل — وهو يتفق فى ذلك مع سقرايون — بحيرتين ، لكنه يعطيها نفس الموقع الذى يحدده الاب سيكار P. Sicard

وبحيرات النطرون عبارة عن مساحة تبلغ ستة فراسخ طولاً ، ومن ٦٠٠ الى ٨٠٠ متر عرضاً ، وذلك من طرف الحوض الى طرفه الآخر ، وهى منفصلة عن بعضها البعض بواسطة رمال قاحلة ، وتحمل البحيرتان الاوليان منها ، وهما الواقعتان نحو الجنوب اسم بركة الدوارة او بحيرة الاديرة اما البحيرات ارقام ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ فتحمل أسماء لا تدل على معنى محدد ، ويقوم عرب السمالو (٥) بتهيرب النطرون من البحيرة رقم ٦ وينقلونه الى الاسكندرية .

وتوجد المياه العذبة — وان كانت درجة صلاحيتها تتفاوت — اذا ما حلرنا بطول البحيرات فى الانحدار المتجه الى ناحية النيل ، وتجرى المياه بغزارة على سطح الأرض ادة ثلاثة اشهر فى العام ، اى فى تلك الشهور التى تلى انقلاب الصيف ، وتزايد المياه عند نهاية ديسمبر ، ثم تبدأ فى الانخفاض تدريجياً ، حتى ان بعض البحيرات يصاب بالجفاف .

وينبى بصفة اساسية ان نلاحظ الحالة الفيزيائية للبحيرات ، اذ تنقطع شواطئ البحيرات من جهة الشرق الى خلجان صغيرة ، حيث ترشح المياه وتتخذ شكل نافورات عند بداية الوديان الصغيرة ، ثم تتسرب بعد ذلك فى شكل نهيرات صغيرة تتجه الى اعماق الأحواض . اما البحر رقم ٣ ، فان الجزء من الأرض الذى يملو عن هذه البنية — وهذا ما لاحظناه

(٥) عرب السمالو ، شأنهم فى ذلك شأن عرب الجوابى الذين سقتناولهم بالحديث فيما بعد ، هم عرب رحل بالغو الكرم ، ولهم ثلاثة رؤساء ( مشايخ ) ، اكبرهم الشيخ سليمان أبو دمن ، وتكون هذه القبيلة من حوالي ١٠٠٠ رجل ، وتملك اربعين حصاناً .

بصفة خاصة يمتد ليبلغ عرضه مائتين وخمسين مترا ، تغطىها بلورات من الملح ، ينهض وسطها ويكسبها وقيرة بعض الشيء ، هذا النوع من الغالب المسطح الذى يستخدم فى صناعة الحصر العلفية . أما الأرض التى تشتملها هذه الينابيع فيبلغ عرضها ٩٦ مترا ، وتشرف فى شمال البحيرة على شريط من النطرون يبلغ ٣١ مترا . أما البحيرة فيبلغ عرضها ١٠٩ من الأمتار . فى حين يبلغ طولها ٥١٤ مترا ، أما أقصى عمق لها فيبلغ نصف المتر . وقاعها طباشيرى مختلط بالرمال ، والمياه فى هذه البحيرة وحدها لها لون الدم .

تلك هى الحالة الفيزيائية للبحيرة رقم ٣ من جهة النيل ، ويلاحظ الشاطئ الأيمن لحوضها رمال قاحلة ، وهناك ينمو بعض الغالب ، ويبدو أن المياه العذبة لا تصل إليه . فهل يمكن القول بأن المياه التى تغذى البحيرات تاتى من النيل مختزنة فى بطء هذه الكتلة أو هذه المساحة التى تبلغ ثلاثين ميلا ، والتى تتصل وادى النيل عن وادى البحيرات ، متبعة فى مسارها تكون الانحدارين اللذين يتجه أحدهما الى الشمال وثانيهما الى الغرب ؟ أم هى بعد أن انفصلت عن النيل بفعل هذين الانحدارين قد جاءت من رأس الوادى — كما سنرى فيما بعد — تلتبس وادى النيل فى الفيوم ؟ وعلى الرغم من كون الرأى الثانى أقرب الى الطبيعة ، إلا أنه لا يبدو معقولا ، إذ من المؤكد أن المياه التى تصب فى البحيرات تخرج من انحدارات الشط الأيمن الذى يملوه . وثمة عدد قليل من الينابيع على الانحدار المقابل ، وتوجد هذه على عمق كبير . وينهض الرأى الأول على انتظام حركة ارتفاع وانخفاض المياه فى البحيرات كل عام ، وفى فترة تتصل بشكل شبه مستمر بفترة الفيضان .

### تحليل مياه البحيرات :

تحتوى مياه البحيرات على أملاح ، تختلف حتى فى أجزاء من نفس البحيرة الواحدة ، مما يدل على عدم وجود اتصال بين مياهها .

وهذه الأملاح هى على الدوام: موريات الصودا ، وكربونات الصودا ، وقليل من سلفات الصودا .

وتغلب كربونات الصودا فى بعض هذه البحيرات ، بينما تغلب موريات الصودا فى البقية الأخرى .

ويبدو — تبعاً للحالة الفيزيائية للأرض — ان كربونات المنودا تعد جاءت الى هذه البحيرات عن طريق مياه النافورات التي تحدثنا عنها، وكذلك عن طريق مياه الأمطار ، وهذا هو ما يفسر لنا لماذا يكون الملح الموجود في جزء من البحيرة يختلف عنه في جزء آخر منها .

ومياه البحيرة رقم ٤ ، وجزء من مياه البحيرة رقم ٣ ذات لون احمر ثان يشبه لون الدم ، ويعود هذا الى اثر مادة نيتريّة — حيوانية — وعندما تتبخر هذه المياه يحتفظ الملح البحري — وهو الذي يتبلور اولا — بهذا اللون الاحمر ويكتسب رائحة الورد الجميلة .

ويرى المسيو برتوليه ان تكون الصودا ، يعود الى تحلل الملح البحري بفعل كربونات الجير الموجودة في الأرض الرطبة . التي يتم فيها هذا التحلل . ووجود الرطوبة امر ضروري لحد كبير لتحلل الملح البحري، وقد رأينا ان هذا امر متوفر . أما عن الحجر الجيري ، فانه موجود بكميات كبيرة فيها بين النيل والبحيرات ، وكذلك في الوادي ، حيث يظهر اما في شكل صخور او في شكل طباشير .

### استغلال النطرون

يشكل استغلال النطرون جزءاً من التزام الطرانة (٦) التي تدخل خالياً ضمن الحدود الجديدة لولاية الجيزة (٧) .

ويتم نقل النطرون في الفترة ما بين البذر والحصاد ، وتتجمع القوافل في الطرانة ، وتتكون القافلة الواحدة من مائة وخمسين جملاً ومن ٥٠٠

(٦) تشتمل منطقة الطرانة على ستة قرى منها : كسر داود ، الطرانة ، وابو نشابة .

(٧) كان يحد ولاية الجيزة تحت حكم المماليك ، من الشمال الجسر الاسود ، الذي كان يفصلها عن ولاية البحيرة ، لكنها تمتد الآن حتى قرية أبو جروة . ويعبر الجسر الاسود الاول ، ابتداءً من الكنان الرملية ، حيث ينحدر حتى النيل . وعند طرف هذا الجسر بالقرب من قرية أم دينار ، توجد مناظر لتمرير مياه الفيضان ، أما المياه التي يحجزها الجسر الاسود ، طول الوقت المطلوب ، فانها تذهب السهل ، وتجعل انتاجه بالغ الوفرة .

الى ٦٠٠ حمار ، وترجل مع حراسها عند غروب الشمس ، لتصل الى البحيرات أثناء النهار ، فتكسر النطرون وتحمله ثم تعاود الرحيل .

وفى اثناء العودة تتوقف القافلة فى منتصف الطريق . وتصنع وقودها من روث حمير وجمال القافلة السابقة (٨) ويشرب رجال القافلة ومرشدها القهوة ، ويخفون الفارجله ، ويترودون بقليل من الخبز ، وذلك بعجن الدقيق فى طبق من الخشب ، ثم يافضج المعجن على الفحم ، ويقم مرشد القافلة بنظ حراسة لكى تظل القافلة فى حى ضد العربان ، وتلم بقية القافلة لبضع ساعات ، ثم تعاود السير ، لتعود الى الطرانة فى اليوم الثالث .

ويقدر ما تنقله كل قافلة بستمائة قنطار من النطرون ، كل قنطار منها يزن ٤٨ أنة (٩) .

والطرانة هى مستودع النطرون ، وينقل النطرون بطريق النيل الى هذه القرية ثم يرسل الى رشيد ، ومن هناك يذهب الى الاسكندرية ، ثم يصدر من ثم الى أوروبا ، أو ينقل الى القاهرة حيث يباع لكى يستخدم فى تبييض الكتان وصناعة الزجاج (١٠) .

ويقدر الفاقد الذى يصيب المادة عند التفريغ أو الإيداع بـ ١/١٠ الوزن .

ويخضع ملاحو قري الطرانة السبت المرى المقدر عليهم من نقل النطرون ، واذا ملحدت نتيجة لظهور العربان أو بقتل أحداث أخرى أو

(٨) يؤدى نقص الوقود ، على السدوام ، بالقوافل المتتابعة فى الصحراء ، الى أن تتوقف فى نفس الأماكن التى عسكرت فيها سابقتها من قبل .

(٩) تساوى الأنة ٤٠٠ درهم أو رطلين ونصف زنة ملك .

(١٠) يوجد فى القاهرة نوع آخر من النطرون ، يجلبه الجلالة السود فى قوافل دارفور وسنار ، ويستخدم فى تجهيز التبغ المصرى ، لذ يخلط به لاعطائه نكهة نفاذة . وقد قام الميسو رينبولت بتحليل هذا النطرون ؟ ووجد أنه يحتوى على كمية من مريات الصودا أكبر من غالبية العينات التى جلبناها معنا .

عائى استغلال النطرون من بعض التعطيل ، يدفع الفلاحون احدى عشرة باره (١١) عن كل قنطار كان مقدرا ان ينقلوه .

ويباع النطرون فى مصر بسعر القنطار زنة ٣٦ اقة ، بخردة واحدة تساوى بدورها تسعين باره .

ويدفع المشتري اجرة الشحن النهري ، ويجهز الملتزم البارود والرماس لحرس القواغل ، ويبلغ عدد افراد هذا الحرس ستين رجلا مسلحا ويطلق عليهم اسم الباشا .

ويدفع اليهم الملتزم اجورهم . والتزام النطرون هو ضريبة ملح حقيقية ، وتلتزم القرى التى تملك منشآت تستخدم فيها هذه المادة بشراء كمية محددة منها كل عام .

وقد جعلت صعوبة اخراق وادى النطرون ، من المسير ، فى كل وقت ، دراسة احوال البحيرات ، فكان استغلالها يتم على غير نظام او قاعدة . وشواطىء البحيرات كما سبق القول مغطاة بكتل من بلورات الكريستال التى لا يقترب منها احد ، والتى يمكن برغم ذلك الحصول منها على فوائد جمة ، فهى توجد بكميات وفيرة . ولا يستغل من بين هذه البحيرات فى الوقت الحالى الا البحيرة رقم ٤ . ويدخل الرجال عراة الى المياه ، ويكسرون وينزعون النطرون بكمشة حديدية مستديرة الشكل ، يبلغ وزنها حوالى الستين رطلا ، احد فكها على هيئة عشب الخراب ، اما الاخر فينتهى بسن مجببة من الصلب . وهؤلاء الرجال لا يلتقون اثنى اهتمام بالنطرون الموجود على سطح الأرض ، والذي يمكن انتزاعه بجهد اقل من الجهد المبذول فى استخراجها من البحيرات بكثرة . وانه لمشهد مثير للفضول ان ترى هؤلاء المصريين ، وهم يخرجون من البحيرات فى بياض شامق ، بينما هم فى الحقيقة سود البشرة او برنزيو اللون .

#### تجارة النطرون :

تعتمد حالة تجارة النطرون بالمثل على تطيلات لم تكن فى وضع يسمح لنا بالقيام بها ، وعلى نوع من النشاط والاهتمام لا يمكن لنا

الاضطلاع به ، فى بلد ظلت فيه مكاسب الصناعة فريسة لمفارم الحكام ومظالمهم . وقد يترك المستقلون فى النطرون خليطاً من مختلف الأملح مع الصودا ، وبالذات الملح البحرى ، الذى يؤدى وجوده الى زيادة مجففة فى وزن النقلة . ومن جهة أخرى يشكو صناع مارسيليا فى أنهم يعانون من اضرار حقيقية وكبيرة ، اذا تحلل غلايتهم أثناء غلى الأملح ، وبدأوا لذلك يقبلون على الصودا القلوية من اليكافى . وهكذا كانت مصر توشك أن تفقد هذا المصرف لبضاعتها فى أوربا ، لولا أن الحرب قد نشبت فجأة فجعلت نقل الصودا من اليكافى أمراً أكثر مشقة .

وفى سنوات ١٧٨٨ ، ١٧٨٩ ، ١٧٩٠ ، عندما أمكن لتجار مارسيليا عقد صفقات تجارية جديدة ، غاثهم استوردوا الى فرنسا كمية هائلة من النطرون ، خزنها جزءاً كبيراً منها فى محلاتهم .

ويتم تصدير النطرون المصرى الى الخارج ، الى البندقية وفرنسا وانجلترا ، ويكاد ماستورده انجلترا يساوى نفس الكمية التى تستوردها فرنسا ، أما البندقية فلا تحصل الا على خمس ماستورده الدولتين الآخرين .

وقد أهتم المسيو رينولت بموضوع شديد الاهمية ، هو أن يفصل أكبر قدر من الصودا عن النطرون ، بقصد تقديم النطرون الى أغراض التجارة وهو فى أقصى درجات نقائه ، الأمر الذى يؤدى مع زيادة طفيفة فى مصاريف استخراجها الى مضاعفة انتاج وقيمة الصودا ، مع اتساع نفس الاساليب المستخدمة . ويوجد الملح البحرى فى بعض أنواع النطرون بين طبقتين اللبنتين من الصودا ، بحيث يمكن استخلاص الملح بشكل آلى .

وهكذا ، فتجارة النطرون فى مصر ، بعد أن أصبحت هذه مستعمرة سوف تعتمد على اعتبارين أساسيين :

الاول : الاستغلال الحر للبحيرات ، وسيصبح هذا الاستغلال فى شكل أفضل ، عن طريق إقامة جرس ، واتخاذ إجراءات عسكرية ، مثل إعادة استخدام وترميم القصر وشغل الأبرية القبطية . الخ ، لأن العربان فى هذه الحالة — وأبرهم لا يخفى علينا — سيكونون أقل مدعاة للخوف .

الثاني : اختيار وتنقية النطرون . وينبغي أن تمام المنشآت الخاصة بتنقية النطرون في أماكن أكثر قربا من البحيرات مثل القصر والطرانة .

### منتجات الممالك الثلاث « النباتية والحيوانية والجمادات » :

يوجد على شاطئ البحيرات البوص والسمار بوفرة شديدة ، كما توجد منتجات أخرى من المملكة النباتية . وتتناقض خضرة هذه النباتات بدرجة تبعث على الدهشة ، مع بياض بللورات الملح شاهقة البياض ، ومع اللون الرمادي الكالح لحصى الصحراء .

ونرى بالقرب من البحيرات غلب البوص ذا السيقان العالية (١٢) ، والطلق « زهور من فصيلة الرصاصيات » الخالي من الأوراق (١٣) ، والأثل الفرنسية (١٤) والأرطماسية البحرية (١٥) « نبتات عطري » والسمار (١٦) والبوط « أو عصوية المروج » ذات الأوراق العريضة (١٧) . وهذا النبات الأوربي الذي ينمو بوفرة في فرنسا ، في البرك والمستنقعات ، وهو واحد من أغزر النباتات على شواطئ بحيرة النطرون . وترى هناك الشنجر ذات الأوراق الضيقة (١٨) « هو نبات زينة » ، والجمان أو الطرطير ذات الورود البيضاء (١٩) والجنبنة أو الحولاى (٢٠) ذات الأوراق الرمادية . وتوجد أيضا السويداء (٢١) وهو نوع من الصودا ويطلق عليه هذا الاسم في حين يسميه العربان باسم الصهد . ويشاهد هناك أيضا بعض أشجار النخيل قليلة الارتفاع ، وهي تكون غابات كثيفة ، لكنها لا تنتج ثمارا على الإطلاق . وقد وجدنا خلف البحيرة الأخيرة بقليل عشرين نخلة منزوعة من الأرض ، ومجموعة كيفما اتفق في شكل كومة ، بحيث يمكن القول بأنها قد انتزعت وحطمت بفعل حركة عنيفة .

- 
- (12) *Arundo maxima*, Fors.
  - (13) *Statice aphylla*, Fors.
  - (14) *Tamarix gallica*, Fors.
  - (15) *Artemisia maritima*, Lin.
  - (16) *Juncus spin asus*, Lin.
  - (17) *Typha latifolia*, Lin.
  - (18) *Lithospermum angustifolium*, L.
  - (19) *Zygophyllum album*, Lin.
  - (20) *Fagenia scabra*, Fors.
  - (21) *Suaeda vera*, Fors.

لما اتواع الحيوانات المختلفة هناك فليست كثيرة العدد فترى الجص أو القنيد (٢٢) والسرطان بأنواعه المختلفة (٢٣) والنمل العادي والنمل الضخم ذا الأجنحة ونوعا من البعوض الذى تسبب لسمعه أوراما هائلة، ومن طبقة الصدفيات نجد القواقع « الطزون » من النوع الصغير ، ومن ذوات الأربع نجد الحرياء والغزلان ، ويستدل على الأخيرة من آثار أقدامها المشقوقة التى تتركها على الرمال . وقد تعرفنا بين الطيور على دجاجة المساء والبط والشرشير « البط البرى » ، وتوجد هذه الطيور بوغرة شديدة وبخاصة عند البحيرة الأخيرة ، وهى التى يقل تردد الناس عليها .

ولا يوجد فى وادي النطرون أى أثر لإنشآت قديمة ، اذ لم نشاهد فيها وراء البحيرة الرابعة الا اثر مصنع للزجاج ، وقد تعرفنا عليه من انقراض افرائمه المبنية بالطوب الأحمر ، ومن بعض فتات المعادن والزجاج فى أشكال مختلفة . ويذكر الموقع الذى كان يوجد به بالمادنتين اللازمتين لصناعة الزجاج ، وهما الرمل الصوانى والصودا . ولعل الخشب فى ذلك الوقت لم يكن بالندرة التى هو عليها اليوم . ولسنا نعرف الى اية فترة تنتهى هذه المنشأة ، وكان من الممكن ان نستدل على ذلك من نقوش اليدالية او طلعة النقود التى عثرنا عليها هناك ، لكن هذه النقوش كانت محدثة لدرجة لم يكن من السهل معها ان نلحظ أى من رموزها .

---

(22) *Pimelia muricata*.

(23) *Carabus variegatus*.



## الفصل الثاني

### طبوغرافية البحر الفلرغ

يقع وادى النهر بلا ماء الى الغرب من وادى بحيرة النظرون . وقدان الواديان اللذان يلتصقان كل منهما بالآخر ، لا يتفصلان الا عن طريق تل مرتفع ، وتستغرق المسافة من الديرين الى الوادى المجاور ساعة ونصف الساعة .

وقد تكسست الرمال فى وادى نهر بلا ماء ، ويبلغ اتساع حوض هذا الوادى من شاطئه لآخر حوالى ثلاثة فراسخ . ويمضى المرء أربعين دقيقة كى يهبط ، عن طريق منحدر منظم على نحو معقول ، حتى يصل الى قاع الوادى فوق الرمال .

وهذا الوادى تاحل لا تبدو به أية مصادر للمياه . وقد وجدنا به الكثير من الخشب المتحجر ، وعددا من اجسام اشجار باكملها يبلغ طول البعض منها ثمانية عشر قدما . ولم يكن يبدو ان اجسام الشجر وقطع الخشب التى ظهرت لعيوننا قد مستها يد الانسان (٢٤) . وكانت غالبيتها قد تحجرت تماما اما اقلها فقد بدا اقل تقدما فى تحجره ، لذلك كان مغلفا بطبقة بالغة الكثافة وبالغة الصلابة . اما الجزء الذى يشكل المادة الخشبية « اللباب » فكان متباعدا فى شكل طبقات من الورق . وقد وجدنا كذلك

---

(٢٤) يؤكد ب. سيكار P. Sicard (Lettres édifiantes) ان المرء يجد فى وادى نهر بلا ماء صواري ، وانتفاض سفن متحجرة ، الا اننا لم نلاحظ شيئا من ذلك ، وان كنا فى الحقيقة لم نر الا جزءا من الوادى : ويدعى جرانجيه Granger فى تقريره عن رحلته الى مصر ، ان ما نأخذه عادة على انه خشب متحجر ليس كذلك على الاطلاق ، ومع ذلك ، فلن المبيات التى احضرناها لها بالتاكيد خواص الخشب المتحجر، حتى انها بدت كذلك فى اعين افراد اقل خبرة ودراية ، كما ان علماء الطبيعة الحائقين ، الذين فحصوها بعناية ، قد حكموا عليها نفس الحكم .

فى هذا الحوض سلاسل عظام من السمك الكبير الذى بدأ لنا متحجرا، وهو ما يضيف احتمالا جديدا - كما سنرى - الى الاحتمال القاتل بان المياه كانت تجرى فى هذا الوادى ، وانها كانت تحتوى على حيوانات تعيش فيها .

وبخلاف الأخشاب المتحجرة ، يرى المرء ، وبشكل خاص على منحدرات الوادى ، أحجار صوان ملفوفة ، جاءت دون شك من مكان جد بعيد ، بالإضافة الى الزلط والجص والبلورات الصوانية المكونة داخل تجويفات ، وأنواع من الجيود « وهو حجر به تجويف ومبطن ببللورات او ببادء معدنية » وقطع من اليشب « حجر كريم مختلف الألوان » المستدير، وقطعا من الحجارة ذات قاعدة صوانية تميل الى اللون الأخضر ، وبعضا من اليشب المسمى بالزلط المصرى .. الخ وتنسب غالبية هذه المواد الى تلك الجبال النقية فى صعيد مصر ، ولا يمكن ان تنتقل هذه المواد الى هنا الا عن طريق مياه النيل . إذن فقد كانت هناك صلة بين النيل ونهر بلا ماء ، ونتيجة لذلك فقد كان ثمة صلة بين الواديين ، وليس ثمة ما يؤكد ان مثل هذا الاتصال كان مستحيلا ، لكننا سوف نؤسس وجود هذه الصلة على اعتبارات أخرى .

ان اتجاه وادى نهر بلا ماء هو نفس اتجاه وادى بحيرات النطرون، والرأى الشائع هو ان المرء عند اتجاهه الى الجنوب بين هذه الوديان ، يصل الى الفيوم ، وعند اتجاهه الى الشمال منها يترك على يساره اقليم مريوط (٢٥) . وهذا هو الطريق الذى يسلكه العربان عادة للقيام بفاراتهم

---

(٢٥) تقع مريوط على مسافة أربعة فراسخ الى الغرب من الاسكندرية ، نحو البحر ، وتستطيع سرية من الفرسان ، راكبي الجبال ( الهجانة ) ان تصلها فى ساعتين ونصف الساعة ، ويجد المرء فى هذه المنطقة ، ثلاثة آبار عميقة ومعنى بها ، تفيضها مياه الأمطار ، ويبلغ المرء فى المنطقة المجاورة بعض الخرائب ، وكذلك مقابر العربان المزدانة بالتمويذات ، وهذه عبارة عن آيات من القرآن ، موضوعة داخل كيس صغير من الجلد ، معلق فى خيوط قوق القلبر .

فى مناطق الصعيد . كما أن اتجاه هذين الواديين ، يدفع الى استنتاج أن نقطة تلتقيهما تقع فى نفس المكان الذى ترسم فيه على الخريطة بحيرة مورييس ، كما أن اتساع وادى النهر بلا ماء بالإضافة الى ما يذكره المؤرخون من بحيرة ( قارون ) يدفع الى الاعتقاد بأن هذا الخزان لم يكن سوى رأس لهذا الوادى ، الذى سد بشكل طبيعى بفعل تكس الرمل ، أو بواسطة يد الإنسان ، بطريقة يمكن القول معها بأن بحيرة مورييس قد تكونت ولم تحفر . وهذا الراى شديد الترجيح بحيث أن المرء عندما يفكر فى طبوغرافية هذه البلاد سيجد ما يقنعه بأن خزاناً يحفر تحت مستوى تربة مصر ، سوف يجعل المياه التى يلقاها بغير ذات نفع لهذه التربة . ولقد أوضحنا أن المياه التى حجزت على هذا النحو ، ستكون بالأحرى فى وضع تجرى معه نحو نهر بلا ماء ، لا أن تجرى الى داخل وادى النيل .

ولكى تكون هذه المياه نافعة للجزء الأدنى من مصر ، كان الأمر يقتضى عكس ذلك ، أى أن يكون حوض البحيرة ، بدلاً من أن يكون محفوراً بشكل طبيعى ، قد يكون عن طريق سدود علوية أقيمت لسوق الأرض الطبيعية ، بقصد أن تحجز بعد الفيضان كمية من المياه أعلى من مستوى أرض مصر . أن وجود بحيرة مورييس ، والفرض الذى ينسب اليها عادة ، سيصحبان إذن امرين مشكوك فى صحتها ، وربما يشكلان على السدوام مشكلة تستدعى الحل .

== وتلامس أرض مريوط ، التلال التى تنتهى اليها المرتفعات الليبية ، أما التربة هناك ، فهى عبارة عن أرض رميوية ، تشابه أرض مصر ، وتبعاً لذلك ، فإنها تدعى بتكوينها لمياه النيل ، التى كانت تصل الى هناك فيها مضى ، وحين تسقط الأمطار ، تتكاثر بعض الأعشاب فى مريوط ، وهذا ما يدفع العربان ، وبخاصة الجوابى ، الى الذهاب الى هناك مع قطعانهم ، ولأن الآبار لا تزود بالمياه إلا عن طريق الأمطار ، فإن مياه هذه الآبار ، تتجدد فى أوقات الجفاف ببطء شديد . ويتردد العربان على مريوط بسبب قربها من الاسكندرية ، ولأنها تقع على طرف خط الآبار الذى يجاور الصحراء عند الاتجاه الى ولاية البحيرة . ويؤدى هذا الخط الى بحيرات الطرون ويصل المرء بعد عبوره الهضبة التى تفصل الواديين ، بعد مسيرة يوم ، وعند الطرف الشمالى للبحيرات ، الى مرتفعين متجاورين يطلق عليهما اسم النهدين .

وهذا الجزء ، الذى سمحت لفسا الظروف بالعرف عليه ، هو مفتاح الجغرافيا الفيزيائية لمصر .

وان كان لنا ان نتجسس على التشعب لراى ، لقلنا ان اتساع وحجم حوض النيل فى الفيوم يعودان الى منفذ بحر بلا ماء الذى يبدو على نحو ماثل . ويحدد الأب سيكز ، ويحذو حذوه سترايون ، حوض هذا الفرع القديم للنيل ، بأنه يتجه نحو بحيرة مورييس ، لكنهما يتركان نقطة التلاقى غامضة ، ويعطيان لبحيرة مورييس نسباً وإبعاداً من الضخامة بحيث تتجاوز الحد بالنسبة لاتساع بحر بلا ماء . وإذا كان الراى الذى عرضناه لا يعمد ان يكون الا نوعاً من التخمين ، فإن النتائج التى حصلنا عليها ، وحسب استنتاجاتنا ، من المهمة الاستطلاعية التى قمنا بها ، توضح لنا ، أنه كانت توجد مجارى مياه كبيرة فى داخل الصحراوات . وأنه من المحتمل جداً ان كان النيل ينقسم الى عدة غرور الى الجنوب من بحيرة مورييس ، وان الفرع الحالى كما سبق أن لاحظنا كان يجرى فى قاع الحوض بطول التلال الليبية ، كما تبرهن على ذلك شهادات المؤلفين ، وخطوط مهد أو قاع هائل يستمر بطول هذه التلال ، ويستحيل أن يكون هذا المهد قد تكون الا بواسطة مجرى مياه كبير . وقد وجدت هذا المهد فى كل اتساع ولاية الجزيرة ولمساحة تبلغ ثلاثين فرسخاً ، وثمة مظهر لافت للنظر وهو أنه يتوغل الى الامام متجهاً نحو الجنوب حتى يصل فيما أزمم حتى بداية بحر يوسف ، أى عند النقطة التى يعتقد ان النيل فيها قد غير مجراه ، لى يلتقى بثقله على الشط الأيمن ، وفى اعماق هذا المهد تجرى مياه بحر يوسف (٢٦) .

وهكذا يبدو لنا من شهادات التاريخ القديم التى تناولت تربة مصر :

- ١ — أن النيل ، أو بترجيح أكبر ، أن جزءاً من مياهه كانت تجرى داخل صحراوات مصر الغربية عن طريق وادى النطرون ونهر بلا ماء .
- ٢ — أن المياه قد دفعت الى الوادى الحالى ولعلنا نستطيع ان نفسر بهذا ، لماذا كانت مياه الفيضان فى عصر هيرودت ترتفع الى خمسة عشر ذراعاً بينما لم تبلغ فى زمن مورييس الا ثمانية اذرع فى حين انها اليوم ، تبلغ ثمانية عشر ذراعاً .

---

(٢٦) نحمل هذه التربة فى البداية وهى تمر بولاية الجزيرة اسم ، تربة اللبن ، ثم تربة الاسراء ، ثم تستعيد فى ولاية البحيرة اسمها الذى تسمى به فى مصر العليا وهو اسم : بحر يوسف .

٢ — ان النيل بعد هذه العملية قد جرى بأكمله ببوابة التلال الليبية،  
وشكل لنفسه المهد الذى نراه فى مصر السفلى ، وفى جزء من  
مصر الوسطى .

٤ — ان النيل قد « حبل » على الشط الأيمن وان هذه الفترة قد سبقت  
مباشرة الوضع المنتظم للفروع السبعة للنيل وتكوين الدلتا (١٠) .

٥ — ان الشهادات الجغرافية التى عاصرت الوقائع السابقة ، تؤكد  
بالإضافة الى ما قلناه ، ان مياه النيل تميل للاتجاه نحو الغرب ،  
وهو ميل يوضحه فى مصر ، كما هو الحال فى كل بلد آخر ، فى أى  
موقع آخر ، فعل وتأثير الطبوغرافية العامة للأرض .

ويتبع هذا الراى الآخر ، ان المشروع الذى كان لدى البوكميركو الذى  
كان يرمى الى تحويل مصر الى أرض جرداء ، بتحويل مجرى النيل ، كان  
يمكن التحقيق لو أنه قد دفع بمياه النيل الى الصحراء الغربية ، أكثر منه  
ممكنا لو أنه دفعها الى اتجاه البحر الأحمر ، كما كان يقضى بمشروعه .

ان وادى النهر بلا ماء ليس هو النقطة النائية فى هذه المنطقة ، إذ  
يمكن للمرء أن يتوغل من هناك الى داخل افريقيا ، فمساكن الطرانة  
يذهبون الى ما وراء هذا الوادى لقطع المسار ، الذى تنقله قبيلة عرب  
الجوابى من قراهم ، ليبساع فى منوف (٢٧) حيث يستخدم فى صناعة  
أرق انواع الحصر ، ولكى نتوجه من وادى نهر بلا ماء الى المساكن الذى

(١٠) أنظر دراستنا عن بحيرة النزلة . ( المجلد الثالث من الترجمة  
المريية ) .

(٢٧) منوف : هى احدى مدن الدلتا ، وتتبع مباشرة إقليم الطرانة على  
بعد فرسخين من فرع رشيد ، وأربعة فراسخ من فرع دهباط ، وعلى  
الشاطئ الشرقى لفرع الفرعونية ، التى تعبر ، بالمثل ، الجزء الجنوبي  
من الدلتا ، ابتداء من فرع دهباط ، حتى فرع رشيد ويقتلها عن جهة فرع  
دهباط جسر يسمى الفرعونية ، وبهذه الطريقة أمكن توزيع عادل للمياه  
بحيث حصلت الولايات الواقعة الى شرق أو الى غرب الدلتا ، على نفس  
الامتيازات ، وتستطيع إدارة متنورة ، بإيسر السيل ، أن تعالج الاضطرابات  
والمناعب التى نجمت عن جشع وجهالة الحكومة السابقة ، عندما فصلت  
ولاية المنصورة ودهباط على حساب ولاية البحيرة ، التى تحول جزء كبير  
من أراضيها بسبب نقص المياه ، الى صحراء حقيقية .

تتخلع منه السمار ينبغي ان تستمر ثلاثة ايام كاملة من شروق الشمس حتى الغروب ، دون ان يكون بإمكاننا ان نعثر على ماء طيلة هذه المسافة ، وحتى نبلغ المنطقة التى ينبو فيها السمار .

### زحف الرمال :

قلنا فى بداية هذه الفقرة ان وادى نهر بلا ماء قد غص بالرمال . وما يقال بخصوص هذه الرمال هو نفس ما يمكن قوله بخصوص الرمال التى توجد فى وادى النيل ، فقد حملتها الرياح من فوق الهضاب الواقعة الى الغرب . وحيث ان وادى النطرون وادى نهر بلا ماء لا ينفصلان الا بواسطة تل ضيق ، فان الوادى الاول يكاد لا يساهم على الإطلاق فى زحف الرمال هذه ، على الرغم من أنه توجد على يمين الوادى او الى الشرق منه ، تلك الهضبة الواسعة التى تفصله عن النيل . وبدل ذلك بوضوح على تحرك محدد للرمال من الغرب الى الشرق ، وقد كثرت هذه الحركة ملموسة منذ وقت طويل ، لدرجه سببت اشد القلق على مصر تلك المنطقة شديدة الخصوبة من ارض مصر ، وهى تلك التى توازى الشاطئ الايسر للنهر .

ودون ان نخرج كثيراً عن الاطار الذى حددناه لأنفسنا ، نستطيع القول بان الكتبان التى تقع فوقها قرية منية سلامة والتى تضم اتريس ووردان (\*) قد تكونت بفعل انتقال الرمال من الصحراوات الليبية ، عن طريق الرياح القادمة من الغرب ، وتحت هذه الكتبان توجد قرية رسوبية تكونت من طين النيل اى انها بمثابة قاعدة لهذه الكتبان ، وترتفع منها أشجار جميز بالغة الجمال ، لتخرج من قلب هذه الكتبان القاحلة . وتصل الرمال فى هذه المنطقة ، وفى مناطق أخرى الى النيل ، كما يصل رماد فيزوف الى شاطئ البحر . وتردم الرمال الطريق الموازى للنهر ، وتضطر المسافر الى اجتياز هذه الأرض المرتفعة والمتحركة .

ويؤدى هذا الأمر ، بالإضافة الى ملاحظته فى دراستنا عن بحيرة المنزلة ، الى امور نوجزها فيما يلى :

(\*) انظر الخريطة الطبوغرافية لمصر .

هناك ثلاثة أسباب مجتمعة عملت منذ وقت طويل على حصر أرض مصر وتدهور خصوبتها . وهذه الأسباب هي : عمل الحكومة وهو من عبومه ذو اثر مضاد للصالح العام ، تكليل فاعلية مياه النيل وهو الامر الذى ادى نتيجة للإدارة السيئة للحكومة الى طغيان مياه البحر على الأجزاء الدنيا وغير المستوية من أرض مصر ، وأخيرا ذلك العمل المستمر والدعوب للرياح التى تنفع رمال الصحراوات من الغرب الى الأراضى الصالحة للزراعة وإلى الترع والنهر . . ومن الممكن تعديل الظروف فيما يختص بالسببين الأولين ، لكن ليس ثمة جهد بشرى يمكنه أن يتصدى لزحف الرمال . وفى غيبة العوامل الطبيعية القادرة على ذلك ، فقد أدت السداجات والجهل الى تلبس الخرافات ، فنقرأ مثلا عند مؤلفين عرب (٢٨) أن أبا الهول ، الذى يشاهد بالقرب من الأهرام ، هو بمثابة تعويذه لابقاف الرمال الليبية ، ومنعها من التوغل فى أراضى ولاية الجيزة .

ومع ذلك فمفنة نعتقد أن بإمكاننا أن نضيق الى ما سبق ، وكما أمكننا أن نلاحظ ذلك بأنفسنا ، أن غزوة الرمال الليبية تقارب من نهايتها ، بالنسبة لمصر السفلى على الأقل ، حيث لا يوجد فى الواقع الا القليل من الرمال المتحركة فوق الهضبة ، الى الغرب من النيل .

وهذه الهضبة من الحجر الجيرى .

وتكاد تكون كل الرمال التى ترى فى وادى النيل من نوع الرمال الصوانية ، فلا يبقى اذن للرياح الا الرمال التى يمكن أن تنتج عن تفتت الأحجار الجيرية .

وبالإضافة الى ذلك ، فإن وادى نهر بلا ماء ، يقوم بدور الحاسج ضد الرمال التى تزحف من داخل أفريقيا نحو النيل ، ويوازى هذا الوادى ولايتى الجيزة والبحيرة ، وفى الحقيقة فإن وادى نهر بلا ماء هذا يفس بالرمال ، لكن الرمال لايزال أمامها الكثير حتى ترتفع الى حواف حوضه ،

---

(٢٨) انظر جغرافية عبد الرشيد ، الذى كتب عام ١٤٠٣ من العصر الحديث ( الميسلادى ) .

بل أنه حتى لو حدث ذلك، فسوف يكون على الرمال أن تسد وادى بحيرات  
النطرون قبل أن تبلغ الهضبة لثقل من هناك الى وادى النيل .

ان عمل الرياح على الرمال الموجودة فى هذا الوادى هو بلا جدال  
اكثر الامور مدعاة للأسف ، وهذه الرمال تتحرك وتغير من مكانها ، وسوف  
تصل بعد انتقالها من منخرة لآخرى الى النهر ، كما يشاهد ذلك فى الأماكن  
التي يشق فيها وادى النيل ، فى حوض مصر .

ومع ذلك ، فليست الرياح وحدها هى التي تنهض بكل الصبء لكى  
تدفع بالرمال نحو النيل ، فمياه النيل نفسها ، بتحميلها على الشطاليسر،  
وينهرها لهذا الشط ، تسمى بنفسها حثيثا نحو الرمال .



## الفصل الثالث

### عن الأديرة القبطية

انثسنت الأديرة القبطية الموجودة فى وادى النطرون فى القرن الرابع ، ومع ذلك فيبدو أن هذه الأديرة قد أعيد بناؤها أو ترميمها مرات عدة ، منذ هذا التاريخ . وثلاثة من هذه الأديرة قد بنيت على شكل مستطيل ، يبلغ طولها من ١٨ الى ١٤٢ مترا ، ويتراوح عرضها مليون ٥٨ الى ٦٨ مترا ، الأمر الذى يؤدى بمتوسط مساحتها الى ٧٥٦٠ مترا مربعا .

ويبلغ ارتفاع جدران السور ثلاثة عشر مترا على الأقل ، أما سمكه فيبلغ عند الأساس من ٢  $\frac{1}{4}$  الى ٣ من الأمتار وهى مبنية من خامات جيدة وبشكل ممتنى به . ويسيطر على الجزء العلوى طوار يبلغ عرضه مترا واحدا . وبالحائط فى أعلى الطوار كوات بعضها الى داخل الجدار وبعضها تميل وتنزلق الى خارجه حتى يسهل الدفاع من النفس ضد العربان ، وذلك بقذفهم بقطع من الحجارة حيث أن انظمة الرهبان تحرم عليهم استخدام الأسلحة النارية . ولهذه الكوات المتزلقة الى الخارج ، ائتمنة لثابئين الناس من طائفت البنادق .

وليس للأديرة الا مدخل واحد ، وهو خفيض وضيق فلا يبلغ ارتفاعه أكثر من متر ، كما لا يصل عرضه لأبعد من مترين ويغلق هذا المدخل من الداخل باب شديد السبك ، مزود بمزلاج فى أعلاه وبقل خشبى قوى مضبة « فى وسطه ، كما أنه مزود عند أسفله بمعارضة حديدية تخترقها مسامير ذات رؤوس ، وبخلاف ذلك فإن مدخل الدير مقفل على نحو ما وبإحكام من الخارج ، وذلك بواسطة رحوين من الجرانيت موضوعتين على جانبي المدخل الضيق ، وقطر كل منهما اقل بقليل من ارتفاع المدخل ويسمح سمكها بأن ينهضا فى ثبات . وتشرف على الباب شرفة دفاعية يمكن منها إحراق المهاجم والتاء الحجارة فوقه . وعندما يراد الاختباء ،

بدا راهب موجود خارج الدير. فى حجرة واحدة من الرحوين بواسطه عتلة ، ثم يثبتها ، ثم يهجرج الأخرى وينسل الى الداخل ليجر ، نحوه الرحي الأخرى فتأخذ مكانها بشكل طبيعى الى جانب الأولى وعندما تتماسك الرحوان يتقل الباب، ومن طريق الشرفة الدفاعية يكون من السهل اكتشاف أولئك الذين يريدون زحزحة الرحوين .

والى جوار هذه الشرفة ، يوجد النافوس الذى يتدلى منه حتى يلامس الأرض جبل مصنوع من ليف النخيل . وفى بعض الأحيان يستيقظ الرهبان أثناء الليل على صوت النافوس ، ومع ذلك فهم على الدوام يلزمون الحذر والحيطة ، حتى ولو تعرضوا بالفعل من حيث هم أعلى الأسوار ، على أنهم يتعاملون مع أناس أصدقاء ، فانهم لا يقررون فتح الباب امامهم واستقبال الطارق الا بعد أن ينزل راهب عن طريق الشرفة متعلقا فى طرف جبل مربوط فى رحي صغير ليرى عن قرب ما ان كان ثمة من يبنى أخذ الدير على قرة ، وعندما يأخذ فى فتح الباب يبقى واحد من الرهبان فى أعلى الحائط متحذا وضع الحارس ، حتى يلحظ ما ان كان هناك من يأتى على بعد من العريان .

ولكل دير بداخله برج مربع الشكل ، لا يمكن الدخول اليه الا بواسطة جسر متحرك يبلغ طوله خمسة أمتار ، ويبلغ ارتفاعه فوق سطح الأرض ستة أقدام ونصف القدم . ويرفع الجسر بواسطة جبل او سلسلة تمر من خلال الجدار ، ويلف هذا الحبل حول رحي أفقية ، وينتهى البرج بسطح علوى فوق جدار السور .

وللاديرة الثلاثة التى تجاور البحيرات آبار محفورة يبلغ عمق الواحدة منها ثلاثة عشر مترا ، ويوجد بكل بئر حوالى المتر من المياه العذبة التى ترفع بواسطة سنجية ذات قوائمى . وتستخدم المياه فى احتياجات الرهبان ولرى حديقة صغيرة تنمو فيها بعض الخضروات ، كما تزرع فيها بعض الأشجار مثل النخيل والزيتون والتمرهندي والحناء والجميز . وعند نهاية شهر يناير ، يبلغ ارتفاع مياه الآبار حده الأقصى ، لتتخفض أثناء الصيف سكن الآبار لا تنضب مطلقا .

ويمتلك دير السريان شجرة سلت افرام (٢٩) ، وهى شجرة مقدسة يبلغ ارتفاعها ٦ أمتار ونصف المتر ، ويبلغ محيطها ثلاثة أمتار . . انها شجرة إلهندي (٣٠) التى يظن الرهبان السريان انهم وحدهم الذين يحوزون مثل هذه الشجرة « اى انها لا توجد عند سواهم » . . وهذه الشجرة بلغة الفدر فى مصر السفلى ، لكنها بلغة الانتشار فى الصعيد.

وليس للدير الرابع الذى يحمل اسم دير الانبا مقار الا بئر واحدة ، مياهها مالحة ، ولكن ثمة بئرا محفورة على نحو طيب (٣١) ومياهها بالغة العذوبة تقع خارج الدير وعلى بعد اربعمئة متر منه ، كما يوجد نبع عند الانحدار المقابل لهذا الممر الجبلى ، وللديرين الآخرين بالمثل نبع جارهما.

وصوامع الرهبان عبارة عن حجرات ضيقة ، لا يصلها من ضوء الا من طريق المدخل الذى يبلغ ارتفاعه لكثير من المتر . واثاثهم ليس سوى حصيرة وجرة وقلة (٣٢) . والكنايس منظمة على نحو طيب ، لكنها تزدان بمسور رستت بخشونة ، وبخلاف ذلك فكل شئ مضطرب ، غير منظم وغير نظيف وخال من الذوق . وحيث أن مقر الاديرة لايسمح لها مطلقا باخذ زينات فاخرة ، فان الرهبان يجدون فى تجهيزها بأشياء

(٢٩) يحكى انهحدث فى الأزمنة الاولى لحياة الاديرة ، أن شكا الرهبان من ضيقهم بحالتهم ، ومن. انه لا ينمو حولهم فى وحدتهم القاحلة تلك اى نبات . ولكى يقوى القديس افرام من حماسهم ، ويزيد من ايمانهم ، فقد أمر أحد أتباعه بأن يزرع عصاه فى الرمال، مخبرا اياه أنها ستغدو شجرة، وبعد فترة تردد أطاع الراهب الشاب . ويقال ان المعجزة قد حدثت وان العصا قد مدت لها جذورا وأنبثت لها فروعا ، وانها هى نفس الشجرة التى لا تزال تنهض حتى اليوم وتحمل اسم شجرة القديس افرام أو شجرة الطاعة .

(30) *Tamarindus indica*, lin.

(٣١) يبلغ عبق هذه البئر خمسة أمتار ، وهى على شكل مربع ، طول ضلعه متر وثلاث المتر ويبلغ ارتفاع الماء بها أقل من المتر بقليل .  
(٣٢) يقال لها ايضا. وبشكل أكثر شيوعا : بردق ، وهذه الكلمة الأخيرة تركية ، والقلل عبارة عن آتية مصنوعة من الطين المعد والحروق، بطريقة تسمح بنسوغ خفيف للمياه ، وهى تستخدم فى تبريد الماء ، وذلك بتعريضها ، هى ، لتيسل الهواء .

مقلدة .. وهكذا نبدا من المصاييح الفضية نجد لديهم مصاييح من بيض النمام لها تأثير جميل لحد لا بأس به .

رجال الدين هؤلاء ، هم فى العادة عور أو عيسان ، ولهم ملح وحصى ، حزين وتلق ، ويعيشون على بعض الدخول ، وبصفة أساسية على المطايا والاحسان ، ويتفقون على الفول والعدس المطبوخ بالزيت ، ويتفقون وتتهم فى الصلاة ، ويحترق البخور فى هذه الخلوات التى يحيط بها بحر من الرمال .. ويعلو الصليب التباب عالية الارتفاع .. ويوجد تسعة من الرهبان فى دير براموس وثمانية فى دير السريان ، والثنا عشر فى دير الأثبا ييشوى وعشرون فى الدير الرابع ، ويعنى بطريك القاهرة برعيا هذه الأديرة الأربعة .

إننا فى الحقيقة لنجهل ما تكون عليه مباهج وملذات حياة هؤلاء الرهبان الورعين والمتوحدين ، فنحن لم نلمح شيئا يمكن أن يشتم منه أنهم يمتنون بتكتيف أرواحهم ، ولا بتثبيط أيديهم . والكذب الذى بين يديهم ليست سوى مخطوطات صوفية مكتوبة على رق أو على أوراق من الفطن ، وبعضها مكتوب بالعربية ، وبعضها الآخر مكتوب باللغة القبطية ، وعليها فى الهامش ترجمة عربية ، وعندما نصلحنا المخطوطات الأخيرة ، وجدنا أنها ربما تعود الى ستمائة عام . وقد عبرنا داخل هذه الأديرة ، ووقفنا على كل تفاصيلها ، وقد أخذ الرهبان بسرور بالغ استعدادهم لزيارتنا هذه ، وعدوها بمثابة تقدير لهم أرضى كبرياءهم .. وقبل خروجنا تغلبنا خبز القربان (٣٣) الذى قدموه لنا .

ويقوم رجال الدين تجاه الرهبان بواجب الضيافة الإيجالية . وهم مضطرون أن يكونوا على الدوام فى كنف حراستهم ، ولذلك فهم عندما يذهبون من ملجا لآخر ، لا يفعلون ذلك الا فى أثناء الليل ، ويمر الرهبان بالأديرة أثناء جولاتهم ، ويتوقفون ليتناولوا طعامهم ، ولكى يستريحوا ويرجعوا خيولهم ، ويقدم اليهم الرهبان واجب الضيافة هذا من وراء الجدران ، ذلك أنهم لا يفتحون لهم الأبواب مطلقا ، غلبة بكرة موضوعة

---

(٣٣) يصنع خبز القربان دون خمور ، وهو مستدير ، ويبلغ سمكه سنكه الأصبع ، وهو فى حجم كف اليد ، ويغطى بمطحه بحروف عربية .

على إحدى زوايا السور ، الغرض منها أن تنزل بواسطة حبل قفة الخبز والخضار والشعر المخصص لهم . وهم مضطرون للسلوك على هذا النحو حتى لا يتعرضوا عندما يقابلهم العربان خارج الدير للتهب بلوالقتل على أيدي هؤلاء . وحيث أنهم يعيشون في وطأة هذا الخوف والقهر فانهم يتحللون بنفاد صبر متعصبى الديانة المسيطرة . وتلك هي الامة الرهيبة لهذه الافكار المسبقة ، التي تؤدي الى ان يكون اختلاف الدين ، بل وحتى اختلاف المذهب سببا في خلق اعداء متباغضين في هذه البلاد ، ليس فقط بين أتباع المسيح واتباع محمد ، بل وحتى في داخل الاسلام نفسه بين أولئك الذين يتبعون مذاهب مختلفة في اطار الدين الواحد ، وكان الرهبان يسألوننا — وكأنه امر ديني مقدس وبلهجة لا تخلو من غرض — وماذا سيكون موقفكم من المسلمين (❦) ؟ ولم يكن هذا اول سؤال من نوعه يوجه اليها ، فقد وطئت اقدامنا ارض مصر .

ومع ذلك فان المصلحة والخراطة تقربان في بعض الأحيان بين هؤلاء الخصوم الطبيعيين ، فيحدث على سبيل المثال في مناطق معينة أن يرسل مسلم ، يريد أن ينشئ برجا للحمام ، الى اديرة الصحراء التماسا مصحوبا بهدية مناسبة ، ويتقبل الرهبان الورعون الهدية ، ويعطونه في مقابلها بلطافة بها عبارات دينية ، من شأنها ، عندما توضع في البرج وحسب الاعتقاد الشائع ، أن تجعله مزدحما بالحمام ، وأن تجلب له البركة والازدهار .

## الفصل الرابع

### عن عرب الجوابى وعن البدو

يتردد على شواطئ بحيرات النطرون كل عام عربان الجوابى (٢٤)، وهم أبناء قبيلة عربية رحالة ومضيافة ، وتمسك هذه القبيلة هناك مع قطعانها فى فصل الشتاء . ويعمل هؤلاء العربان فى خلال هذا الفصل من العام فى نقل النطرون والسمار ، كما يقومون بنقل البلح ، ولكى يحصلوا عليه ، يذهبون فى شكل قوافل الى سيوة ، واحة آمون ، ويستقروا فى رحلة الذهاب الى هناك من ١٢ الى ١٥ يوما . وهؤلاء العربان يعيشون فى حالة سلم دائمة (٢٥) ، فهم مسالمون ، يتجولون هنا وهناك بحثا عن المياه والمراعى لمشيبتهم . وتحفظ هذه القبيلة أكثر من سواها بالمعاداة القديمة ، وأبناؤها رعاة بسيطة لا يميلون لاحتراف الزراعة . وهم رقيقو الحاشية ، لطيفو المعشر ، ولا يحسون بأذى غشافة من نوع الحياة التى يحيونها . ومع ذلك لمواطنهم متاجرة ، وبخاصة عاطفة الحب ، الذى هو صنو للغيرة فى كل البلدان ، وخاصة عند الشرقيين . وقد تدفعهم هذه العاطفة فى بعض الأحيان الى سلوك متطرف ، بالغ القسوة (٢٦) .

---

(٢٤) رؤساء قبيلة الجوابى هم الشيوخ : تراميط أو غالب ، وهو شيخ القبيلة الأكبر ، والحاج عيسى أبو على ، والصاح طه أبو ديل ، وتتكون هذه القبيلة من حوالى ألف رجل ، وقد يصل عدد ممتلك من خيول الى السنين .

(٢٥) أناس مسالمون ، لا يبدؤون مطلقا بشن الحرب ، ولا يشهرون السلاح الا للدفاع عن النفس ، وهو أمر نادر الحدوث ، وهم ينصرفون عادة لكسب المال .

(٢٦) هواد ، رب لأسرة كبيرة العدد ، وشيخ مسن يخطئ بالاحترام ، ومن أتباع الحاج طه ، وذات يوم وجد ابنه الوحيد قتلا الى جوار زوجته ، وكانت تلك متزوجة من قبل من رجل آخر ، طلقها لبعض التعللات الواهية ، ولما كان هذا الأخير مجنوننا بحبها لدرجة السمار ، فقد اتسم

وملابس الجوابى ، حرام ويرنس وهو نوع من المعطف الذى يشبه الغفارة التى تستخدمها الكنيسة الرومانية عند اقامة قداس ، وهو من الصوف الأبيض . وتستخدم هذه الأقمشة فى صنع ملابس الرجال والنساء ، وهى تصنع فى النوبة ، ويشتريها العربان من القاهرة ، وبصفة خاصة من الاسكندرية . . وتغزل النسوة وير الماعز ليصنعن منه اقمشة الخيام وبعض البسط المعالية .

وتتمثل ثروة الجوابى ، وعموما كل عربان الصحراوات ، فى الجمال وقطعان الأغنام والماعز ، بينما تتمثل ثروات من استوطنوا القرى منهم فى الماشية الكبيرة وقليل من الجمال . ومن ذا الذى كان يسدور بخذه أن الثروة فى وسط هذه الصحراوات القاحلة ، شأنها فى ذلك نفس شأنها عند الأمم المتحضرة ، يمكن أن تصنع هذا التهليز وتبتعد بأصحابها عن حياة الفطرة ؟ فليست كل الأمهات العربيات يرغبن بأنفسهن أطفالهن ، إذ تتخذ الثريات منهن لأطفالهن مرضعات . أما أولئك اللاتي لا يسلن أبناءهن لامهات ماجورات ، فيعبرن فيما يبدو الأهلية التى توحى بها هذه السن الحنون للشعوب المتحضرة . وعند الهجوم على مخيم عربى ، لم يتخذ احتياطاته الكافية ضد المفاجآت ، يركب الرجال على الفور خيولهم ويهربون سريعا تجاه النيل ، وتبقى النسوة وحدهن مهجورات ، ولكى يفتقن بطشى جنودنا وإبطاء زحفهم يتساقون على نحو ما بأطفالهن ويضعنهم أمامهن ، وقد يتم هذا من جانبهن بدافع من الغريزة وحدها ، كما قد يتم بعد انعام للمفكر ، لكن مثل هذه العقبات لم تكن لتوقف زحف رجالنا الشجعان ، فكاتبوا يلتقطون أثناء جريهم هذه المخلوقات البائسة ويحولونهم ثم يودعونهم على مقربة من امهاتهم ويواصلون ملاحقة الأعداء .

---

هذا المخبول أن يقتل بيده من يتزوجها . وكان عند كلمته ، وحيث لم يستطع هواد أن يتحمل رؤية قتال ابنه ، فقد انسحب الى الصعيد ، فجر معه ، دون قصد منه ، العديد من الأسر ، وحين لاحظ هذا الأب المسكين أن انسحابه قد أدى الى حدوث اضطراب فى القبيلة ، فقد أثر أن يكظم آلامه حتى لا يؤذى الصالح العام لقبيلته ، فعاد الى كنف الحاج طه ، لكنه كان يشاهد على الدوام حزينا وعيناه مليئتان بالدموع ، وعاش حياة مليئة بالألم والضنى .

ومن المسير الا تنحب الفوضى فى مخيم استولى عليه عنوة ، على هذه الحال ترى النسوة العربيات وهن خائفات من ان تطبق عليهن شريعة المنتصر ، ويلجان كى ينفرن منهن رجالنا ، الى تكتيك شاذ وهو ان يلطخن وجوههن بروت البقر .

ويحمل عريان الصحراء اسم عرب الخيش اى عرب الخيام ، اما السكوتون خلف الجدران ، فقد كانوا فيها مضى عربا رحلا ، وعندما اقتربوا من بلدان مزروعة ظلوا لفترة تحت الخيام ، ثم بدأوا شيئا فشيئا يبتنون لانفسهم بيوتا مثل بيوت فلاحى مصر .

وليس هناك عقد يربط افراد قبيلة ما بشيخها ، ويعود هذا الشيخ على معظم الاحيان الى اصل ضارب فى القدم ، يسر الناس ان يعرفوه ، ومع ذلك فعليه لكى يصبح على راس قبيلته ، ان يستخدم الاقتناع والمهارة والبرونة ، وباختصار كل الكياسة المفترضة فى حكم ماهر ، اذ ان عليه فى الوقت نفسه ان يعقد السلام او ان يشن الحرب ، وان يقضى فى كل مايمكن ان يكون نافعا للقبيلة .

وما ان يعقد سلام مع قبيلة او ما ان يتم تعامل معها حتى يخلع على شيخها جبة وشال . وعادة تقديم الهدايا امر مستقر ، حتى انه لا يتيقن ان الاتفاق قد تم بدون ذلك .

ويتفاوض شيوخ العرب فى كرامة او مع استخدام العنف لكل المخطئين . ان مايسمونه اكل العيش والملح مع الحلفاء الجسد ، ذلك الامر الذى يحظى بالاحترام فيما يقال ، ليس سوى فعل شائع املته العادة ، فلقد برهن عريان ضفتى النيل انهم لا يحترمون العهد ، فهم ينتهكون الموائيق التى وضعوها ذات حين ، حين املى عليهم ذلك ضعفهم او مصلحتهم .

وعندما يذهب العريان للقاء شخصية يحترمونها ، فانهم يتركون خيولهم على بعد مائة خطوة ، ثم يتقدمون اليه سائرين على اقدامهم .

ولا يعرف العريان قوانين اخرى غير قانون القصاص ، وحيث لا يوجد قانون رادع ، ولا قضاة يستطيعون تنفيذه فسوف يبقى القتل بلا عقاب



ما لم يأت الاغتيال ، ليعايل هذا الضرب من ضروب استخدام القوة ،  
وعندئذ لما ما ننظر اليه نحن على اعتباره جريمة او جبناً ، يغدو انتقاماً  
بشروعاً يتابعه أهل القتل من جيل لجيل .

وتغذى الاغتيالات نوازع الحرب من قبيلة لآخرى ، او بين القبائل  
والقرى ، ويقتل عندئذ أن بين هؤلاء نما . وفي بعض الأحيان يضطر  
الناس أن يدفعوا ثمناً لاعادة شراء الدم واحلال السلام « الدية » ، وان  
كان ينظر الى ذلك باعتباره عاراً ، وعندئذ يصبح على الضعيف المتخاذل  
أن يدفع جزية مضاعفة للأقوى . . أما القرى التي ترفض أن تدفع فتتعرض  
للسلب والنهب ثلاث مرات ، ويصيب مثل هذا السلب القرى بالفرع ،  
وينظر الفلاحون الى العربان كما ينظرون الى وباء مخيف . سألت مرة  
احد مشايخ قرية ما : هل حل الطاعون بقربتكم هذا العام ؟ فاجاب ، نعم  
مرتين ، نلقد حل الطاعون والعربان .

والغرام بالموالد الذكر امر ذو مذاق طيب ومرغوب عند العرب ، كما  
هي الحال عند كل أهم الشرق .

ويؤدي العربان الصلاة خمس مرات في اليوم ، ويتناولون الطعام  
قبل صلاة الظهر وقبل الصلاة الأخيرة « العشاء » عند انتهاء الغسق ،  
ويكفي طعام اثنين من سكان القرى لطعام عشرة من العربان ، فهؤلاء  
ياكلون القليل من الخبز ، ويستخدمون لطحن الدقيق طاحونة ذات فراع  
مزودة بشقين صغيرين من الحجارة « رحي » وياكلون كذلك البلع ، ويشربون  
القليل من الماء ، ويفضلون لبن النوق ، ويغامون حوالى ست ساعات في  
اليوم . وقتما يأكل العربان اللحم ، ولا يعرف هؤلاء وجبات البذخ :  
مخروف محمر يقدم بأكمليه بعد تقطع رأسه ، هو الوجبة الفاخرة لديهم ،  
وهذه ، لا يقدمونها الا ترحيباً بزائر كبير أو شيخ هري .

ولا يبالي العرب بقياس الوقت الا لمعرفة اوقات الصلاة . ويتحدد  
الوقت بقياس طول ظلمهم ، ويقيسون هذه الظلال بقسديهم عريتين ؟  
ويضعونها واحدة امام الأخرى بالتبادل : ويرون — كمعايدة عامة — ان  
الظهر يتحدد صيفاً عندما يبلغ طول الظل قدماً واحدة والشمس عمودية .  
ويتحدد نفس الوقت شتاءً عندما يبلغ طول الظل تسعة اقدام . اما الفترة

الفاصلة بين منتصف النهار وغروب الشمس « العصر » فيتفق جلولها سيفا عند بلوغ طول الظل سبعة أقدام .

ويعتقد العربان بسبب جهلهم وسذاجتهم بأن علاج الحمى وعلاج قبة الأمراض ، يتم بأن يوضع تحت راس المريض ورقة تحتوى على بعض كلمات سحرية ودينية كتبها أحد الدراويش . وهنا ينالم المريض وهو شديد الثقة فى هذه التذكرة « الطبية » ، وأكثر من ذلك فى قدرة العناية الإلهية .

ويجد النسوة العربيات عند نهاية فترة الحمل ، عند فلات جنسهن ، العون والمساعدة فى عملية الرضاعة ، ويؤكد البعض أن الفتيات أو النسوة الإرامل اللاتى يصبحن حاملات يقتلن على يد أهليهن ، هذا أن لم يقتلن أنفسهن بأنفسهن .

ويخشى العربان كثيرا وباتى الجدرى والطاعون . ويسارع الأشخاص الذين لم يصابوا مطلقا بهذين المرضين الى الابتعاد عن أولئك الذين يصابون بأى منهما . ويترك الجدرى ندوبا كبيرة ، ورغم كل أفكارهم الدينية المسبقة ، يقوم العربان باحراق جثث الذين ماتوا بالطاعون ، ويولون ذلك الأمر عناية شديدة .

ويقدر عمر الأطفال بالنسبة الى أحداث أو فترات معينة ، وهكذا فإن مواليد هذا العام ستقدر أعمارهم بالنسبة الى دخول الفرنسيين الى مصر . ولدى العربان نوع من التقويم يغطى حوالى ستة أعوام . وليس ثمة سجلات عامة ، لذلك يكتب تاريخ مولد الطفل على قطعة بالية من الورق ، أو على صفحة من القرآن ( السكرم ) كما يكتب تاريخ ميلاد الأطفال فى الثرى على أبواب المنازل أو جدرانها .

ويؤدى بهم نقص الأدوات الطبية الى ممارسات شاذة لعلاج جروح الأسلحة النارية ، يهدفون من ورائها الى الاستعاضة عن آلات الجراحة ، لاجراخ المقذوفات النارية التى لم تصل لأبعد من اللحم ابلأ فى الشفاء ، وهذه الممارسة هى مطابقة شق أحدث فى الجزء الخلفى لضفدة بشق الجرح وربط الاثنين برباط محكم ، ويؤمن العربان أن الحركة المرتعشة التى تحدثها الضفدة وهى تموت كخيلة بجذب المقذوف الى الخارج .

وينظف العربان الجرح بالزيت أو الزيت ، ويكونه بالجنزار ، حتى يمنوه أن يلتئم قبل الألوان ، ولنفس الغرض ، ولكى يساعدوا المصاب على التحمل الجليل ، يضعون فى الجرح زلطة صغيرة ، وهو امر يماثل الكى الذى نستخدمه لهذا الغرض فى أوروبا .

ويصحب العربان معهم أينما ذهبوا ، الجزء الأكبر من ثروتهم ومثونتهم ، ويحتفظون فى مخيمات أقامتهم بالقش المهروس « القش » والحبوب ، وذلك فى تجويفات كبيرة محفورة فى الأرض . وتحدد مجاورة الآبار العذبة وبعض قطع الأرض ذات الإنتاج الضعيف ، أو البحيرات الملحة التى يقدم استغلالها بعض النفع — يحدد كل هذا اختيار مكان مخيماتهم ، وبالإضافة الى ذلك فللعربان على مبعدة أربعة أو خمسة « فراسخ » من مشارف الأرض المزروعة ، مخازن مسورة بسور عال . وإلى الأبعد من ذلك ، فى الصحراء ، توجد مستودعات فى الرمال توضع عليها علامات لا يعرفها الا أصحابها .

ولكى يحتوى الجوابى من سلب وانتهاك القبائل الرحل لهم ، فائهم مضطرون لاستضافة هؤلاء فى مخيماتهم ولتقديم الشعر لجمالهم ، ولا يعرف العربان الرحل « البدو » أى نوع من القوانين ، وقد كانوا على الدوام فى عداء مع الحكومة الأخيرة التى كانت قد توصلت ، برغم ذلك و بعض الظروف ، الى تضييق الخناق عليهم لمنعتهم من دخول مصر .

ومنذ بضعة أشهر أخذت فقيت الهنادى (٣٧) ينشدن لنا :

عاش الشعب الذى طرد مراد من القاهرة .

عاش الشعب الذى أتاح لنسا أن ترى القرى .

عاش الشعب الذى جعلنا ناكل الفطير (٣٨) .

(٣٧) شيخ القبيلة الرئيسية من قبائل الهنادى ، هو موسى أبوعلى، ولهذه القبائل من ٢٠٠ الى ٤٠٠ حصان . ويرتفع الرقم الى ٩٠٠ — ١٠٠٠ اذا ما أضفنا ما تملكه القبائل الصديقة والمحالفة معها من خيول ، ولعل الهنادى هم أقدم القبائل اللبية التى يتعرف عليها المرء فى مصر .

(٣٨) نوع من الفطائر المورقة والتى غمست أوراتها فى السمن ، ويأكلها الناس مغموسة فى عمل الفحل ، وكثيرا ما تؤكل مغموسة بالعسل الأسود .

ولكنهم منذ تمكنا بفعل إجراءات عنيفة. ان نتمتع سلبهم وانتهاهم ،  
 قد كفوا عن الترحيب بنا . وينبئ للمرء ان يحترس من العريان بالقدر  
 الذى يحتوى به من اللصوص والسفاحين . وهم لا يوحون بأية رهبة  
 كثرقة مسلحة مادام هناك من يقاومهم او يزحف عليهم ، وفضلا عن ذلك  
 فلقد توغلنا « نحن الفرنسيين » فى الصحراء التى كانوا يظنون انفسهم  
 فى منعة فى جوفها ، ولم تعد هذه الرمال القاحلة بغريبة علينا .

والعريان مسلحون بحراپ (٣٩) يستخدمونها بمهارة ، ويتذفونها  
 وهم مستطون خيولهم لكنهم يجحفون بخيولهم الطيبة وذلك بإيقاعها نجاسة  
 على تدبجها الظفيتين ، وهى تجرى بالتمس سرعة وان كانوا فى نفس  
 الوقت يبنلون تصاراهم للمناية بها الى حد لم نسمع به من قبل . ولا  
 يفر العريان مطلقا وهم على هيئة صفوف لكنهم يغيرون متفرقين ، وهم  
 يطلقون صيحات عالية تختلط بسببب بذيء ، وطريقتهم فى الحرب هى  
 الطريقة التى تتبعها الفرق الخفيفة .

والخيول العربية شديدة السرعة . ويطلق الفرسان لها العنان  
 فون ان يتركوا السرج الذى يمسكون بها بيسدهم اليسرى ، وهم يحلون  
 على عدوهم ، فاذا قتلوه سلبوه ، وفى بعض الأحيان يحزون رأسه ويحملونه  
 على طرف حراپهم فليسلا على النصر ، وعندما لا يحرزون النصر يعودون  
 ليحملوا على عدوهم عن مينة او عن ميسرة او يسعون لتحسين وضعهم  
 بارتقاء الامكن العالية .

لكن العرب فى العادة مسلحون على نحو غير جيد ، وبارودهم  
 واسلحتهم النارية بالفة الرداءة ، والبارود مخلف بطريقة شائنة .  
 وكعبة الفحم به اكثر مما يلزم ، وهم يحملونه فى علب مصنوعة من الخشب ،

---

(٣٩) الحربة ، قطعة حديد مربعة الشكل ، تنتهى بسن مشحودة ،  
 وتثبت فى عصا يبلغ طولها من أربعة الى خمسة أمتار ودرجة اختراق  
 الحربة أقل من درجة اختراق الرمح ، الذى تكون حديته مسطحة ، لكن  
 الجروح التى تحدثها الحربة ، بتواليها ، تكون اقصى والخطر من جرح  
 الرمح ، اذ تسبب الاصلابة بالفتاتوس ، ويحمل العرب الذين يقطنون  
 حول النيل الحراپ والرماح ، فى حين يحمل عربان ليبيا الأسلحة النارية .

كما يحملون الطلائع بشكل منفصل في حقيبة من الجلد ، ومن النادر أن يعقبوا بناقتهم بالخراطيش .

وكان من عادة العرب المتأخمين لصر أن يرسلوا الى بولاقجواسبس يتخفون في هيئة فلاحين ، وكان هؤلاء يتعرفون على نوع وحجم الفرق التي كانت تخرج من القاهرة للزحف عليهم ، ويذهبون لتقديم تقرير عن ذلك ، وعلى الفور كانت القبيلة ترفع خيلها وترسل الى أعماق الصحراء بالنساء والأطفال وكل ثمين لديهم ، ويمشى العرب لعدة أيام حتى ينهكوا خصمهم ، وفي هذه الأثناء تتجمع القبائل المتحالفة ليقرروا أن كانوا سيهجمون ومتى ، أم أن عليهم أن يكتفوا بصد هجوم العدو .

وتقيم المخيمات نقاط استطلاع فوق المرتفعات ، ويضع أفراد هذه النقاط عمائمهم فوق رماحهم ، فان رأوا أن من الأفضل أن تقوم مخيماتهم بالهجوم يتجه هؤلاء ناحية العدو أو الضحية التي قرروا الاغارة عليها ، إما في الحالة المضادة فيعودون الى جهة المخيم .

وعندما يخشى العرب من هجوم العدو عليهم ، يتفرقون في مخيمات كثيرة العدد ، ويستكشفون العدو عن بعد كبير ، ويحتفظون بالجمال بمقيدة بالقرب من الخيام ليكونوا مستعدين للفرار في اقرب وقت .

وعندما يشتبك المخيم مع قبائل أخرى ، تظهر الفتيات على مزاي من المتصارعين ، ويضربن على الدفوف ، وترن في الهواء أغانيهن لتهلج احبائهن ، ويستقبل الجرحى بعناية كبيرة من زوجاتهم وجبيباتهم . . . ويقدّر هؤلاء النسوة الشرف حق قدره ، ويزيد تقدير القبيلة لشيوخها كلما زاحمت الندوب في وجهه « دليلا على ما تلقى من جروح دفاعا عن الشرف » لهذا الشرف ، الذي هو دعمة الأباطوريات ، يقوم بالدور نفسه عند هذه العصب اليائسة من اللصوص .

وينظر الى معركة يهلك فيها عشرون أو خمسة وعشرون رجلا على انها معركة دامية ، وتظل نكراها محفوظة في تاريخهم .

وعلى الجيش الذي يزحف في الليل سعيا وراء العربان أن يحذر من خطأ يجعله يتوهم أن ثمة مخيمات حيث لا وجود لأثر لها ، وينتج هذا

الخطأ — وهو يحدث كذلك في حروب البحار — حين تظن اشعة النجوم  
من بعد على أنها نيران العربان .

ولقد اوجبت الطبيعة على الإنسان حين وهبته غريزة التكاثر ، ان  
يسعى لبقاء نوعه . ويميش في تخوم مصر اربعون ألف عريبى لا يجدون  
في رمالهم القاحلة اى مصدر لحياتهم ، وهم ينظرون الى ارض مصر  
باعتبارها مقارا لهم . وتحت هذا الادعاء ، يأتون اليها ليمارسوا آلاى  
الانتهاكات والسرقات ، ولقد سمعت كل حكومات مصر الى ردعهم ، لكنها  
لم تنجح في ذلك كل النجاح .

وفي خضم هذا الصراع ، وجد الفلاح المسكين نفسه يرتعد فرقا من  
عمال « موظفى » الحكومة ، الذين يعتمرونه ويثقلون كاهله ، ومن  
العربان الذين ينتهبونه ويسفحون دمه .

لقد كان هذا على الدوام قدر شعب مصر ، وكل ما نأمل فيسه ان  
يتحسن مثل هذا القدر .

خط سير دائرية الاستطلاع التي مرت ببجيرات القطرون  
والنهر الفلرخ

ملاحظات	عدد الساعات	عدد الامتار	المسافة المقطوعة مدينة بالامتار أو مقدرة بالساعات
بالنسبة للتوافل	١٢	—	من الطرانة إلى القصر
	—	٦٢٨	من القصر إلى البحيرة رقم ٣
	١ ½	—	من القصر إلى الطرف الجنوبي للبحيرات
	٤	—	من القصر إلى الطرف الشمالي
	—	٧٢٣١	من القصر إلى دير براموس
	—	٧٤٣٠	من القصر إلى دير السريان
	—	٩٢٥٨	من دير براموس إلى دير السريان
	—	٤٤٤٠	المسافة بين دير السريان ودير الأنبا بيشوى
حسب الاستدلال	٣	—	من دير السريان إلى دير الأنبا مقار
حسب الاستدلال	١ ½	—	من دير براموس إلى النهر بلا ماء
مع الاتجاه شمالاً وجنوباً	١ ½	—	من دير السريان إلى النهر بلا ماء
حسب الاستدلال	١	—	من دير الأنبا مقار إلى النهر بلا ماء
			من دير الأنبا مقار إلى وردان عن طريق
	١١	—	ميت سلامة

وصلنا في الخامس من بليغوز ( ٢٥١ يناير ) إلى الطرف الشمالي  
للبحيرات ، ووصلنا في السادس منه إلى دير براموس ، وفي السابع  
منه عبرنا النهر بلا ماء .

**الزوايا التي سارت عليها بعض اتجاهاتها  
بالنسبة لخط الزوال المغناطيسي**

١٦٢ . . . . .	الاتجاه من القصر الى دير براموس
١٨٠ . . . . .	الاتجاه من القصر الى دير السريين
٤٤ . . . . .	الاتجاه العام للبحيرات
٧ . . . . .	الجانب الشرقي لوادي السريين
١٠ . . . . .	واجهة الدخول الى دير الأنبا مقار شمالا وجنوبا
	اما مداخل الأديرة الثلاثة فتطل جهة الشمال .



الدراسة الثالثة

دراسة موجزة عن عيون موسى  
ج. م. م. م.



على الشاطئ الغربى لخليج السويس ، وعلى بعد أربعة فراسخ الى الجنوب من الدقة ، ويكاد يكون فى مواجهة وادى النيه ، توجد منابع مياه رسمتها كل الخرائط ، تعرف باسم عيون موسى ، ولسوف نرى فى خطأ بين اذا ماقلنا ان اسم هذه الينابيع يستند اصوله من المصور المصرية الضارية فى القدم ، وانه تد ظل يستخدم بلا انقطاع حتى اليوم ، ذلك ان اسم هذه الينابيع شائها فى ذلك شان عين العنقاء فى المطرية « هليوبوليس القديمة » ، وشان عيون غيرها كثيرات ، لا يعود الى ما قبل وقت استقرار المسيحية بمصر ، حيث تحولت اسماء قديمة ، تتصل بديانة ترعزت مكائتها ، الى اسماء أخرى مشابهة ، فى المعتقدات الجدية .

وعلى الرغم من ان عيون موسى اقل ملوحة من مياه آبار كثيرة حفرت فى مناطق أخرى من الصحراء ، فانها مع ذلك مائلة الى الملوحة ، ونتيجة لهذا الابر ، فليس من خاصيتها ان تروى من الظبا بقدر ما تروى المياه العذبة ، وان كانت تكفى للابقاء على حياة النباتات والحيوانات ، وقد رويينا منها لمدة أربع وعشرين ساعة اثناء زحف شاق ، لكننا لم نسغ طعمها . ومن جهة أخرى بحيث ان هذه المياه تجرى وتتجدد بصفة مستمرة ، فانها رائقة على الدوام ، وليست لها لا رائحة ولا مذاق غير مناسبين ، فى الوقت الذى تتمكر فيه مياه غالبية الابار عادة ، بفعل الاهتزاز الذى تحدثه حركة الاغتراف منها ، والتي لها على الدوام رائحة كريهة مقززة ، وعلى سبيل المثال فان بئر العجروود الرائعة على بعد أربعة فراسخ الى شمال السويس ، والمخصصة لسقاية محمل مكة — بعد مسيرة ثلاثة ايام من القاهرة ، وهى محفورة على عمق مائتى قدم — تتحلل وتنفع فيها الواد الحيوانية والنباتية ، التى لا يستطيع احد ان يتفادى سقوطها فيها ، ولذلك فان مياهها — بخلاف قدراتها الطبيعية — رائحة كبريتية يتحللها المرء بصعوبة .

ولا بد ان عيون موسى كانت على الدوام بذات نفع كبير لعرب الطور ، الذين يسكنون ضواحي جبل سيناء . فالعرب مضطرون على الدوام ان يجلبوا من مصر بعضا مما يحتاجونه من مواد تموينية ومصنوعات اجنبية ،

وعليهم في مقابل ذلك أن يحملوا إليها منتجات الغابات الصمغية التي تغطي جبالهم ، ولم يكن هذا التبادل ليتم إلا عن طريق قوافل كان عليها على الدوام أن تتخذ من عيون موسى واحدة من محطاتها . وبغضلا عن ذلك . مما أن كانت تتم منشآت بحرية في أعماق الخليج ، وليكن في السويس ذاتها ، أو في وادي التيه ، أو على الطريق من البحر الأحمر حتى ممفيس . . حتى يكون من الضروري أن يتردد الناس على هذه العيون ، لأنها مصدر لاغنى عنه ، بعد أن تنضب مياه الخزانات التي تكونها مياه الأمطار إذا ما مرت فترة من جفاف طويل .

لكن الوقت الذي كلفت فيه عيون موسى — فيما يبدو لنا — تجذب أكبر قدر من الاهتمام ، هي تلك الفترة التي دارت فيها الحرب ، التي تحالف خلالها البنادقة والمصريون ضد البرتغاليين ، بعد اكتشاف طريق إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح . فمن المعروف أن هؤلاء الجمهوريين ، كى يدافعوا عن صولجان التجارة الذي احتفظوا به حتى ذلك الوقت ، والذي بدأ انهم سيفقدونه ، قد انشأوا وسلحوا أساطيل لهم في السويس ، ولكن ليس من المحتمل على الإطلاق أن يكونوا قد ألقوا ترسانات لبناء السفن عند عيون موسى ، إذا لا يقدم موقعها أية ميزة في هذا الخصوص ، ومع ذلك فيبدو أنهم قد انشأوا هناك موردا لتزود منه السفن بحاجتها من المياه ، لكن لم يبق شيء من آثار هذا المورد على الإطلاق ، لقد تبدد كل شيء أو قل لقد استهلكه العربان ، ولا يجد المرء هناك أية آثار أخرى إلا أساسات ، جزء كبير منها تحتى ، وهذه الآثار التي لا تزال هائلة والتي لم نكتشف إلا جزءا منها في ذلك الوقت القصير الذي أمكننا أن نخصصه لها ، هي بالدرجة الأولى انقراض خزانات كبيرة شيدت بعناية . وكانت تجلب إليها مياه العيون عن طريق ترع مغطاة وكانت المياه تنتقل منها بواسطة قناة حتى شاطئ البحر . وقد اكتشف الجنرال بونابرت هذه الترع المغطاة بكل طولها الذي يبلغ من ٧٠٠—٨٠٠ قامة\* ، وقد بنيت من مواد بنساقية جيدة ، وكانت مغطاة في كل طولها ، وليس لها من انحناء إلا عند البلاج الذي تسير تحته ، وبعد توقف استعمال

هذه التربة ، أدت الرمال التي جلبتها المياه الى طمسها في الضمين  
قائمة الاولى منها . اما الجزء الباقي ففي حالة جيدة ، بحيث يمكن اعادتها  
الى العمل بأقل المساريف الممكنة . وعلى الشاطئ تنتهى التربة بأكمتين  
كونتهما الانقراض ، ولعلهما من آثار المورد الذي تحدثنا عنه ، ويتضح  
ذلك من الاسم الذي يطلق عليهما . ولابد أن يكون هذا المورد قد بنى  
بطريقة مناسبة ، من ناحية الشكل وطبيعة الاواني التي كان من المعتاد  
استخدامها لنقل المياه أثناء الرحلات البحرية .

وعلى بعد حوالى مائتى غلمة ، الى الشمال من العين الأخيرة ، يوجد  
جبل هائل لحد ما ، وهو يتكون شانه شان جبل تستانشيو Testaccio  
في روما ، من انقاض الجرار وآنية أخرى مصنوعة من فخار سيىء النضج .

وقد اكتشفنا هناك بقايا هي بلا جدال انقاض لأمران قديمة ، اذن  
فقد كان هناك في هذه المنطقة منشأة هائلة لصناعة الفخار ، ولا يمكن أن  
يكون غرض هذه المنشأة الا صناعة الانية الفخارية ، التي تكون السواني ،  
التي بواسطتها تنزح مياه الابار لرى الاراضى التي لايفرقها الفيضان في  
كل أنحاء مصر ، وفي الحقيقة فعندما أصبحت عيون موسى أهلبالسكان ،  
كان كل البلاج الممتد من العيون حتى الشط مزروعا ، وما زلنا نرى فيها  
حتى اليوم عددا لا بأس به من النخيل الصغير ، الموزع بنظام لا يمكن أن  
يكون قد تم مسددة . وتلك النخلات الصغيرة ، وهي غيبة يبدو ليست  
سوى سلالات من اشجار قديمة بلبت ، انما هي على الأقل أقله على  
وجود زراعة قديمة في هذه المنطقة ، ولم تكن هذه الزراعة تتطلب أى  
نزع للمياه من أجل الرى ، حيث كان في مقدور مياه العيون بسهولة أن  
تصل ، من طريق قنوات غير مغطاة الى كل الأجزاء المزروعة ، لذا فهنكن  
السواني ضرورية . ولذلك فاعتنا لم نجد بين هذه الأكادس الهائلة من  
الفتات والحصى التي تكون المرتفع ، الا مايمكن أن يعود الى سوانى لم  
بتغير شكلها منذ أزمنة ضاربة في القدم .

وكل هذه السواني التي رايناها كانت مصنوعة من فخار ذي كفاءة  
عالية لحد كبير ، ونحن نعتقد أن الغرض من هذه المنشأة الكبرى للفخار ،  
هو صناعة الجرار الكبيرة المخصصة لنقل المياه بحرا ، في بلد أدت  
ندرة الخشب غيبة ، بل وربما غيبة الصلابة ، الى جعل صناعة البراميل

أما غير على . لذلك فقد كان أولئك الذين يغدون لجلب المياه من عيون موسى على ثقة بأنهم سيجدون الجرار التي ستستوعبها ، وأنهم سيجدون بنفس الطريقة الآتية الفخارية الأخرى اللازمة لاستعمالهم الشخصي .

وتشكل عيون موسى ظاهرة هامة في الهيدروستاتيكا (\*) فالينابيع المختلفة التي تكونها ، والتي يبلغ عددها ثمانية ، توجد كلها على قمم عدد مماثل من مرتفعات مخروطية صفيرة ، تنتهي كل منها في جزئها العلوي بلوحة تستخدم كحوض للعين ، ومنه تسيل المياه على السطح المخروطي بواسطة قنوات طبيعية ، وعلو هذه المرتفعات يختلف فيما بينها ، وأكثر هذه المرتفعات علوا يبلغ ارتفاعه . { قدما من مستوى الأرض المجاورة ، وقد نصب عين المرتفع الأخير منذ وقت طويل ، ولموهنتا مليئة بالرمال التي كسبتها فيها الرياح ، ولا يزال يرى هناك حتى اليوم ، جذع نخلة قطعها العربان بعد أن كانت قد نبت نمو كبير .

ولقد كان من السهل أن نفهم الطريقة التي تكونت بها المرتفعات التي توجد على قممها العيون . فقد أدت الرطوبة التي نشرتها مياه إحدى العيون في أرض مجاورة ، إلى نمو خضرة دائمة حول حوضها ، وأدت أعشاب هذه النباتات إلى تقليل سرعة الرياح التي تصطدم بها ، مما جعلها تتخلص من كل حبوب الرمل الكبيرة التي كانت تحملها ، وحيث أن سيقان هذه الأعشاب كانت تحمل تلك الرمال التي تحجزها ، والتي ترسب أسفلها ، فقد بدأت هذه الرمال تتناسك بفعل الرطوبة ، حتى تلتصم ببعضها البعض ، مما جعلها تصمد لهبات الرياح بالقوة . . وقد أخذت كربونات أو سلفات الجير التي تحتويها مياه النبع متحلبة ، والتي كانت تتعرض للهواء بفعل البخار ، أخذت تشكل بللورات بين حبوب الرمل وتشكل جلوتينا تكمل هذا الالتحام . ومن هنا فإن حواف الحوض توجد عالية بعض الشيء . وكان على المياه أن ترتفع من منسوبها مع كل ارتفاع للحوض لكي تخرج منه وتصل إلى خارجه ، وحيث أن الظروف التي تؤدي لحدوث ذلك هي من طبيعة يمكن أن تتكرر معها على الدوام ، فإنه يمكن القول بأن عملية الارتفاع مستمرة برغم بطئها ، وبعد وقت طويل يصبح النبع الذي يرتفع منسوبه على الدوام ، في قمة مرتفع

---

(\*) علم دراسة توازن اللواضع وضغوطها . ( المترجم )

مخروطي ، يتكون من مادة رملية وطباشيرية مالحة كميها النبع نفسه ، تخرج منها شرارات تحت ضربات المaul .

وحيث أن النبع الذي يعد حوضه اعلى الاحواض ارتفاعا قد نصب ، فإن من الطبيعي أن نرى أن ارتفاعا يبلغ . ٤ قدما وهو الارتفاع الذي وصل الحوض اليه — هو أقصى حد ، ويعود هذا إلى درجة المقاومة التي تقدر عليها الجدران الداخلية للقنوات التحتية التي تجلب الماء إلى الحوض ، أكثر مما يعود إلى ضخامة قوة الضغط الذي يحدث على قاعدة المرتفع ، وبمجرد أن تتمكن المياه — وهي تحاول صعود هذا الارتفاع — أن تحطم جدران قنواتها ، وأن تتخذ لنفسها مخرج جديدة ، فإن عبونا جديدة تكون قد تكونت ، وتصبح هي السبب في نضوب الأولى ، لتكون بنفس الطريقة ، المرتفعات التي توجد على قممها اليوم هذه العيون .

ومهما يكن الأمر ، فإنه من المحتمل لحد كبير أن عيون موسى لم يكن لها — في هذه الفترة البالغة البعد — من نبع إلا ذلك النبع الذي نصب منذ زمان طويل ، وأن ينبابيع الثمانية التي تغطي مياهها اليوم ، والتي لها احواض أقل ارتفاعا من حوض ذلك النبع الذي جف ، قد تكونت في زمن لاحق ، أو بفعل تحطم القنوات التي كانت تحمل المياه لشدة ضعف جدرانها ، أو بسبب تقويضات تمت بقصد إنشاء مبان مختلفة ، وقت أن كان الناس يترددون على النبع ، وحين كانت المناطق المحيطة بهذا النبع آهلة .

ولابد أن كان من المفيد أن نتعرف على شكل وطبيعة القنوات الطبيعية التي كانت تجلب المياه إلى ينبابيع عيون موسى ، خلال سهل نسيح من الرمال ، تحملت خلاله ضغطا قويا ، قادرا على دفعها كي ترتفع لأكثر من أربعين قدما فوق مستوى أرض هذا السهل ، ولابد أن كان من المفيد كذلك ، أن نحاول التأكد مما أن كانت هذه المياه تأتي من سلسلة الجبال التي تبدأ من سوريا لتنتهي بجبل سيناء ، والتي نلمحها على بعد حوالي أربعة فراسخ إلى الشرق من العيون : لكننا لم يكن لدينا الوقت للتشغال بمثل هذه الأبحاث التي لم يكن يرجى منها أي نفع قريب .





## الدراسة الرابعة

# ثمانية وعشرون يوغا في سيناء ج. سكوتل

العنوان الأصلي للدراسة هو :

ملاحظات حول طبوغرافية شبة جزيرة  
سيناء .. القلاع، المعابد ، الصناعة،  
التجارة ، الشعب والسكان .



يقسم الخليج العربى أو البحر الأحمر ، عند خط عرض ٢٨ شمالاً ، إلى فرعين ، يتجه أحدهما إلى شمال الشمال الغربى ، ويتجه الآخر إلى الشمال الشرقى ، ويطلق على الأول اسم بحر القلزم أى بحر العرب أما الآخر فيسمى بحر العقبة أى بحر الشرق .

وتشكل مساحة الأرض الواقعة بين هذين الفرعين ، والتي تبلغ مساحتها ١٦٠٠ فرسخ مربع والتي تسمى شبه جزيرة الطور ، أو سيناء ، امتداداً للجزيرة العربية الصحيرية ( الصحراوية ) ، وتمتد من خط طول ٣٠° إلى ٣٢° ومن خط عرض ٢٨° حتى خط عرض ٢٩° ٤٥° شمالاً .

وكل أجزاء هذه المساحة الداخلية تغطيها الجبال ، وهى جبال قديمة من الجرانيت والرخام السماتى نى بعض الأحيان ، أو هى تكوينات حديثة من الجبال الرملية أو الحجر الجيرى والجص ( الجبس ) فى أحيان أخرى .

وتنتج الوديان التى تسكنها قبائل عربية عديدة ، بخلاف بعض النباتات الشوكية ، عدداً صغيراً من أشجار ( المن ) وبعض أشجار الأكاسيا ( الست المستحية ) التى يطلق عليها اسم الأثل ، وإذا ما استغنيا بعض أشجار النخيل والتبغ وبعض الحدايق التى تنمو فى سفح جبال حوريب وسيناء وفيما حول الطور ، فلنأخذ أن نجد فى كل شبه الجزيرة أى نوع من الزراعة ولا أية أرض يمكن زراعتها .

كنت قد أبدت الرغبة فى الانضمام إلى الرحلة الذاهبنة إلى جبل سيناء التى أخذتها لجنة الفنون على عاتقها ، فلتقد كان يوم الحكومة الفرنسية أن نعرف بشكل خالص على القبائل العربية ، التى تدفعها الحاجة وتجارة الفحم ونقل البضائع التى تصل إلى السويس عن طريق البحر الأحمر ، للجيء إلى القاهرة مرات عدة كل عام . ونتيجة لذلك فقد أوقف كل شئ من أجل الرحلة ، وكانت قافلة الطور قد وصلت منذ بضعة أيام ، وكانت تهيأ للعودة إلى بلادها ، واقترح على المسيو بليلر Belliard قائد القاهرة أن أسافر معها ، فقبلت ، وشاء المسيو روزير ، خبير المسان ، أن يقتسم معى مخاطر ومتاعب هذه الرحلة ، وكان القائد العام قد سبق أن تعامل مع أهم شيوخ البلاد وخلع عليهم الجبة ، كما

وعدمهم بكائنات سخية مقابل وفائهم وخدماتهم ، وطلب اليهم تقديم بعض  
الرهائن ففعلوا دون مشقة .

### اليوم الاول

خرجنا من القاهرة ، المسير روزير وأنا ، في السليح عشر من  
برومير من العام الثامن ( ٩ اكتوبر ١٨٠٠ ) ، مع شيوخنا الأربعة ،  
ومترجمين اثنين ، أحدهما مصرى والآخر رومى ، وخانئين مصريين ،  
بالإضافة الى العريان الذين يقودون جمالنا ، وكنا تركب نوما من الجمال  
يسمى الهجين .

وعلى الرغم من أن الأمور كانت تحتم اصطحاب حراس ، فقد كان  
الأمر في الواقع مستحيلا في بلاد لا تكاد تنتج شيئا ، بمجرد حمل المياه  
اللازمة لمجموعتنا والتي رومى في كبيتها أن تقي فقط بأبسط الضروريات .  
لم يتم بلا مسعويات من نوع ما ، كما أن اصطحاب هؤلاء الحراس كان  
سيؤدي من جهة أخرى الى تهديد الهدف الذي أخذت على عاتقي أن أحققه ،  
الا وهو دراسة شعب بالغ الفوجس ، لا يولى ثقته لأحد ، ويظن أن أحدا  
لا يمكنه زيارة الصحراء الا بقصد التمهيد لفزؤهم .

لقد بدت لي الثقة القليلة هي الوسيلة الوحيدة للنجاح مع العريان ،  
لذلك لم أشرط عليهم سوى شرط واحد ، هو أن نظل نرتدى ملابسنا  
الفرنسية ، ذلك أن ارتداء ملابس لم تكن معتادين عليها سيكون بالنسبة  
لنا أمرا غير مريح ، كما أن هذا التخلي ( بارتداء زي غير زينا ) قد  
يستثير شكوك العرب دون أن يزيد من درجة أمننا نحن .

كانت القافلة المسكونة من بعض أبناء شبه الجزيرة ، والتي كانت  
تد جلبت الى القاهرة الفحم والبضائع التي أفرغت في السويس ، قد  
سبقتنا ، وكانت قد عسكرت ولابد في الصحراء على بعد حوالي اثني  
عشر ميلا ، وقد لحقنا بها عند نهاية اليوم بعد مسيرة استغرقت ست  
ساعات ، ولم يسمح لنا اتساع المعسكر الا بزيارة جزء منه ، وقد  
بدت على الجميع دهشة مزوجة بالارتياح والسرور ، وبخاصة على  
الشبان منهم ، عندما رأونا . توقفنا بين جسامعت منهم حيث قدموا  
الينا القهوة ، ويبدو أنه قد أثار إعجابهم أن يشعر اثنان من الأوروبيين  
بالأمن بينهم .

## اليوم الثاني

فى صبيحة اليوم التالى رحلنا ، كنت كل العيون مركزة علينا ، وبدا العرب أكثر اندهاشا عندما راونا نازل من فوق الجبال لنمشى بينهم بلا سلاح (١) .

وعندما كنا نريد أن نقدح بعض الزلاط ( للحصول على النار ) كتوا يجلبون النسا أكثرها شفافية اذ يظنونها الفضل ما يصلح ليستعمل كتحاحات . واذا ماتحصنا ملابسهم ، كان شكل قبعاتنا ، وملابسنا الضيقة القصيرة ، والجلد الذى كنا نحس فيه اتدائنا وسيلتنا .. كان كل ذلك يبدو غير مريح ولا نفع من ورائه . وبينما كنت اتفحص بنافهم وخناجرهم سألنى أحدهم أين توجد اسلحتى فأجبته على الفور مشيراً لى اسلحتهم : « هذه هى اسلحتى . ألسنت مسلحة كى تدافع عنى ؟ » فأجبته : « أنت غرسى طيب ، أذهب مع اصحقك الى الطور ؟ » (٢) .

كانت لدى الرغبة فى ان اهرق عدد الرجال والجمال الذين يكونون قاتلتنا ، وكان يستحيل على ان اهرق ذلك عن طريق الشيوخ (٣) ، وبعد محاولات عدة لاحصائهم قدرتهم ثمانية شخص ، ويشم هذا العدد اطفالا كثيرين وبعض النساء ، كما كان هنالك ١٨٠٠ - ٢٠٠٠ جبل من بيننا ١٤ جبلا محملا بالبنسائح الى سوريا ، وتسير فى صحبة احدى قبائل الطور وهى قبيلة لم يسبق لنا التعامل معها . ويقود الرجل الواحد ثلاثة جمال . ولكى يمر خمسمائة جبل فان الامر يحتاج الى خمس عشرة دقيقة ، وقد انفقت قاتلتنا فى ذلك أكثر من ثلاثة ارباع الساعة .

ويحمل كل رجل خنجرا ، لكننى لم احص أكثر من بنقية واحدة لكل ثلاثة رجال .

- (١) كنت احوز سببا بالغ الجبال كان لأحد الممالك ، وكنت اتركه على الدوام متديلا من قرونوس برذعة الجبل الذى كنت أركبه حينما كنت اتمشى بينهم ،  
(٢) طلب العرب نفسى الشىء من المسبو فولتى Volney اثناء رحلته الى سوريا ،  
(٣) لا يعبر اهل الطور عن الكميات الا بكلمتى : قليل وكثير ، وهم لا يعنون لا أعمارهم ولا أعمار أولادهم ، وعندما تملأهم من الامر يجيبون بأنه شىء لا يحتاجون لمعرفته .

استمر السير طيلة اليوم ، وكان راكبو الجبال منهم يندفعون الى الامام فى بعض الأحيان ، ثم يتوقفون لحظة لتناول القهوة ، ويستحق النظام المتبع فى اقامة المعسكر ، والدقة التى يتم ذلك بها ، وقفسة خاصة لتوضيح تفاصيله .

يحدد وجود الأعشاب التى تقابلها القوافل فى بعض مناطق الصحراء المنخفضة مكان اقامة المعسكر ، فهذه هى المناطق التى تبقى فيها مياه الأمطار التى تسقط مرة أو مرتين فى العام لوقت اطول مما تبقاه فى مكان آخر مما يجعل البذور تنمو .

وتتوجه القوافل الى هناك لتستريح بعد مسيرة تبلغ ٨-١٠ ساعات . وأول قبيلة تصل الى المكان هى التى تعسكر أولا ثم تتبعها بقية القوافل على التوالى . ويتم ذلك دون ارتباك أو تخطب . وتشكل القبائل دائرة واسعة ، وتتخذ كل قبيلة مكانها المعتاد فى نفس النقطة من الدائرة ، ثم تنقسم هى بدورها الى زمرات وتتكون كل زمرة من عدة عائلات او من مجموعات تعيش على الشيوع تتكون كل منها من ستة الى عشرة اشخاص (٤) .

وفى لحظة خاطفة تنزل حمولة الجبال ، وتذهب هذه وحيدة ، أو يقودها طفل ، الى منطقة السكلا والأعشاب التى تقع فى بعض الأحيان على بعد ميل من مكان المعسكر (٥) وعندئذ يجرى اثنان أو ثلاثة رجال من كل زمرة ليهربوا عن بعض الأعشاب أو النباتات الجافة بينها يتدح واحد من بقوا القداحة ويشعل النار ثم يحرك الهواء بذيل رداءه ، وينحنى فى بعض الأحيان ليستقبل الريح بشكل منحرف ويوجه الهواء الى النار ، ويقوم آخر بتحميم البن (٦) ويقوم ثالث بمعجن الدقيق وصب الروجاً أو الفطير . وهو نوع من الاقراص ، لا خميرة فيه ، يبلغ سمك

---

(٤) حيث أن القوافل تتكون من نفس القبائل والعائلات فمن المرجح أن يظل نظام المعسكر هو نفسه على الدوام .  
(٥) ليس ثمة ما يدل على الطريق ، فاندحام الجبال واتدام الاتسار لا تترك أى اثر فى هذا البحر من الرمال والزبل .  
(٦) يجمعن البن فى ملعقة حديدية ثم يصحن بعد ذلك بواسطة عصا غليظة فى اناء من الفخار .

الواحدة منها ٧ م ويتناسب حجمها مع عدد أبناء الزمرة الذين يشاركون في أكلها . ويعد نحو أقل من ١/٤ الساعة يكون هذا المجين قد نضج بين الرمال الساخنة وقطع الفحم الصغيرة وبعرات الجمال المحترقة والتي تظل في بعض الأحيان مشتتة بعد نضوج الفطيرة (٧) .

وسرعان ما تنتهي هذه الأعمال التي تستدعي الاعتماد عن المخيم ، ويجلس الناس من حول النار ، ويتناولون القهوة بينما هم يأكلون الروجا ، ويزيد بعضهم على ذلك بعض الحقيق والأرز المطبوخ مع قليل من الزيت وبعض البصل ، ويضيف آخرون الفول والمعدس ، وتنتهي الوجبة على الدوام بتناول القهوة . وتنتهي المناقشات في كثير من الأحيان لساعات طويلة ، فيتحدث الناس عن السفن التي ينتظر قدومها من جدة وينبع ، وعن حمولة الجمال ، وعن المطر الذي طال انتظاره ، وإذا كان ثمة راو للحكايات فاتهم يصفون اليه بالتباه ويضيفون الماء الى ثلث اللبن . ولقد كنت أجلس على مسافة قصيرة من هذه الجيامات متخيلا أنني انصت الى تجمع من أبناء ريفنا .

وعند نهاية النهار تعود الجمال من لقاء نفسها ، وتسمى نحو المكان الذي أزيلت فيه حمولتها ، فإذا أخطأت الطريق اليه ، فانها تسرع نحو صوت سيدتها يناديها .

كنت كل ليلة أقوم بجولة في جزء من المعسكر ، وكانت كل جماعة تدعوني لتناول القهوة وإن استريح على جلد المساعز ، فإذا ما قابلت كانوا يرددون : « طيب فرانسييس ، أنت في الطور ، سوا سوا » أي : « أنت فرنسى طيب ، ناهم الى الطور ، مع أصحابك لك » .

وفي الفد ، قبل انبلاج النهار ، كان الناس يعملون في تحميل الجمال ، بينما يضع الآخرون القهوة والروجة ، ويعد ذلك نرحل . ويستتب النظام ، بشكل تلقائي ، وطبيعي .

(٧) إذا كان العدد أكبر مما ينبغي فاتهم يصنعون أكثر من نظيرة .

### اليوم الثالث

فى هذا اليوم ، عسكرنا فى المعجود ، على بعد حوالى ثمانية أميال من السويس حيث وانتفى الفرصة كى اثنين كم سيكون من الطبيعى ، لو اتنا اصطحبنا بعنا حراسا ، أن تفل الثقة فينا ، والتى كان من مصلحتنا أن نبثها فى نفوس العرب ، فلقد لحق بنا هناك ضابط مهندس ، لم يستطع الامادة من سفر قافلنا ليصبحنا الى السويس . وقد أدركنا هناك ، بعد مسيرة يومين ، وبمع حرسه : لحه العريان عن بعد فلاحظت على الفور تفيرا فى سحتهم وسرعان ملحدت السبب . لقد اعتقدوا اننى خدعتهم ، وأن حرسا قد جاء يصحبنا فى جبالهم . وعلى الفور مررت بعدد كبير من خيامهم وأنا أكرر : اننى اتق فى شرف العرب ، ويحكم أن تتقوا فى شرف الفرنسيين ، سذهب وحدنا ، رغبى وأنا الى جبالكم ، وستصبحونا انتم الى القاهرة ، فهذا الضابط الفرنسى ( الذى ترونه ) ذاهب الى السويس . وكرروا باننا ذاهبون مع أصحاباء . وعسكر الجنود ( الضابط وحرسه ) بينهم ، وفى اليوم التالى علونا السير مما دون تلق أو شكوك .

### اليوم الرابع

سرعان ما تركنا القافلة تذهب كى تضرب خيامها فى عيون موسى بعد أن استدارت حول قمة قلزم السويس . كانت الجمال لم تشرب منذ غادرنا القاهرة اى منذ ٧٢ ساعة ، عندما وصلت الى العيون ، وذهبننا مع شيوخنا كى نعلم فى السويس .

### اليوم الخامس

فى اليوم التالى توجهنا بطريق البحر الى العيون حيث لحقت بنا . جمالنا بعد أن دارت حول قمة الخليج ذى المد المنخفض ، كانت قافلنا تسد غادرت العيون فى الصباح ، وتها كل امرىء للعودة الى تبيلته عبر الجبال ، وانزلت حولة ٩٤ جلا من قافلنا وهى البضائع الذاهبة الى سوريا ، وظلت البضائع فى حراسة بعض أبناء الطور الذين يتعامل معهم التجار لنقل البضائع الى هذه البلاد .



بقينا مع شيوخنا الأربعة ومع العريان الذين يقودون جبالنا ، كنا قد أصبحنا في شبه جزيرة سيناء ، ولم يعد لدينا ما نخشاه من العرب الغرياء الذين قد يكون عليهم دم ينبغي الانتقام له : لكن ما حدث للتجار الذين صحبونا حتى السويس وذلك المصير المحزن الذي كان من نصيب القائد المساعد « ديلانو » (٨) قد برهن لنا أننا لا ينبغي أن ننسى مخاوفنا في رحلة لم تكن نستطيع أن نعرف موعد نهايتها ، إذ يعتمد ذلك على رجوع القافلة الى القاهرة وهو الأمر الذي يتبع بدوره الحاجة التي يمكن أن يشعر بها العرب في نقل بضائعهم الى هناك ، والذي يعود كذلك الى استتباب الأمن في الداخل ، ومع ذلك فقد اتبعنا نفس طريقنا في الرحابة والثقة اللتين اظهرناهما عند بداية الرحلة .

وبعد زيارتنا العيون (٩) واصلنا طريقنا ، تاركين البحر الأحمر الى الغرب وكانت تقع الى يميننا الجبال المسماة تيت ( أو طيط ) التي يسكن في سفحها عريان الطور ، عسكرنا على بعد خمسة أميال من العيون عند خور ضيق يسمى مين ، وهو ثغر ليست به مياه ، ولا تثبت فيه الأعشاب ولا أي نوع من الخضرة ، ولم تكن نستطيع أن نؤكد نارا لو أن العريان الذين يعرفون جيدا أحوال المناطق التي ستعسكر فيها لم يعموا أثناء الرحلة أو أثناء الطريق بالحصول على القش اللازم للوقود (١٠) .

### اليوم السادس

في اليوم السادس ، وبعد مسيرة ثلثي ساعات ونصف ، أحيانا خلال سهل قلح ، وأحيانا أخرى من خلال كلبان من الرمال والأعشاب الشوكية ، واصلنا الى أبي صويره ، في مكان تغطي أشجار الأثل والنباتات ، مما يبنىء عن أرض أكثر رطوبة . وفي الواقع فإن المرء يجد هناك عددا

---

(٨) اختطف العريان القائد المساعد ديلانو ، أثناء ذهابه من الاسكندرية الى القاهرة وقد افتدى الرجل بكيس مليء بالنقود الفضية ، وعندما اختلف العريان على كيفية أقتسام النقود ، وتشاجروا فيما بينهم ، أطلق عليه أحد العريان رصاصة قتله .

(٩) انظر وصف هذه العيون بقلم المسير مونج Monge ، الدولة الحديثة ، المجلد ١ من ٥٥٥ ( الدراسة السابقة في هذا الكتاب ) .

(١٠) كثيرا ما يعتمد العريان أثناء السير ويجرون لمسافة تزيد على الميل كي يلقطوا بعض الأعشاب اللازمة لسهرة المساء .

كبيرا من الأبار . يبلغ عمق الواحدة منها مترين ونصف المتر تحت سطح الرمال ، وقد تقوض جزء من هذه الأبار ، وعلى الرغم من أن مياه هذه الأبار حبيسة — فيما عدا واحدة منها على الأقل — فإنها أفضل من مياه ميون موسى . وتردد عرب ترابين على هذا المكان ، وهم يمثلون المنطقة ابتداء من القاهرة حتى وادى الفرندل على شواطئ البحر الأحمر ، وقد وجدنا كثيرين منهم يراعون هناك ماشيتهم .

### اليوم السابع

عند الرحيل من أبى صويرة يقضى المرء عشر ساعات فى سهل تاحل على شاطئ البحر، وبعد ذلك ، وبعد أن يجتاز كثيرا من الشعاب الضيقة، يصل الى وادى الفرندل . ويمتاز هذا المكان بمياهه المعدنية الحارة التى تسمى حمامات فرعون وتجرى هذه المياه فى سلج جبل يبلغ ارتفاعه مابين ٢٩٠ — ٣٩٠ مترا ( ١٥٠ — ٢٠٠ قامة ) . وتسيل مياه العين الأولى بعق يبلغ بوصتين ، وفى هذه المياه يرتفع ترمومتر ريومور الى درجة ٥٦ ، وتغطي الاحجار التى تسيل فوقها هذه المياه وكذلك تلك التى تحيط بالترمة بالكبريت المؤكسد . وتجرى مياه عيون كثيرة أخرى خلال الرمال بطول يصل الى خمسين خطوة .

وعلى ارتفاع أربعة أمتار ( حوالى قابتين ) فوق مستوى هذه العيون نجد مفتحتين : تلك التى تقع الى اليمين وتؤدي الى مايشبه مغارة يرتفع فيها الترمومتر الى درجة ٣٤ وسط جو رطب تصحبه رائحة الكبريت القوية : أما الأخرى فتشكل مخدل كهف لا يزيد علوه على نصف المتر (حوالى ١٥ — ١٨ بوصة ) ، فوق عرض أكبر من ذلك بقدر طفيف ، ولذلك يضطر المرء كى يبلغ النبع أن يزحف عاريا لمسافة يبلغ طولها ٢٣ — ٢٥ مترا ( ١٢ — ١٥ قامة ) فوق رمل حار ورطب ، وهناك يرتفع الترمومتر الى درجة ٣٦ . وهذه الحرارة المتزايدة ، بالإضافة الى هذا الوضع المتعب للجسم الذى يضطر المرء لاتخاذ ، هي السبب فى النصيحة التى تقال للمسافرين هناك والتى مؤداها أن التور ينطفئ داخل هذه المغارات وأن هناك خشية من أن يختنق المرء هناك فى وقت قصير . لم يبق هناك لوقت طويل يكفى للتأكد من صحة هذا الزعم ، لكننى لم أشعر بأن أنفاسى قد ضاقت كما أن رائحة الكبريت فى هذا الجو المشبع بالرطوبة قد بدت لى محتملة .

ويبدو لى أن وادى الفرندل كان فيما مضى مرناً بالغ الجودة ، إذ هو فى حى من رياح الشمال والجنوب لأنه مفتوح الى الغرب ، كما يساعد على الخروج منه رياح الشرق ، وهى التى تسود البحر الأحمر فى معظم الأحيان . وهناك تشكل المياه التى تسقط فوق الجبال مرة أو مرتين فى العلم ، اضراراً كبيرة ، إذ تحمل الى الوادى كمية هائلة من الزلط ومن طلع الحجارة . وهذه هى المنطقة التى يزعم كثير من المؤلفين أن موسى قد أتى إليها بعد عبوره البحر الأحمر . وهذا الوادى ( الخليج ) جاف خال من الماء فى هذه الأيام .

### اليوم الثمان

معد الخروج من وادى الفرندل يدخل المرء الى واد ضيق ، أو بالأحرى فى شعب تحيط به جبال عالية شديدة الانحدار ، ويبلغ طوله حوالى أربعة أميال ، وعند طرفيه يصل المرء الى ريوه توجد بها بعض اشجار النخيل . وثمة بئر يبلغ عمقها المتر ( حوالى ٣ أقدام ) توفر كمية ضئيلة من المياه الرديئة وصلها بوكوك Pococke بأن لها مذاق الصلب ، وسرعان ما تنضب مياه هذه البئر ، لكنها تتجدد من جديد فجأة ، ومن هذه المياه يستقى العريان جمالهم . ويطلق على هذا المكان اسم الحوزية وهو يقع على بعد ٢٤ ميلاً من أبى سويرة . وعلى الرغم من شدة ارتفاعه فوق سطح البحر ، فهناك سلسلة من الجبال العالية تتحكم فيه وتمتد هذه الجبال باتجاه سوريا . ويمتلك عريان الطور هذه الأراضي .

كان ما يزال علينا أن نمضى اثنتى عشرة ساعة فى الطريق حتى نصل الى مكان المخيم وعلى الرغم من أن هذه المنطقة كانت أفضل مكان قابلناه ، منذ غادرنا القاهرة فأننا لم نبق بها إلا لوقت يكتفى بالكاد لاستقبة جماننا .

فأننا واد طويل الى الجنوب ، الى هضبة واسعة تحيط بها جبال تجعلها فى حماية من رياح الشمال . كانت الحرارة هناك ، فى الساعة العاشرة من الصباح ، شديدة الارتفاع ومع ذلك فقد كان الترمومتر لا يتجاوز درجة ٢٥ . وبعد أن عبرنا سلسلة الجبال الى الجنوب الشرقى دخلنا الى وادى اتل ثم فى شعب ضيق دفن به شيخ يسمى ريس الشمالية

ويحمل اسمه أحد جانبي الوادى ، وهو المكان الذى توجد به مقبرته .  
ويودع العربان هناك عند مرورهم من هذا المكان بعض الأغصان أو بعض  
قطع من القماش ، أما الجانب الآخر للوادى فيحمل اسم شبقية . وبعد  
ذلك ، وبعد أن نجلوز واديا مزروعا بالشجر الأثل ( المن ) نلتقى البحر  
من جديد الى الجنوب الغربى ، وقد توقفنا هناك كى نذهب ، على بعد  
خمسائة قلة الى الشمال ، لزيارة جزء من الجبل الذى يستخرج العربان  
منه الكبريت . وفى واقع الأمر ، نقصد وجدنا هناك بعض عينات من  
الكبريت شديدة الكلس .

وبمغادرة طريقنا نحو الجنوب دخلنا فى واد بالغ الاتساع ، تحيط به  
جبال عالية مما يجعله فى حى من رياح الشمال ، والشمال الشرقى ،  
والجنوب ، لكنه ، كما هو الحال فى وادى الغرندل ، يكاد يكون مردوما  
من آخره . وبعد الالتف من حوله خوضا فى المياه لمسافة تبلغ حوالى  
الميل ، مسكرنا فى سهل المجرى ( أو المجره ) وسط الكثبان التى كونتها  
غابات الأثل أو الطرماء التى تصد الرمال التى تحملها رياح الشمال .  
وهناك توجد مياه غير طيبة . كانت مؤتفا من مياه النيل قد نفدت عند  
السويس وجعلنا تلك معدتنا نشعر بالفرق بين هذه المياه وبين تلك .

### اليوم التاسع

بعد مسيرة ساعة فى هذا الوادى المليء بالشجيرات ، دخلنا فى  
واد تغطيه كتل من الجرانيت والسماق ( الرخام ) والزلطت المستديرة التى  
انفصلت عن السلسلة التى تطل على الجبال الجيرية التى اتبعنا اتجاهها ،  
والتي اجتازناها بعد ذلك لكى نصل الى واد يسمى نمران ، حيث نهنسا  
دون أن نعرش على ماء .

### اليوم العاشر

فى اليوم العاشر ، قضينا ثلاث عشرة ساعة فى صحراء جرداء ،  
وفى وحيان نلقى فيها بالكاد بعض الأعشاب الشوكية : هناك نرى الى  
الغرب سلسلة جبال سيناء . وتوجد الى الشرق جبال من الحجر  
الجيرى . دخلنا وادى المضارة حيث اكتشفنا وسط أشجار النخيل شجرة  
دوم ، وهناك جوض بنى يبلغ عمقه ستة أقدام يولر كمية من المياه

الجيدة ، ويعد أن عبرنا سهلا قاحلا ، رطباً مليئاً بالبحر ، وصلنا بعد مسيرة ساعة الى الطور .

### بنجر طور أو ميناء الطور

يشكل ميناء الطور خليجاً يبلغ اتساعه حوالى الميل ، ويكاد يكون ذا عمق متساوى السطح ، ويقع الخليج تحت خط عرض ١٢° ٢٨' وعند خط طول ٢٠° ٣١' الشمالى من خط زوال باريس . وقاع هذا الميناء ليس طيباً على الدوام ، فهو يتكون من كتل من المرجان وكحل من الأحجار يغطيها المرجان والقواقع على عمق متر أو مترين ( ٣ - ٦ أقدام ) بل إن بعض شعاب المرجان هذه تصل لمستوى سطح الماء لتجعل من الجزء الشمالى الغربى نوعاً من روضة تنتثر فوق سطحها المغطى الورود . وفى حين يرتفع مد البحر فى السويس من ١ ١/٢ الى مترين ( ٤ - ٦ أقدام ) فإنه لا يبلغ هنا أكثر من ثلاثة أرباع المتر فى أكثر حركته قوة . أما فى النيات العادية ، فإنه لا يتجاوز ثلث المتر ( ١٠ - ١٢ بوصة ) .

وتقوم سلسلة جبال سالت كترين وسيناء بحماية هذا الميناء من رياح الشمال والشمال الشرقى ، كما تحميه من رياح الشرق غابات قديمة من اشجار النخيل وبقية تلة الطور التى أصبحت شبه مهدمة تماماً على وجه التقريب وإن كان المرء لا يزال يرى بها كوات فى مستوى سطح الماء تغطيها قباب على شكل مشكاة . كانت هذه المباني المحطمة ، ومظهر الأرض ، وتلك الحقائق بالغة السوء ، وهذه الأسوار التى تكاد تكون كلها حطاباً ، بالإضافة الى مظهر السكان البائس ، كان كل هذا يعطى صورة للخراب والموت . أما الميناء المفتوح الى الجنوب الغربى ، ففسده فى أكبر اتساع له كتلة صخرية ضخمة ، يبلغ ارتفاعها مستوى سطح الماء .

أما قرية الشاذلية ، وبلد النصارى ، اللتان تكونان مدينة الطور القديمة فمتضم من ٢٥ - ٣٠ مسيحياً ، ومن ١٠ - ١٢ عربياً مسلماً وإن كان هذا العدد لا يشتمل النساء والأطفال .

أما قرية الجبل الصغيرة ، الى جنوب تلة الطور ، فلا تضم الا خمسة أو ستة صيادين يعملون مرشدين للسفن التى تعبر الطور الى

السويس أو إلى جدة ولا يتجاوز مكان كل هذه القرى والنجوع مائة وثلاثين فرسا .

ويخبر شئون المسيحيين واحد من رجال الدين من دير سانت كاترين في جبل سيناء ، وهو الذي يتسلم المؤن القادمة من القاهرة عن طريق القوافل والتي يبعث بها إلى الدبر ، وكذلك السمك الذي يشرف على صيده . ولا يفوق بساطة مسكنه إلا بساطة تلك الكنيسة الصغيرة الموجودة في مكانه .

وعلى بعد ميلين من الطور ، إلى الشمال الشرقي ، بالقرب من الجبال الجيرية ، يمتلك رجل الدين هذا حديقة واسعة بعض الشيء ، تحيط بها الجدران ، وتزرع بها أشجار النخيل ، وتتفرج فيها عيون مياه معدنية حارة ، تسقى واحدة منها الحمامات . وهناك حوض واسع مسور تظل المياه فيه على ارتفاع ثمانية ديسيمترات وفي درجة حرارة ٢٧ ويبدو الحوض وكأنه قد بنى خصيصا لهذا الغرض . وهناك كمية هائلة من سمك النخيل تغطي سطح هذه الأرض غير المزروعة .

وحيث أن أهالي الطور البؤساء لا يمتلكون على الإطلاق أية جمال ، إذ ليس لديهم ما يحملونه إلى القاهرة للمقايضة عليه ، فأنهم مضطرون للعمل على جلب التمح عن طريق القوافل ، مما يضاعف في سعره ، ولهذا السبب فهم يستهلكون منه القليل ، ويميشون على السمك .

وفي الطور ، تهب رياح الشمال لجزء طويل من العام فيما عدا فصل الشتاء ، إذ تهب الرياح في هذا الفصل من جهة الجنوب وذلك حتى منتصف النهار فقط ، ثم تستعيد اتجاهها في بقية النهار .

وتدخل السفن الصغيرة في الميناء التي يبلغ عمقها ، وكذلك عمق المضيق البحري من ٦ إلى ٨ أذرع ، لكن السفن التي تخشى عادة أن يلقى بها على الساحل المنحدر الأجرد فلا تتوقف هناك إلا للتردد بالمياه ، أما السفن الضخمة فتبقى في الخليج . ويجد الناس في الميناء ، على بعد مسافة صغيرة من البحر آباراً مبنية بالحجارة بقدر كبير من العناية ، توفر مياهها بالغة الجودة . وتعلن هذه الآبار ، بالاضافة إلى الحصن وبعض بقايا المنشآت القديمة ، أن هذا الميناء كان فيما مضى مطروقا لحد

كبير . لكن فقر السكان الذين لا يستطيعون انتاج أى شئ أو شراء أى شئ ، بالإضافة الى أحداث السلب التى مارسوها مرات كثيرة مع بعض السفن ، قد أبعد التجار عن هذا الميناء (١١) .

ولو أننا اتبعنا الطريق الذى اعتاد المسافرون ، وكذلك العربان المرافقون لنا اتباعه لكنا قد دخلنا الجبل فى الشمال كى نذهب الى جبل سيناء على بعد أربعة وعشرين ميلا من الطور ، لكننا كنا نرغب فى القيام بالدوران حول شبه الجزيرة للتعرف على الموانئ الواقعة على طرفها وللتعرف على بحر الشرق ( خليج العقبة ) . ولكى نحقق هذه الغاية كان علينا ان نسير لمدة ثلاثة ايام بلا مياه ثم خمسة او ستة ايام تقضيها وسط الجبال ، وهكذا كان يتعين علينا ان نمر وسط خيام قبيلة مزينة التى لا تشكل جزءا من تحالف قبائل الطور ، والتى لم تكن تربطنا بها اية معاهدة (١٢) ومع ذلك فلم يكن لثل هذه الصعوبات ان تعرقل مشروعنا .

وقد لغينا لكبر مقاومة من جانب العرب الذين كانوا معنا ، فقد احتجوا بصعوبة نقل المؤن اليهم ونقل المياه الى جملهم ، وقالوا لنا اننا لم نتفق معهم الا على الذهاب الى الطور ومن هناك الى جبل سيناء، كما حذروا بانفسنا قد نهاجم من قبل عربان قبيلة مزينة الذين قد يطعمون فى اقتسام ما معنا من خيرات . فللأسف كل العقبات باسترضاء جزء من رغبتنا ومرشدينا وذلك بتقديم المؤن اليهم والى جملهم ، ويتوضيح عزمنا الذى لا يلبس على القيام بهذه الرحلة حتى وان لم يبق معنا سوى مرشد

(١١) لم يعد لدى اهالى الطور سوى تسع سفن صيد ، يمتلك الأروام ثمانى منها ويرى المرء هناك بقايا سفينة جاتحة ، وكانت هذه السفينة قادمة من ينبع ، ودخلت الميناء للتزود بالمياه . ويؤكدون ان مرشد الطور هو الذى جعلها تصطدم بالصخور عن عمد وأنها نهبت بعد ذلك . وكانت تحتوى على ١٢٠ بالة صغيرة من القمح ، تضم الباللة الواحدة ثمانين قطعة ، وثمانين طردا من المعدس ، سعة الواحدة نصف أردب ، ومائة وعشرة من الأرز ( شرحه ) وبالثنتين صغيرتين من النحاس زنة الواحدة ستمائة رطل . ويلقى العرب بمسئولية السلب على الأروام ، وهؤلاء يلقون بها على العرب ، وقبل مجيئنا الى الطور بخمسة عشر مليا نهبت قبيلة القراشة احدى السفن ، فحرم عليهم المالك المجرى الى القاهرة ، وهكذا لم تعد الطور تدخل ضمن نطاق الموانئ التى يتوقف فيها التجار .

(١٢) لعل عربان هذه القبيلة هم الذين نهبوا البساتين التى كانت تافلتنا قد تغلتنا معنا من القاهرة حتى مخد الجبال .

واحد ، وقلنا لهم فى النهاية : من حق العربان أن يخشوا قبيلة معادية . أما الفرنسيون فهم أصدقاء لكل القبائل . وعندئذ قال أحد الشيوخ المسنين : لا يقول الفرنسيون سوى كلمة واحدة . سبذهب . معك حتى لا يصيبك سوء .

### اليومان الحادى عشر والثانى عشر

لم يخدمنا رجالنا العربان ، مشينا لمدة يومين ، على مسافة قصيرة من البحر ، أحيانا فى سهل رملى قاحل نادرا ما تلتقى فيه بعض الشجيرات ، وأحيانا أخرى وسط جبال من الرخام السماوى والجرانيت المرقق ( أى تكون صخوره من طبقة فوق طبقة وهكذا ) .

وكانا فى فصل تتقلب ريحه الجنوبية والغربية ، أى فى فصل العواصف ، وهو الفصل الذى يرغبه العربان أكثر من غيره لأنه يهبى بعض المياه ، لكن الحرارة فى بعض الأحيان كانت أكثر ارهاقا لنا من أعلى حرارة عاتينا منها فى صعيد مصر كما كانت درجة الحرارة أكثر ارتفاعا (١٣) وبعد أن سرنا طويلا الى الجنوب الشرقى دخلنا الى الجنوب فى واد طویل أو بالأحرى فى شعب عميق تحف به من الجانبين جبال تتكون حتى قممها من أحجار مستديرة ، وكان الطين الذى يثبتها قد اكتسب قدرا من الصلابة حتى أن قطعا ضخمة منه كانت تسقط متدفعة نحو الوادى دون أن تنفلت . ويقع ميناء رأس محيد عند قمة الساحل ، وهو يشكل فيما يبدو نقطة انحصاف فى شبه الجزيرة .

ويقتل هذا الميناء المنفوح عند شرق الشمال الشرقى ، لسان من الأرض فهو شبه جزيرة ، قممها رأس جبل يرتفع بعض الشيء وهذا هو ما جعلهم يطلقون على هذا المكان اسم رأس محمد . وحيث يقترب الميناء بشدة من الجبل فانه يكاد يكون مطبوسا فى جزء منه بالرمال والأحجار التى جرفتها السيول .

ولم نجد هناك أى نوع من المساكن .

---

(١٣) سجل ترمومتر ريومور درجة الحرارة فى الظل — ٣٢ درجة



## اليوم الثالث عشر

فى اليوم الثالث منذ رحيلنا من الطور ، لو اليوم الثالث عشر من بدء رحلتنا ، سافرنا من رأس محمد للذهب شرقا من خلال الجبال الى ميناء شرم ( الشيخ ) التى تقع تحت خط طول  $١٠^{\circ} ٥٨' ٢١''$  من خط زوال باريس وخط عرض  $١٠^{\circ} ٥٦' ٢٧''$  حيث وصلنا بعد مسيرة ثلاث ساعات. وتقسم هذا الميناء ، الذى يقع منخله الى الجنوب ، قمة جبل يبلغ عرضه حوالى مائة قامة ويتحدار مماثل . ويجد المرء على مسافة قصيرة من الشاطئ أبرار مبنية بكتل ضخمة من الجرانيت . كانت السفن تاتى الى هناك فيما مضى للتزود بالمياه ، وعندما كانت تغلجها رياح معاكسة ، يلوح لها أن محتها سوف تطول ، فانها كانت تفرغ هناك بضائعها التى كانت تنقل برا الى القاهرة ، وهناك ضريح وكثير من أحجار اضرحة كثيرة ، لعلها تنبئنا أن هذا الميناء كان فيما مضى آملا بالسكان ، وقد شاهدنا هناك بعض الصيادين الذين لا يعيشون الا على السمك ، ابتعنا سبكا منهم ، واكلوا هم غداهم بالقرب منا ، وكانت الدهشة تبدو على اطفالهم ، الذين استملناهم الينا ببعض البارات ، من شكل قبيحنا بشكل خاص .

وتقع شرم ( الشيخ ) فيما يبدو على بعد ستة الى ثمانية اميال من بحر الشرق ( خليج العقبة ) الذى ميزناه بدقة بواسطة جباله الواطئة للنفاية ، وبدا لنا فى اتساعه يخلط قليلا عن اتساع بحر العرب ، ولحنا جبال الشاطئ الآخر تنخفض وتمتد لتتوغل فى الصحراء القريبة . قطعنا مسافة كبيرة بطول الساحل وكنا نود الذهب الى العقبة ، قمة نهاية الخليج ، لكن ذلك كان يستوجب منا أن نعبر صحراء خالية لم يكن عرباننا يعرفونها ، فضلا عن أننا كنا سنبتعد عن جبل سيناء الذى كان هو الهدف من رحلتنا . ودخلنا الجبل عن طريق الطرف الجنوبي الشرقى من شبه الجزيرة .

وبعد ذلك بوقت قصير قبلنا فوق أحد التلال بعض الخيام فالتقينا منها ، ولم يبد على النسوة الفرع لرؤيتهم لنا بل ملين الينا اعطاهم بعض الابر والبارات .

اتبعنا نفس الوادى باتجاه الشمال الغربى فوجدنا مرة اخرى بعض الأحجار ومخبيا اكبر اتساعا ، كان هذا هو مخيم قبيلة مزينة ، لم يخدمنا

اذن شيوخنا ، حيث لم يبد أولئك مسرورين لرؤيتنا فلم يقدموا لنا أى شىء عند مرورنا من أمام خيلهم ، وسأل أحد العريان وهو يصحن بعضاه فى هاون من الخشب خليطاً ويصنع منه البارود ، سأل بحدّة مترجماً « لماذا جئت بهؤلاء الكلاب » ولم يقم شيخ هذه القبيلة بدعوتنا الى داخل خيمته حسب عادة العرب كى لا يجمعنا تقترب من مخيمهم الذى كنا برغم ذلك قد اجتزناه . وعندما مدت ملقّدة الطعام وسط الوادى لم نبد أى ضيق أو قلق ، واتخذنا مكاننا بينهم لنأكل العزّة دون أن توجه إلينا دعوة . وتقدّمنا إليهم البن ، ونمنا بينهم فى هدوء .

### اليوم الرابع عشر

قدم إلينا عرب المهاتنة ، وهى قبيلة صغيرة تنتمى الى عرب العواتمة الذين التقينا بهم فى اليوم التالى فى وادى النصب ، قدموا إلينا مسكرة أكثر دقة عن الطريقة الأبوية التى يتعامل بها العرب مع الأعراب ، وقدم إلينا الشيخ الحاج حسن وأجلسنا الى جواره فى مخدّل خيمته وأمر بنّيع عنزة وأعلمنا بالتفتسل به ، وبينما كانت النسوة يعددن الطعام ، وبينما نحن نتناول القهوة قام أحد المغنين ، وبعد أن ابتهل الى الله ، غنى المقاطع التالية مصطحباً آلة ذات اوتار ثلاثة (١٤) ، كان يمزف عليها انشأه بقوس فى يده .

ينفق الناس كثيراً من مالهم كى يذهبوا الى مكة  
ويتركون أبناءهم عاماً كاملاً كى يذهبوا الى مكة

(١٤) تتكون هذه الآلة من جفنة صغيرة من الخشب مغطاة بجلد جبل ، عليها من أحد طرفيها بمسافة ٢ ديسيمتر ( حوالى ٧ بوصات ) حديدة مسطحة عرضها من ١٢ - ١٥ مم وطولها ٣ ديسيمتر ( ١١ - ١٢ بوصة ) . ويرفع طرف الجفنة السميك الذى يبلغ طوله ٢ ديسيمتر ( ٧ بوصات ) على الأرض .  
وهناك فى الطرف الآخر عصا ذات ذراع يبلغ طولها ٤ الى ٥ ديسيمتر ( ١٨ بوصة ) ويوجد فى أحد طرفيها ثلاثة ملاوى أو أوتاد تستخدم فى شد ثلاثة أحبال مكونة من اتحاد شعيرات عديدة مثبتة فى الطرف الآخر بعد أن تبر على مشط .  
أما القوس المصنوع من قطعة من الخشب الخام يبلغ طولها ٤-٥ ديسيمتر ( ١٨ بوصة ) فيحمل حزمة من الشعيرات مثبتة من أحد طرفيه وشدودة الى الطرف الآخر بواسطة أصبع .

وعندما يزوج شيخ ما ولده يحضر له كل شيخ من شيوخ القبائل  
الأخرى عذرة ثم ينتهى بما يلى :

اولادى كثيرون ، ويأكلون كثيرا ، وفراعى قصيرتان  
( اى أنه قليل الحيلة ) فلا استطيع ان احصل لهم على الخبز .

ويعد ان انتهى الطعام (١٥) ، استرحنا تحت سقف خيبتنا التى  
اتمناها فى مواجهة خيمة الشيخ .

ولقد وجدنا نفس كرم الضيافة عند القبائل الأخرى ، ومع ذلك  
فلا يمكن لأى من شيوخ هذه القبائل ان يكون ندا لهذا الشيخ فى صفاته  
الكريمة ، فتقاطيعه بالغة التمايز وروحه بالغة التوقر على الرغم مما يبدو  
عليه من شرود . ولقد كانت له علاقات مع التجار والأغراب كما سبق أن  
قام برحلة مكة ( الحج ) مرتين ، ويؤدى فريضة الصلاة بشكل بالغ  
الانتظام (١٦) .

### اليوم الخامس عشر

لم تكن قد قابلنا حتى اليوم سوى اشجار المسط وبعض الائل  
( الطرفاء أو المن ) وبعض غابات من الامشاب الجافة ، بالإضافة الى  
جبال الجرانيت والسباق المورقة ( اى التى تتشكل من طبقة فوق طبقة )  
ولم تكن نلقى المياه الا فيما ندر وبكميات بالغة الصفاء تجرى فى واد الكيد  
بين كتل ضخمة من الحجارة الجرانيتية ، وهما نحن نرى كذلك اجزاء  
من الأرض تكسوها الخضرة ويغطيها النعناع لمسافة يبلغ طولها حوالى  
الميل ويبلغ عرضها من ست قالمات الى خمسين قامة . وتتمو فى هذا  
الوادي اشجار النخيل والتبق ، وهناك بعض الاسوار من الحجارة  
الصلبة تستخدم كملوى وأماكن إقامة ومستودعات للعرب الملاك الذين

---

(١٥) وصفت مائدة الطعام فى مقال عن عادات وتقاليد العربان  
( فى آخر الدراسة ) .

(١٦) بعد أن عدنا الى القاهرة ، ظهرت على هذا الشيخ كثير من  
علامات الجنون . ومن المؤكد أن مقبرته ( بعد موته ) ستكون موشع  
التقديس .

يأتون ليحصدوا ثمارها ، ومع ذلك فإن أحدا لا يقيم في هذا الوادي إلا في فترة الحصاد ، وغضلا عن ذلك فإننا لم نجد به على الإطلاق استراحات مناسبة .

### اليوم السادس عشر

لم نكن في هذا اليوم محظوظين كما كنا في اليوم السابق ، فقد قضينا النهار والليل في وديان قاحلة جرداء دون أن نقابل ظلا لنبتات أخضر .

### اليوم السابع عشر

وأخيرا ، في هذا اليوم ، وبعد أن عبرنا مع جبالنا جبالا كنا في معظم الأحيان مشقة بالغة في تسلقها بانحدامنا ، وصلنا إلى دير سانت كاترين .

كان أحد الأخوين اللذين اصطحبانا حتى الطور تسد سلك الطريق الأقصر حتى يلتقي بنا ، وكان ينتظرنا بقدر كبير من اللفة والقلق .

يؤدي إلى هذا المكان المنزل منفذ صغير يعلو الجدران التي يبلغ ارتفاعها من عشرة إلى اثني عشر مترا . وهذا المنفذ هو المدخل الوحيد إلى هذا المكان المنزل (١٧) ، وتغطي هذا المنفذ بكرة يمر فوقها جبل ضخم يلتف حول اسطوانة مثبتة في شبه ردهة وينزل الجبل الذي ينتهي بطلقة من الجبال يدخل فيها الشخص الذي يراد رفعه وتدار الاسطوانة بواسطة روافع متشابكة ، تشبه تلك التي تستخدم في الموانئ لانزال الأحجار من فوق السفن .

وعندما جاء الإباء لاستقبالنا ، رأينا ترحيبا حارا يكاد يبلغ مرتبة الملل واقتادونا إلى رواق الأعراب ، ومكثنا هناك خمسة أيام زرنا خلالها الدير والأماكن المقدسة المحيطة به .

---

(١٧) ومع ذلك فيوجد باب للعربات ولكنه مسور ومغطى جزئيا بالأتربة ، كما أنه لا يفتح إلا لاستقبال زيارة البطريك .

ويقع هذا الدير ، الذى تشكل جدران مسوره ، المبنية بكتل من الجرانيت يبلغ ارتفاع الكتلة الواحدة منها حوالى نصف المتر ( ١٨ بوصة ) وعرضها اكبر من ذلك بقليل ، مريعا يبلغ طول ضلعه حوالى ١٦٢ مترا ( اى ٨٤ قامة والقامة تساوى ياردتين ) - يقع هذا الدير عند سفح جبل حوريب او خوريب .

وتشمر وأنت بداخل الدير بمقدم انتظام سطح الأرض التى اقيم فوقها ، وهو يتكون من عدد كبير من المباني غير المنتظمة المتسامة على مستويات مختلفة ، ويشم كنيسة مكرسة لسانت كاترين ، و ٢٦ كنيسة اخرى لها نفس العدد من المشرقين ، ومسجدا ( ١٨ ) ومسارب بسيطة تتصل بدهاليز خارجية ومنطقة بالخشب وبعض مصانع يدوية لصنع الأشياء الضرورية لحياة رجال الدين والمسيحية الدير .

ويقع فى هذا « السجن المقدس » ستة من رجال الدين واثنا عشر راهبا . وتتكون الكنيسة من أجنحة ثلاثة تفصلها من بعضها البعض عواميد من الجرانيت تحمل سقفا خشبيا مطليا بلون أزرق بالغ الجمال تتناثر فيه النجوم الذهبية اللون وتطلق المحراب طلع من الخشب جبيلة ، محفورة ومذهبة . أما المذبح فمن زخارف حرشفية تشبه جلد السمك ، مطعمة بالصف ، ومشفولة بشكل بالغ الجودة ، أما المنبر فمن الرخام لكن كرسى المطران مصنوع من الخشب المنقوش والمذهب ، ويزدان القاع بلوحة منقوشة على الخشب نرى فيها فى منظور ( ١٩ ) سبيء التنفيذ تفاصيل بالغة الدقة للدير ، وتغطى الجدران لوحات سيئة لحد ما مرسومة فوق الخشب ، أما البلاط فمن الرخام والجرانيت ويتخذ السلم شكلا حلزونيا ( ٢٠ ) .

**جدران المسور مستنقة ، بها استحكامات بارزة ذات زوايا**

( ١٨ ) أخبرنا رجال الدين أن هذا المسجد قد بنى فى الفترة التى كان العرب يعملون فيها فى خدمة الدير .

( ١٩ ) انظر اللوحة ١٠٣ ، الدولة الحديثة ، المجلد الثانى .

( ٢٠ ) لا يوجد بالدير جرس ، وينادون هناك على الصلاة وكذلك لبقية الممارسات الدينية بالطرق بواسطة بيزر ( مطرقة ذات راسين ) على لوحة طويلة من الزان معلقة أفقيا من الطرفين .

أربع تحبل كوات تغطي قطعاً صغيرة من السلاح تطلق تمذائف من زنة الرطلين ، لكن هذه المدافع لم تنطلق أبداً الا لكي تحدث ضجيجاً في الجبل ( أى لم يحدث أمر جدى يستدعى انطلاقتها ) .

وتشتمل ترسانة الدير على عدد صغير من البنائى ذات المحاور ، اضطر الرهبان لاستخدامها في بعض الأحيان ضد العربان الذين كانوا يتنون بقصد انتهاك حديقة الدير الخارجية التي تحيط بهما جدران أكثر انخفاضاً وأقل صلابة من جدران الدير . ويصل سكان الدير الى الحديقة عن طريق ممر سفلى يفلقه باب مزدوج من الحديد ، وهذه الحديقة واسعة بعض الشيء لكنها مزروعة بشكل غير جيد ، ومع ذلك فهي تنتج الخضروات التي تشبه بعضها ما تنتجه نحن من خضار ولكنها أقل جودة ، كما تنبت فيها الكروم وأشجار اللوز والبرتقال والليمون والمشمش والتفاح والبرقوق والزيتون . أما العربان ، أولئك الذين لا يعنون بزراعتهم ، ولا يعلون أشجارهم بشكل دقيق ونادراً ما يلجأون الى تطعيمها فينتجون فواكه ضئيلة الحجم لكلك تجدها لذينة الطعم حيث أئتت في مكان تنذر فيه اللاكهة الى هذا الحد . ولا يعرف رجال الدين التطعيم عن طريق شق القشرة ، وقد علمتهم طريقة التطعيم بالبراعم وكيفية تكاثر أشجار الكروم عن طريق ترقيد العقل ( العقلة ) .

والمياه في الدير وفيرة ، ويخترق الحديقة جدول تسيل فيه المياه وبعمق يبلغ أكثر من ثلاث بوصات حتى ولو لم تكن قد سقطت أبطار منذ عام كامل ، وعلى الرغم من أن معظم البعيون عندئذ تكون قد نضبت .

وحياة رجال الدين شديدة الزهد ، ويقتصر عمل الرهبان على القيام بأعمال بالغة الضالة فيصنعون الزيت وقليلاً من النبيذ من عنب كرومهم ، كما يصنعون الخمر من البلح والتين والعنب المجفف ، ولا عمل لهم بعد ذلك الا أن يلكوا ويحصل الدير من القاهرة على كل احتياجاته من المؤن التي تجلبها اليه القوافل والتي يرسلها الدير الرئيسي هناك . ويثرى هذا الدير من طريق صدقات المسيحيين الذين يطمحون في أن يحصلوا بهذه الوسيلة على هبات السماء عن طريق دعوات رجال الدين في جبل سيناء . وإذا ما استقينا قداس الصباح ، وبعض الصلوات التي تتلى في السماء ، فإن هؤلاء الرهبان الوريين يقضون كل وقتهم في انجاز لا شيء .

وهناك مكتبة جميلة لحد لا يلبس به ، تضم عددا كبيرا من المجلدات اليونانية ، ومع ذلك فقد بدا لنا ان احدا لا يتردد عليها . ويتحدث الجميع باليونانية وليس لغة الا عدد صغير من الرهبان يفهمون العربية ويتحدثون بها . وهؤلاء هم الذين يقومون بالسفر الى القاهرة للتبشير شئون الدير .

### اليوم الثامن عشر والتاسع عشر

يشكل جبل خوريب او خوريب ، الذي يقع الدير في سفحه ، ربوة تنح الى الشمال ، يمر فوقها الناس وهم ذاهبون الى جبل سيناء (٢١) . وعلى مسافة حوالي ٥٠ قلعة ( ١٠٠ ياردة ) الى الجنوب من الدير تقابل عين مياه تسمى بئر الاسكافي نهىء طيلة العام كمية صغيرة من المياه بالغة الجودة ، وعند نقطة الالتقاء توجد كنيسة صغيرة يطلق عليها اسم كنيسة ماري او كنيسة الفوض . وفوق هذا الجبل يوجد خزان مياه مجلى وكذلك شيء يشبه حوضا كبيرا للسماك يمتلئ بمياه الامطار . كان كلاهما - الخزان والحوض - جافين منذ زمان طويل ، وفوق الربوة توجد شجرة سرو تمتاز بجملها ، وعلى ارتفاع متر ونصف المتر ( ٤ اقدام ) يبلغ محيط هذه الربوة ما يقرب من مترين وثلاثة ارباع المتر ( ٨١/٢ اقدام ) مع ارتفاع مناسب ( ٣٣ ) . وعلى جزء اكثر ارتفاعا على نحو طفيف من نفس الهضبة توجد كنيسةتان صغيرتان تحملان اسمى : ايلي ، ايليزيه ، وجدرانها مغطاة بأسماء اولئك الذين قدموا لزيارة جبل سيناء الذي يبلغ المرء لعمته بعد مسيرته ساعتين صعودا فوق سلم يتكون من درجات من الصخور وكتل الجرانيت التي جلبت الى هذا المكان . ويطلق الممر المؤدى اليه بعض الأحيان ويقوم بحراسة الأبواب رجل لايسمح بمرور احد الا من كان مسيحيا مزودا بكتاب من بطريرك سوريا . ويرى المرء ايضا من فوق هذا الجبل اطلال كنيسة صغيرة مبنية بالجرانيت ، كما يرى مسجدا يرتفع فوق مايشبه قبوا صغيرا يبلغ ارتفاعه ما يقرب من متر ونصف المتر ( ٤ اقدام

(٢١) عادة ما نضع على الخريطة كلا من جبل خوريب وجبل سيناء باعتبارهما كتلتين تفصل بينهما مسافة قصيرة ، وهذا خطأ ، فجبل خوريب ربوة من جبل سيناء ، اما تلك الكتلة التي تنفصل عنه فهي قمة جبل سانت كاترين ، وهذه اكثر منه ارتفاعا بنحو طفيف .  
(٢٢) يلاحظ وجود ربوة مشابهة داخل الدير .

٧٠ بوصات ) فوق مايلانها من العرض والعمق . وينظر الى هذا المكان باعتبارها المكان الذى امضى فيه موسى اربعين يوما . ويوجد فى مقابل هذا المكان كهف بالغ الضيق هو ذلك الكهف الذى اختبأ فيه موسى — كما يقال — عندما تجلى له ربه . ويرى المرء بالمثل اطلال كنيسة ثانية خربها العربان لأنها كما يزعمون كانت تمنع المطر من السقوط . وهناك كثير من الابار المحفورة فى الجرائيت ، لكنها جافة .

كان العرب ينتظروننا عند سفح الجبل ، وهنسا وقع حادث ، طبيعى فى هذا الفصل ، لكنه نادر ، يتلف الناس لحوثه منذ زمن طويل ، جاء ليضيف الى الاحترام الذى يكنه هؤلاء العرب للفرنسيين ولتقديرهم لنا ، لم تكن قد سقطت امطار منذ عام ، وكانت القطعان تمانى ، وكانت مصادر المياه تنفد ، وسعدنا ونحن فوق الجبل الرعد يزجر عن بعد ، وبدأ المطر يتساقط بيننا كنا نهبط ، لم تكن قد شاهدنا مطرا يسقط منذ زمن طويل . فتمتعنا بلذة ان نحس بانفسنا مبللين ، ولم يكن يخطر على بالنا مطلقا ان ننسب لانفسنا فيها يحدث فضلا حين سمعنا العرب يهللون ، وعندما حاذيناهم هبوا جميعا واقفين يهللون : « ماشاء الله ! ماشاء الله ! عظيم غفار ! ايها الفرنسيون الطيبون . لقد صليتم من اجلنا فوق جبل سيناء ! لقد ساعدتم ( بذلك ) فى ان يهطل المطر علينا ، وهو اثن علينا من الذهب » كانوا يقبلون اكمابنا وذيل ملابسنا ويبتهلون الى السماء وهم يرددون : ايها الفرنسيون الطيبون ! ايها الفرنسيون الطيبون ! كان الجو مشبعاً للفضاية . وكان لون السماء يماثل لونها فى أوروبا قبل هطول طلع كثير . وابدت هذه الملحوظة لزميلى ثم اجبتهم . « اننا مسرورون منكم ، لقد صلينا على الجبل ودعونا الله من اجلكم ، وسيستجيب على الفور لامنياتنا وامنياتكم » . وبالكاد ، كان لدينا الوقت الذى يكفى لأن نحتفى تحت سقف مبنى ردىء من مباني الرهبان ، تدخله الرياح من كل اتجاه ، وظل المطر يسقط بهزارة شديدة ، واستمر بنفس القوة لفترة طويلة من الليل .

رحلنا فى اليوم التالى عند انبلاج النهار لى نذهب لزيارة جبل سانت كاترين ، وامضينا اربع ساعات لى نبلغ القمة بادئين من عند السفح ، نسير احسانا فوق قمم حادة مدببة واحيانا فوق صخور من السماق الورقة او المفتة بشكل تام . وفى كل لحظة كانت مساهمة المياه



والأخوار ، والشعاب التي شكبتها الثلوج التي سقطت في العشب عند ذوبانها والتي كانت لاتزال تغطى الفلث الأخير من الجبل . . كان كل ذلك يجعل عبور بعض المرات أمرا بالغ الصعوبة . وكانت الرياح تهب من جهة الشمال ، وعلى الرغم من أن الترمومتر لم يكن يشير إلى درجة التجمد ، فقد كان الجو جد قارس بالنسبة لنا ، نحن الذين لم نعد نعرف منذ زمن طويل لا البرد ولا المطر . ولا الجليد . كانت السماء صافية فوق رموسنا ، لكن يضر المياه التي سقطت فوق الصخور الدائشة على الدوام تد شكّل من حولنا ، ومن تحت أقدامنا سحباً كثيفاً ، كأننا كنا في داخل جزيرة ، وكأنها تتم الجبال العالية من حولنا تشكّل عدداً مماثلاً من صخور البحر ، وسط هذا البحر من البخار . وفوق هضبة الجبل شديدة الضيق ، ينهض كوخ متهدم بشكل جزئي ، ويفطى صخرة من الجرانيت ، هي موضع تقديس من جانب المسيحيين . وقد شرح لنا الأخ الذي كان يصحبنا والرهبان الذين كانوا معنا ، في أثناء عودتنا إلى الدير سر هذا التقديس .

لقد استشهدت سانت كاترين ، عزراء الاسكندرية ، حسيما يذكر مؤرخو القرن التاسع في مدينتها الاسكندرية . في عهد ماكسيميانوس الثاني ، الإمبراطور الروماني في ذلك الوقت . وفي هذه اللحظة ، وجد الناس على صخرة سانت كاترين هذه جثة لفتاة . وأخبر بعض المسيحيين أحد الرهبان بالأمر ، وذهب الجميع للتعرف على الجثمان . وأتروا بأنه جثمان لشهيدة ، وأنه لابد أن يكون جثمان سانت كاترين . التي نقلت بالنسكيد ، حسب المعتقد الراسخ في الدير ، من الاسكندرية إلى هنا بواسطة الملائكة الذين أنزلوا الجثمان عند سفح جبل حوريب (١٣)

وسرعان ماذا صيت هذه المعجزة ، وتزايد عدد الحجاج القادمين من سوريا ومن القاهرة ( كذا ) ، وسرعان ما أمد هؤلاء الرهبان بوسائل لإقامة كنيسة صغيرة كانت هي أصل منشأ هذا الدير .

وبعد ذلك وضع الجثمان في صندوق له نافذة من الرخام الأبيض

---

(٢٢) يحدد رجال الدين المحطات التي استراح فيها حبلو الجثمان ، وهم يقدمون كذلك الصخور الأقدية التي وضع الجثمان فوقها .

وحفظ بالطريقة التى يقضى بها الدين ، وفى أيام العيد تعرض الراس واليد اليمنى أمام النافذة وتثال تقديس النفس ، أما النافذة الموازية لها تدع احدا يلح الا اجزاء من الهيكل (٢٤) .

رجونا رئيس الدير ان يسمح لنا بالمشاركة فى هذه الحفلة الدينية ، موافق على تحقيق هذا الرجاء فى الغد ، وعندئذ زينت الكنيسة كما فى ايام الأعياد الكبرى ، واضيئت كافة الشموع والمصباح ، وبمعد أن خر رئيس الدير والرهبان ساجدين ابتداء من أسفل الكنيسة حتى بلغوا المحراب ، جاء هؤلاء ليقبلوا جبهة القديسة والخاتم السذى يحيط بأحد أصابعها .

ولقد لفت هؤلاء انظارنا عند هبوطنا من الجبل الى زهور نسرين باللغة الأزدهار والتفتح ، يطلق عليها الرهبان اسم شوك النار ، وتعد أعجبتنا عند مرورنا بالوادي الواقع بين جبل سيناء وجبل سانت كاترين ، بكل رائعة من الخزف الهولندى تحيط بحوض اسميك واسع . كانت الأمطار قد ملأته أثناء الليل .

وعلى بعد مسافة قصيرة من ذلك ، عند منتصف الوادى ، لفت هؤلاء انظارنا الى الصخرة التى خرج عندها موسى من الماء (٢٥) .

(٢٤) استرعى رجال الدين انتباهي الى انه اذا كان الملائكة لم يعرضوا الجسد كله ، فقد كان ذلك من جانبهم تقديرا لاعتبارات العفة والفضيلة . (٢٥) تشكل الأمطار بسقوطها فوق الجبال أخوار ، تحمل معها ، بينما هى تتبع نفس الاتجاه لوقت طويل ، الطين والأحجار ، والزلط المستدير ، وتشكل بهذه الطريقة صخورا تستعصى على حركة الثقل هذه ، كما تحفر جداول يزداد عمقها بقدر ملتهد رخاوة الحجر وبقدر ما يحدث المزيد من الأخوار ، حتى يحدث أن تندفع هذه الصخور من تلقاء نفسها ، بعد أن تفقد القاعدة التى كانت تنهض عليها بفعل انحراف الأرض من تحتها ، الى الوادى ، ولقد اندفعت كتلة من الجرانيت تبلغ مساحتها ٣٠٠ متر مربع ، الى الوادى ، وبقى ١٤ مترا مربعا ( الى وسط الوادى ، وترى اليوم على سطحها جدولاً صغيراً يبلغ عرضه ٢٠ ديسيمتر ، وعمقه ٣ ديسيمترا واحداً ، وتقطعه من ١٠ - ١٢ قطعا يبلغ عمق القطع منها ٣-٤ سم ( ١٠-٢ بوصة ) ، وقد تشكلت هذه بفعل بقاء المياه فى الأجزاء الأكثر رخاوة من هذه الكتلة ، التى يسميها الرهبان والعرب صخرة موسى . ويضع الآخرون العشب فى هذه الأفواه المزعومة ، ويطعمونها جبالهم ، عندها تكون مريضة ،

وعلى مسافة عدة أميال من هذا المكان ، تتلاقى عدة وديان وتشكل  
باتحادها هضبة واسعة مليئة بالرمال وكتل الجرانيت والزلط وتحل  
اسم سهل الاسرائيليين . وهناك وسط هذه الصحراء تل قليل الارتفاع  
يسمى جبل هارون ، وقد أكد لنا مرافقونا أن بعض العرب يذهبون  
الى هناك لذبح العنزات ، وبمواصلة طريقنا ، راينا صخرة مجوفة ،  
يزعم الرهبان بأن العجل الذهبى قد صلب ( صليغ ) فيها .

كانت القافلة هى نقطة البدء لمونتسا الى القاهرة ، وكان علينا  
أن نحصر على انتهائ هذه الفرصة والا فاننا سوف نخاطر بالبقاء فى  
الصحراء حتى يهين موعد سفر القافلة التالية أى لدة أكثر من ستة  
اسبوع اذا ما افترضنا - فزق ذلك - أن حدثا طارئا لن يأتى ليعطل  
مسيرها . إذن فقد عدنا الى الديار . وفى اليوم التالى مارقنا هؤلاء  
الرهبان لكى نعود الى القاهرة عن طريق الجبال . كان شيوخنا فى  
انتظارنا عند سفح الكهف ، وكانت القبائل الأكثر بعدا قد بدأت بالفعل  
مسيرتها لكى يلتقى الجميع عند مدخل الوادى لعبور صحراء السويس ،  
لكى يتبادلوا الحيلة ضد القبائل المعادية التى قد يصادفونها .

وبينما كنا نشرف على تحييل جبالنا ، جاء احد متوجعنا وأخبرنى  
أن عربيا قد بلغه أن الأتراك قد سيطروا على القاهرة وقتلوا الفرنسيين .  
كان يمكنى استدعاء هذا الاعرابى وسأله حول صحة هذا الخبر وأن  
لنحمله لو كان الخبر مخطئا لاثارة العربان ضدا . لكن مثل هذه المنتقشة  
سوف تكون لها مساوئها . فقد كان بعضهم حائقا لأن رحلتنا قد عادت  
ببعض الفوائد على عدد قليل منهم . واعطيت امرى للمترجم أن يذهب  
ليقول لراوى الخبر ان الفرنسيين استقواء للأتراك ، وأنه - هو -  
لا يعرفنا حق المعرفة . ان كان يظن انه بذلك سيخيفنا ، واننى ارسل  
له حفنة من البارات باعتباره منشدا وراوى قصص . وبعد ان ركبنا  
جبالنا ( الهجين ) ، وزعنا البارات على الفقراء ، والتينا بها الى الأطفال

كما كانت عادتنا أن نفعل عندما كنا نغادر إحدى القبائل ، ورحلنا  
بينما آدميات وبركات الرهبان الطيبين ، تنهال علينا (٣٦) .

### اليوم العشرون

بعد مسيرة ست ساعات من وادي الراحة وبعد مسيرة ساعتين في  
وادي الشيخ صالح عسكرنا بالقرب من أولاد سعيد الذين لقينا في كنفهم  
أفضل استقبال . قلنا الشيخ إلى خيمته ، ودار حوار عنيف أثناء الطعام  
بينه وبين جار له كان يود أن يستضيفنا . وفقنا بينهما واعدن الأخير أن  
نذهب لنأكل عذرة معه في الغد قبل رحيلنا .

### اليوم الحادي والعشرون

لم يعد أمامنا سوى مسيرة ساعتين لكي نصل إلى وادي غيران  
الخصيب والذي تحطه قبيلة القراشة ، وهي أكبر القبائل عددا ، وبعد  
شيخها في نفس الوقت أقدم المشايخ ويحمل لقب الشيخ الكبير . ويبلغ  
طول هذا الوادي ، المزروع بأشجار النخيل وبعض أشجار البق حوالي  
ثلاثة أميال وعرضه حوالي ٢٠٠ إلى ٣٠٠ متر ( ١٠٠ - ١٥٠ قامة ) .  
ويحتوي على أسوار كثيرة جدرانها من الحجارة الصلبة ، تشكل عددا  
مماثلا لعددتها من الملكيات التابعة لأكثر أبناء القبائل المجاورة ، مسيرة ،  
والذين يتون ليجنوا هناك بلحهم ، وهناك شخص بعينه يأخذ على عاتقه  
الحفاظ على هذه الحقائق التي تحظى بحماية الشيخ الكبير .

وهذا المعسكر كبير في مساحته وأهميته ، فهو يتكون من حوالي  
أربعين خيمة تنهض بين أشجار الطرفاء ( المن ) ، وهي تضم الجزء الأكبر  
من أبناء القبيلة ، ويجد المرء هناك آبارا عديدة تهيء المياه بوفرة كافية  
وهم ينزحونها من عمق عشرين قدما ، وقت أن كنا في رحلتنا هذه .

---

(٣٦) كانت قطعة من جوار السور قد تهدمت ، ولم تسكن لديهم  
وسيلة لترميمها ، فوعدهم بأن نرسل اليهم بنائين سافروا بالفعل مع  
أول قافلة تبعا لاتفاق عقدناه مع العربان . وبعد ذلك بسنوات وجد أحد  
الرحالة الروس ، الذي سافر برا من سوريا إلى جبل سيناء ، اسمنا  
محدثا في حجرة الأغراب ، دليلا على عرفتهم بالجميل .

وكان الطعام الذى قدم لنا هناك هو نفس ذلك الطعام الذى تقدمته اليها القبائل الأخرى ، لكن تجمعهم الكثير العدد كلن يضم من ٥٠ الى ٥٠٠ شخصا ، اى كل رجال وأطفال القبيلة .

ثمة ما يجعلنا نلمس واتعة هامة . كان بوكوك Pocoke ويصفه خاصة نيبور Niebhur قد وجدا على بعد مسيرة يومين وادى نيران أحجارا تنفطحها النقوش الهيروغليفية ييسو انها تشير الى وجود مقابر مصرية ، وقد تحدث الناس اليهما كذلك عن وجود مدينة قديمة ، الأمر الذى يتفق لحد كبير مع ما واتنا الفرصة مرات عديدة للتعرف عليه فى صعيد مصر، اذ من المعروف أنك عندما تجد خرائب مدينة فلك على يقين من أنك ستلقى مقابر غير بعيدة من هذا المكان ، والعكس صحيح . ولما كنا نعيش منذ قرابة شهر مع رجالنا العربان ، ولما كانوا يبذون شديدي الثقة بنا للحد الذى لا يقدر أحد أن يحصل عليه من هذه الشعوب المرتجلة ، فقد كنتلدينا من الأسباب ماكنى لأن نأهل بمساعدتهم فى العثور على الآثار القديمة التى رسمها ووصفها نيبور ، وعليه ، فقد سألنا رجال الدين الذين قاموا بالسفر الى هناك عدة مرات ، كما سألنا الرجال الطامعين فى السن ، وأولئك الذين ليس لديهم مليفونه حيث لايتكون شيئا يخشون من فقدته ، ووافق الجميع على أن يفلونا على أطلال مدينة قديمة تقع فى نفس المكان ، وعلى بقايا أحجار منقوشة فى مكان آخر ، هو بالتأكيد المكان الذى اثار اليه نيبور ، لكن ، لقد خدعتنا أمانينا ، سواء كان ذلك بدافع من الجهل أو بدافع من سوء الطوية والظن من جانب مرشدينا ، فانا لم نذهب الى المكان الذى توجد به الانقاض القديمة ، التى كنا نطلف على زيارتها .

### اليوم الثانى والعشرون

بعد ساعة من خروجنا من وادى نيران ، اكتشفنا فوق تل يبلغ ارتفاعه حوالى ثلاثين مترا ( ١٥ قامة ) وجود هضبة تحيط بها جبال عالية . وقد رايت وسطها كذلك أنقاض مساكن قديمة تنفذ الذوق فى بنائها . وقد بنيت هذه بكل من الحجارة غير المشخبة ، كما بنى جزء منها بالطوب النيبى . ويوجد فى أسفل الجبل بقايا جدار سيك يبدو انه كان

قد بنى بقصد دعم التربة ، أو لاستخدامه كسور ، كما توجد ثمة مغارات محفورة فى الصخور ، لكن مداخلها ظلت نائمة غير مشتبطة .

ويؤكد العربان والرهيلان ان المباني الموجودة فوق التل وسط الهضبة هى اطلال مدينة صغيرة كان يسكنها المسيحيون ، وخربها العربان الذين طردوهم منها ، ويزعم آخرون ان هذه المدينة قد انهارت فوق سكناها الذين وجدت جثثهم تحت أنقاضها .

وعلى قمم شديدة الارتفاع تسمى رأس الطلحونة توجد اساسات كنيسة قديمة تعود الى نفس الزمن الذى تعود اليه المباني الموجودة فى اسفل . وكل ما هناك ينبنى ببؤس وجهالة السكان القدامى لهذه المباني التى تهدمت حيث لا شيء منه شبيه بالمباني المصرية فى شكلها ومقاييسها .

وعلى بعد خمسة عشر أو ستة عشر ميلا ( مسيرة يوم ) مررنا كذلك بسفح جبل تغطيه النقوش مع الأرقام العربية ١١٠ ، ١١١ ، ١٥٠ ، ٥٠٠ ، ٦٠٠ ، ويجوار أكبر هذه الأرقام يوجد عدد ضئيل من الحروف لدرجة لا يمكن منها ان تكون شيئا آخر سوى أسماء يسبق الكثير منها — او يتبعها — رسم الصليب . وقد رأينا هناك خيولا وجمالاً منقوشة ، ورجالا على ظهر حصان وهناك رجل بين آخرين ، يحمل رمحا تشبه تهنه رأس السهم .

وتوضع هذه النقوش أحيانا فوق أحجار انقبة ، وأحيانا أخرى فوق أحجار راسية ، وكان الكثير من هذه الحجارة مقلوب لأنها انفصلت عن الجبل منذ نقشها ، ولا يزيد ارتفاعها مطلقا على مايزيد على ثلاثة أمتار ونصف المتر ( ١٠ — ١٢ قدما ) بل انها نادرا ما تبلغ هذا الحد من الارتفاع . وفى هذه السلسلة من الجبال ، التى يبلغ طولها حوالى ثلاثة أميال ، والتى تقطعها فى أماكن عديدة شعاب أو وديان صغيرة ، لا يجد المرء مطلقا أحجارا منقوشة وان كان ذلك قد يحدث أحيانا عند زوايا الممر.

ولا ننبئ أى من هذه النقوش لا عن موهبة — بل ولا حتى عن عادة — النقش فوق الأحجار . وقد حفرت كلها بواسطة أحجار مدببة صلبة أو بقادوم ، فيما عدا عدد ضئيل منها تم حفره بواسطة الزميل .

ومن الصعب الا يدرك المرء الغاية من هذه الكتابات ، بل ومن الصعب اكثر ان نتحدث حول التفسير الذى ينبغى ان يعطى لها ، اذ هى لا يمكن ان تكون قد تمت الا على ايدى مسيحيين كانوا يذهبون للحج ( الزيارة ) الى جبل سيناء . ويوجد اكبر عدد من هذه النقوش فى مكان اسفراحة الليل ، وهناك القليل منها فى مكان استراحة النهار فى الوقت الذى لاتجد فيه اى نقش على الاطلاق فى اى مكان آخر على الطريق .

وقد نسخنا العديد من هذه النقوش ، ثم دخلنا بعد ذلك الى الشرق فى واد ضيق حيث نصبنا خيامنا بعد ان تطعنا ثلاثة اميال فى سفح جبل جرانيتى وسط قبيلة الموارمة .

### اليوم الثالث والعشرون

وفى هذا اليوم ، لم نقطع سوى احد عشر ميلا فى واد ضيق ، بين جبلين رمليين ليسى بهما اثر لخضرة من اى نوع ، لكى نصل الى هضبة مرتفعة تسمى وادى الخيلة ، حيث قضينا الليل .

### اليوم الرابع والعشرون

باتباعنا الوادى ، مع الانحراف قليلا الى الغرب ، عبرنا عدة شعاب مغطاة بصخور رملية وجرانيتية وسماقية ( رخامية ) ، ثم توقفنا فى وادى النصيب على بعد عشرة اميال من وادى الخيلة ، فى سفح جبل من الجرانيت تغطيه النقوش . وعلى الرغم من ان هذا المكان ليس سوى استراحة نهائية ، فله ينبغى عليك ان ترسل الجبال الى مسافة عدة اميال من هناك اذا كنت تريد الحصول على الماء .

كنا وسط قبائل المليقات ، وقادنا شيخها . الذى كان قد هرع الينا من مخيمه حيث نمنا بعد ان اكلنا العنزة تحت سقف خيمته .

## اليوم الخامس والعشرون

فى هذا اليوم ، وجدنا آخر النقوش (٢٧) فى واد يسمى وادى الحور بعد مسيرة نحو خمس ساعات وبعد أن اجتزنا واديا عميقا ورطبا مليئا بالبروس ، وبه بعض اشجار النخيل ، ويغطيه فى جزء منه الملح والبارود الأبيض بطول يبلغ ثمانية أميال ، وصلنا الى واد عسل ، حيث قضينا الليل .

## اليوم السادس والعشرون

ويبتاع الوادى ، الى الشمال الغربى ، استرحنا للحظات فى مكان يقع الى الجنوب من وادى الخرندل لى نذهب لنقيم خيامنا فى خور فرق

---

(٢٧) لمعرفة كل النقوش انظر اللوحات A , E المجلد الخامس ، كما يمكنك ان تجد جزءا منها فى Voyage de Niebuhr en Arabie المجلد الاول .

ومن المرجح اننا ابتعدنا لمسافة قصيرة من الجبل الذى نسخ عنه هذه الرحالة المنار الكلية الهيروغليفية المنقوشة فى مؤلفه ، ولكن سواء كان ذلك من جهالة او عن سوء طوية فإن عربنا قد اكدوا لنا انهم لا يعرفون احجارا اخرى منقوشة . وقد واصلنا طريقنا ونحن واثقون من اننا سنعثر على النقوش الهيروغليفية ، لانهم عندما اخبرناهم انه لا تزال توجد احجار اخرى ، دلونا على مكان اكثر بعدا لنبحث عنها هناك ، ولم ندرك اننا قد خدعنا الا عندما وجدنا النقوش الأخيرة . كانت القافلة تسير ولم يعد ذلك هو الوقت الملائم لى نواصل البحث ، بل لى نعود ادارجنا للفلق بالركب .

وفى اثناء عبورنا الصحراء ، سببت لنا الكثير من القلق ، احدى القوافل التى كانت تسير على مسافة بعيدة منا ، ثم تعرفنا فيها على قبيلة صديقة .

وعلى مسيرة يومين من القاهرة ، عتبا كنا معسكرين ، فوجئت غزالات ثلاث بانفسها سجيئة داخل المعسكر ، وبدأت تطاردها صيحات العزيان ، وكلية فرت قبايلتها نفس العقبة ( الصباح ) وقد اجتازت احداهن الشباك ، وانفلتت الأخرى على الرغم من جراحها ، واسرت الثالثة .كان العريان من قبل قد نبخوا لنا غزالة كنا قد اشتريناها عشية وصلنا الى دير سانت كاترين ، ويمثل لحمها كثيرا لحم اليجمور ( نوع من الأيائل ) البالغ اللذة .



على بعد عشرة أميال من الحوزية وذلك بعد أن بلغنا هضبة شديدة الارتفاع وجدنا فيها مياه بالغة الرداءة داخل مايشبه كهنا مكونا من الأحجار الجيرية . اجتزنا وادى الفرنل الذى تغطيه اشجار الطرغاء ( المن ) حيث يأتى عرب العليقات يصنعون الفحم .

### اليوم السابع والعشرون

كنا بعد على بعد أكثر من عشرين ميلا من عيون موسى . وكنا منذ نهاية اليوم الثانى قد تركنا الجبال لكى ندخل صحراء قاحلة تقطعنا فيها ستة عشر ميلا ثم نصبنا خيامنا فى وادى الحظا .

### اليوم الثامن والعشرون

فى هذا اليوم وصلنا فى ساعة مبكرة الى عيون موسى . كان المد تد بدا يهبط وعبرنا ذراع البحر ( الخليج ) تجاه السويس ، وفى أماكن كثيرة كانت المياه من حولنا تبلغ عمقا يقدر بكثير من أربعة أقدام . وفى اليوم التالى لحقنا بالقافلة فى العجروود . وكانت القافلة تتكون من ١٢٠٠ جبل ومن ٤٠٠ الى ٥٠٠ رجل وفى اليوم الحادى والاربعين منذ رحلنا ، وصلنا الى القاهرة .

### تقاليد وعادات عرب الطور

يسمى سكان شبه جزيرة سيناء الطورة أو عرب الطور . وهؤلاء — شأن كل العربان . ذوو قامة يبلغ طولها فى المتوسط من متر ونصف المتر الى متر و٧٣٢ مم ( ٤ أقدام وست بوصات ) . ولون بشرتهم هائل ، شديد السمرة ، بل يكاد يكون اسود تصالها ، وعيونهم حادة سوداء ، تغطيها الجفون بعض الشيء . وهم فى العادة نحيفو الأجسام ، جادو التقاطيع دون أن يوحوا بالكآبة ، وهم على دين محمد ، لكنهم لا يعرفون من محمد سوى اسمه ، ولا يعرفون عن القرآن سوى شهادة لا اله الا الله ، محمد رسول الله . ولم تقابل من بينهم سوى رجل واحد يؤدى المبلدة بانتظام ، كما قام بالسفر الى مكة ( الحج ) مرتين .

وعلى الرغم من أن الاتامة الاعتيادية لهؤلاء العربان فى جبال صخرية ووسط ارض قاحلة لا يمكن أن تغرى احدا على الاطلاق على انتزاع هذه

البلاد منهم ، فقد منحتم هذه الحياة — كما منح كل العربي البدو — روحا من الحرية أساءوا استخدامها في معظم الأحيان . وعلى الرغم من أن الضرورة تفرض عليهم أن يكونوا على الدوام مسلحين لحماية تجارتهم وللخناع عن أنفسهم ، وعلى الرغم من أن حوادث الانتقام (٢٨) التي قد يكون عليهم أن يمارسوها ضد قبيلة معادية قد دعت لديهم الميل إلى السلب حين يكونون منتصرين فإن المرء مع ذلك لا يستطيع أن ينكر أنه يجد — رغم ذلك — في كل القبائل العربية بقايا ثمينة من تلك التقاليد الإبدية التي نقلها النسا سفر التكوين في قصة إبراهيم ، وكما وصفها المسيو فولني Voiney بقدر كبير من الدقة والعذوبة في مؤلفه الهام الحالة السياسية لسورية Etat Politique de la Syrie ان مانستطيع ان نؤكدده هو أننا في خلال الواحد والأربعين يوما التي أمضيناها مع عرب الطور لم نستشعر من جانبهم أى نوع من القلق أو ان فتوحس منهم خيفة ، كانت خيمتنا على الدوام مفتوحة بل وكثيرا ما كنا نغادرها ، وكانت أسلحتنا ملقاة كيما اتفق ، ومع ذلك فلم نفقد شيئا على الإطلاق مهما يكن ضئيلا .

ولقد وجنناهم شجيدى التحفظ تجاه الفرنسيين ، ولكي ندعم مواقفهم الطيبة هذه معنا ، فأننا لم نعدمهم بشيء على الإطلاق دون ان نكون عند وعودنا ، كما لم نطلب اليهم ما يستحيل عليهم أن يفعلوه . ومع ذلك فقد كنا نفرض ما نريد بقدر من الحزم كنا نبدو معه وكان لدينا من القوة ما يجعل القير يستجيب لأرادتنا .

« كلمة الفرنسيين واحدة » ، هكذا كانوا يقولون على الدوام . وقد سألني كثيرون منهم ، وهم دهشون لرؤيتنا نركب جمال الهجين ونسير بينهم ، نتجمل نفس المتاعب ونفس صنوف الحرمان التي يعانون منها ، سالوني : ان كان كل الفرنسيين لغوياء مثلى . وكنت اقول لـكل سؤال انك ذاهب الى القاهرة ، وسوف ترى بنفسك اننى لست واحدا من أكثر الفرنسيين فتوة كما انى لست واحدا من أكثرهم فتوة فكانوا يجيبون : لقد خلقتم معشر الفرنسيين للأسفل .

(٢٨) هناك قانون علم عند العرب يقضى بأن دم كل قتيل لابد من الانتقام له بدم قتله وهو يسمى بالثأر أو القصاص .

كل ما يرتديه عرب الطور كبليس هو قميص من الصوف الأبيض ينزل الى منتصف الساق ، واكمامه قصيرة ، وكذلك جلباب من الصوف المقلم بالأبيض والفاق ، مفتوح من الأمام ، وليست له أكمام ، ومشقوق من الجنبين لمرور الذراعين ، وسروال من التيل .

ولا يرتدى الأطفال سوى الجلباب ، وكثيرون منهم عراة ، ولم يصف لا يرتدى الرجال سوى القميص مع حزام من الجلد أو من تماش صوفى . أما الشيوخ ، وهؤلاء هم أكثرهم ميسرة ، فيرتدون ملابسهم على طريقة المصريين وقد تلقى كثير منهم عبادات ( خلعت ) من حكام البلاد .

ويرتدى البعض منهم نعلا تربطه الى قدمه سيور من الجلد أو خيوط من الصوف ، لكن سيقان الجميع عارية حسب عادة المصريين ، ويرتدون غطاء للرأس ، قلنسوة تحت عصابة ريشة من الصوف الأحمر أو الأبيض ، وتكاد تكون رموس كل الأطفال عارية .

ويحمل هؤلاء العرب كسلاح بندقية ذات سر جلدى وخنجرًا مقوسًا طوله ٥١ ديسمبر ( حوالى ٢١ بوصة ) وهو ذو حدين ومزخرف بالفضة فى معظم الأحيان وهم يحصلون على هذا السلاح المصنوع فى فارس عن طريق جدة وهو يوضع فى مقدمة الحزام من الشمال الى اليمين .

وهناك ما يشبه جعبة من الجلد تطبق بالمائل فى الحزام من الأمام ، وتظهر بطن من البوص أو الخشب ليوضع بها البسارود ، وبالإضافة الى ذلك ثمة جراب يتكون من سيور صفيرة من الجلد المجدول ، تنتهى بأهداب مزدانة فى بعض الأحيان بقطع صفيرة من الرصاص ، ومزود به حقيبة من الجلد للصوفان ( مادة اسفنجية للجراحة ) ومثال ملطية بالكبريت ، وحقيبة أخرى للأحجار . وتعلق به تداخلة لها سلسلة صفيرة ، وهناك حقيبة ثالثة صفيرة توضع بها الخزفونات وعلبة كبيرة من الخشب على شكل مخروط تملأ كذلك بالبسارود ، بالإضافة الى جعب كثيرة مشابهة تعلق بهذا الجراب .

وتشبه ملابس النساء ملابس نساء القاهرة ، سروال ضيق من تماش فاتح ، وفستان طويل من التيل الأزرق ، مفتوح عند الصدر ، وله

الكمام واسمة مشقوقة حتى منتصف طولها ، برقع أو رباط من القماش .  
 الأسود يبلغ عرضه ٢ ديسيمتر ( ٨-٩ بوصات ) وطوله ٥٦ ديسيمترات  
 ( ١٨ - ٢٠ بوصة ) ، ممتود من جانبي الرأس فوق العينين وعند منتصف  
 الجبهة بشريط صفيح تغطيه البارات ( قطع النقد الفضية ) فى بعض  
 الأحيان ، على هذا النحو تتكون ملابسهن ، وفى نفس الوقت يبنى ان  
 نضيف الى ذلك غنما من التيل الأزرق وعقودا وأساور من الطلي الزجاجية ،  
 ولبعضهن حلقات كبيرة من الفضة فى أسفل الساق المعارية ( خلخال )  
 والتي لا يغطيها جراب ( شراب ) .

### الثلاث

تشتمل اثلاث عرب الطور على خيمة من قماش من الصوف الغليظ  
 يصنوعونه بأنفسهم ، ورحى من الحجارة لطحن القمح ، وغلاى أو غلايين  
 للقهوة من النحاس ، وقدر معينة ، وأطباق من الخشب وملعقة من الحديد  
 لتحميم البن وهاون من الخشب ليصحن فيه البن بواسطة عصا — هذا  
 هو اثك الميسورين من هؤلاء العرب والذين يمتلكون زيادة على ذلك ،  
 حثائب من الصوف لنقل الفحم .

### الخيم

نادرا ما يقيم الخيم القبيلة بأكملها ، ولا يتجاوز عدد الخيام الخاصة  
 بكل قبيلة والتي توزع هنا وهناك تبعاً لوجود الأعشاب والشجر التي  
 يعثرون عليها فى الوديان ، ١٢ أو ١٥ خيمة ، وينبغى استثناء عرب  
 القرارشة الذين يمتلكون ٣٥ الى ٤٠ خيمة لأنهم يقيمون فى وادى غيران  
 الخصيب .

وتنهض الخيام ، وهى مفتوحة من الأمام ، فوق عارضة من الخشب  
 يحملها وتدان يبلغ ارتفاعهما المترين ( حوالى ٦ أقدام ) ، وتنزل بشكل  
 منحدر لمسافة يتفاوت طولها فوق عارضة أخرى يبلغ ارتفاعها نصف المتر  
 ( ١٨ - ٢٠ بوصة ) وهى من الطين ، وتنهض فوق العارضة الأخرى  
 بشكل عمودى . وتقل الجوانب بنفس القماش أو بقطع عديدة مخططة  
 الألوان . وفى معظم الأحيان تنقسم هذه الخيام بشريط من القماش يمتد  
 الى الأمام قليلا ويستخدم فى عزل المكان المخصص للنساء .

### الممتلكات

إذا استثنينا بعض الأراضي في وديان الكيد وفيران ، وهى المحاطة بأسوار متهممة ومزروعة بأشجار النخيل والنبق ، وإذا ما استثنينا كذلك الدير وحديقة الرهبان ، فيمكن القول بأنه ليست هناك ملكيات فى شبه جزيرة سيناء ، فجبل أو عدة جمال ، بالإضافة الى بعض المنازل هى ثروة العربى ، وتنتشر كل قبيلة فوق منطقة محددة من الأرض ترعى فوقها قطعانها وتصنع فحمها ، وتقدر الثروة هناك بعدد الجمال ، ويعد فقيرا من لا يملك جمالا : أبو فقير ، مفيش جبل ، أى أنه فقير لا يملك جمالا مطلقا ، فليمره وليعطه المالك .

### الصناعة

تتناسب صناعة عربان الطور مع احتياجاتهم بالنسبة البساطة ، فهم يصنعون ملابسهم ، ويصنعون بأنفسهم أثمشة خيلهم من الصوف ووبر الماعز الذى يغزلونه دون إزالة الشحم منه (٣٩) .

وعلى الرغم من أن بيع الفحم هو مصدر دخلهم الأساسى ، فليست لديهم الوسائل اللازمة لقطع الخشب ، وهم يضعون النار عند جذر الشجرة ، ويكسرونها بقطع ضخمة من الأحجار . وإذا كلفت لدى البعض

---

(٢٩) تحمل الضيوط التى تشكل سداة القماش ، عصوان موضوعتان بشكل اقنى ، ومثبتتان بالأرض من كل من طرفيهما ، وتبتعد كل منها من الأخرى بمسافه تزيد أو تنقص ( حسب الفرض المطلوب ) ، وهنالك جزء من غزل صوفى مماثل ، ملفوف حول عصا طولها ٣ ديسيمترات (حوالى ١ قدم ) تستخدم كمكوك ، وتصنع لحمة القماش بتمرير هذا المكوك باليد بالتبادل خيطا فوق خيط من تحت ، ويكون الصانع فى هذه الحالة راغدا ، ثم يسحب المكوك ويبرر من جديد حتى يبلغ الطرف الآخر من خيوط السداة ويضمون خيوط اللحمة الى بعضها بضربها بمشط له ١٠ الى ١٢ من الأسنان ، وعندما يضم الخيط بأكمله يعوم المكوك الى الجانب الآخر بنفس الوسيلة . وأعتقد أن الخيط الواحد لا ينسج ولا يضم فى اقل من ١٠ دقائق أو ربع الساعة وتقوم النسوة بهذا العمل ، بينما يصنع أزواجهن الفحم ويحملونه الى القاهرة

بلطات صغيرة ( قانوم ) فهي ضعيفة وبالفئة السوء لدرجة لا يمكن معها أن يستخدموها الا لقطع الأغصان ، وعندما سألتهم لماذا لا يجلبون من القاهرة بلطات أحدث أجلبوني : هكذا كان يصنع آبائنا . هؤلاء العرب لا يولون أى اهتمام لما يضيع بددا من خشب ماداموا سيظلون يعثرون على الدوام على خشب يستعملونه فهم لا يفكرون مطلقا ان كانوا سيظلون يجدون الكثير منه ولوقت اطول لو انهم استخدموا وسائل افضل « ريك يدبرها » ، وهم يصنعون الفحم بوضع الخشب بشكل افقى وتغطيته بالتراب ، ويكتبونه دون أن يربطوه . ويمكن أن يكون هذا الفحم بالغ الجودة لو أنه كان أكثر سمكا بقليل مما هو عليه . لكنه مع ذلك يكفى لأعمال المطبخ وكذلك فى العدد الأكبر من محلات الحدادة فى القاهرة .

ولكى لا يئذل جهد لا جدوى منه . فإن أحدا لا يصنع من الفحم الا الكمية التى تستطيع جباله ان تحلبها . ويصنع العرب الفحم فى نفس المكان الذى اسقطت فيه الشجرة . ويملؤون منه حثائبهم ويتركون هذه الحثائب على الأرض أو يحملونها الى طريق القافلة لى تأخذها عند مرورها .

### التجارة

تشتمل تجارة عربان الطور على الفحم الذى يحملونه الى القاهرة، وعلى نقل البن والسلع الأخرى التى تصل الى السويس عن طريق البحر الأحمر .

وبيع الفحم بالقاهرة بسعر ٦ بوطاقات أو ١٨ فرنكا للحمولة الكهيرة اذا كان من فحم السنط ( أو السيلال ) و ٤١/٢ بوطاقات أو خمس بوطاقات اذا كان من خشب الطرفاء ( الاثل أو المن ) .

ولا يحمل العدد الأكبر من الجبال سوى نصف أو ثلثي الحمولة . مما يعطى ثمنا يبلغ ٩ ٤ ١٢ فرنكا .

وعن طريق بيع الفحم يدبر العرب عيشهم وعيش عائلاتهم وجسمالهم لمدة ستة أسابيع تستغرقها الرحلة الى القاهرة ، وعن طريق هذا المبلغ المتواضع أيضا يشترون البن والدقيق أو القمح والتبغ والتنارجيلات النى

تمثل احتياجا كبيرا بالفنسية لهم ، كما يمكنهم ان يتزودوا بقطع الملابس  
وبمعدات الجمال التى لا يمكنهم صنعها .

وقد يصعب على المرء ان يتصور كيف يمكن بمقدور هؤلاء ان يعيشوا  
بمثل هذا الدخل الهزيل ، وقد يصعب عليه بدرجة اقل مما سبق ان يتصور  
ايضا كيف يمكن ان توجد بينهم بعض العائلات الميسورة - اى التى تمتلك  
جمالا كثيرة - اذا لم يكن لها مصدر آخر للثروة ، او على الاقل ، اذا لم  
تكن تلجأ الى استخدام اكثر اذراا للربح لهذه الحيوانات (٣٠) .

ويقوم العرب عادة بعمليات النقل من السويس الى القاهرة ويقوم  
التجار باخطار شيخ او عدة شيوخ ، عند مرورهم بالطور ويتمتعون معهم  
على نقل حمولتهم التى قد تتطلب من ٢٠٠ الى ٣٠٠٠ جبل .  
ويذهب اولئك الذين تعاقبوا الى الجبل ليبرموا صفقات خاصة يحققون  
من ورائها بعض الأرباح ويدفع للحمولة (حمولة الجبل) الكلمة ٨ بوطاقات  
او ٢٥ باره مع جزء من البن .

وبخلاف هذه المنافع ، كان عرب الطور يتولون امر التوافل الذاهبة  
الى مكة والتى كانوا يحدونها بشائين جبلا تذهب من القاهرة الى المعجود ،  
وكانوا يلقون من البكوات ٢٤ الف باره اى ٨٠٠ فرنك وفردا من البن  
(تنتظر يساوى ١٠٨ أقة) و١٢ أردبا من القمح وثلاثة اطنان ملابس .

### الطعام

يمثل طعام العربي من بعض البصل ، والروجة او الفطير ، وهى  
نوع من الأفراس المصنوعة من الدقيق المعجون بالماء بدون خبيرة او  
ملح ، ويصنعونها مرتين كل يوم ، ويضيف اليها الميسورون الفول او  
العنيس المطبوخ بالبصل وتليل من الزيت ويكتفى الفقراء بكل الروجة

(٣٠) تحدد الثروة بعدد الجمال ، واذا سألت ان كان عربى ما غنيا  
او فقيرا فانك تحصل على هذه الاجابة . ان لديه جبلا ، او ان لديه عدة  
جمال ، ومن يمتلك من بينهم اربعة جمال يعد اكثر ثراء بربع مرات ممن  
لا يملك سوى جبل واحد .

ولا يخبخ عربان الطور العنزات الا ايام الاعياد أو عندما يستضيفون اقربا ، وعندئذ ياكلون الارز والبلح ان كلن قد تم جثيه .

وتد عوملنا على النحو التالي عند كل القبائل نميا عدا قبيلة مزينة :  
تبسط امام محفل الخيمة قطعة من السجاد أو بعض جلود الماعز ، ويجلس الشيخ أولا ثم قدامى القوم وشيوخهم بترتيب السن ، وبشكل كل ابنساء القبيلة دائرة كبيرة وتوضع النار فى الوسط ، وعندما يكون آخر من يصل ، كانت القبيلة باكلها تنهض واقفة ويجلسوننا بجوار الشيخ ، ويمسبون على بينا المساء بعد ذلك لتفصل . وكاثوا يدفعون المساء عندما يكون الطقس باردا ، وتقدم القهوة ، ثم يحضرون امام الاقرباء وكبار السن طبقا كبيرا من الخشب مليئا بالبلح ، ويمرر هذا الطبق بالتوالى فى نقاط كثيرة من الدائرة الكبيرة حتى يستطيع كل امرئ أن يأخذ منه ، ويظل شيخ القبيلة واقفا بالقرب من الفاصل الذى يشكل عازلا للحريم اللاتى يمرر اليهن الطبق بعد انتهاء الطعام .

وتغسل الايدى مرة اخرى ، ثم تسلم النسوة الى الشيخ قطعة قطعة من العنزة المسلوقة فى ماء بدون ملح فوق قطعة من الفطير ، ويسلم الشيخ هذه القطع بانئا بالاكبر منا ، ثم الى الشبان والى الاطفال . وزيادة فى اكرامنا كانوا يرسلون الينا فى طبق من الخشب قطعما كثيرة من العنزة مع عدد مماثل من قطع الفطير .

ويعيد الشيخ بنائيا الطعام التى ترد اليه ، بعد ان ياكل هو نفسه . ويظل هذا الرجل واقفا طيلة تناول الطعام ليكون على اتصال بالحریم ولكى يخدم المجموع .

ونفصل ايندنا للمرة الثالثة مع تبرير قطعة الصابون من يد لأخرى . وفى الفترات الفاصلة اثناء الاكل نتناول القهوة ، واخيرا يصل الارز المطبوخ بالدقيق وقطع من الفطير وقليل من الزيت وبعض البصلات ، ويقدم هذا كله فى طبق كبير من الخشب يحمله شخصان فوق قطعة من السجاد أو بالأخرى فوق جلاب . ويوضع الطبق امام اوائل الجمع . وياكلون هذا النوع من العجين شأنه شأن غيره بالأيدى ، ويمرر الطبق على التوالى حول الدائرة . ويحصل الاطفال الذين لم يستطيعوا أن يمرثوا لأنفسهم على مكان قوقوفوا الى الخلف جزءا من هذا الطعام فى ايديهم ، ويعود



الطبق أمام الشيخ الذى يمرره بعد ذلك الى النسوة . ولا توجه الى اى واحد من هؤلاء الاكئين دعوة الى الطعام ، فكل جائع يأكل ، ويعتمد عن المدة فور شعوره بالشبع . وفى أثناء الطعام يتحدث كبار القوم (شيوخهم) وحدهم ويتناقشون ، وهو أمر نادر ما يحدث من قبل الشبان ، كما لا يصدر مطلقا عن الأطفال ، وفى كل القبائل كان العرب يشعرون نحونا بالامتنان الشديد لأننا نعيش ونأكل على طريقتهم دون اى تمييز سوى أننا كنا نتصدر المكان فى مخيل الخيمة حيث كنا نجلس على جلد عنزة ، أو فوق قطعة من القماش .

### الرقص

لا يستسلم العريان فى ايام الاعياد لرح يكون اكثر مسخيا مما اعتادوا ، ويقوم الشبان وحدهم ، وفى يدهم سيف أو خنجر ، بعمل بعض حركات الجسم والاعضاء التى تقلد شكل معركة بطريقة منفرة وخشنة . ولا يشبه رقص النساء فى شىء رقص الموالم (عالة) فى مصر ، ولا يحدث هذا الرقص الا فى الليل .

يتجمع رجال كثيرون فى شكل نصف دائرة مفاصكين باليد وهم يهتزون ، أو يفنون بعض العبارات التى تتفق مع المناسبة (٣١) والتى يصحونها من وقت لآخر بتصفيق منهم باليدين .

وفى أثناء الفناء تقبل امرأتان كل واحدة منهما من احد طرفى الدائرة ، ويسطان الذراعين ، ويمران بالتبادل قدما أمام الأخرى ، ويقومان ببعض الاتحناءات للحنجرة والتبجيل ، وهما بهزان جسيهما حتى تلبغا وسط نصف الدائرة . وعند كل انحناء احترام يحنى المنشدون ثم يفانران نصف الدائرة وهما يصنعان نفس الحركات ، وتمثل مكاتهما اثنتان اخرى ، وعند انحناء الاحترام الأخيرة يحنين ، وهم يطلقون صيحة من الحنجرة ، هى تلك التى

---

(٣١) اليكم بعض هذه الجبل : شكرا لله وللرسول لأن رجالنا قد وصلوا — كل القبيلة فى فرح منذ وصول مسالم مع صحبه — مسالم يترك خيته مفتوحة لكل الناس — الذين طردوا المالك كتبوا الى مسالم لكى يحظر — نرجو الله ورسوله ان يظل الذين يحكمون مصر الآن ، فهيا الى الأبد — كنا فى انتظار عودة مسالم لكى نحز رأس الخروف .

تستخدم فى اتاخة الجمال ، وكان احد شيوخرنا ويسمى كرييزات داخل الدائرة مقنين له :

كرييزات يهمن تحميل جماله .

وقد ارسلنا الى الرافضات بعض قطع من الذهب وبعض البن بغنين لنسا :

قدم الينا الفرنسيون البن مع السكر فى فناجين جميلة .

### المصادات

عندما يموت شيخ يحل ابنه محله طالما كان هذا الابن شهيا وطالما كان لبق الحديث وكانت خيمته مفتوحة امام كل الناس . وفى الحالة التى لا يكون للشيخ المتوفى فيها ابن ، يعين اقرب اقربائه اليه او الشخص الذى تتوفر فيه هذه الشروط ، ويجمع الناس عليه ، ويعترف به دون اذى اعتراض .

وتتشابه بعض وظائف الشيخ مع وظائف قاضى السلام Juge de Paix عندنا . وفى حالات المنازعات يأتى الناس للتماس حكمه ، وتسلم اليه كل الأطراف المتنازعة وكذلك الشهود خناجرهم فريشتها فى الأرض امامه ، وعندما يتحدث اليهم يمسك بيده عدة خناجر يلوح بها . ويتحدث الجميع ، او عدد كبير منهم ، فى وقت واحد ، فيحدثون بذلك ضجة كبيرة ، واذا لم يتفقوا فان الشيخ يصدر حكمه ، ويعيد اليهم اسلحتهم ، وتهدأ الضجة فى لحظة ثم ينسحبون .

اما الجرائم ، مثل القتل ، فيقتص لها بالدم ، او تفتدى مقابل مبلغ كبير ، وتدفع دية الجرح بحسب حجمه ، ويقاس ذلك بحبات القمح .

واذا ما تشاجر رجل ميسور مع آخر فقير ، ترجع كفة الرجل الفقير .

وحيث تخطط القطعان ، وحيث الخيام مفتوحة ، فان العرب فى حاجة شديدة لكى يجعلوا من السرقة فيما بينهم امرا يوحى بالذعر الشديد . ويتمسون فى هذا الصدد ، وهم يمتدحون ، حكيمة اب سرق ابنته احدى

عزائنه ، فقد تابع الأب المذنب في الجبال ، ووجدتها تشوى قطعة من لحم المنزة ، فقيد تحميمها ويديها وألقى بها في النار .

وتمتأب بنفس العقوبة الزوجة الخائنة والبنات التي تفقد شرفها ، ويتم التنفيذ علنا ، إذ يتود الأب ومعه الكثيرون من الأهل المخطئة إلى الجبل .

ولا ينفذ الأب أي شيء كتلية ، إذ ليس من بينهم أحد يقرأ أو يكتب ، ولديهم قوانين وقواعد انتقلت إليهم عن طريق التقاليد ويتعلمونها بالممارسة ( أي من واقع الحياة ) .

وترغم البنات على الزواج من الزوج الذي يقدمه لها أهلها . لكن الأمر ليس على هذا النحو بالنسبة للولد ، وعادة يفضل العرب أن يتزوجوا من نفس عائلتهم .

ويمكن للولد أن يتزوج من ابنة عمه أو خاله لكنه لا يستطيع أن يتزوج أخت زوجته ولا أخت أبيه . ويذم عند الزواج ١٠ بوطاقات على الأقل من ذات التسعين بارة ( حوالي ٣٢ فرنكا ) إلى أهل البنت ولا يعطى شيء للبنات نفسها ، ولكن إذا طلق الزوج زوجته فله يعطيها مائة قطعة من ذات الثلاثين بارة ، ( حوالي ١٠٦ فرنك ) أما إذا كانت هي التي طلبت الطلاق فلها لا يستطيع أن تطلب شيئا .

وإذا ملكت أب وترك ابنا وابنة ، يحصل الابن على ثلاثة أرباع القطيع ، أما إذا ترك ابنا وعدة بنات ، فيحصل الابن في هذه الحالة على النصف فقط .

وإذا ترك الزوج زوجة لا أبناء لها ، يكون لأهله الآخرين في حياته نفس الحقوق التي كانت ستكون إلى أبنائه ، وتؤول الأسلحة التي كانت للأخ الأكبر ( المتوفى ) إلى أخيه أو ابن أخيه أو ابن عمه .

وإذا ترك هذا الزوج زوجة ثانية لا أبناء لها ، وله أبناء من الزوجة الأولى فإن الزوجة الثانية هذه لا يستطيع أن تفرض كحق لها إلا ما أعطاه الزوج لها بموجب وصية أوصى بها أمام شهود .

ويتكفل بالتهامى أحد الأقارب من الميسورين ، ويتكفل كذلك بالقطيعان التى سيقدم عنها الحساب عندما يكبر الأطفال .

وإذا كان الأطفال بلا قطيع فكل الله يرعاهم ، ومن لديه يعطيهم .  
والأمراض الشائعة عند العرب قليلة للغاية ، على الرغم من أن غالبيتهم ينامون عراة ، وقد لاحظت أن عددا كبيرا من بينهم يصابون بالسعال فى نهاية نوفمبر وأن أطفالا كثيرين هناك يصابون بما يشبه السعال الديكى .

ويستخدم العرب الكى فى حالات كثيرة ، ويجلب بعضهم من القاهرة أدوية يبيعها لهم المشعوذون بسعر رخيص . وهم يشربون الماء المخلئ فوق بعرات الحمير كعلاج لأوجاع الرأس .

عن شعبة جزيرة سيناء

### السكان

يبلغ تعداد عرب الطور حوالى ٩٠٠ الى ١٠٠٠ رجل يستطيعون حمل السلاح ويدخل فى هذا العدد سكان منطقة الطور ورجال الدين .

وللبعض من هؤلاء أكثر من زوجة تسكن كل واحدة منهم فى خيمة مستقلة . وثلثا عدد السكان على الأقل متزوجون ، وهم يسكنون الجبل على النحو التالى :

عدد الرجال القادرين على حمل السلاح	اسم القبيلة
١٥٠	العليقات
١٢٠	الموارمة
١٠٠	القرارشة
١٣٠	أولاد سعيد
٢٥٠	مزينة

وبالاضافة الى ذلك هناك خمس قبائل صغيرة أخرى او عائلات ، تنتمى الى تلك القبائل ، وهى الرزيدات ، العنابية ، الجريزات ، الدرامة ، الحمادى .

واخيرا ، يشكل الجبالية ، الذين كانوا فى الماضى يقومون بخدمة دير سانت كاترين الواقع بالقرب منهم ، خمس قبائل صغيرة لكل واحد منها شيخ . ويبدو انهم كانوا مسيحيين فيما مضى وانهم كانوا يدخلون الدير ، ولكنهم منذ اعتنقوا الاسلام او منذ حل محلهم العربان ، لم يعودوا يترددون على الدير او يقومون بخدمة رجال الدين بأفضل مما تفعل بقية القبائل . وهؤلاء الجبالية هم أكثر هذه القبائل بؤسا، وهذه هى أسماؤهم:

اسم القبيلة	عدد الرجال القادرين على حمل السلاح
السلايمة	٣٠
الحمايدة	٢٠
الوهيات	١٥
أولاد جندي	٣٠
أولاد رزين	٤٠
المجموع	١٣٥

وعلى الرغم من ان الوقت والظروف لم تسمح لنا برسم خريطة ومسار الطريق فإننى دونت مذكرة دقيقة بكل نقاط هذا الطريق . وقد قست المسافات عن طريق الوقت الذى كنا ننفقه للذهاب من نقطة الى أخرى مع تقدير ميلين لكل ساعة للمسافة التى تقطعها الجبال محملة او التى تسير فى قافلة دون أن يسرع بها تالذوها . وقد تبين لى أنك لستى تذهب من القاهرة الى طرف شبه جزيرة سيناء مروراً من جهة البحر بالنقاط التى توجد بها المياه ، ولكى تعود من خلال الجبال فإن عليك أن تنفق مثلنا ٢٣٦ ساعة ، واننا نستطيع على هذا النحو أن نفترض أن هذا الطريق يبلغ ٤٧٢ ميلا او ٢٣٦ فرسخا بالقياس الفرنسى .

واليكم واتمة تؤيد هذا التقرير .

وجد العالم الفلكى المسمى نويه Nouet عن طريق عملية حساب  
مطلقات أن السويى تبعد عن القاهرة بـ ٢٨ فرسخا مقدارها ٢٢٨٢  
قلمة ( القلمة = ٢ ياردة ) أى ٦٣ ميلا و ٨٩٦ قلمة . وقد قطعنا هذا  
الطريق مرتين مع نفس القافلة ، واتفقنا فى كل مرة ٢ ساعة ( مع غلق  
بضع دقائق زيادة أو نقصانا ) ، الأمر الذى يعطينا تبعا للتقدير السابق  
٦٤ ألف قلمة أو ٣٢ فرسخا ، طول الفرسخ الفالقلمة .

ومن هنا نرى انه ليس هناك سوى غلق بين النتيجتين يبلغ  
١.٤ قلمة .

الطريق من القاهرة الى طرف شبه جزيرة سيناء عن طريق السويس  
مع اشارة الى الاماكن التى توجد بها مياه

ترتيب أيام المشى	أسماء الأماكن والاستراحات	المسافة بالميل	نوع
الأول	من القاهرة، فى الصحراء	١٢	بدون ماء
الثانى	"	٢٠	شرحه
الثالث	إلى العجرو	٢٤	شرحه
الرابع	إلى بير السويس	٦	مياه ملحية
	إلى السويس	٤	بدون ماء
الخامس	إلى عين موسى	٦	مياه كبريتية وجبسية
	العين	٥	بدون ماء
السادس	أبو صورية	١٥	مياه جبسية
السابع	وادي الفرندل	٢٠	بدون ماء
الثامن	وادي الحوزية	٤	مياه جبسية
	وادي إفل	٢٤	" "
التاسع	وادي المغارة	٢٦	مياه جبسية
العاشر	الطور	٢	" "
الحادى والثانى عشر	فى الجبال	٣٢	بدون ماء
	شرم ( الشيخ )	٦	جبسية
الثالث عشر	قبيلة مزينة	—	بدون ماء
الرابع عشر	وادي تميب	٢٥	شرحه
	وادي المتنا	٢	مياه جبسية
الخامس عشر	وادي الكيد	١٨	" "
	فى الجبال	١٤	بدون ماء

ترتيب أيام المشى	أسماء الأماكن والإسراحات	المسافة بالميل	نوع المياه
السابع عشر	إلى دير سانت كاترين	٦	مياه جيدة
الثامن والتاسع عشر	في جبال سيناء وسانت	١٢	جيدة
	كاترين وسهل الإسرائيليين والعودة إلى النهر	٨	—
العشرون	وادي الشيخ صالح	١٥	جيدة، تنضب في الصيف
الحادي والعشرون	وادي فيران	٤	جيدة
الثاني والعشرون	في وادي ضيق	٦	بدون ماء
الثالث والعشرون	وادي الحيلة	١١	شرحه
الرابع والعشرون	وادي نصيب	١٠	جيدة
الخامس والعشرون	وادي عسل	١٦	بدون ماء
السادس والعشرون	الحوزية	٨	—
	خور فرق	١٠	كلبية
السابع والعشرون	وادي الحلازا	٦	بدون ماء
الثامن والعشرون	عيون موسى	٤	—
التاسع والعشرون والثلاثون	إلى القاهرة	٧٢	—
والحادي والثلاثون	بمجموع المسافة	٤٧٩	



## الدراسة الخامسة :

# رحلة الى بنى سويف والفيوم

ب.م.م. مارتان

✦ العنوان الاصلى للدراسة هو :

وصف هيدروجرافى لولايتى بنى سويف  
والفيوم .

( والهيدروجرافيا هى علم وصف الجياه او  
طبوغرافيا البحار . اما الكوروجرافيا فهى  
علم وصف البلدان . المترجم )



تشر ولايتا الفيوم وبني سويف ، الواقعتان في ذلك الجزء من مصر ،  
الذي كان يشار اليه فيما مضى باسم هيتاويد ، والذي يعرف اليوم باسم  
الوسطاني ، او مصر الوسطى ، اهتماما كبيرا من ناحية كوروجرافيتها ،  
التي لا تزال حتى يومنا هذا موضوعا للجدل ، لم تلق حوله الآراء ، بين  
أكبر واشهر جغرافيينا ، فلك ان الاوصاف التي خلفها لنا الاقدمون لهذين  
الاقليمين ، تختلف اشد الاختلاف عن تلك التي يقدمها لنا ، عنها ،  
الرحالة ، واشهر النقاد المحدثين ، حتى نهاية القرن الثامن عشر ، وحين  
نريد التوفيق : بين هذه الاختلافات ، نجد انفسنا في كثير من الاحيان ،  
عرضة للوقوع في اشد الأخطاء خطورة .

وعند وصولنا الى مصر ، كان لابد ان تهدف لجنة العلوم والفنون  
الى العمل على ازالة كل هذه الشكوك ، والى ان تؤكد في النهاية ،  
وبطريقة لا تقبل الجدل ، ذلك الرأي الذي لابد لكل امرئ ان يتوصل اليه ،  
بخصوص عظمة وعبرية قباء المصريين ، كما توضحها مؤلفات تحظى  
بفرجة عالية من الاحترام ، مثل مؤلفات هيرودوت وسترابون ، وديودور  
( المصلي ) ، وبطلميوس . الخ ، وهي مؤلفات يستحيل على المرء مطلقا  
ان ينحيا جانباً او حتى ان ينظر اليها نظرة استخفاف ، ونتيجة لذلك ،  
فقد توجه عديد من اعضاء هذه اللجنة الى بني سويف والفيوم ، في كل  
مرة كانت تمنح فيها الفرصة لأي منهم للقيام بمثل هذه الجولات ، وقد  
ابتدى الاستاذان : جومار Jomard ، وجيرار Girard حماسة لا تعرف الكلل  
في ابحاثهما التي قمت نتائجها الى مجمع القاهرة .

لقد اخذ اولهما على عاتقه ان يتأكد من حقيقة الاوصاف التي قدمها  
كل من هيرودوت ، وديودور ، وسترابون لبحيرة موريس ، وبرهن بشكل  
شديد الوضوح على ان هؤلاء المؤرخين ، يعنون فيما دونوه في مؤلفاتهم ،  
تلك البحيرة التي تعرف اليوم باسم بركة قارون ، اذ هي البحيرة الوحيدة  
التي تنطبق عليها الاحوال التي اوردتها كل من هؤلاء (١) .

(١) انظر دراسة حول بحيرة موريس ، تأليف جومار ، المعصور  
القديمة ، دراسات المجلد السادس ، وصف مصر ( الطبعة الثانية ) .

أبا المسيو جيرار ، فقد اهتم بشكل خاص بوصف النيوم بوصفها  
الحالى ، بينما هو يعالج أمور الزراعة والتجارة ، لكنه ، على الرغم من  
ذلك التفلا المعروف عنه ، والمصارف الميضة والغزيرة التى تميز كل  
مؤلفاته ، قد ظل عند مناقشته لهذه الموضوعات بعيدا عن مناقشة  
الطبوغرافية القديمة لهذا الاقليم .

وفى الواقع ، فإن الدراسة الميضة التى قام بها المسيو جومار قد  
أزالت كل لبس ، فقد أصبحنا الآن على ثقة من الموقع الصحيح لبحيرة  
موريس ، واللابلنت ، واقليم أرسينويه . لقد كنا نعرف ضعف الأسس  
التي تنبض عليها افتراضات دانفيل d'Anville وجيبر Gibert ، ولم يعد  
بمقدور أحد أن يرى بحيرة موريس لا فى تلك الحقول المزروعة على الدوام ،  
مثل حقول الباطن ( أى الداخل ) ، ولا فى هذا الفرع المتعرج للنيل والذي  
يحمل اسم بحر يوسف ، ذلك الذى يكفى بالكاد للملاحاة بعض القوارب  
الخفيفة ، ومع ذلك فإن المسيو جومار لم يكن قد استطاع حتى الآن أن  
يخض دانفيل وجيبر ، الا ببراهين من شأنها أن تقدم بعض افتراضات ،  
تنفى بعدم قدرتها على الانتساع ، إذ كان دانفيل قد أنشأ ، دعما لروايه ،  
وبيضا هو يعبر عن فكرته بخصوص حقول الباطن تبعا لما زعمه الأب  
سنسيكار P. sicard ، خريطة ترك الأمر فيها مطلقا ، حين يطلق على هذه  
الحقول اسم بحيرة موريس تبعا لما يذكره هيرودوت وريودور ، ثم يعود  
لم يطلق فى الوقت نفسه اسم بحيرة موريس على بركة قارون تبعا لما  
يورده سترابون وببليموس . وللوصول الى يقين حول هذه النقطة ،  
كان من الضروري عبور الجزء الشمالى من البركة ، والا نظل نحدد اتجاهها  
وأنساعها تبعا لأوصاف مبسطة الى هذا الحد ، وغير دقيقة ، ولقد كان  
لسوء الحظ ، مستحيلا على السيين جومار وجيرار أن يقوما بهذا  
الاستطلاع . وفى الفترة التى عبرا فيها هذا الاقليم . لم تكن مصر ، غير  
الواثقة حتى ذلك الحين من مصيرها ، لتسمح للفرنسيين الدارسين أن  
يتجولوا فى ربوعها ، الا فى أعقاب فرق من الجيش ، أوكلت اليها مهمة  
تأكيد السلطة الجديدة . ولأنهما ، والحال كذلك ، لم يستطيعا أن يغيرا  
حركتهما بالحرية اللازمة لمهام تنسج على هذا النحو ، فانهما لم يشغلا  
نفسهما فى هذا الوقت ، الا بالجغرافيا الملكية ، فى دراسة المنشآت  
وطبوغرافيتها . وفى النهاية ، فلقد أدى الانتصار الباسر ، فى معركة

هليوبوليس ، واستعادة القاهرة عام ١٨٠٠ ، الى اعادة الهدوء الى مصر ، ويبدو أن السهولة التي أمكن بها تحطيم جهود العثمانيين ، الذين ينظر اليهم في هذه البلاد ، باعتبارهم الأعداء الوحيدين الذين يخشونهم ( بالنسبة لنا ) ، قد جعلت المصريين يظنون فكرة أن ينظروا الى الفرنسيين منذ الآن ، باعتبارهم حكما يستحيل ردهم على أعقابهم ، فهاكولوا منذ ذلك الوقت معنا بتقاليدهم اللطيفة وطباعهم الودودة ، وكلموا أبنائهم ، وإزاولوا العقبات التي كانت تعترض سبيل الفرنسيين ، وبدأ هؤلاء يجيئون أنحاء مصر ، وحدهم ، في أمن .

وقد سارع اعضاء لجنة العلوم والفنون بالقتباس هذه الظروف المؤاتية ، فانتشروا في الأمكن غير المأهولة وغير المعروفة كي يضيفوا جيذا الى اكتشافاتهم ، ولكي يطابقوا نتائج أبحاثهم السابقة على الواقع ، عندئذ حدث أن قامت رحلات الى جبل سيناء ، ووادي النيل ، وبرج العرب ، وأقر مشروع لزيارة الواحات ، والذهاب الى الحبشة ، وأمكن باختصار أن نعمل بنجاح بالقتاسيل الكوروجرافية لمصر .

أما مهندسو الطرق والكبارى ، الذين أوكل اليهم بشكل خاص كل مايتصل بنظام الري ، الذي ينهض عليه وجود مصر ، فقد شغلوا معظم أوقاتهم بدراسة نظام النيل ، وترع الملاحة ، والري ، والتجفيف ، وكان من نصيبى ولاينا البهنسا والفيوم ، وتوجهت الى بنى سويف . قرب نهلية شهر ميسدور من العام الثامن ( منتصف يولييه ١٨٠٠ ) .

كنت أرى تماما كم ستكون مهمتى ضخمة وعسيرة بالنسبة لقراراتى ، لكننى تدفعتى ، أهمية نتائج هذا العمل ، قد افترضت أن الحماسة المتأججة والشجاعة ستعوضان عدم كفايتى ، واتخذت قرارى الحازم بل اجتياز هاتين الولايتين من كل أجزائهما ، وإن أنشئ لهما الخرائط التفصيلية على قدر استطاعتى ، وعزمت على وجه الخصوص أن أقوم بدورة حول بحيرة موريث هذه ، وهو عمل لم يقم به حتى اليوم رحلة تديم ولا رحلة محدث ، وإن أصل بفلك الى فكرة محددة حول شكلها ، وامتدادها ، وحقيقة الأغراض التي كانت تستخدم فيها في العصور القديمة .

ويذكر التاريخ بأعجاب ، العصور والرجال الذين نهضت بفتشى أوامرهم ، تلك الأعمال التي ازدهرت بفضلها الزراعة في مصر . إن شاء

هذه البلاد لمدین لاسماء هؤلاء بالعرمان والمذبح الواجبین . وكنت اتناول  
لنفسی : یا لها من میزة مستحق لوطنی ، فرنسا ، اذا ما أصبحت مصر ،  
بعد تحقیق امال كهذی ، مستعمرة فرنسیة ! وای مجد يمكن ان يكون  
للفرنسیین اذا خصصوا اعمالهم لخير البشرية .

واقدم هنا تفاصيل ابحاثی ومجهوداتی کی اتوصل الى تحقیق الهدف  
الذی وضعته نصب عینی ، وسوف تستخدم هذه التفاصيل كمن لتفسير  
الخرائط التي رسمتها ، والتي تشكل جزءا من الأطلس الجغرافی (٢) .

وتنقسم هذه الدراسة الى قسمین :

فی القسم الأول ، قدمت وصفا لولاية بنی سويف ؛

وفی القسم الثانی ، قدمت وصفا لولاية الفيوم .

—————

(٢) انظر الخرائط ارقام ١٨ و ١٩ و ٢٠ و ٢١ فی الأطلس الجغرافی ،

## القسم الأول

### ولاية بنى سويف

بدأت بعد بضعة أيام من وصولي إلى بنى سويف ، حيث وجدت في شخص الجنرال زيونشيك قائد الولاية ، صديقا متحمسا للعلوم ، سارع لموضع تحت تصرفي كل الوسائل اللازمة لتسهيل عمليتي — بدلت باتامة عدة مثلثات كبيرة زبطت فيها — تبعا لقواعد علم حساب المثلثات — قرى بنى سويف وبوش (ب) بأعلى قمة لجبل المقطم ، الذي ينهض على الضفة الشرقية للنيل ، وكذلك بالهرم الذي يرى عند مدخل اليوم ، ويعد ذلك وباستخدام الوسائل الطبوغرافية المعتادة عينت تفاصيل شمال الولاية ، وربطتها بهذه البنية المثلثية ، التي يمكن رؤيتها من كافة الجهات على وجه التقريب .

يجرى النيل ، كما يحدث في كل بلاد الصعيد تقريبا ، عند سفح الجبل الغربي بطول ولاية بنى سويف ، وينقسم الشط الغربي من هذه الولاية ، من ناحية عرضه ، وهو الشط الوحيد القابل للزراعة ، إلى قسمين متبايزين وذلك بخصوص الري . والقسم الأول ، وهو يبدأ من عند حافة النيل ، أكثر ارتفاعا عن المياه العالية بانساع يبلغ حوالي الكيلومترين ، وترويه عدة ترع صغيرة ، تختص كل ترعة منها بقرية واحدة ، ويلجأ الناس إلى الأترع ( الشواذيف ) ، والمكينات ( السواقي ) لرفع المياه حتى تغمر الأرض . أما القسم الثاني ، وهو الذي يمتد بعد ذلك إلى سفح الجبال الصحراوية التي تفصل مصر (الوادي) عن اليوم ، فهو يشكل ، تبعا لانهداره ، في نمطين ، يصنع اتجاه كل منهما مع الآخر شكلا شبه عمودي ، أما النمط الأول فيقجه نحو الغرب أما الثاني فيقجه نحو الشمال وفق اتجاه مياه النهر . ولن آخذ على مايتى مطلقا أن أنسر سبب هذا التباين في ارتفاع هذين الجزئين من أرض الوادي ، فقد عولجت

هذه النقطة بما فيه السككية في دراسة المسوي جيار عن الزراعة في مصر العليا (٣) .

وهذان الانحناءان محسوسان لدرجة أن المياه العالية تظل تضر الأرض بارتفاع يبلغ المترين ، ويبدو الريف في هذه الفترة من الفيضان في شكل بحر مترام الأطراف ، ومثل هذا الموضع المواتي يغنى تماما عن الأعمال الميكانيكية في الري ، لكنه مع ذلك يتطلب أعمالا ضخمة للاحتفاظ بالمياه أثناء الوقت اللازم للزراعة ، لأن الانحدار إلى الشمال ، ذلك الذي يسحب المياه بنفس سرعة النهر أثناء تناقص الأخير ، يحول دون بقاء المياه فترة طويلة كافية فوق الأراضي .

ولعلاج هذه السوءة ، أتمت السلطات المحلية باتساع هذا الجزء من أرض مصر ، وعلى مسافات محددة ، جسورا تلامس الجبال ثم يظل ارتفاع هذه الجسور يتضاؤل ليلبغ مرتبة الصفر عند الأراضي المرتفعة على سفان النيل ، وتسبب هذه الجسور انحسار المياه حتى مستوى الأجزاء العليا ، وتظل على هذا النحو حتى تسمح لها الأراضي ، وقد تشبعت بالمياه ، أن تنصرف بواسطة قطوع أعدت في هذه الجسور .

وهذه الأعمال كما نرى ، ذات أهمية قصوى في نظام الري ، ولابد أن وجودها الذي بدأ مع بدء وجود الترع على مر العصور ، قد اثار اهتمام الحكام ، ونميز من بين هذه الجسور : الجسور الكبيرة ، والوسطى والصغيرة . أما الجسور الكبرى فقد بنيت باتساع الوادي كله ، ويوجد منها أحد عشر جسرا في كل ولاية بنى سويف ، أكبرها وأكثرها أهمية هو ذلك الجسر الذي يحمل اسم الوكشيشي ، ويقع على بعد حوالي ٢٠٠٠ متر ( ٢٠٠٠ م ) شمال بنى سويف ، وهو يبدأ عند النيل ، إلى الجنوب من ترقى الزاوية والمصلوب ثم يمضي إلى شمال ترقى تمين المروس وأجيج ثم يمضي جنوب الصحراء مارا بالقرب من ترقى أبويط ، وكوم أبو راضى ، أما السهل الذي بنى من أجله فينتهى عند قرى بهبشين ، ودلاص ، والزيتون .. الخ ، ويشمل مساحة حوالي ١٠٠٠ هكتار ، تفلتت عليها ١٨ قرية .



أما الجسور الكبرى الأخرى فهي جسور : بهشين ، صفائية ،  
من شقاف ، راشين ، النويرة ، الشوك ، أهوة ، دهل أو الشنطور ،  
مسالوط ، منبال ، بردنوها .

أما الجسور المتوسطة ، والتي لاتخدم إلا بعض الأراضي ، فيبدأ بعضها  
من شقاف النيل ، ويبدأ بعضها الآخر من الجسور الكبرى نفسها ، وينتهى  
كلاهما بالاتحام بأحد المرتفعات التي بنيت القرى فوقها .

ومن جهة ثالثة ولخيرة ، فإن الجسور الصغرى جسور بحلية ،  
تتألف من عدة قرايط أو أجزاء من القرية .

وقد اقتضى نفس وضع الانحدارات العرضية للوادي وجود نوعين  
من الترع . . الترع الكبرى ، وتحمل المياه الى اعلى ، أى الى الجزء  
الواقع الى أقصى الغرب حتى سفح الجبل ، والصغرى ، التي تبدأ أما  
من النيل نفسه ، وأما تشكل مروعا من الترع الكبرى ، وتنتهى عند سفح  
المرتفعات المتناثرة فوق رقعة الأرض العالية ، الشديدة الاقتراب من النهر .

وقد يظن البعض ، نتيجة لذلك ، أن الأراضي الواقعة بالقرب من  
الجبال يمكن على الدوام أن تروى بشكل طبيعي بواسطة الترع الكبرى .  
مهما يكن ارتفاع فيضان النهر ، حيث أن منسوبها أدنى من منسوب اقل  
الفيضانات علوا ؛ لكن الأمر ليس على هذا النحو ، إذ لا يمكن لى تروى  
هذه الأراضي أن يبلغ الفيضان نفس مستوى ارتفاعها ، بل لابد أن يتجاوز  
الفيضان ارتفاع قاع الترع التي ينبغي أن تحمل المياه الى هذه الحقول  
الشاسعة . ولا يمكن أن يتحقق هذا الشرط إلا بالعمليّة المستمرة من جانب  
حاكم مقلد مستنير ، وتلك تميزه لم يعرفها المصريون منذ قرون طويلة بهذه الأراضي  
الواقعة الى الغرب ، والتي حبستها الطبيعة الى هذا الحد ، والتي ينبغي  
أن تنهض عليها دوما آمال بقية مصر ، هي أكثر المناطق بؤسا ؛ فالمياه  
تتقصها كلية أثناء الفيضانات الضعيفة ، ولا تصل اليها إلا بكميات ضئيلة  
أثناء الفيضانات العالية إذ يتسبب ارتفاع قاع هذه الترع نتيجة  
للالهبال الطويل فى الحيلولة دون تدفق المياه الى هذه الأجزاء المنخفضة ،  
ويحدث فقط عندما يتجاوز الفيضان ارتفاع قاع الترع أن تنزل المياه كشلال  
هادر ، لتغطي الأرض الى ملح البصر ، ولقد شابهت هذه الأراضي جافة

فى ٢٤ ميسيدور من العام الثامن ( ١٢ أغسطس ١٨٠٠ ) ، وفى العاشر من مريكتيدور الذى يليه ( ٢٨ أغسطس ) وجدت المياه تطلو بنحو مترين ونصف المتر ، الى ثلاثة أمتار ، عند سفح الصحراء فى حين لم يبلغ الفيضان الفعلى فى ذلك الوقت الا مترا واحدا و ٢٥ سم .

وقد ادى ارتفاع فيضان العام السابع ( ١٧٩٩ ) ، الذى لم يستطع أن يتجاوز ارتفاع قاع العدد الأكبر من هذه الترع ، الى ترك مليقرب من ثلاثة أرباع الأراضى دون زراعة ، مما جلب الشقاء والأسى لعدد لا حصر له من العائلات فى حين كان ارتفاع ينسوب المياه ، مع ذلك ، اعلى بدرجة كبيرة من ارتفاع هذه الأراضى التى كان يمكن أن تنتشر فوقها الحياة والرخاء ، لو انها قد وجدت للوصول اليها سبيلا .

ينبغى إذن ألا ننظر الى ترع الرى الكبرى فى مصر باعتبارها مجرد خزانات للمياه ، حفرت لنفسها بطول مجراها مروعاً لها ، نهى وسائل أو قل « خراطيم » تجلب المياه الى المناطق النائية : وعلى هذا ، فيأله من أمر بالغ الأهمية الا تسد هذه الطرق ، وأن تستطيع المياه أن تجتازها دون عوائق بما أن تبلغ واحداً من أطرافها ، وهكذا فالهدف الذى يجب العمل فى سبيل بلوغه عند أعداد الترع فى مصر ، هو أن تحرص على أن تكون أطراف هذه الترع عند النهر على أدنى درجة ممكنة من الارتفاع ، وأن يكون هذا الارتفاع على مستوى أقل المناطق الداخلية ارتفاعاً ، وهذا على وجه التقريب هو ما توصل اليه بطليموس . إيمان وحرص على تنفيذه ، فى الأعمال الكثيرة التى قام بإنجازها ، ومن أجل هذا بالتحديد ، سجل حجر رشيد ذو النقوش الثلاثة اسمه كواحد من أبرز الذين قدموا لمصر الكثير من الأعمال النافعة .

أما أولئك الحكام الهيج والجشعون الذين تعاقبوا على مصر منذ ذلك الوقت ، ونحن لانستثنى من ذلك الرومان ، فقد أهملوا هذا الفرع الهام من مروع الاقتصاد السياسى ، وأى حظ ذلك الذى سيكون للفرنسيين ، لو أمكنهم ، كما كانت لديهم النية ، أن يضعوا فى سجلات التاريخ ، ذكراهم الى جانب ذكرى ذلك الحاكم الخير ، الذى ذكرته للتو .

تقطع شمال ولاية بنى سويف عديد من الترع الصغيرة التى تتفرع من النيل ، والتى لا نجد من بينها سوى ترعة واحدة كبيرة تسمى ترعة

بنى عدى ، بإسم القرية التى تجرى هذه التربة بالقرب منها ، ويبلغ اتساع هذه التربة فى العادة ٢٥ مترا ، وقد لمست أن ارتفاع المياه بها ، فى الحادى والعشرين من ترميدور من العام الثامن ( ١ أغسطس ١٨٠٠ ) ، وبعد اليوم الذى اجتزلها فيه ، يبلغ المترين و ٥٠ سم ، وتنبع هذه التربة من النيل مباشرة ، على بعد ١٥٠ كم من بنى سويف وتستطيع القوارب أن تعمل بها لمدة تقرب من ستين يوما ابتداء من ١٥ أغسطس حتى ١٥ أكتوبر ، ويتفرع من جانبى هذه التربة عديد من القنوات الصغيرة لرى أول جزء مرتفع من أرض الوادى ، ويقرب من طرفها تنقسم التربة الى امرعين : يضى أولهما الى هذه القرية حيث توجد قنطرة من الترميد لها ثلاثة اتواس ، تشكل الحد الذى تنتهى عنده الملاحه ، وبعد ذلك تضى المياه لتفترش الأراضى الواقعة عند سفح الجبل : أما القسم الثانى فيقوم ببعض الالتفاتات ، وير بالقرب من قرى الحافر ، أبو صير ، انفسط ، أبويط ، قن العروس ، وبعد أن يغطى ببياهه كل السهل الواقع بين جسر وكشيش فى الشمال ، وجسر بهشين فى الجنوب ، يذهب مايلبض من مياهه ، عن طريق قناة تتع بالقرب من قرية معمرة الخليل (\*) الى منخفض غير مزروع ، بين جبلين فاصلين وصحراويين ، تجرى منه المياه نحو بحر يوسف ، لطفى بعد ذلك ، حيث نصب فى النهوم ، مارة تحت تناطر هواره .

ويوجد بالجزء الجنوبى من الولاية ، عدد اقل من الترع المتفرعة عن النيل ، وذلك بالمقارنة مع العدد الموجود بالجزء الشمالى ، لكن الجزء الجنوبى ، يحصل على حليجته من المياه بنفس السهولة التى يحصل عليها بها الجزء الشمالى ، حيث تشقه باتجاه عرضه عديد من الترع الكبرى المتوازية مع مجرى النهر ، تغطى حتى فى حالات الفيضانات الضخيمة شرائح الأرض الواقعة بينها . وأهم هذه الترع : ترعتان يشر اليهما الجغرافيون باسمى : بحر يوسف ، وبحر الباطن . وقد ضللتنا الاكاديميين

---

(\*) يورد القاموس الجغرافى للاستاذ محمد رمزى أسماء عدة قرى فى هذه النواحي تحمل اسم معمرة ليس من بينها اسم معمرة الخليل . ولا بد أنه يقصد واحدة من هذه القرى . [ المترجم ]

دانفيل ، وجير Gibert اللذين نظرا اليهما باعتبارهما نفس بحيرة مورييس .

أما بحر يوسف ، الذى ترسمه على الدوام الخرائط الحديثة لمصر ، وهو ترعة تسير فى خطوط مستقيمة لمسافة تصل الى حوالى ٣٦ فرسخا ، ابتداء من ملوى حتى دخوله الى الفيوم ، فليس سوى فرع قديم من فروع النيل ، متعرج بقدر ما يتعرج النيل نفسه ، ويبلغ اتساعه اليوم حوالى المائة متر ، ويبلغ أقصى اتساع له فيما بين قرىتي Hezè (\*) ومنطقتين ، وقد قسمته بنفسى ، ١٤٠ مترا . ويحاذى هذا الفرع من فروع النيل سفح الهضبة الليبية ( الغربية ) كما يحاذى النيل نفسه سفح الهضبة العربية ( الشرقية ) ، وينقل بحر يوسف مياه النيل الى الفيوم ، ومجره على الدوام أدنى من مستوى السهل الذى يعد ، كما ذكرت من قبل ، أدنى من منسوب مياه النهر ، ومع ذلك فان بحر يوسف يتصل وقت الفيضان ، بالترع المتوازية معه ، فتتغذى المياه الاراضى التى تقع بينه وبين النيل .

أما اسم الباطن ، الذى اطلق على سبيل الخطأ على احدى الترع ، فليس على الإطلاق اسم علم ، ذلك انه تسمية تطلق بشكل عام على معظم الترع التى تعبر الاراضى الداخلية باتجاه من الجنوب الى الشمال (٤) ويطلق اسم باطن كذلك على ذلك الجزء من الاراضى الواقعة بين النيل والهضبة الليبية . وتشتق هذه الكلمة فى العربية من بطن بمعنى وسط ، او البطن نفسها ، وعلى هذا النحو اطلق العرب اسم بطن البقرة على قمة الدلتا التى يفصل عندها فرعا دميلاط ورشيد .

وهناك اسم آخر أكثر خصوصية ، على الرغم من ان عسديدا من الترع تحمله ، هو : فياض : ويميز هذا الاسم البواطن السبرى عن البواطن المسفرى . وأكبر هذه الفياضات الباطنية ، وهو الوحيد الذى

---

(\*) لم استطلع التحقق من هذا الاسم فأثرت ان اوردته بحروفه اللاتينية كما ورد بوصف مصر . [ المترجم ]  
(٤) انظر دراسة عن بحيرة مورييس ، تأليف جومار ، المعصور القديمة ، دراسات ، المجلد السادس .

امكنه أن يضل كلا من جرانجية Granger والاب سيكار ودانفيل ويوتعمهم في الخطأ ، لا يزيد طوله عن ستة فراسخ ، ويتفرع من النيل عند قرية الشيخ زياد ، على بعد حوالي ١٢ فرسخا الى الجنوب من بنى سويف ، ثم يواصل بعد ذلك مجراه ، باتجاه الشمال الغربى ، ليمر على بعد فرسخ واحد الى الشمال من الفشن ، جنوب قرية بنى صالح ومن هناك يضى لتفيض مياهه فى الاراضى حتى يحجزها جسر صلب راسين . وفى خلال الفيضان ، يتم اتصاله مع بحر يوسف ، الى الشمال قليلا من قرية مزورة ، ويبلغ أقصى عمق له ٣٦ مترا ، وعندما تمت بعمل مجسات له فى العشرين من تمريمر من الملم التاسع ( ديسمبر ١٨٠٠ ) لم يكن عمق مياهه لتبلغ أكثر من ١٥٠ سم وكان اتساعه يبلغ ٢٦٠ سم تحت مستوى سطح السهل .

والى الجنوب ، لأبعد من ذلك ، يوجد فياض بلطنى آخر ، ينبع من النيل بين قريتى النزلة وقلوصنا ثم يضى بالقرب من قرية مطاي حيث يتفرع الى قسمين ، يصبح أحدهما ، وهو الواقع الى الشرق ، باطننا سفرا ينتهى على بعد فرسفين من هناك ، فى اراضى أبو جرج ، أما الآخر ، الواقع الى الغرب فيتصل أثناء الفيضان ببحر يوسف عند قرية اموة . لكن طوله لا يبلغ أكثر من ثلاثة فراسخ .

وهكذا فإن رى اراضى ولاية بنى سويف ، يتم ، كما يتم فى كاتبة انحاء مصر العليا عن طريق كل من الرى الطبيعى ، والرى الصناعى ، مع غارق واحد هو أن الرى الطبيعى يتم حتى سفح السلسلة اللبية فى الجزء الشمالى للولاية ، حيث يستمر الانحدار حتى هناك ، فى حين يشكل المقطع الطولى للوادي ، فى الجزء الجنوبى من هذه الولاية ، شكل منحدرين ، أولهما يبدأ من سفاف النيل ، ويبدأ الثانى من شطالفرع المسمى بحر يوسف ، بحيث يشكل هذان الانحداران عند التقائهما داخل الاراضى منخفضا أو ترعة صغيرة تحمل اسم البحر السلطان اى النهر الداخلى بسبب احتفاظها بالمياه وقتنا أطول مما تحتفظ بها الأجزاء الأخرى ، وبسبب هذا الوضع كذلك فإن الرى الصناعى لا يتم فى الجزء الشمالى الا فى شريط الارض القريب من النيل فى الوقت الذى يتم فيه فى جميع انحاء الجزء الجنوبى على شواطىء كل من النيل وبحر يوسف .

والطرق التى تتبع فى هذا الرى الصناعى بسيطة للغاية ، ولا تختلف الا حين يستوجب الأمر رفع المياه بطلو يتفاوت قدره . وهذه الطرق ، هى على وجه التقريب نفس الوسائل المستخدمة فى كل أنحاء مصر ، والتى وصفها عديد من زملائى . لكننى أجريت بنفسى تجارب لا أرى بأسا من أن أورد هنا نتائجها .

إن أبسط كل هذه الوسائل ، هى تلك التى رسمت فى الصورة رقم ٤ من اللوحة ٦ — الدولة الحديثة ، المجلد الأول . وتمثل هذه الصورة رجلين ينكثنان فوق أكمة من الأرض يحملان ويؤرجحان ، بواسطة أربعة حبال ، سلة من أغصان الصفصاف ، مصنوعة على شكل قلنسوة كروية ومغطاة بالجلد . ويغترف هذان الرجلان الماء ، بواسطة هذه السلة « على الطائر » ويفرغانها بنفس السرعة على الأرض ، وتتنظم حركة تشغيل السلة ، وعب الماء وصبه بأقنية خاصة ، يمكن أن نجد نصها فى دراسة المسيو فيلوتو Villoteau عن الحالة الراهنة لفن الموسيقى فى مصر (٥) ، وتكاد لاتستخدم هذه الطريقة فى مصر العليا لأنها لا تقترض سوى فرق طفيف فى مستوى ارتفاع الأرض عن سطح المياه . ولهذا السبب هى أكثر ملاءمة لمر السفلى حيث تستخدم بكثرة ، وبفضلا من ذلك فأننا نرى أنها هى نفس الطريقة المستخدمة فى أوروبا تحت اسم bequetage التى يلجأ اليها الناس فى عملية نزع المياه .

أما الوسيلة الثانية ، والتى تتطلب مرقا أكبر فى مستوى ارتفاع الأرض عن سطح الماء ، فهى الشائعة فى كل أنحاء مصر العليا : وهى عبارة عن أداة تسمى « دلو » ، رسمت فى الصور رقم ١ ، ٢ ، ٣ — اللوحة السادسة ، الدولة الحديثة . المجلد الأول ، وهذه عبارة عن رافعة من الخشب ، طولها ثلاثة أمتار وتبعد نقطة ارتكازها بمسافة متر عن أحد طرفيها . وتطو مستوى الأرض بم ١٢٠ سم ، ويتصل بالطرف الأطول قضيب متحرك طوله ٢٦٥ سم . تتلق بطرفه ، كما فى الوسيلة الأولى ، سلة من أغصان الصفصاف مغطاة بالجلد ، وتتحرك حول محورها ، وفوق الطرف الآخر من الرافعة يثبت ثقل ( المقاومة ) من المطين

---

(٥) انظر الدولة الحديثة ، الدراسات ، المجلد الرابع عشر ( الطبعة الثانية ) .

الجاف الهدف منه تسهيل حركة صعود المسلة . ويقوم الشخص المكلف بإدارة هذه الرافعة باغتراف المياه ، وصحبها على الأرض ، أو في قنصة تحيلها إلى الأراضي التي يراد ريهها . ويبلغ قطر المسلة ٤٠ سم ، ويبلغ عمقها ٢٥ سم ، وترفع حوالي ١/١٠٠ من المتر المكعب من المياه . وقد تابعت عدة مرات ، حركة اثنين من هذه الدلاء : كانت المياه في حالة الدلو الأول تبعد عن الأرض بنحو ٢٣٠ سم ، وكان العامل يرفع الدلو ٦٤ مرة كل ٦ دقائق : أما في الحالة الثانية ، فكثرت المياه تبعد عن سطح الأرض بـ ٢١٠ سم ، لكن العامل لم يكن يرفع الدلو إلا ٥٠ مرة كل ٦ دقائق . ولا يستطيع العامل أن يعمل لأكثر من ساعتين في اليوم الواحد ، ثم يستبدل به آخر ، ليعمل لنفس المدة ، وهكذا ، فإذا ما افترضنا وجود رجلين يعملان بشكل منظم منذ شروق الشمس حتى غروبها ، فإنه يلزم لرى الفدان الواحد أن يعمل لمدة خمسة أيام : وتبلغ مساحة الفدان ٥٧٢٤ مترا مربعا .

ويستخدم الدلو للرى بالنسبة للأراضي التي تزرع بالشعير والذرة والحنطة وبقية البقول والحبوب الزيتية ، وإن كان قد يصعب استخدامه في زراعة الأرز وتصب السكر وحبوب صبغة النيلة ، وغيرها من المحصولات التي تتطلب كميات كبيرة من المياه .

وتروى الأراضي التي تزرع بهذه المحاصيل بوسيلة ثالثة ، عبارة عن دولاب ذي توازن ( الساقية ) ورسمها مبين في اللوحتين الرابعة والخامسة ، الدولة الحديثة ، المجلد الثاني ، الفنون والحرف .

وفي هذه الآلة ، يعلق ثوران في طرف رافعة يبلغ طولها ٢٩٠ سم ، تدار بواسطتها شجرة موضوعة بشكل رأسي ، تحيل بشكل أفقي مدارا مسننا يبلغ طول نصف قطره ٨٠ سم ، ومزود بـ ٣٦ سنة يبلغ طول الواحدة منها ٢٠ سم ، وتحمل تلك الشجرة التي تدور حول نفسها ، والتي يبلغ طولها ٢٧٠ سم ، في طرفها الآخر ، دولابا آخر يبلغ طول نصف قطره ١٢٠ سم ، تتحرك حوله ، بفعل دورانه سلسلة من الحبال تحيل ١٨ قلاوسا من الطين ( الفخار ) دائرية الشكل ، يبعد كل واحد من الآخر بـ ٥٠ سم ، وهذه القواديس تحيل المياه إلى أعلى السحلاب

بارتفاع يبلغ ٣٢٠ سم فوق مستوى سطح النهر ، ثم تصبه في حوض ،  
تمضى منه الى الاراضى المراد ريها عن طريق مسافة صغيرة .

ويبلغ محيط الطريق ( المدار ) الذى تدور فوقه الثيران ١٨ مترا  
و ٨٦ سم ، وتدور الثيران ١٥٠ دورة في الساعة الواحدة . ويشسكل  
متواصل يعمل ثوران لمدة ثلاث ساعات ، وفي نهاية هذه المدة يستبدل  
بهما غيرها ليصلا ثلاث ساعات أخرى ، وهكذا يعمل بالساقية أربعة  
ثيران ، يبلغ اجمالى المدة التى يعمل خلالها كل اثنين منهم ست ساعات  
في اليوم الواحد ، أى أن الدولاى يعمل لمدة ١٢ ساعة يدور خلالها ١٨٠  
دورة ، وحيث تبلغ الاسنان الخشبية للهدار الأمتى ( القنفذ ) ٥٦ سنة،  
حيث تبلغ اسنان الدولاى الراسى الصغير ٣٦ سنة فقط فإن الدولاى الآخر  
يقوم بدورة كاملة و ٩/٥ الدورة كلما اكمل القنفذ الأمتى دورة واحدة ،  
وهكذا فإن الدولاى الراسى الصغير يكمل ٢٨٠٠ دورة في مقابل ١٨٠٠  
دورة التى يدورها القنفذ في اليوم (١٢ ساعة) . وحيث يبلغ قطر الدولاى  
الذى يحمل القواديس ٢٤٠ سم ويبلغ محيطه ٧٥٤ سم في حين أن محيط  
الحزام الحابل للقواديس ٩٦ متر فإن عدد دورات الأخير يكون عكس محيطه .  
أى أن حبل القواديس يعمل ٨٣٧ ١/٩ دورة كل ساعتين الدولاى بـ ١٠٠٠  
دورة : وقد سبق أن رأينا أن الدولاى الراسى الصغير . يقوم بـ ٢٨٠٠  
دورة في اليوم ولهذا فإن الحزام الحابل للقواديس يتم ٢٣٤٦ دورة خلال  
نفس المدة . ويبلغ قطر القادوس حوالى ١٦ سم بعق يبلغ ٢٦ سم،  
وهكذا تبلغ سعته ١/٢٥ من المتر المكعب ( أى ٥٠٠٠ سم<sup>٣</sup> ) مما يبلغ  
بسمه الـ ١٨ قادوسا الى ١/٩٠٠ من المتر المكعب ( أى ٩٠٠٠ سم<sup>٣</sup> )  
في كل دورة ، أى ٢١١ مترا مكعبا و ١٤ سم<sup>٣</sup> من المياه خلال ١٢  
ساعة من عى يبلغ ٣٢٠ سم .

واذا اردنا أن نعتد مقارنة بين الحلو والدولاى ذى القواديس حسب  
التجارب التى انتهت من ذكرها فسنرى اذا اخفنا الدلاء أساسا ، أن  
العامل الذى رفع بواسطه الحلو ٦٤ سلة مليئة بالمياه خلال ٦ دقائق  
على ارتفاع يبلغ ٢٣٠ سم لم يكن ليرفع سوى ٤٦ سلة على ارتفاع ٣٢٠  
سم وخلال نفس المدة . وحيث أن سعة السلة تبلغ ١/١٠ من المتر المكعب  
( ١٠٠٠ سم<sup>٣</sup> ) ، فإن بمقدور هذا الصليل أن يرفع ١٠/١٠٠ من  
الأمتر المكعبة في الساعة الواحدة ، أى : ٥٥ م<sup>٣</sup> و ٢٠ سم<sup>٣</sup> من المياه



خلال ١٢ ساعة . وهكذا فإن انتاج الدلو بالنسبة لانتاج الحلاب ذى القواديس بالأرقام ٥٥٢٠ الى ٢١١١٤ ، وعلى هذا النحو يمكن أن نضع أربعة دلاء فى مقابل حلاب واحد لكن المسهولة القصوى فى استخدام الماكينة الأولى بالاضافة الى سهولة انشائها ونقلها والحصول عليها فى كل مكان ، تجعلنا نفضل استخدام الدلو ، الذى نراه ممتشرا على خلاف الفيل وشرع الرى ، فى كل أنحاء مصر .

وفى هذا الوصف الهيدرولى الذى انتهيت من تقديمه لولاية بنى سويف ، لم نر شيئا على الاطلاق يمكننا منطقيًا من أن نظن أن بحيرة مورييس وملحقاتها تستطيع أن تجد لنفسها مكانًا ، فى هذه الولاية ، والآن ، سندخل الى ولاية الفيوم ، وهناك سنرى كل الصعوبات قد اختلفت دون جهد ودون عوائق ، وسوف نعرف فى النهاية ، أن التفاصيل التى قدمها القدماء ، تنطبق تمام الانطباق على هذه الولاية ، حتى انها لغريبنا على النوام ، وفى كل خطوة ، أن نطلق على الأماكن الحالية ، نفس الأسماء القديمة ، التى وصلتنا عنها .

## القسم الثاني

### ولاية الفيوم

على الرغم من أن الأبحاث التي أخذت على عاتق القيام بها في الفيوم ، كتبت هي الهدف الأساسي من وراء رحلتى الى هذه المناطق ، فأتيت لم أتمكن من النفاذ الى هناك الا فى الأيام الأولى من شهر نيفوز من العام التاسع ( نهاية ديسمبر ١٨٠٠ ) ، ذلك أننى وجدت نفسى ، بعد أن انشغلت فى بداية رحلتى برسم خريطة مساحة لبنى سويف التى كان على أن الحق بها خريطة لولاية الفيوم ، غير قادر على القيام بالذهاب الى هذه المناطق ، وبلىة وسيلة ، بسبب فيضان للنهر غير عادى ، أوقف كل أعمالى لأكثر من ثلاثة شهور . كان فيض بحر يوسف قد أوقف بشكل تام ، الاتصال بين بنى سويف والفيوم ، وتتسبب عزلة الولاية الأخيرة فى كل كارثة كبيرة تصيبها ، ذلك أن العرب الغرباء لا يترددون مطلقا فى اغتنام هذه الفرصة كي يأتوا لينتهبوا السكان . وقد حدث ذلك خلال الفترة التى تحدثت عنها ، وحين قام قائد بنى سويف بانفاذ قوات النجدة التى أرسلها الى المدينة (✽) ، فقد أخفى العربان ، الذين تلقوا تحذيرا بالأمر فى الوقت المناسب ، معهم أسلحتهم ، قبل أن تصل الفرق الفرنسية . وقد يكون من الضروري للشفاية ، كما سبق أن أوضحت رأى ، أن ينشأ طريق من بنى سويف الى قرىنى هواره (✽✽) واللاهون ، اللتين تقعان عند مخزل الفيوم .

وقد رحلت أخيرا فى الثالث من نيفوز من العام التاسع ( ٢٤ )

(✽) يقول الأستاذ محمد رمزى فى قابوسية الجغرافى : « ولذكر صاحب كتاب الفيوم وبلاده ، أن اسمها المدينة ، وهو اسم يطلق فى الفيوم على مدينة الفيوم تمييزا لها عن الإقليم المسمى باسمها » ، ومنذ الآن منشتر اليها فى الترجمة العربية باسم مدينة الفيوم فى حين يعنى الفيوم الإقليم بأكمله ، [المترجم] .

(✽✽) هناك أكثر من قرية تحمل هذا الاسم ، ولعله يقصد هواره عدلان ، حيث يذكر القلوسى الجغرافى للبلدان المصرية ، للأستاذ محمد رمزى عن هذه القرية أنها « من القرى القديمة ، وكانت تسمى قديما دموه اللاهون لأنها واقعة بجوار قناطر اللاهون » . [المترجم]

ديسمبر ١٨٠٠) مع رنيقي ، المسيو كلريستي Caristie ، وذهبنا للنمام  
فى هواره الكبيرة وهى قرية كبيرة تقع على الشط الأيسر لبحر يوسف  
عند الفتحة التى يأخذ منها هذا الفرع من النيل مياهه، وقبلتنا على الشط  
الأيمن ، راينا قرية اللاهون الصغيرة ، ويتم الاتصال بين هاتين القريتين  
عن طريق قنطرة مبنية بالحجارة ، وتتكون من ثلاثة أقواس ، تبلغ فتحه  
كل منها ، فيما بين قوائنها التحتية المستقيمة ، ٢٨٠ سم ، ولا تهدف هذه  
القنطرة الى مجرد تحقيق الاتصال بين هاتين القريتين ، لأن كلا من هذه  
الإمواس الثلاثة ينتهى بقناة تستخدم فى تنظيم كمية المياه التى ينبغى  
أن تحصل عليها ولاية الفيوم . بحيث لا تسيل المياه إليها ، أثناء  
الفيضانات الضخمية بوفرة أكثر مما ينبغى ، لما فى حالة الفيضانات  
العالية ، تفتتح أمام المياه فتحة أكثر اتساعا وتتخلص منها بذلك أرض  
مصر ، التى قد يصعب مكث المياه موتها ، لمدة أطول من اللازم ، بجحفا  
وضلارا .

وعند الحاجز الشرقى راينا اثرا لثلاثة أحجار منتزعة اكد لى الملوك  
كاثف سليمان ، الذى كان يرافقتنا ، أنه قد رأى عليها كتابات عربية  
تبين أن هذه القنطرة قد شيدها السلطان سليمان بن محمد ، فى القرن  
السادس الهجرى ، وبما تجدر ملاحظته أن هذه الفترة هى نفس فترة  
حكم الاسرة الفاطمية ، التى أصبحت مصر من جديد تحت سيطرتها،  
مملكة مستقلة ( كذا ! ) ، وفى هذه الفترة كان السلاطين الحاكمون ،  
نتيجة لذلك ، يعملون لصالح مصر ، ولتحقيق منافعها الخاصة .

وفىما بين قنطرة وقرية اللاهون ثمة قنطرة تحتجز المياه التى  
تجلبها ترعة بنى عدى الكبرى ، والتى تمضى بعد سسوطها ، عن  
طريق قناة المعصرة ، فى ذلك المنخفض الواقع عند مسطح جبل أبى  
مصر ، لتروى بعض الأراضى حول ترعة اللاهون ، ثم تذهب بعد ذلك ،  
من طريق بحر يوسف الى التربة التى تصل إلى طابية .

وتشيع بين أهالى الفيوم فكرة متواترة عن الحالة القحيمية لهذه  
الولاية ، اعتقد أن ليس خروجا على الموشوع أن نوردنا ، وقد علمت  
هذه الفكرة عن طريق رجلين وجدت فيهما درجة عالية من الذكاء ،

بالنسبة لمواطنيها ، أحدهما هو سيد أحد الشيخ الأكبر لمدينة الفيوم ، أما الآخر فهو الملوك الكاشف سليمان ، الذى سبق أن تحدثت عنه ، والذى كان يقطن الفيوم منذ مدة طويلة . وقد أكد لى هذان الرجلان ، أن ولاية الفيوم تبعا للحكايات المنقورة ، والمتواترة من زمن الى آخر ، لم تكن قبل عهد يوسف بن يعقوب ، الذى يعودون به الى عصر خساراب فى القدم ، سوى بحر واسع ، جاءت مياهه عن طريق النيل ، وأن يوسف قد أمر ببناء جسر فى اللاهون كى لا يتدفق المزيد من المياه الى هذا الخليج ، وأن المياه التى بقيت بعد انصرمت الى البحر ، مما أدى لحدوث عملية جفاف كبير للأراضى ، وعندما بلغ ارتفاع المياه ( فى هذا الخليج ) الى مستوى السبرير الذى تجرى فيه ، ظلت المياه الزائدة فى المناطق الواطئة ، وكانت بركة قارون وبركة الغرق اللتين أصبحتا مستودعين لمياه الاقليم ، وبدأ يقل ارتفاع مياههما بفعل البحر .

ان هذا الراى ، الذى يبدو بشكل واضح ، فوق مستوى المصريين المحسنين لحد كبير ، لا يمكن أن يكون نتيجة لخيالهم ، لكنه يحمل ملحبا من رواية مأثورة قديمة ، ولعلنا لو تفحصناه عن قرب لوجدنا فيه تفسيرا لهذا الاتساع الكبير للغاية والذى اعطاه الأقدمون لبحيرة موريث ، وكذلك على وجه الخصوص ، لتلك المسامع التى يقولون أن المصريين كانوا يحصلون عليها من هذه البحيرة ، حين كانوا يستخدمونها ، المرة بعد المرة بمثابة ماء وحوض وخزان . وتتفق هذه الرواية مع ملاحظته حول بحيرة قارون ، كما أن التنتقيج التى سوف أحصل عليها ، سوف تفضى كذلك الى نفس معطيات هذه الرواية ، وربما بمزيد من الدعم ،

وعندما نتجاوز الفتحة التى يتركها الجبل بين هواره وبين اللاهون نرى سهلا واسعا بشكل ولاية الفيوم ، وليس لهذا السهل من مستوى واحد ، وإنما هو يشكل تكوينين يتحدان على نحو خفيف ، يتجه أحدهما الى الشمال ، ويتجه الثانى الى الجنوب ، وفوق الخط الفاصل بين هذين المتحدتين توجد تربة تبدأ من قنطرة هواره ، لتمر بعد ذلك بمدينة الفيوم ثم تعبر المدينة وتنقسم عند الطرف الغربى الى تسع قنوات صغيرة ، تمضين حملات للمياه لأراضى القرى المظلمة ، وتحدد فتحة المياه الخاصة بكل واحدة من هذه القنوات بواسطة قنطرة روعى أن

يكون مستواها أعلى من مستوى سطح الأرض التي تمر بها وأعلى كذلك من منسوب الأرض التي سترونها .

وتسمى أول هذه القنوات ، أى تلك التي توجد الى أقصى الشرق ، بحر نقاليقة ، وتمر بقريتي نقاليقة ، وسيلة .

أما الثانية فتحمل اسم سينهور وتصل الى قرية تحمل هذا الاسم . ويطلق على الثالثة اسم سينهور وتنتج الى قرية غيديين .

وتعبر الرابعة قرى المعجيين ، إيشواى ، أبو جنشو ، أبو كساه . وتسمى الخامسة ترعة ثلاث . وتذهب الى قرية تسمى بهذا الاسم .

وتبر السادسة بقرية السنبط .

وتحمل السابعة اسم بحر دسيا ، وتنقل المياه الى لراضى قرى : دسيا ، جردو ، طيهار ، المناشى ( مناشى الخطيب حاليا ) .

وتروى الثامنة أراضى : موتود ، وريد ، أبو دلشى (\*) .

وأخيرا فإن القناة التاسعة التي تبدأ من أحد اقواس تنطرة جامع الحاج حسن ، تروى أراضى قرية الزاوية .

ومن جهة ثانية ، غنمة ترع أخرى عند الطرف الشرقى للمدينة ، تحصل على مياهها ، شأنها فى ذلك شأن الترع التي انتهينا من ذكرها ، من القناطر والخزانات : وتتجه اولى هذه الترع - وهي تقع قرينا من باب النويرة - الى قرية ترسا وذلك بمعد أن تدور حول خرائب أرسنويه .

أما الترعة الثانية وهي تحمل اسم بحر سنورس فتبر بقرى : الكملى ، بيهو ، خنفشة ، لبويط ...

وتحمل الترعة الثالثة والأخيرة اسم بحر المعصرة وتروى قرى الزرى ، كمر مزارة ، منشأة الأمير ، سرسنا ، انترتارس (\*\*) .

---

(\*) لم يتمكن من التحقق من صحة هذه الأسماء .

[ المترجم ]

(\*\*) لم أجد فى القلوس الجغرافى قرية بهذا الاسم ويحتمل أن تكون هى قرية مطرطارس . ( للمترجم )

وكما سبق لى أن فكرت ، فمن الملاحظ أن التربة التي تنقل المياه من هواره إلى مدينة الفيوم ، والتي تحمل طيلة هذه المسافة اسم بحر يوسف ، هي أكثر ارتفاعا عن أرض الولاية ، كما أن مجسراها ذو قاع صخري في كل المناطق الجبلية التي تخترقها هذه التربة .

ونجد على بعد حوالي ثمانية آلاف متر من جسر هواره الكبير ، على الشاطئ الأيمن قرية هواره الصغير ، التي شيد بالقرب منها ، ويكثر من الحق جدار لتقوية الشاطئ ، يشكل خزاناً صغيراً ويصنع في الوقت نفسه مسقط مياه يبلغ حوالي سبعة أمتار .

وحين نعلو المياه في بحر يوسف ، فوق هذا الخزان ، فانها تستط في رشاح واسع ، لتضئ من ثم إلى طلمية ، ومن هناك إلى بركة قارون ، بل أن هذا الخزان ، فيها يبدو ، لم يكن كلفيا على الدوام لاستيعاب الزيادة الشديدة في المياه ، حيث نرى أبعد من ذلك بثلاثة آلاف متر ، خزاناً آخر يصب المياه كذلك من جديد داخل الرشاح الذي سبقت الإشارة إليه عن طريق قناة صغيرة تضئ بها إلى هناك .

وتشكل تفاصيل هذا الشط الأيمن لبحر يوسف ، ابتداء من اللاهون حتى هذا الخزان الثاني أهمية قصوى ؛ فبالقرب من قرية اللاهون تقابل أول هرم ، قاعدته من الحجر الجيري ، أما بقية من القرميد ، ثم نرى أبعد من ذلك بثمانية آلاف متر هراماً آخر من القرميد من نفس نوع الهرم الأول ، ثم عند سفحه قناة صغيرة تتبع من بحر يوسف قبل الخزان الأول الذي سبق أن تحدثت عنه . وتجه هذه القناة إلى طلمية باتجاه مواز لاتجاه الرشاح الكبير ، الذي يظل جافاً طول السنة تقريباً ، إذ هو لا يطلق إلا المياه الزائدة عن حلبة الولاية ، ويطلق عليه لهذا السبب اسم بحر بلا ماء ( أو النهر الفلغ ) .

وتغطي الأرض حول هذا الهرم الثاني كوام من الأحجار الجيرية وانتقاض منشآت قتل بوشوح على المكان الذي كان يهض فيه نصر اللابرنت الشهير ، الذي كان مقراً لثنتي عشر ملكاً ، والذي يتفق معظم المؤرخين في أن يضعوه إلى الجنوب قليلاً من بحيرة موريث ، غير بعيد عن كروكوديلوبوليس Crocodilopolis ( أي مدينة التمساح ) وفي الواقع ، فاننا ما نزال نرى هناك بقية من حجرة ، لكنها مطبوسة

تماما ، بالإضافة الى قطع من الأعمدة المصنوعة من الجرانيت الصوانى ، مقطوعة على النحو الذى قطعتم به أعمدة معابد مصر العليا ، على شكل حزمة من النباتات البصيلية للباب مصرية ضخمة من الجرانيت كذلك ، ويؤكد بلين Plin أن اللابرنث هو الوحيد من بين كل آثار مصر العليا الذى وضعت فيه أعمدة شكلت على هذا النحو .

وقد انتقلت الى هذا المكان ، فى العاشر من نيفوز من الحسام التاسع ( ٣١ ديسمبر ١٨٠٠ ) ، وقد ربطت ببعض العمليات المثلية هرم اللاهون بهذا الهرم الثانى ، الذى أسميته هرم اللابرنث ، وكذلك بمؤذنة جامع الروبى الواقع الى أقصى الغرب من مدينة الفيوم ، وبهذه الطريقة ، استقيطت خطى طول وعرض هذه المدينة — ولم يكن المسو نوية Nouet قد دونهما ، وقد وجدت أن خط عرضها هو ٢٨ ، ٢٩ شمالا ، فى حين أنها تقع على خط طول ٩ ، ٤١ ، ٢٨ الى الشرق بالنسبة لخط زوال باريس .

وقد تبين لى أن طول الخط الواصل بين الهرمين يبلغ ٨١١٦ مترا و ٥٧/١٠٠ من الأمتار ، وأنه يشكل مع خط الزوال المغناطيسى زاوية مقدارها ١٠ ، ٤٩ الى الغرب .

وقاعدة هرم اللابرنث مربعة الشكل ، ويبلغ طول كل ضلع من أضلاعها ١١٠ من الأمتار . ومع ذلك فمن الواضح أن كانت ثمة تسمية لجدرانها لم تستطع تحدير سمكها ، ويرى المرء قبيل زاويته الشرقية فتحة مبنية ، وهى واسعة مستديرة تنتهى الى ممر تحت الأرض وينبج نحو الجزء السفلى من الهرم ، ولقد نزلت من هذه الفتحة كى اتوغل فى هذا الممر تحت الأرض ، لكن سرعان ما اوقفتنى هناك كومة من الانقاض يفس بها الممر . ويحتوى قاع هذه الفتحة على مياه تبيئت أنها شديدة الملوحة . ويوجد المرء اذا ما نزل عند نحو منتصف الرشح ، تجاه هرم اللابرنث ، بقايا حائط كبير من الحجارة ، وقد استخلصت من ذلك أن هذا الحائط قد كان فيما مضى جسرا يحتجز المياه التى كانت تتسرب من أعلى الخزانات التى كانت مقابلة على الدرجة الكبيرة .

وليست للشط الأيسر لبحر يوسف نفس الاهمية التى للشط الأيمن

وتشهد تنوعات الصخر المتناثرة عليه ، والتي تشكل زوائد جبلية ( اى  
مقدمات لظهور الجبل ) بأن هذا الشط لم يكن عامرا من قبل قط ! وان كنا  
مع ذلك نجد عليه اليوم قرية دمشق التي ترتبط اراضى ومصالح اهاليها  
مع تلك براضى ومصالح قرية هواره الكبيرة حيث تتجاوز هذه مع تلك .  
بل انك لا تستطيع المضي فوق هذا الشط اذا كنت تبني الوصول الى  
قرية الحصة التي تحدها بعد أن تجتاز الخزان الثانى بقليل ، والذي  
يقع بدوره على الشط الأمين وقد سبق أن تحدثت عنه ، وبالقرب من  
قرية الحصة هذه ، الى الشرق منها وإلى الغرب يتم تخزين مياه بحسر  
يوسف ، عن طريق ترعتين ، فوق منطقة تنحدر الى الجنوب وهكذا تروى  
القرى التي تنتشر بين بحر يوسف وبحيرة الفرق .

ويشكل سطح هذه المنطقة فيما يبدو ، الى جانب انحداره نحو  
الجنوب ، منحدرًا هائلًا نحو الغرب ليبلغ قمة بحيرة تلرون . ويشق هذا  
المنحدر خور واسع يحمل اسم بحسر الوادى . وقد شيد عليه سد  
ضخم رائع يحصد من تدفق مياهه فوق هذا المنحدر . ويختلف هذا  
السد اختلافاً بينا عن امثاله من السدود التي تراها فى وادى مصر ، فهو  
بنى من الأحجار والقرميد ، وتدعمه أكتاف سميكة متعددة ، وتجتاز بناة  
لا تهيئها عادة إلا مراعاة قواعد من البناء ويتبدى هذا الجسر عند قرية  
دقيتو وينتهى عند قناة صغيرة تشكل حدود الاراضى المزروعة ( فى هذه  
المناطق ) ، ويبلغ طول هذا الجسر حوالى ٨٥٠٠ متر .

ولا يستطيع المرء أن يكتم دهشته البالغة حين يرى عملاً بهذه  
الضخامة لأقدمية مثل هذه المنطقة الصغيرة من الأرض والتي تنحصر بين  
بحيرة الفرق وبين الجبال التي تتصل الفيوم عن مصر وبحر يوسف والسد ،  
فى حين أن هناك مناطق شاسعة للغاية من الأرض ، ولكنها مهملة فى  
وادي مصر ككلية ، اذا ما صرفنا النظر من بعض المصاريف الزهيدة التي  
تتفق على الجسور والترع التي تفذى أو تحمى هذه الاراضى . وهناك  
ما يدفعنى على الاعتقاد بأن المنشأة التي تحدثت عنها ، مثلها فى ذلك  
مثل قنطرة هواره ، هى من عمل واحد من سلاطين ( الخلفاء )  
الفاطميين القدماء .

كان هدفى أن اجتاز كل منطقة البحر بلا ماء لكى أبلغ طلبية وبركة



تارون وقد كنت أوشك أن أبدا ميل مسح لها لكن الظروف التي صاحبت بعض التحركات العسكرية للفرقة العسكرية في الإقليم ، قد حرمتمني من الجنود الذين وضعوا تحت إمرتي . وقد كنت شديد الحاجة اليهم لاثام مبلهاتي . لذلك فقد اضطررت ، أسفا ، أن أعود ادراجي الى مدينة الفيوم — حيث اتخذت على الفور استعداداتي لبدء جولتي حول بركة تارون ، وهي الجولة التي كنت أرغب في القيام بها منذ وقت طويل ، كما قد انتهزت بعض الفراغ الذي هياه لي ببطء الاستعدادات كي أזור موقع كركوكيلوبوليس ( أي معينة التمناح ) القديمة والتي تحول اسمها في عهد البطلمسة الى أرسينويه .

حين يخرج المرء من مدينة الفيوم عن طريق القنطرة الواقعة تجاه جلع الروبي ، فانه يجتاز ، بينما هو يتوجه الى الشمال ، فراغا كبيرا تتناثر فيه مقابر المسلمين ، ليجد بعدها باتجاه يمتد من الجنوب الى الشمال عددا من المرتفعات التي تكونت من انقلاص من الأحجار الجيرية والطوب والخار بمشرة هنا وهناك لمسافة تبلغ حوالي ٣٥٠٠ متر نحو الشمال ، و ٢٥٠٠ متر من الشرق الى الغرب . وقد عبرنا ، المسيو كاريسي Caristi ، وزرنا ونقينا في كل واحد من هذه المرتفعات كي نتعرف فيها على اثر لبعض المنشآت ، لكننا لم نجد سوى انقلاص شائعة لم نستطع أن نتوصل منها الى نتيجة سوى أنها تنبئ بسبب اتساعها وضخامة حجمها عن موقع مدينة ( قديمة ) ، وحيث لا توجد انقلاص أخرى بهذه الضخامة في كل الإقليم ، فقد استنتجنا أن هذه المدينة هي كركوكيلوبوليس التي سميت فيما بعد : أرسينويه .

وسرعان ما تكلمت لنا هذه الظنون ، فقد وجدنا بفضل بعض العمليات المثلثية ( أي باستخدام مبادئ حساب المثلثات ) التي قمنا بها على هذه المرتفعات أن المسافة التي تفصل بيننا وبين هرم اللايرنت تبلغ ٩٨/١٠٠ منها ٨٧.٢ مترا تمتد حتى منتصف الخراب . ويقول سترابون بطريقة موضوعية أن المسافة فيما بين أرسينويه وهذا الهرم ، تبلغ ١٠٠ غلوة ، أما دانفيل فيرى أن من المحتم أن نطرح من أطوال هذه الإبعاد مقدار الثمن ( في مقابل التمرجات ) لكي تتفق مع الخطوط المستقيمة ، ونبتعا لحساب الأميال الرومانية ، التي يضع دانفيل كل أربعة منها مساوية لشونة مصرية واحدة ، وبذلك يبلغ طول الشونة المصرية

٣٠٢٤ قامة ، فان طول الغلوة يساوى ٥٠ قامة، و٦ بوصات أو ١٨٢٦/١٠٠ مترا ، ويذا فان كل ٦٠ غلوة تساوى شونة واحدة . وهكذا فان المسافة غلوة تساوى ٥٠٤٠ قامة ، وقدا واحدا ، وثلاثي بوصات ، أو ١٨٢٦ مترا ، يحصم منها الثمن فيبقى ٨٥٨٩ متر ، وهو ما يتفق لحصد كبير مع المسافة التي توصلنا اليها باستخدام اساليب المساحة وحساب المثلثات .

سبق ان عرفنا في مدينة الفيوم ، ان كانت توجد اطلال هامة الى الغرب من هذه المدينة ، وقد انتقلنا الى هناك ، لكننا لم نجد سوى منطقة يطلق عليها اسم العود ، شاهنا بها مسلة واحدة من الجرانيت على بعد حوالي ١٠٠٠ متر من قرية ابيجيج وحوالى ٤٠٠٠ متر من مدينة الفيوم نفسها ، وقد اخذ المسيو كاريستى على عاتقه ان يقدم الرسوم وبعض التفاصيل الخاصة بهذه المسلة .

وما ان انتهت الاستعدادات لرطني حول بركة قارون حتى تمكنت من بدء طريق كى انضم هذه الجولة الاستطلاعية . كنت قد استطعت مبدئيا راي كل من الشيخ احمد وسليمان كاشف حول هذه الرحلة ، وكنت اخبرتهما باننى — وقد علمت المصاعب التي سوف الاقبحا مع جنودى الفرنسيين ، وهى المصاعب التي يعانى منها أى انسان يقيم فى الصحراء لأيام كثيرة — قد عازمت على أن اصحب معى بعض العربان ، وقد سعيا كلاهما كى يثنيانى من عزمي ، مؤكدين لى ان كل القبائل التي تجوب هذه البقاع تتحارب ، واننى لا أستطيع ان اضع ثقتي فى أى منها دون ان اجازف بمخاطر كثيرة ، وقد اكد لى صحة ذلك شيخ العرب الذى تمهد بأن يصحبني مع ثلاثين من اتباعه لو اننى اصطحبت معى عددا مماثلا من الجنود الفرنسيين ، هنا طلبت ثلاثين جنديا من الكولونيل ابلير Eppler قائد الولاية ، لكنه اجاب بأنه يرحب بأن يضع تحت امرتى أى عدد اطلبه من الجنود لاجتياز القرى والأراضي المزروعة ، لكنه لن يجازف ويمطني جنبيا واحدا لمثل تلك الرحلة التي عازمت على القيام بها .

لكن الرغبة المتأججة التي كانت تدفعني للقيام بهذه الجولة الاستطلاعية ، جعلتني احادث من جديد شيخ العربان ، وانضم الكولونيل ابلير لخص الاعتراضات العديدة ، والتي تتولد بلا انقطاع ، والتي يقيمها

ردا على كل اقتراح لنا ، ومع ذلك فقد اتفنعاه في النهاية بان يصحبني ،  
ومعه ثلاثون من اتباعه من راكبي الخيول .

كان هذا العربي ، واسمه على ، شابا لما يتجاوز الثلاثين من  
عمره ، وهو ابن صالح ، الشيخ الأكبر لقبيلة السمالو ، التي اتخذت  
لنفسها مقر إقامة ثابت ، في قرية مبنية تقع على شط بحر الوادي .

ويطلق اسم السمالو على هذا التجمع العام للقبائل التي تحيط  
بإقليم الفيوم ، وكان لصالح هذا ثلاثة أبناء وابن أخ واحد ، يتولى كل  
منهم زعامة قسم من اقسام القبيلة ، وكان أولهم ، وهو الشيخ على يقيم  
في مدينة الفيوم ، أما الثاني ، جروبة فكان قريبا منه في المنيا ، أما الثالث  
فهو عثمان ، ويسكن أبو جندير ، والقرب منه يقيم بعض أبناء له آخرين اتجبهم  
من أمالة ، وكان هؤلاء زينة وبهجة شيوخه ، أما ابن أخيه ، على أبو بكر  
، فكان يشغل النزلة ، وسوف ندم في نهاية هذه المذكرة جدولا منفصلا  
بكل القبائل الخاصة بولاية الفيوم وكذلك بقبائل بني سويف .

والسمالو ، هم العربان الوحيدون الذين اتخذوا لأنفسهم مقر إقامة  
ثابت في الفيوم ، وهم يقيمون هناك منذ زمان ضارب في القدم كما أنهم  
توم ذوو باس شديد لكتهم على الدول في حالة حرب مع القبائل الغربية  
التي تأتي لتشن غاراتها داخل الإقليم ، وتقصد هنا عرب الضمنا ، من بني  
سويف ، والذين يدخلون عن طريق ترقى طامية انغمط وأبويط حيث  
يتخذونها مقر إقامة لهم ما ان تصل الى أراضيها مياه الفيضان ، كما ينطبق  
الحال على عرب الفرجان الذين يسكنون صحراوات الإسكندرية والبحيرة ،  
أولئك الذين يتجمعون في الفيوم بعد مجيئهم عن طريق قصر قارون كي  
يشنوا غاراتهم العديدة التي يسلبون خلالها ترقى السمالو .

وهكذا ، لم تكن مخاوف الشيخ على لتنهض على غير أساس ، ومع  
ذلك فقد اعتقدت بأننا ملأنا قد هزمناهم مرة ، فأتينا الآن بنأى عن  
الأخطار ، ولم أعد أفكر الا في مشروع رحلتى .

وضعت البرنس على ظهرى ، وغطيت راسى بطربوش يعممه  
شال ، هكذا رحلت ، فرنسية وحيدا ، يحوطه ثلاثون بدويا تسلحوا بشكل

جيد ، وعرفوا ، كما أخبروني ، كيف لا يمكنوا أحدا من أن يلحق بهم العار أو الفزع ، وحيث أراد الشيخ — دون شك — أن يعطيني فكرة طيبة من قبيلته ، فقد بدأ يظهر ضروبا من شجاعة مياضة لم أكن أعدها نيسه حتى هذه اللحظة ، وانتقلت هذه الشجاعة دون مشقة الى تابعيه .

غادرنا مدينة الفيوم في السادس عشر من نيفوز من العام التاسع ( ٦ يناير ١٨٠١ ) في منتصف النهار تلبا ، وواصلنا طريقنا باتجاه الشمال بقعة بين عدة ترع ، وكانت تقع على شمالنا ترعة ، شاهدت على شاطئها خزاناً مبنياً ، وسرعان ما مررنا بالقرب من قرية الأعلام التي كانت تقع بيننا ، ودخلنا في دغل يغمره الضوء ، ويهش بالشجار النخيل ، ووصلنا بعد ذلك الى قرية الكعابي الجديدة ، وكان اقصر الطرق بالنسبة لنا أن نسير باتجاه شمال الشرق نحو المصرة وطابية ، ولسنا عندما قيل أنه يوجد بالقرب من هنا مبنى سبق أن تحدث عنه بوكوك Pockocke ، يعرف باسم اقدام فرعون ، فقد واصلنا طريقنا الى الشمال مجتازين الترعة التي نهر بقرية الكعابي ، فوصلنا الى سهل رملي واسع تقع به قرية بيهو ، حيث يعلو بالقرب منها اقدام فرعون المزمومة ؛ وليست هذه الاقدام سوى كتلتين كبيرتين ، تتكونان من أحجار جيرية ضخمة ، ويبلغ طول كل منهما حوالي ستة أمتار بعرض يبلغ مترا واحدا وثلاثين سنتيمترا ، كما يبلغ ارتفاعهما نحو المتر وهما ملتفتان ، كلتاهما ، بدون أسمنت أو مونة من أي نوع ، وتبعد كل منهما عن الأخرى بحوالي ١٢٠ مترا ، كما أنهما محاطتان بكثل صغيرة شكلت بنفس الطريقة .

وقد شاهدنا بالمثل أحجاراً ضخمة متناثرة ، مما يدل على أن هاتين الكتلتين كانتا فيما مضى أكثر ارتفاعاً مما نراها عليه الآن ، إذ هي لا تبلغ الآن أكثر من عشرة أرهاصلت ( محملكات ) ، ويقدر ارتفاعهما معا بعشرة أمتار ، أما سطحهما الداخلي فمربع يبلغ طول ضلعه حوالي ثمانية أمتار . كنت قد لاحظت أن اتحدار الأرض ، الذي بدأ منذ حوالي ٤٠٠ متر الى الجنوب ، قد بدأ يصبح محسوساً بشكل طفيف ، مما قد يحمل على الاعتقاد بأن البحيرة تمتد حتى تبلغ هذه النقطة ، وكانت مسيرتنا قد انتظمت منذ غادرنا مدينة الفيوم ، وكنا نقطع حوالي ٣٣٥٠٠ متر في الساعة ، ومع هذا فلا بد أن الساعة الآن قد بلغت الثانية إلا الربع ، ومن هنا ، من خلال هذه الاطلال ، كنت المح وسط دغل كبير من أشجار

النخيل ، الى الشمال ، قرية سنورس ، التي وصلنا اليها في الساعة الثالثة وكنا قد غادروا اقدام نمرعون في الثانية تمبا .

سنورس قرية كبيرة بعض الشيء ، وهي مبنية فوق مرتفع ، هو أعلى المرتفعات التي شهدتها في مصر ، ويقدر ارتفاعه بحوالى ٥٠ مترا ، ويحتل أن كان يشكل فيها مضي واحدة من جزر البحيرة التي يبدأ المرو يرى مياهها بمجرد بلوغه أعلى المرتفع ، ومن جهة أخرى سنورس هي مستودع للأحلام التي تستخرج من البحيرة .

وقد نزلت عند الشيخ الحبشى الذى استقبلنى بمودة بالغة ، واشترت من القرية الشمير والقول اللازمين للخيول في الصحراوات ، ثم رحلت في الساعة الخامسة متوجها نحو الشمال ، واستمرت مسيرتنا نهارا حتى السادسة والنصف بالرغم من أننا في انقلاب الشتاء ، ووصلنا الى رشاح صغير يسمى البطش ، يجرى من الشرق الى الغرب ، وينقل المياه من طامية حتى بركة قارون ، وتصل المياه الى طامية عن طريق ترعة قادمة من الروضة عن طريق ترعة تمر عند سطح هرم اللابنت ، وعن طريق رشوحات البحر بلا ماء .

وكان بالإمكان عند النقطة التي وصلنا اليها ، أن نعب الرشاح لتساعه هنا يبلغ حوالى ثمانية أمتار في حين لا يزيد عمقه عن ٣٢سم ، بعد أن كنت قد لاحظت أنه كان محفورا على شكل ترعة بعمق يبلغ حوالى عشرة أمتار ، وباتساع يبلغ ثمانين مترا . كما لانزال على بعد يبلغ مسافة لمسحين الى الغرب من طامية وكانت المياه لما نزل بالغة الجودة ، مما يدل على أنها لم تتأثر مطلقا من قربها من البحيرة . وهناك تزودنا بما نحتاج من المئونة والمياه ، وملأنا قرينا بكمية تكفى فترة جولتنا بالصحراء .

أخبرنى الشيخ على أن هذه النقطة هي تلك التي تمر بها القوافل التي تمضى مباشرة من الجيزة الى سنورس . بل أن الفيضان نفسه لا يتسبب في توقف مسيرة القوافل التي تمضى عندئذ صاعدة الى سيلة .

لاحظت أن الانحدار نحو البحيرة ، ابتداء من سنورس ، كان لانزال محسوسا حتى يبهو ، وإن سطح الأرض يتبع انحدارا آخر من

الشرق نحو الغرب ، وهذان الاتجاهان واضحيان تماما ، حتى أنني لم اعد ارى فزوة رشاح البطش في الجنوب الا كحريط علم يلتقي بشكل حاد مع الأفق .

كان الظلام ثلثا حين انتهينا من ملء قريتنا ، فمن المعروف ان مدة الغسق في هذا المناخ أقل بكثير من المدة التي يمكنها الغسق في لوريا . لذا فقد عزمنا على ان نمضي ليلتنا في هذا المكان ، وذهبنا لكي نقيم خيامنا على قمة الشط الشمالي ، على مسافة تبلغ مسيرة نصف ساعة الى الغرب من النقطة التي عبرنا عندها رشاح البطش .

منذ رحيلنا من مدينة الفيوم ، هذا رفاتي في السفر في سلوكهم نحوي نحو الشيخ على في سلوكه ارائي . وكان هذا الرجل لا يفارقني أبدا . وعلى الرغم من الصعوبة التي كنت أستشعرها في التعبير عن نفسي وإفكاري بلغته ، فانه لم يكن يحدث سوى . كل ينص على بقصد تسليتي وارسلاني دون ريب ، حكايته كنت اجد — وهذا اعتراف مني — مشقة كبيرة في تتبع تسلسلها ، وان كانت تشتت انتباهي لدرجة اكبر مما كنت اود ، اذ كنت غارقا تماما في ملاحظاتي ، وفي بعض الاحيان كنت الحظ عن بعد ، بينما هو يقص حكايته ، انرا يستغفر فضولي فكنت اجري اليه ، ومع ذلك فقد كان حصافته يتمقب على الفور ، ويأبى سرعة آثار حصاتي ، وكذلك فقد كان المربان ، كي يدخلوا البهجة على نفسي يصنعون فيما بينهم معارك وبارزات ، وذلك بان يجروا على التوالي ، فريتا في اثر فريقي ، ثم يأتي احد الفريقين القريب مني لينشدني اغنيات البطولة الخاصة بقبيلته . وكان مظهر السرور الذي ابدية ، هو بخابية مكافأة اتقدمها لهم ، فيعاودون من جديد العليم التي لم تقال برغم ذلك من جدية وانتظام مسيرتنا .

ما ان اعطيت الإشارة التوقف لآلة مسكر البيت حتى نصسبت خيأتي وكنت قد اخضرت مرتبتين مسخريتين : احدهما للشيخ على والآخرى لي ، لكنني لم اناجح مطلقا في ان احمله على تقبل الرتبة التي خصصتها له ، بل لقد أستطعت بعناء شديد ان اتكفه على أن ينام داخل خيمتي ، حيث اكتمى بحصيرة بسطها فوق الرمال . وخلال بضغ دقائق أهدت التهوية ، وقدمت ، ويدات استعدادات المشاء .

وبانتظار ذلك ، أبديت رغبتى فى أن أرى كل رفاقى ، فأتوا يقبلون يدى ، وينحنون مصطفين حول فراشى . وشاء أحدهم ، وهو الذى تمهه الى الشيخ على بوصفه منشدا ، أن يعطينى فكرة عن أجساد ويسمو قبيلته ، فقص واحدة من هذه القصص التى تحكى أعظم انجازات السمالو ، التى يتداولونها استلهاما للشجاعة ، كان المستمعون فى كل لحظة يطلقون « يا الله » دليلا على الإعجاب ولارضاء المنشد ، وعلى الرغم من اننى لم أكن أدرك معنى سوى القليل مما كان يقول ، فأنى لم أكن الأخير فى اظهار سرورى . كانوا جميعا مسرورين . وفى النهاية أحضر العجاج والبيسلاف ( طعام شرقى من أرز ولحم وتوابل ) لكننا بنهم . وبعد الطعام صرف الشيخ على كل رجاله وأوقد شنطتين حول خيمتى كى يبعد الضباب - حسبما يقول - وهى التى تتجول هنا وتكثر فى هذه المناطق ، وتدثر كل من البائتين فى برنسه وقضى الليل على مقربة من حصناته .

فى السابع عشر من نيلوز ( ٧ يناير ) أزلنا خيامنا فى الساعة السادسة والحقبة الأربعين من الصباح ، وكان الاتجاه الرئيسى لطريقنا يتجه من الشرق الى الغرب ، لكننا انعطفنا لحظة الى اليمين نحو الجبل الصالى ، تاركين البحيرة عن يسارنا ، على بعد حوالى عرسخ ، وارتفع الانحدار بهدوء وبشكل غير محسوس ليختفى بعد ذلك فى واد واسع ينبسط نحو الشمال ، أخبرنى الشيخ على أنه هو الطريق المؤدى من مدينة الفيوم الى الجيزة ، وإلى الاسكندرية عن طريق البحر بلا ماء الذى يمر بالقرب من بحيرات النطرون ويتفق مايقول الشيخ على هنا ، مع رأى الجنرال اندريوسى (١) وسوف نرى فيما بعد النتائج التى استنتجتها حول طريقة استغلال البحيرة فيما مضى .

كان العربان شديدي اليقظة ، يجدون فى التعرف فى الرمال التى تغطي هذه الصحراء - على ما إن كان قد مر من هنا منذ مدة تربية عربان آخرون وبعد مسيرة نحو الساعة تعرفوا خلال السكبان على آثار

(١) انظر ملاحظات حول بحيرة مورييس المدونة فى الاخطار الخامس بالثالث عشر من برومير من العام التاسع .

عربان الضعفا الذين سبق للسعالو أن طردوهم من الفيوم قبل ذلك بنحو عشرين يوما كما قيل لى .

وقد وجدنا بين البحيرة والجبل كعبة كبيرة من الأتسجار التى جفت وهى بعد واقفة ، وهى تشبه منسفة (⌘) صغيرة جافة ، ويسدو أن احدا لا يفيد من هذه الفسابة الصغيرة فى شىء فى حين أن من المستطاع أن تكون ذات نفع كبير لمدينة الفيوم .

وصلنا فى العاشرة الا الرابع الى ضفاف البحيرة وهناك شاهدنا اكبتين كبيرتين تنزل احدهما عن الأخرى ، ويبلغ ارتفاع كل منهما ٥٠ مترًا ، ويصل قطر أولاهما وهى مستديرة مائتى متر أما الأخرى فمقاعدتها ذات اركان اربعة ، ويبلغ طولها ٥٠٠ متر بعرض يبلغ ثمانين مترا . وهذه الأخيرة هى الأدنى الى البحيرة ، وتغطى كليهما أحجار شديدة الصلابة من الحجر الجيرى مقطوعة بشكل خشن ، وقد رأينا هناك كذلك بعض انقاض من القرميد ، لكننا لم نلمح عليها لا نحتا ولا آثارا لمنشآت ، كانت الكتلتان نصف مطوشتين فى الرمال ، وتقع احدهما بالنسبة للأخرى فى خط يسير من الشمال الشرقى نحو الجنوب الغربى بطول يبلغ حوالى الألف متر . فى هذه المنطقة يعتمد الجبل عن البحيرة بحوالى ثلاثة فراسخ على الأقل ، لكنه يميل بعد ذلك الى الاقتراب منها وتتناثر فى كل هذا الفراغ اكوام صغيرة من الأحجار الحمراء تتكون من نوع من الحجر الطباشيرى يشبه الى حد ما ، ماتطلق عليه نحن الحجر الدموى أو الطباشير الأحمر Sanguine وقد نزل العربان جبهما من فوق خيولهم وأكبوا على جمع هذه الأحجار بهمة شديدة ، وأخبرونى بأن الناس يشترون منهم هذه الأحجار لاستخدامها فى صبباغة المنسوجات ولطلاء الأخشاب .

ترجلت عند شاطئ البحيرة التى بدت لى مياهها الرائثة للفسابة وكأنها تميل الى الملوحة ، وإن كانت هى غير ملحية ، فسقينا منها جميعا خيولنا وتناولنا هناك وجبة خفيفة ، وقد أكد لى العربان أن البحيرة

---

(⌘) المنسفة : أحراش نبتت اشجارها الصغيرة على ارومات اشجار قديمة مقطوعة .



تحتوى على أسماك بالفئة الجبال ولذيذة الطعم وان كل سكان اليوم لا يصيدونها على الإطلاق ، وان صيادين من وادى النيل هم الذين يأتون الى هناك لهذا الغرض ابتداء من نهاية مارس وحتى ابتداء فيضان النيل . وترحم البحيرة كذلك بالطيور المائية . وكان مرض البحيرة عند النقطة التى نزلنا عندها يبلغ - كما يبدو لى - حوالى الفرسخ .

وحين اجتزنا الهضبتين لاحظت أن الأرض ترتفع بطريقة شبيهة منجائية ، وأن كان لى شكل مرتقى غير وعر ، ثم يصل المرء بعد ذلك الى هضبة واسعة صخرية السطح ، عارية من الخضرة ، تمضى لتمتلئ بالجبل الذى يبعد عن النقطة التى نحن عليها بحوالى الفرسخ جهة اليمين، كما يتوغل سطح الهضبة حتى سفلى البحيرة على بعد ١٠٠ متر جهة الشمال ، وقد رأينا لى الفراغ الذى يفصل مخرتى الهضبة طبقت من أرض قابلة للزراعة تغطيها طبقة خفيفة من الرمال ، كما رأينا هناك أيضا بعض آثار الماحلت قديمة .

وقد وجدت فوق هذه الهضبة التى وصلت اليها بعد الظهر بمشعر دقائق ، أطلال مدينة ، أو ربما أطلال قصر واسع أخبرنى العربان أنه يسمى قصر « طفشلة » أو مدينة النمرود ، كما رأيت هناك حائطاً سيكاً بلغ الارتفاع ، تعرضنا فيه على عدة مبان مخططة ، تشهد حالها على قديها ، وقد كنت أود لو استطعت أن أرسم الأسطح التفصيلية لهذه الخرائب ، لكن لم تتيسر لى لا المساعدات اللازمة ولا الوسائل ، ولا الوقت اللازم . لذلك فقد اكتفيت برسم كروكى لها يشير اليها على خريطة . وكنت الجدران مبنية بنوع من القرميد طوله ٢٠ سم وعرضه ١٠ سم وسبكه ٧ سم ، مصنوع من الجير الأبيض المخلوط بالفتس المهروس مع قليل من الصلصال ثم جلف بعد مجته بتعريضه لاشعة الشمس . وهذا الخليط هش للغاية ، ويتحول بسهولة بالفئة بين الأصابع الى تراب .

وتجد هذه الخرائب حتى شاطئ البحيرة ، بعرض يبلغ مائتى متر ، ويطول يصل الى نحو مئة متر ، ويقع من الشمال الى الجنوب ، وقد شاهدنا هناك كبة من القرميد المحروق والمخاريت وأوانى الموميت . الخ . ونحن فبين لى هجرى التسلم عن انشاء خريطة لهذا

المكان بسبب نقص الامكانيات ، ابدت للعربان رغبتي في ان اتوم بعمل بعض الحفائر ، فبدأوا جميعا البحث ، واحضر لى واحد منهم نصلا مستقيما ذا حدين صنع مقبضه من القرون ، ويبلغ طوله ٩٠ سم وعرضه ٥ سم ، ويحمل في اعلاه ، اسفل القبضة نقشاً عربيا محفورا ، كما انه مطعم بسلك من الفضة ، وقد حملته الى فرنسا ، وإن كان سرق منى لى مارسيليا ، لى نفس اللحظة التى كتبت اتيهيا فيها للرحيل الى باريس .

نزلت من المرتفع الصغير الذى توجد هذه الاطلال فوقه ، وواصلت طريقى قريبا لحسد كلف بين شواطئ البحيرة باتجاه غرب الجنوب الغربى . وظلت التربة هى نفس تلك الهضبة الصخرية التى وجدتها قبل تمر النهرود . وكان الجبل الواقع عن يمينى على بعد فرسخ صغير من البحيرة يواصل ميله على الدوام نحو الاقتراب منها ، وعند حوالى الثلثة كان طريقنا ، المتوازى على وجه التقريب مع الاتجاه الرئيسى للبحيرة ، يمشى بشكل ثابت نحو الجنوب الغربى ، وفى تلك اللحظة نزلنا لى منخفض ظننته لى البداية خليجا قديما ، لكننى رأيته بعد ذلك يتوغل نحو الجبل مواصلا اتجاهه نحو الغرب . وعند مدخل هذا المنخفض ، على شاطئ البحيرة ، لحت مرتفعا صغيرا على هيئة هرم غذهبت الى هناك على الفور وسرعان ما تبينت أنه ليس سوى صخرة تغطيها اترية تختلط بالرمال وتنمو عليها نباتات كثيفة . . وفى مواجهتها رأيت جزيرة منخفضة السطح وسط البحيرة .

فى كل هذا المنخفض تناسر عدد كبير من الاكيمات على شكل قمم ، تغطيها لى معظمها ارض قابلة للزراعة ، وبقايا احجار جيرية شبيهة بذاك التى سبق أن رأيتها لى الصباح . وهكذا ، فلذا أخذنا بالافتراض المرجح القائل بأن البحيرة كانت تمتد حتى الجبل -- وهو افتراض تدعمه الطبقات التى نراها ، والاكيمات التى تحدثت عنها ، والتى تاكلت بشكل افقى بفعل المياه ، وكذا القواقع التى كانت لاتزال على نفس حالها حين جمعتهما من تحت قصى -- فان هناك ما يدعو الى الظن بأن كل هذه الاكيمات قد كانت بالمثل جزا مأهولة ، اما الهرمان اللذان تحدثت عنهما هيرودوت ، فلا بد انها كانتا يعمان فوق واحدة من هذه الجزر المعيدة ، وإن كان قد

يضعب علينا أن نعرف فوق أى واحدة من هذه الجزر كان ينهض هذان الهرمان إذا ما استقينا الجزيرتين الأوليين اللتين تقعان عند منتصف البحيرة طولا وعرضا ، على افتراض أنها كانت تبدأ عند طابية وتمتد من بينهما حتى الهضبة الليبية ، ذلك أننا إذا استبعدنا هذا الموقع الأوسط الذى يبدو هروءوت وهو يشير إليه كما لو كان يستند الى شئ ثبت ، فسوف نجد عددا كبيرا من الجزر يصلح أى منها لوجود هذين الهرمين تبعاً لكمية وأحجام الأحجار الجيرية التى تغطيها .

أما وقد ظللنا نواصل طريقنا على الدوام باتجاه الجنوب الغربى فقد وصلنا فى الساعة الرابعة والحقيقة ٣٥ بعد أن أسرعنا فى السير قليلا ، الى موقع غلبة ، تغطيه أشجار جافة تشبه ما كنت شاهده فى الصباح ، بل لقد كان امتداد الغلبة الأخيرة يبدو أكبر بكثير ، كما كانت جنوع الأشجار تبدو أقوى ، وكان السكر من هنا له سمك ذراع الإنسان ، كما كان سمك البعض الآخر يماثل سمك الفخذ . من هناك كنا نرى باتجاه الغرب قصر قارون . وكان قد خطر ببالي أن اذهب الى هناك لقضاء الليل حين لحق بنا أحد العريان ، أرسله الشيخ صالح ، والد الشيخ على . وكان قد بلغه منذ قليل أن ثمانية من رجاله قد انتهبوا بواسطة جماعة تتكون من ٣٠٠ من فرجان البحيرة ( عرب الفرجان بولاية البحيرة ) . لقد كلف الشيخ صالح هذا العربى بأنه يخبرنا بأنه يلزم حراسنا البقطة ، كما طلب اليها بشكل خاص ألا نغامر على الإطلاق بالدخول فى معركة ، نظرا لقلة عددها ، ومع ذلك فقد أخبرنا أن نظل على هدوئنا ( ألا نفزع ) وبأنه على صلة بمجريات الأمور لكى يعرف ما آل اليه حال أعدائه الفرجان ، ويأنه إذا ما بلغه أنهم لا يزالون على مقربة منا ، فسيأتى للتسليم على القور وفى صحبته ٥٠ من الممالو ، هنا لفت الشيخ نظرى ، دون أن تراه هذه الأخبار ، أن ليس من حسن الفطن أن نضل الى قصر قارون مع قديم الليل ، إذ يعد هذا المكان الملتقى المفضل للتوافل الجوابية وأنه ، إذا ما افترضنا أن فريقنا من بينهم قد يقضى الليل فى المنطق الجاورة ، فسوف يصاد سفره مع بزوغ النهار ويترك لنا الميدان خاليا . أدركت صواب رايه ، وفضلا عن ذلك ، فلم تكن قد تلقنا — حتى ذلك الوقت — أى قسط من الراحة منذ المساءة صباحا ، أى أننا قد مرنا بشكل متصل لمدة عشر ساعات لذلك

فقد اخترنا من الغلبة مكانا دنيا وحصينا تحيط به المرتفعات ، حيث يتربع على الطريق الذى كنا سلكتاه عرب الفرجان فى معظم الأوتل ، واتم الشيخ عليه حراسة ، وقضينا الليل فى هذا المكان .

كما بالنمل على ضفاف البحيرة ، كما كنا فى نفس الوقت جد قريبين من الجبل . تذوقت المياه مرة أخرى فوجدتها تماثل تلك التى تذوقتها فى الصباح . وقد شربت منها كل خيولنا بل وكثير من خدمنا ، الأمر الذى يتعارض بعض الشيء مع تأكيدات بوكوك Pococke الذى وجدها كما يقول أكثر ملوحة من ماء البحر . وفى الحقيقة ، فقد جاء هو الى هناك بعد مثل الفصل الذى جئت فيه بشهر ونصف ، ولعل الفيضان الذى سبق رحلته كان بالغ السقف ، فى حين كان الفيضان الذى سبق رحلتى بالغ الوفرة .

وفى اليوم التالى ، ١٨ نيفور ( ٨ يناير ) واصلنا طريقنا فى الخامسة والربع صباحا ، لسكننا لم نسطع أن نحاذى ضفاف البحيرة بسبب ادغال الأشجار التى تغطيها . لذلك فقد اضطررنا أن نتقرب من الجبل ، الذى كانت المسافة التى تفصله عن البحيرة تضيق شيئا فشيئا ، كما قد أصبحت طبقة الأرض القابلة للزراعة يزيد مسكها أكثر فأكثر دون أن تخالطها الرمال ، ولهذا فلعل من المؤكد أن يكون هذا الجزء الشمالى من البحيرة قابلا للزراعة حتى مسطح الجبل اذا أمكن رى أراضيه بمياه الفيضان العذبة .

وصلنا أخيرا حوالى الساعة السابعة والربع ، بعد مسيرة أبدا بعض الشيء من مسيرة البشارحة ، الى الطرف الغربى للبحيرة ، وهو يفريق كلية سطح الجبل وكانت اظن اثنى هنا بصدد ذلك الجبل الذى يقطعه منذ مبدئه ، البحر بلا ماء ، والذى يسميه دانفيل فى مؤلفه مصر القديمة Aegyptus antiqua باسم Lycus Fluvius ، ولكننى وجدت ، بدلا من هذه الفتحة ، أن السلسلة تتلج حتى مدى البصر باتجاه الجنوب الغربى ، وعرفت من العريان أنه لا يوجد فى هذه المنطقة لا البحر بلا ماء ، ولا منخفض من أى نوع يستطيع أن يقوم ادماة على وجوده .

أما لسان الأرض الضيق ، والذي يسمح بالمرور بين طرف البحيرة<sup>٢</sup> وسفح الجبل ، فقد كانت تطمس كومة من الأحجار الجيرية الضخمة التي لا يبدو عليها أى اثر لعمل الإنسان والتي اعتقد أنها ببساطة قد سقطت من الطبقات العليا للجبل ، فضلا عن ذلك فقد كان هذا الممر وعرا لأن شواطئ البحيرة هناك مقطّاة بقشرة ملحية تخور بسهولة تحت الإقدام وتوجد تحتها مياه عميقة لحد كبير فى بعض الأحيان . وتمكنت جمانا بعد جهد بالغ المشقة من عبور هذا الممر .

وحيث كنت قد نفذ صبرى شئنا لرؤية قصر قارون الذى كنت أراه منذ الصباح بشكل بالغ الوضوح : فقد تركت القافلة تواصل طريقها ، ورحلت وحيدا الى الأمام متخذاً اتجاه جنوب الشرق نحو هذا المبنى الذى وصلت اليه فى الساعة والربع . وهكذا لمضيت ساعة ، سار فيها حصانى بالقصى سرعته كى أطلع المسافة التى تفصل القصر عن طرف البحيرة ، إذ أن المنحدر لم يكن وعرا بل كان كبيرا . وفى نفس الوقت فإن القصر مبنى فوق مرتفع صغير مما يصح بالظن بأن مياه البحيرة كانت فيها مضى أكثر ارتفاعا ، وبالتالي فى تلك الأزمنة التى كانت تمتد فيها لتبلغ الجبل ، كانت تاتى كذلك كى تبلل سفح هذا المبنى .

إن أقدم هنا مطلقا وصفا لقصر قارون ، فقد سبق أن قدم المسيو جومار Jomard الرسوم والخرائط الدقيقة لهذا المبنى (١) . لكننى فقط أسمح لنفسى بأن أقرر أننى لمست أعتقد أن مبناه قديم بنفس قدم معابد مصر العليا ، فاطلالة .- أولا ، لا تبحو حاملة لآثار تخريب الزمن لكتنها تحبل آثار تدمير قلمت به يد البشر . وثانيا قها نحن نرى عند مخضه أحجاراً منحوتة بشكل خشن على طريقة الاغريق ، فوق الدعامات الأمامية ، وإن كان من الممكن الافتراض بأنها قد اضيقّت فى ازمة لاحقة . وقد حفر دكتور بوكوك اسمه على انقراض عضادات باب الدخول الأول الواقع الى اليسار ، كما حفر بول لوكاس Paul Lucas اسمه على انقراض العضادات الواقعة الى اليمين .

(١) انظر اللوحين ٦٩ ، ٧٠ ، العصور القديمة ، المجلد الرابع .

كان هذا بمثابة اكتشاف له أهمية تصوى بالنسبة لى . هنا لم  
استطع ان اتلوم نزوة ان اطمسها ، فكتبت هذه الكلمات على المضادة  
الواقعة الى اليسار فوق اسم بوكوك .

عبر ب. م. ملرتان ، المهندس الفرنسى  
الجزء الشمالى من بركة قارون ، فى السابع عشر  
من نيفوز من العام التاسع لقيام الجمهورية  
الفرنسية ( الموافق ١٧ يناير ١٠٨١ )

وقد تفحصت باهتمام ، من أعلى المبنى ، وبمنظار جديد ، امتداد  
الجبل الذى تركته عند شاطئ البحر ، فلم أجده على مدى البصر  
ممكن ان يدمم افتراض وجود الفتحة التى يتحدث عنها كل من ليكاس  
ودانفيل ؛ بل وجدت الأرض تضى صاعدة فى مرتقى لطيف يبتدىء عند  
البحيرة وينتهى ببلوغ قمة الجبل . ويرى المرء عن بعد كبير تلك الحلة  
( القمة ) التى حددها هذا الجغرافى فى خريطته عن مصر الحديثة  
تحت اسم Haram Medale el - Hebiad ولا تزال بعض جدران قصر  
قارون تنهض واقفة سواء من ناحية الشرق أو من ناحية الغرب ،  
بل ويوجد كذلك مبنى صغير امام محضه ، ومع ذلك فلا توجد مطلقا  
قطعة واحدة من الجرانيت . وتقع حجرات القصر ، المربعة الشكل ،  
على خط يمتد بشكل تقريبي من الجنوب الى الشمال ، اما خط الواجهة  
الرئيسية او المدخل فيمتد من الجنوب الشرقى ، واذا ما رنا الانسان  
ببصره نحو الأفق فسوف يلاحظ عن قرب ، والى الجنوب ، قمة عالية من  
الأرض تدل بوضوح على الحد القديم للبحيرة .

غادرت قصر قارون عند الظهر تهاما ، واتخذت طريقى مباشرة نحو  
الجنوب الشرقى ، كانت الأرض التى نطوها صخرية خالصة تغطيها رمال  
خفيفة ، وتتناثر عليها اكداس صغيرة من الأحجار والقرميد ، ولكن  
بكيات بالغة الضالة ، وهذا ما جعلنى اظن انفسا نتوصل الى نتيجة  
مبتصرة حين نطلق على هذه الأطلال اسم بلدة قارون ، ذلك اثنى مقتنع  
بأنه اذا كانت توجد بعض مبان فوق هذه الصخرة فانها لابد ان تعود  
الى فترة جد قرييسة ، جاءت بعد انحصار مياه البحيرة بزمان طويل ، كما

ان هذه المباني ، من جهة اخرى ، ضئيلة الاهمية للغاية ، ولا يمكنها باية حال ان تغلل على وجود مدينة قديمة ، وسيكون موقع مثل هذه المدينة ، فضلا عن ذلك بالغ السوء ، اذ يظل هذا المكان ، على الدوام ، عاريا من أية خضرة .

كنا نسمر بخلو حثيث ، اذ كانت جمالنا قد سبقتنا بنحو نصف الساعة ، ووجدنا انفسنا عند حوالى الساعة الثانية فوق قمة بناء صغير يقع الى اليسار على شاطئ البحر ، ولاحظت ان قمة عالية بعض الشيء تمتد بدءا من هذه النقطة ، على نحو مواز لهذا الشاطئ .

وبعد مسيرة نصف ساعة شاهدت مبنى آخر فوق نفس القمة ، وتلك على وجه التقريب هي الأماكن التي يطلق عليها بوكوك اسمى قصر كوفو Couphou وقصر كوبال Copal ، واخبرنى المربران انه يشار الى هذه المباني في عمومها باسم قصر البنسات ، وتوجد على شواطئ البحر ، عند سفح الجبل الواقع الى يميننا في ذلك الوقت ، ونحن باتجاه بحيرة الفرق ملاحات كان يستغلها اهالى النزلة . ولكي يتم لهم ذلك ، قاموا بحفر آبار تسحب اليها المياه المالحة ، وتركوا للتبخّر فوق الأرض ، لتنتج ملحا لذيذ الطعم ، بالغ الجودة .

ويصبح الانحدار ، ابتداء من قصر قارون ، غير محسوس ، لكننى احسبت في الساعة الثالثة ان الانحدار قد عاد ليصبح بالغ الشدة . وعند الثالثة والرابع وصلنا الى القمة التي تشكل نهاية الصحراء . هناك احسست بلذة يصعب وصفها تمتد ثمانى واربعين ساعة ، لم تكن عيني النهمة للاكتشاف ، والتي كانت تحرق بلا انقطاع في كل محيطي ، لم تكن تقع الا على احجار ورمال . كانت صورة الموت وحدها ترتسم بخيالي دون ان تعطيني مع ذلك اى احساس بالحزن او الانتفاض . كنت ابعد ما اكون عن الاحساس بالحزن او الاجهاد ، ذلك الاحساس العادى انذى ينتاب المسافرين في الصحراوات ، فلقد قمت بهذه الرحلة برغبتي بل وبترحاب كامل من جانبي ، بل اني لاشك ان اوريسا آخر يستطيع معها تكن الظروف التي تحيط به ، ان يجد رحلة شبيهة برحلتى ، فلقد كنت روحي على الدوام في توق لمبائلي ، كما اني لم اعلن مطلقا من

حرارة الجو التي كانت ترتفع ، على الرغم من أننا كنا في يناير ، من ٢٢ الى ٢٤ درجة فيما بين العاشرة صباحا والثالثة بعد الظهر . لم يحدث أن فتحت قريتي ولو مرة واحدة كي اشرب أثناء الطريق بين لحظة وأخرى ، ومع ذلك فإن السرور الذي تملكني عند أول رؤية للخضرة ، رؤية الطبيعة في حالة حركة وحياسة ، جعلني أحس برجلة تسري في جسدي ، وبأنني دون أن أدري في حالة من انفعال مستمر .

كنا نلح عن بعد قرية النزلة ، في نفس اتجاه جنوب الشرق الذي اتبعناه بدءا من قصر قارون ، وقام العربان الذين كانوا قد اوقفوا سبلاتهم أثناء فترة اجتيازنا للصحراء ، بترقيص خيولهم من حولي ، مرهقين اياي بالتحديات والتهنئات ومباركات الصداقة . مكثوا يصيحون خلال فرحتهم بانهم قد أعادوا ، سليما ، معالي ، مدبر السمالو ، وهي كلمة تعني منظم ، ويستخدمونها في مقابل كلمة مهندس عندنا ، ولقد قدموا لي شهادة كبيرة على تقديرهم ، حين اضافوا الى هذا اللقب اسم قبيلتهم ، واعتزفاني لم أكن مبتدئ الاحساس امام هذه الدلالات ؛ فلقد جعلوني واحدا منهم ، وكان وجهي الذي لوحته الشمس ، كما كان شاربي الكش ورددائي البهوى كان كل ذلك يتحدى أمهر خبير في تمييز الملامح ( ان يتعرف على ) ، لذلك فقد لاحظت ان احدا من كل الاهالي الذين قابلناهم بعد ذلك ، لم يحدد وجود رجل فرنسي ، بين هذه الكوكبة من العربان .

وصلنا الى النزلة في الساعة الخامسة . وتقع هذه القرية ، الكبيرة بعض الشيء على بعد حوالي ثلاثة فراسخ من شواطئ البحيرة ، وعلى الشط الايسر لترعة واسعة تعتبر امتدادا لبحر الوادي الذي سبق لي ان اشرت اليه . وفيما مضى ، كانت النزلة تحصل على حاجتها من المياه عن طريق رشاح يأتي من مدينة الفيوم ، لكن المياه ، منذ ان قطع سد المنيا ، ظلت تغمر الأرض ، لدرجة أنني كنت أرى في ذلك الوقت بركا كبيرة الحجم ، على مقربة من القرية ، على الرغم من ان انخفاض المياه التي كانت تتدفق منذ ما يزيد على ثلاثة اشهر ، ربما يكون قد ترك الأرض مكشوفة ( أي معرضة للجفاف ) في كل مكان .

قضيت الليل في النزلة ، ودعوت الى العشاء معي شيخ هذه القرية ، وكذلك الشيخ علي أبي بكر ، ابن أخي الشيخ مسالم ، الذي



كان قد تقدم على جبل لزيارتي . وقد افدت من هذا اللقاء ، اذ حصلت من كل منهما بشكل خاص على كافة المعلومات التي يمكن لاثليهما ان يقدمها لى عن الصحراوات المحيطة بالفيوم ، ولابد ان يستنتج القارئ اننى لم اعمل ما يتصل بالواحات . وقد سررت سرورا جما حين لاحظت ان اجابتهما تطابق بشكل تام مع التفاصيل التي حصلت عليهما قبل ذلك بعدة ايام ، من سليمان الكاشف ، ومن اثنين من اهالى الواحة الصغيرة ، كنت لقيتهما فى مدينة الفيوم ، وسأقدم فيما بعد نتائج هذه اللقاءات .

غادرنا النزلة فى التاسع عشر من نيفوز ( ٩ يناير ) ، فى الساعة التاسعة والربع صباحا ، واتخذنا طريقنا ، بشكل مستقيم ، باتجاه الجنوب الشرقى ، وسط الاراضى المزروعة ، والتي كانت متشقة فى ذلك الوقت ، مما جعل سيرنا عسيرا ، الى ان وصلنا بحر الوادى فى الحادية عشرة والربع ، تجاه قرية ( العين ) الواقعة على الشط الايمن . وهناك ، كان عمق الرشاح لا يقل عن ١٦ الى ١٧ مترا بعرض يصل الى نحو مائتى متر ، نزلنا نخوض فى مياه الرشاح ، وكان السير فوق قاعه اقل مشقة من السير فوق حافته . كانت مياهه تجرى فى الجانب الايمن من سيره ، وقد صعدنا متجهين نحو الجنوب حتى بلغنا فتحة ترعة صغيرة ، كانت تبنى من قبل ، كما قيل لى ، من مدينة الفيوم ، مارة بالمنيا ، متجهة الى بركة فارون بعد ان تسقى اراضى القرى الواقعة على مجراها ، وقد اكذ لى العربان ان بحر الوادى الذى كنت اراه بالغ الاتساع قد تكون نتيجة لفيض مفاجئ للوياه التى تسربت فى ذلك الوقت ، حين تصدع جسر المنيا ؛ لكننا سنرى فيما بعد ان هذا الافتراض بعيد الاحتمال ؛ ولم تبد لى الجبال الواقعة الى الغرب سوى الحداد طفيف تضيق ذروتها فى الأفق البعيد .

وفى الساعة الحادية عشرة والربع ، وصلنا الى ابنى جندير ، وهى قرية بالغة الارتفاع ، تقع الى جنوب الجنوب الغربى من النزلة . ومن فوق المرتفع الذى بنيت فوقه هذه القرية ، كنت ارى بوضوح مدينة الفيوم والنزلة ، وكل المنطقة الوسطى من ولاية الفيوم ، وعبر فرع من الرشاح القادم من مدينة الفيوم بالقرب من ابنى جندير ؛ وحيث تظل

تصل المياه حتى هذه المنطقة في مستوى سطح الأرض ، فانها تشكل عند تدفقها الى الوادئ مسقط مياه يبلغ انحداره نحو عشرة أمتار ، وهذه ظاهرة غير معروفة في بقية أنحاء مصر .

وهكذا فإن اقلمة آلات تحريكها بمناطق المياه ستعود بنفع كبير للرئ . وكان دليلى ، الشيخ على قد لقي في أبى جندير اخاه الشيخ عثمان ، شيخ القبائل المقيمة حول هذه القرية ، فلم نمكث في خيمة الأخير سوى ربع الساعة تناولنا خلالها القهوة ، ثم واصلنا طريقنا باتجاه الجنوب الغربى ، مصطحبين معنا هذا الشيخ عثمان .

وعند الثانية عشرة والربع ظهرا ، عدنا الى الصحراء ، التى تشكل أرضها — وهى أعلى من الأرض المنزرعة — أحجارا رموية تخطط بالرمال ، فوقها قطع من الأحجار الجيرية . لقد كلفوق ما يشبه هضبة ، عند بدء انحدارها غير المحسوس نزولا ، جهة الشمال الغربى نحو قصر قارون ، وبدء انحدارها كذلك الى الجنوب الشرقى عند قرية ورشاح الفرق ، حيث يتحول الانحدار الى مرتقى يمتد صاعدا بشكل غير محسوس الى مدى البصر .

ولمى الساعة الواحدة الا خمس دقائق ، وصلنا الى مرتفع منعزل يسمى « كوم الفرق بتناع الملط » وهناك تمررت على اطلال هائلة تمتد من جهاتها الأربع الى داخل السهل . صعدت المرتقى ، فرأيت بحيرة الفرق ، في أسفل ، وهى تمتد الى الجنوب لبعد يبلغ حوالى نصف الغرمنخ ، واسترعى مرافقى انتباهى الى وجود جبلين يقعان عن بعد باتجاه جنوب الجنوب الغربى ، ويوجد بينهما ريان ( بئر ) وكذلك الطريق المؤدى الى الواحة الصغيرة التى سالتناولها فيما بعد ؛ ويرى المرء الى الجنوب الغربى تلك القرية التى تحمل اسم مدينة الفرق ، أما ظهر الجبل الذى يفصل وادئ الفرق عن وادئ مصر ، فيشكل منحدرًا لطيفًا سهلاً .

تركنا اطلال مدينة ( معدى ) في الساعة الواحدة والنصف ، ونزلنا في منخفض من أرض صالحة للزراعة . تغطيها رمال غير كثيفة . ومن السهولة بمكان زراعة هذه الأرض رغم كونها مهجورة ، اذ تتكاثر فيها دون أية مجهودات أو عناية تذكر ، مجموعات كبيرة من الأشجار والنباتات المتنوعة .

وتجرى في هذا السهل ترعة تزرع شطحاتها ، وتمشى جنوبا لتصب مياهها في البحيرة وتسد مسدنا باتجاه هذه التربة حتى مدينة الفرق فوصلنا الى هناك في الساعة الثالثة بعد الظهر . ثمة سور يحيط بهذه القرية الدفاع عنها ، لكنها في داخلها ، تشكل مظهرا بالغ اليأس ، وهناك منزل لأحد المالك قد تحطم عن آخره ، وليست ضواحي القرية بأحسن من داخلها حالا ؛ ويخلاف كل قرى مصر ، تلك التي يتعرف عليها المرء من بعد بأشجار النخيل الكثيفة التي تحيط بها ، فإن مدينة الفرق لا تحيط بها ولو شجرة واحدة ، فهي لا تمثل الا مظهر عرى بالغ الوحشية لحد يبعث بالرجلة الى القلب . وقد بقيت هناك لقضاء الليل ، وكنت أريد ان أرى « كوام الوزاى » وهم عربان تابعون للسلطان ، سمعت أنهم لموسم ذوو حيلة ، وتصحنى كثيرون بأن أتجنّبهم ، ولست أدرى ما ان كان ظهور الشيخ على والشيخ عثمان هو الذى كبح جماحهم ، وبما يكن من أمر لقد خرجت من قبضتهم دون ان يكون لدى ما أشكر منه ، ولقد حدثوني بسرور بالغ عن المسبح جبرار ، وكثفوا قد صحبوه في جولاته قبل ذلك بمسافرين . وقد عرض على شيخهم كرامتى خدمته بأن يصحبنى الى البحيرة التى يسمونها الفرق بتاع الفرق ، وهى تبعد عن القرية بمسيرة ساعة نحو الجنوب . وقد قبلت صحبتهم ، لكننى أجلت الزيارة الى الفترة التى قد أזור فيها الجزيرة الصغيرة ، وهى زيارة كنت عزميت على القيام بها منذ عرفت تفاصيل موقع هذه الجزيرة الصحراوية . وان كنت مع ذلك قد صحبتته معى لزيارة الأنتافى الواسعة التى تحمل اسم دير زخوة بتاع الفرق والذى يبعد موقعه عن القرية بنحو مرسخ واحد باتجاه جنوب الجنوب الشرقى .

رحلنا من الفرق في العشرين من نيفوز ( ١٠ يناير ) في الثانية الا ربع صباحا فوصلنا الى قرية سنورس ، وهى قرية صغيرة تحيط بها الجدران ، وتسكر حولها قبيلة المعربين ، على الشط الأيمن للترعة تجاه الفرق مباشرة ، وحين توجهنا بعد ذلك — على نفس طريقنا — الى الشمال الشرقى ، وجدنا السنة صحراوية كثيرة تعترضها اجزاء تالفة للزراعة ، وفي الساعة التاسعة والنصف عبرنا القرية الصغيرة

التي تفيض فتصب مياهها في الوادي شمال أبو جندير ، ووصلنا الشط الآخر عند بداية الجسر الرائع الذي سبق ان تحدثت عنه والذي بينت موائده عند شرح الحركة العامة للمياه في الولاية ، واتقدم الان بالتفاصيل التي حصلت عليها حول هذا الجسر .

يقدم لنا هذا الجسر — وهو مبني بأكمله من الترميد او الاحجل المتناسكة بشكل متين بفعل ملاط من الجير والاسمنت — نمطا لواحد من تلك الاعمال العظيمة التي نتجت عن رعاية حكومة عاقلة تضع في اعتبارها العمل لصالح البشر، ويبلغ سنك هذا الجسر ستة أمتار عند ارتفاعه ، كما يبلغ ارتفاعه ابتداء من أدنى نقطة فيه ستة أمتار كذلك ، وتدعم الجسر وتقويه دعائم ومصدات مياه ، ولكن على الرغم من هذه الاحتياطات فقد تصدع عند المنتصف بالقرب من قرية شحموه لمسافة تبلغ ٦٠ مترا . ويسود أن هذا التصدع لا يعود الا 'قوة اندفاع المياه ، بمعنى أنه لم يحدث نتيجة لتخريب من أي نوع على يد الانسان فنحن لا نزال نرى هناك كتل البناء الضخمة التي حملها المياه معها الى بعيد في قاع الترعة . وربما يقال تفسيراً لذلك ، وأنا ندمي اشارك في هذا الرأي ، بأن تصدعا كبيرا كهذا لا يمكن أن يتم الا بفعل الاهمال في اصلاح أول تلف أحدثته المياه ، فلقد كان كافيا أن يحدث تسرب للمياه ولو ضئيل لكي يحدث على المدى البعيد كل هذا الدمار ، ومنذ ذلك الوقت ، لم يعد للجسر من فائدة او معنى ، فلقد أصبحت حقول وادي الفرق غير مزروعة ، وأخذت المياه تذهب عن طريق بحر الوادي، لتفرق — مشكلة بذلك جسارة تلمة — تلك الأراضي التي تقع فيما بين التزلة وبحيرة قارون .

وتقطع أعلى هذا الجسر على الدوام تناسط صغيرة ، نفخت في فتاحتها خزانات مخصصة ولا ريب لتنظيم ارتفاع المياه حين تغطي وادي الفرق . ومن شأن هذا أن يخفض زعم العربان الذين يدعون بأن الوادي لم يكن يوجد مطلقا قبل قطع الجسر . لقد كان على المياه التي تعبر هذه الخزانات أن تتجه بالضرورة وعن طريق ترعة ما الى بركة قارون . وإن كان يمكن — فقط — أن تكون مثل هذه الترعة أقل اتساعا مما هي عليه اليوم ؛ ومن جهة أخرى فإن الجسر يقوم بدورات عديدة تبعا لانتفاءات

و نعطافات الأرض ، ويتوغل نحو الشرق بطول يبلغ حوالى ٨٥٠٠ متر حتى قرية دفنو ، حيث ينتهى الجسر .

اقتربنا من قرية المنيا (بج) حيث يقيم الشيخ الأكبر أبو صالح ، والد على وعثمان ، رفيق سسرى ، وسرى النبا فى القرية ، فشاهدنا على الفور ظهور أخيهما الثالث جوربة ، الذى أرسله أبوه ليهنئنا بسلامة الوصول .

ثم جاء هذا الشيخ ( ألسن ) نفسه للقائنا ، وما أن اقترب منا بلحو مائة خطوة حتى ترجل ، واتجه نحوى سائرا على قدميه ، يادلتبه على الفور نفس تحيته ، وتقديما ، وحدنا ، كل منا تجاه الآخر ، وكل منا على رأس جماعته ، وحتى هذه اللحظة ، كان الشيخ على يفتح نفسه رهن اشارتى ، اللهم الا فى تلك اللحظات التى تركته خلالها عند طرف بحيرة قارون لاهرع وحدى الى قصر قارون . أما الآن ، فانه لم يتبمنى مطلقا ، لقد نمنه من ذلك ، الاحترام الذى يكنه لوالده ، ولقد أبدت لأبيه من جانبى كل رضائى لأنه قد اتاح لى أن أصحب رفيقا مثل ولده ، وعربا مخلصين نوى شهامة مثل أتباعه الشجعان من أبناء السبيل . لاحظت أنه نائر لامرأتى ، ومنذ هذه اللحظة نشأت بيننا الثقة . امتطينا حصاتينا من جديد ، وسار أبو صالح من يمينى ، أما أبناء الثلاثة فقد ساروا من خلفنا ، فشكلنا على هذا النحو ما يشبه الدخول المظفر الى المنيا . كان الوقت قد بلغ العاشرة والربع وكان السكان جميعا قد اصطفوا على جانبي طريقنا وأسمعنا النسوة زغاريدهن ، تلك العلامة المضادة عند حلول الأمراح الكبرى .

يقطن أبو صالح فى المنيا بيتا واسعا بعضى الشيء ، سرعان ما امتلا بعدد كبير من المدعوين من كل الطبقات والأعمار ؛ وما أن جلسنا على الأرائك حتى تقدم الى الشيخ صالح كل أبناءه ؛ لاحظت من بينهم واحدا لما يتجاوز التاسعة أو العاشرة من العمر ، يكن له أبوه عاطفة خاصة وكان هذا الصبى ، وله وجه بالغ الجمال ، يركب الخيل ، ويستعمل الأسلحة بقدر ما قد يفعل ذلك أكثر البدو تيرسا ،

ويبدى من حيوية الطبع ما يسر والده بشكل بالغ ، وقلت لأبى صالح  
 اننى كنت قد لاحظت وأنا فى السهل رشاقة ومهارة هذا الصبى ومظهره  
 الحسن ، دون ان امره ويقتوب جسدي ، عبر لى أبو صالح ، وقد  
 هزه المسيح الذى انهال به على ولده المحبوب ، عن عرفاته بطريقة  
 قد تبدو غير معقولة فى تقاليدنا ، لكنها ولا شك نتيجة افكارهم عن  
 الرق ، فلقد تقدم الى هذا الطفل قائلا ان بإمكانى ان اصطحبه وان احبه  
 فى خدمتى ؛ فاجبته بأننى قد تأثرت للغاية بهذا العرض ، لكن ولده  
 ان يكون مطلقا على خير مايرام ، بل انه قد يتلف بلا جدال لو انه نشأ  
 بين قوم غير قومه ، وان لى فضلا عن ذلك ، فى فرنسا ، طفلا كطلته ،  
 تتعلق به كل آمالى ؛ واننى معرفة منى بقدر صنيع السماء مسوف الوم  
 نفسى اذ حرمت من خدمات رجل اود ان انظر اليه منذ الآن وان احبه  
 كوالدى ، مرغ عينيه الى السماء شاكرًا الله اذ جعله يجد فى شخصى  
 صديقًا خفا .

قد يدور بخلد البعض انه قد لذ لى هنا ان اصور مشهدا من صنع  
 الخيال ، أو اننى على الأقل قد جهدت فى ان امنح هذا المشهد بعض  
 مذاق الخيال ، لكن الحقيقة هى اننى انتقل بدقة ما قد حدث ، واننى  
 اكاد اقدم احاديثنا كلمة بكلمة كما وجدتھا فى مذكراتى ، التى دونتها  
 فى مساء نفس اليوم ، ومع ذلك فينبغى على ان اتول كذلك ، تفسيرا  
 لمشاعر الصداقة هذه ، انه يسدو ان ابا صالح كان يريدنى ان استكشف  
 انه يرعائى بسبب صفتى مدبرا ، شخصية بالغة الاهمية ، وانه يريد  
 ان يحملنى على العزم على اعادة ترميم الجسر وخزائنه وقد حدثته عن  
 الحالة الراهنة لهذا المبنى باعتبارها تقارب حد الكارثة ، وان الفرنسيين  
 كانوا ينتوون ترميمه فى اقرب فرصة ممكنة ، واكد لى هو من جانبہ ،  
 وقد تدفقت عواطفه وزاد عرفاته بأن بإمكانى الاعتماد عليه ، وعلى كل  
 قبيلة السمالو ، الذين سيصبحونى فى كل مكان اريد الذهاب اليه ، وانهم  
 يستثلون لأمرى فى الحياة وفى الملمات ، واتنهزت انا هذه اللحظة لكى اعد  
 لرحلتى الى الواحة ، وقد اكد لى دقة المعلومات التى حصلت عليها فى  
 مدينة الفيوم وفى النزلة ، كما اكد بأننى ، عندما اخبره بيوم رحلتى ،  
 سأجد كل شىء معدا للقيام بهذه الرحلة فى تمام االتان . وهذه هى

التفصيل التي جمعتها حول هذه الواحة ، وحول الطريقة التي اتفقتا عليها للقيام بالرحلة .

تبعد الواحة التي تقع على مرتفعات الفيوم ، والتي يشار إليها في كل الخرائط القديمة باسم واحة برنا Oasis Parva بنحو مسيرة ثلاثة أيام ونصف اليوم الى الجنوب الغربى للمعينة ، وهى عبارة عن واد صغير يوجد به عديد من ينابيع المياه الحارة والبلردة ويتوزع سكاكنها على أربعة قرى ، تضم كل منها من ١٥٠ — ٢٠٠ نسمة ، يزرعون الكثير من أشجار النخيل وهى التي تشكل تجارتهم الرئيسية ، كما يزرعون الأرز والذرة . وبعض أشجار الفاكهة ، مثل أشجار التين والموز والبرتقال والرمسان ، لسكنهم لا يزرعون القمح ، وهم ينقلون أو يعملون على نقل ما يفيض عن حاجتهم من المواد الغذائية عن طريق عرب الكومى من البحيرة الى الفيوم والتساهرة ويقايضونها بالقمشة والحديد والفتح ، ولا توجد فى هذه الواحة خيول ولا خراف ، وذلك بسبب عدم وجود المراعى بلا جدال ، والطقس هناك غير مسمى على الإطلاق ، اذ تحمل إليها رياح الجنوب والشرق والغرب ، وهى تجتاز مساحة شاسعة من الرمال ، هببت حارة ومسممة ، من نوع رياح الخماسين التى تهب على مصر ، اذلك فالتسلسل هناك ذوو قامة قصيرة . وهم على الدوام مرضى ، ويبدو عليهم لأول وهلة ان مسحتهم بالغة السوء .

ويبقى على المرء ، كى يتوجه من مدينة الفيوم الى الواحة ، ان يمر ببحيرة الفرق ، ويجد على مسيرة مساعتين ، الى الجنوب ، بئرين تسميان بئر الكبير وبئر الصغير ، ويرى بالقرب منهما مبنى يشبه قصر قارون ثم يجتاز بعد ذلك ، باتجاه الجنوب الغربى ، ولمدة يومين ونصف اليوم ، صحراوات جرداء لا اثر فيها لمياه او خضرة .

كان على ان اتوم بهذه الرحلة مع خمسين من العرب ، يظلم خمسة وعشرون هجينا ، يحمل كل هجين منها من الطعام والشراب ما يكفى راكبيه وما يكفيه هو نفسه ، وهو الذى يدير كل الصحراء دون أن يشرب ، ابتداء من بئر الريان الأخير حتى الواحة ، وقد شرب الرجال من البحيرة . وعند بئر الريان ، حيث لم يملأوا الا قرية بالقلة الصفر لكى يحفظوا من حمولة الجبال ، ولذلك تمدد كثفوا يكتفون بشرية واحدة فى اليوم ،

وكان علينا ، الشيخ . على وأنا ، ان يمتطى كل منا حصانته ، وكان ثمة جملان يحملان لنا الامتعة والمؤن ، وثلاث قرب من المياه ، لسكل حصان قرية فى حين خصصت لنا نحن الاثنين ، القرية الثالثة .

اما بخصوص واحة آمون ، والتي تعرف باسم واحة سيوة ، فلن الطريق اليها تقع الى الغرب من قصر قارون ويقتضى الأمر من المرء ان يصعد الجبل الى اليسار ثم يتجه على الدوام باتجاه الغرب ؛ وتصل بين هاتين الواحتين مسيرة سبعة أيام ونصف اليوم ، لكن الأمر لا يستغرق أكثر من عشرة أيام اذا بدأت الرحلة من مدينة الفيوم ، ويعثر المرء بعد مسيرة أربعة أيام على بحيرة من المياه العذبة تسمى مجرارة ، وتقع هذه البحيرة فى مكان متوسط بين الواحة ومدينة الفيوم ؛ وقد نستطيع ان نستخلص ان هذه البحيرة تقع داخل منخفض يتصل بمنخفض الواحة ؛ وبعد ثلاثة أيام نصل الى بئر من المياه المالحة تسمى هيجة ؛ وبعد ذلك بيومين نلتقى ببعض الاكواخ المساهولة . ثم يصل المرء فى النهاية ، فى اليوم التالى . الى سيوة .

وخلال هذه الرحلة ، تكفى قرية رجلين لمدة أربعة أيام ، وتكفى قرية واحدة فى اليوم لسكل حصان ، فى حين تشرب الجمال عند البحيرة ، ثم عند بئر الهيجة ، ثم سيوة ، لسكتها لا تشرب مطلقا فى المسافة التى تفصل بين محطة وأخرى .

تمت بتقدير المسافات فى هذه التفاصيل بعدد أيام السير . وقد حاولت فى بعض الأحيان ان اتبينها بطريقة أكثر تحديدا ، لكن الأمر على الدوام كان مستحيلا ، واذا سألتكم فرسخا يقطعها المرء منذ بئر الريان حتى الواحة ؟ كان العرب يردون على دائما : فرسخ واحد فقط . وحين اطلب التفسير يقولون : ان الناس فى الصحراء لا يقيسون المسافات على نحو ما يفعلون فى البلدان المزروعة ، حيث الفراسخ المعدودة هى على الدوام المسافة بين محطة وأخرى ، لسكتنا فى الصحراء نحسبها بالزمن ، ومع ذلك غلو اننى سألتهم : « اذن فكم ساعة تنقضى .. » لاجلوا : « يتوقف هذا على طول اليوم » ، ذلك انهم يقدرون المسافة الزمنية بين شروق الشمس وغروبها بالثقتى عشرة ساعة ، مهما يكن الفصل من العلم



مما يجعل المسألة التي يتطوعونها في الساعة أمرا يصعب تحديده بشكل مطلق .

تدم العشاء ، فوضع نهاية لهذه المناقشات الطريقة التي دارت بيني وبين أبي صالح وعريته وأبنائه لأكثر من ساعتين ، وبعد ذلك افترقنا ونحن راضون تماما ، كل منا عن الآخر ، مع وعد متبادل من كلينا بأن نلتقي عسا قريب . لكن هذا الوعد لم يقدر له ، للأسف ، أن يتحقق على الإطلاق ، فقد قطعت الأحداث كل مشروعتي ، ولم أر بعد ذلك أبدا هذا الشيخ الطيب الذي كنت أكن له — كشيء طيب — عاطفة قوية .

رحلنا من جديد ، الشيخ على وأنا ، من الدنيا في الساعة الواحدة . متجهين نحو مدينة اليوم باتجاه الشمال الشرقي ، ومررنا بقرية الجمافرة ، على مسيرة نصف ساعة ، تركين دفنو عن يميننا ، ويمد ريع الساعة وصلنا إلى المعلقة ثم إلى أطسا ، وهي قرية متقاربة فيها بيتنا ، وهناك اتخذنا الطريق بين أبي صير عن يميننا والمصرة من شمالنا ، واجتازنا الصوافنة ، ومررنا من جديد بالقرب من ابجيج ، فدخلنا المدينة في الساعة الثالثة والنصف بعد أن راعينا أن نسير الخيل بأقصى سرعتها ابتداء من النيسا .

لقد أمكن للجولة الاستعلامية التي تمت بها للتو أن تدعم مسكوتي حول نظام الري في اليوم ، ومع ذلك ، فلكي نشرح جيدا هذا النظام ، ولكي نوضح كيفية ارتباطه بما يفكره ، كل المؤلفين القدياء ، فقد كان من اللازم وجود معلومات دقيقة ومحددة حول علاقة كل مناطق الولاية بنظام النيل وبتربة وادي مصر : وكنت في هذا الصدد أتوئى أن اتوهم بعملية مسح ابتداء من النيل حتى قرية همواره الكبيرة ، وأن أتيسر مسقط تساطر هذه القرية ، وأن أوصل عملية المسح بعد ذلك حتى بركة ثلثون ، من جهة ، إلى بحيرة الفرق من جهة أخرى ، لكنني تلقيت بعد عدة أيام الأوامر بأن أتوجه إلى القاهرة ، ومن هناك إلى فيلاد ، للقيام بمشروع شق طريق بين الصالحية والإسكندرية ولقد حدثت رغم ذلك عراقيل مخاوية أعادت تنفيذ هذا المشروع ، مما منح لي أن أمل بان أوصل من جديد عمليتي باليوم ؛ بل لقد حصلت بالفعل على تفويض بالعودة إلى هناك ، وأوشكت على الرحيل عند حوالي منتصف شهر

مفتور ( أول مارس ١٨٠١ ) في صحبة الجنرال دماس Demas الذي عين قائدا للولايتين ( بنى سويف والفيوم ) ، لكن قدوم الانجليز ، ثم ما نلى ذلك من رحيلنا عن مصر ، قد وضع نهاية لكل اعمالنا في هذه البلاد .

### خاتمة

على الرغم من كل ذلك ، فان ما شاهدته يكتفى لائق ضوء كبير على موضوع الموضع الحقيقي لبحيرة موريس ، وشكلها ، وامتدادها ، واستعمالها ، ويتفق الناس جميعاً حول نقطة واحدة ، هي ان بحيرة موريس كان لها شكل البحر الواسع ، وانها كانت لوقت طويل ذات نفع كبير في استيعاب مياه الفيضانات بالغة الطلو ، وفي رى وادى مصر عند انخفاض مستوى النهر ، لكنهم يخطفون فقط حول وضع هذه البحيرة ، كما انهم يتشككون في كون هذه البحيرة من صنع الانسان نظرا لمسلحتها الهائلة .

وقد اتفق البعض جهده ، تبعا لهذا النص من هيرودوت . « وتوجد بحيرة طويلة تتجه من الشمال الى الجنوب » في البحث عن بحيرة موريس هذه في ترعة تتجه نفس الاتجاه ، وحيث شاموا لها ان يبلغ محيطها ٣٦٠٠ غلوة ، نفس المسافة التي يحددها هذا المؤرخ ، وحيث لا يستطيع احد ان يعثر على ترعة بهذا الطول في ولاية الفيوم ، فقد اتجهوا ببحوثهم الى ولاية بنى سويف حيث ظنوا انهم قد عثروا عليها هناك .

وعلى العكس من ذلك ، فان آخرين اوقفوا جهودهم في البحث عن بحيرة موريس على بركة تارون ، مستخدمين في ذلك الى الوصف المفصل لهذه البحيرة ، والذي نجده عند سقرايون ، « ان المساحة المائية الشهيرة باسم موريس ، انما هي بحيرة باهرة ، لها اتساع وشكل البحر ، كما ان لها شواطىء تماثل شواطىء البحار » .

اما انا من جانبى ، فلن ادخل طرفا في هذا النقاش الذى اصبح اليوم امرا لا جدوى منه ، والذي جسم بشكل علمى تام ودقيق ، كما سبق ان ذكرت ، بعد تلك الدراسة التي قام بها المسيو جومار Jomard

ميركة تارون اليوم هي بالتأكيد بحيرة مورييس الأما ، لكنها ، كذلك ليست سوى قاعها ، بمعنى كلمة قاع ، والذي بلغ عمقه أقصاه بفضل التوازن القائم بين البحر وبين المياه التي تصب فيها كل عام ، وينتج عن ذلك أنه لا ينبغي لنا أن نقارن محيطها الحالي بذلك المحيط الذي ينسبه لها هيودوت ، فقد كانت البحيرة في هذه الفترة ، وكذلك في عصر سقرابون ، تغطي كلية أطلهم أرسينويت ، ويقرر هذا الجغرافي ذلك بنص العبارة ، وبأنها كانت تبدأ عند الانحدار الذي وجدته أنا - محسوبا عند قرية بيهو ثم تمضي - البحيرة - لتلامس الجبل من الجهة الشمالية ، وقد تكوننا من صفة ذلك بفعل الارتفاع الكبير لقرية سنورس ، التي كانت تقع فوق جزيرة ، وبسبب طبقات الأرض القليلة للزراعة والتي خلفتها الترسبات فوق كل الامتداد الواقع الى شمسال البحيرة ، وتؤكدنا من ذلك أيضا بفصل الخطوط الأتقية التي يرى المرء آثارها فوق طبقات الجبل ، وبارتفاعه كله ، ويرى المرء وسط هضرا الاتساع ، الجزر التي كان ينهض فوقها الهرمان اللذان تحدثت عنهما هيودوت .

كانت البحيرة تمتد بطول الجبل ، الى الغرب ، وحتى مسافة كبيرة للغاية ، ثم تعود بعد ذلك لتتجه نحو الجنوب ثم تبني لتبلغ ذروتها عند النزلة حيث كانت تلامس الجبل الفاصل بين الفيوم ومصر .

وإذا أخذنا في الاعتبار الآن ، الامتداد الواسع لهذا التكوين فقد لا نتردد في تأكيد مسافة الـ ٣٦٠٠ غلوة التي يوردها هيودوت أو في تأكيد مقياس مقارب على الأقل ، حيث لا ينبغي علينا أن ننظر للأطوال التي يغطيها هذا المؤرخ باعتبارها بقيقة من الناحية الرياضية ، بل لقد اتفدنا هو نفسه بأنه لا يستطيع أن يؤكد كابر صحيح ، أمرا لم يره ، ومن جانب آخر فإن علينا ألا نلتزم بكل ما ينسب له هو عن الآخرين ، بل أن نقتس في صدق تفاصيل الطريقة التي تؤكد أنها استعملت لرفع ركبتات وانتفاض الأراضي التابعة للبحيرة ، لأمر يجعلنا نلزم جانب التحفظ ، وأن نضع في اعتبارنا أنه قد حصل على كل ما يقول به عن طريق الكهنة المصريين . أما سقرابون ، الذي رأى أكبر شجر من الدقة والذي لم يكن يدون إلا ما هو بالغ الثقة من صحته ، في مؤلفه الجغرافي البحث ، فقد لزم الصمت حول طول هذا المحيط الذي لم يستطع أن يراه ، ولا أن يقدره بدقة ،

ولقد اكتفى بان قال انها ( اى البحيرة ) تستحوذ على الاعجاب بحجمها ، حتى انها تشبه البحر .

اما الجزء الذى ربما تكون قد صنعته يد الإنسان ، فهو الترعـة التى تحمل اليوم اسم بحر بلا ماء الذى يربط ما بين بحر يوسف وبركة قارون ، وهو الذى كان يقصده هيرودوت حين قال « انها تمتد من الجنوب الى الشمال » (٧) .

ولقد وجدت ان اللابرنث يقع بالضبط فى نفس المكان الذى سبق لى ان توصلت اليه ، اى على بعد مائة غلوة من ارسينويه — وهى نفس المسألة التى حدها سترابون حينما قال : « وعلى بعد مائة غلوة توجد بلدة اسمها ارسينويه » — وعند منشأ الترعـة ، أعلى البحيرة بقليل ، او كما يقول هيرودوت « على بعد ضئيل من بحيرة موريـس » . واخيرا ، فان الموروث الشعبى ، الذى شاء ان تكون ولاية الفهوم ، فيها مضى ، خليجا تكونه مياه النيل ، ثم جف واستزوع ، واصبح يستخدم فى رى الأجزاء الواطنة من ارض مصر بفضل منالية امير عظيم . . كل ذلك يبرهن ان ليس ثمة مطلقا اى تضافى بين القدماء . وانهم جميعا قد وصفوا الامكن كما نراها اليوم ، او على الاقل كما لازلنا نعرف فيها على حالتها القديمة . ومع ذلك ، فقد يقال : كيف امكن لبحيرة موريـس ان تستخدم كوعاء يحتوى مياه الفيضان ، وخزان اثناء انخفاض مياه النيل ؟ ولجيب بانه قد يكون من العسير ، وربما من المستحيل ان نقدم تـهـريـرا او تأصيلا لهذه الفكرة اذا ظللنا نحرم على الا نرى مدخل ومخرج المياه الا عن طريق نفس المنفذ ، لكن سترابون يتحدث بشكل موضوعى عن وجود منطقتين : تعزل المياه من احدهما وتخرج عن طريق الأخرى .

وعلىنا ان نتذكر ان المياه تسقط فى الفيوم عن طريق هويس اقيم تحت قناطر هواره الكبيرة ؛ وان سرير الترعـة التى تتلقى هذه المياه جـرى صرف ، ولهذا فان ارتفاعها ثابت لا يتغير . وفى فترة المد الأسمى لبحيرة موريـس ، اى تلك الفترة التى امتدت جفاف الخليج . كان مستوى

---

(٧) انظر دراسة موجزة حول بحيرة موريـس ، المصور القديمة ، المجلد السادس .

المياه أدنى بوضوح من مستوى أرض الإقليم . ومن جهة أخرى ، فقد  
شاهدنا كيف أن التربة تتحكم في سطح الأرض لأنها تقع على خط الذروة  
الذى يشكله التباعد بين منحدرين ، اذن فقد كانت المياه لا تستطيع العودة  
من جديد الى أرض مصر عن طريق فتحة حوارة السكينة ؛ لهذه لم  
تستخدم مطلقا كما يقول الأثر ، الا كخزان لتخليص مصر العليا من الكمية  
الكبيرة للغاية من المياه التى تضر بالأرض .

وقد رأينا فيما سبق ان الجزء الشمالى من البحيرة يشكل فتحة  
لواذى النيل تصل الى الجيزة ، فلابد ان هذا الوادى قد شكل  
بالضرورة الفتحة الثانية كما كان يقدم للمياه ممرا في أثناء انخفاض النيل،  
لكى تذهب وتروى اراضى مصر السفلى ، التى تعد اراضيها اثنى بكثير من  
أرض مصر العليا .

وبهذا تبين بشكل طبيعى تلك الطريقة التى كانت المياه تدخل بها  
الى بحيرة مورييس ، والتى كانت تخرج بها ، وكانت المياه بعد أن تتخرج،  
تتصل بفرع النيل مكونة جزيرة هرتل Heracleotique من ناحية الهضبة  
الليبية ، وعن طريق بحر يوسف ، تروى أولا إقليم ارسينوييت ، ثم  
تضى لتصب في البحيرة الواسعة التى كانت تغطى هذا الإقليم عن طريق  
التربة التى تتجه من الجنوب الى الشمال مائة أسفل اللابرنث . كانت  
هذه البحيرة تحتجز مياه الفيضانات الكبرى ؛ اما في أثناء انخفاض  
النهر ، فكانت المياه تتجه بالمثل جنوبا وشمالا نحو مقيس عن طريق  
ترعة أخرى ، لتروى اراضى مصر السفلى ، التى يسمعون انخفاض سطحها  
بان تتجه المياه اليها .

تلك هى نتائج اعمالى التى حصلت عليها من البحث من الأماكن  
اثناء الوقت الضئيل الذى قضيته في ولاية الفيوم ، واثنى لشديد الفقة  
بان العمليات التى كتبت اثنى القيام بها بعد ذلك كان بمقدورها ان  
تحدثى ببراهين رياضية للرأى الذى اتخذه ، واثنى لأسف اننى لم استطع  
ان اتمها ، واثنى أن يحظى أحد الأوربيين ذات يوم بثقة اكبر من حكام  
وسكان هذه البلاد ، عله يستطيع القيام بها بنجاح .

وحيث أن التفصيل التي وعدت بإيرادها نرى ثلثها هذا الوصف من  
 غرب الفيوم ونرى سوف ، يمكن أن تصبح ، نرى حالة تحقق الفراض  
 كهذا ، ذات نفع كبير ، فقد أخذت على عاتقي — كواجب — أن أقدمها  
 حتى أحقق كافة ما كنت أتمنى من معرفة تدور حول هذه المناطق الهامة .

قائمة بالقبائل العربية التي تقطن ولاية الفيوم

عدد القبائل	عدد الرجال	عدد القبائل	القبائل	أسماء القبائل	أسماء القبائل	أسماء القبائل
أ	ب	ج	د	هـ	و	ز
١٠٠٠	١٦٥	١٠٠	٧٠	شرق التوتون	كرامق	كوم الوزاى
١٠٠٠	١٦٥	٧٠	٤٠	أبو جندير	سالم جوربة	المناسى
١٠٠٠	١٤٠	١٠٠	٦٠	سنورس	حوت، الحاج محمد	المعريين
٤٠٠	٥٥	٧٠	٣٠	دفتو	محمد عبد الله	الروملة
١٠٠٠	١٥٠	١٥٠	٧٠	التوتون	رحيم	كامل المحودات
				هلية	تقى الدين حسين	
١٥٠٠	٢٢٠	٢٠٠	١٢٠	المنوة	سليمان سيده	حواطة
				المحصرة	داود	
				المصلوب	نصر يوسف	
				سرسنا	سيد ديه	
				جيلة	جندودة	
١٠٠٠	١٧٠	٢٠٠	١٠٠	مطرطارس	أبو القاسم	الفرجان
				بامى - آمون	جبل عبد الله	
				ترسا	أبو زيد عبد الله	
				الزاوى	مبارك	
١٥٠	٢٠	٢٠	١٥	الروضة	.....	
٧٠٥٠	١٠٨٥	٩١٠	٥٠٥	المجموع		

## تائمة بالقبائل العربية التي تقطن ولاية بنى سويف

عدد الرجال	عدد النساء	عدد الأطفال	عدد الحيوانات	القرى والمناطق التي يقيمون بها	أسماء شيوخ القبائل	أسماء القبائل	
						الاسم العام	الاسم الخاص
١٠٠	٢٠	٥٠٠	١٠٠٠	{ أبو صير المواونة	عبد الأمير سالم أبو ديار	الضعفاء	{ أولاد حيدة
١٠٠	٣٠	٦٠٠	١٠٥٠	{ قن للعروس أفوة ميدوم	متيرد محمد جريب بليدى		
٦٢	١٥	١٠٠	٣٠٠	الحمام	موسى عيسى عباس عمر الحياضى	السيدات	{ نولات سيد
١٨	١٥	٦٠	١٥٠	الحافر	أبو بكر		
٤٢	٠٠٠	٦٠	١٥٠	الميمون	يوسف أبو ذيل عبد ميط	القاضى	{
١٣٠	٣٠	٤٠٠	٨٠٠	صفط ميدوم	ابراهيم زعيطه لطفى		
٤٥٢	١١٠	١٧٢٠	٣٠٩٠	المجموع			

## (تابع) قائمة بالقبائل العربية التي تقطن ولاية بنى سويف

عدد		عدد الرجال		القرى والمناطق التي يقعون بها	أسماء شيوخ القبائل	أسماء القبائل	
أ	ب	ج	د			الاسم العام	الاسم الخاص
				دنديل البرج الدوالة دلاص السيى	يوسف حاط عواد عبد القادر عبد الله صروف عبد الرحمن	السعدى	
٤٠٠	٨٧	٠٠٠	١٠٢	بنى على أبو صير منسط	على الندوك رايد		السعدى
				قن العروس كوم إدريجة ياها	حسن على الصويلى على رستن أحمد منصور	القررايات	
٣٠٠	٥٠	١٥	٥٠	الميمون منهرا	وسط جيومع جيرة		كسادوة
٥٠٠	٢٠٠	١٠	٦٠	أهناشيا المدينة الزراى	يوسف أبو صوين عبد ربه	الخاليف	يائين
١٠٠	٤٠	٨	١٧	منهر منشية الحاج	اسماعيل جياصى محمد ماعونى		
١٠٠	٤٠	٥	٣٥		محمد عبد المجيد كسوم عمر	الكلول كمنى	
٥٠٠	٢٠٠	٤٠	١٢٠	مياقة	محمد صقيرة موكر		
٤٠٠	١٠٠	١٢	٦٠	نسا الدويك	يريط على ابراهيم عبد مختار	المسلم	
٥٠٠	١٠٠	—	٤٠	مزودة			
٢٠٠	٦٠	—	٣٥	صفط رامشين	—	السنانجة	
١٠٠	٦٠	—	٣٠	سمسطا	سليمان أبو ناى		أبريه
٢٧٠٠	٨٥٠	٩٠	٤٤٧	المجموع			



## (تابع) قائمة بالقبائل العربية التي تقطن ولاية بني سويف

عدد		عدد الرجال		اللقبى والمناطق التي يقيمون بها	أسماء شيوخ القبائل	أسماء القبائل	
ع	ع	ع	ع			الاسم العام	الاسم الخاص
٢٠٠	٥٠	٢٠٠	٨٠	زاوية الوالى أبو شربان الغوبك	أحمد أبو دياب محمود جويوم حسن أخيط	المسارجة	المسارجة
١٠٠	٢٠	٤٠	٣٠	—	أحمد حمزة	فرجان	المحاريث
١٥٠	١٠٠	١٠٠	٦٠	طوارة	سفع عمر	أولاد حينة	
٥٠٠	٣٠	٦٠	٢٠	شرشة	محمد	الحور	
٢٥٠	٢٠٠	٣٠	١٠٠	العزبة	زيد	الحزاي	
٨٠	٣٠	٢٥	٣٠	—	أزيصة	أولاد جيانر	
٦٠	١٥	٢٠	٣٠	جرازة	عبد الله	زعرنة	
٢٠٠	٤٠	٨٠	٢٥	دافوف	إبراهيم يوسف حسن تركي	الحمايدة	المحاريث
١٠٠	٣٠	٦٠	٣٠	كوم والى	منصور أحمد سليمان خضري	المرج	
١٥٠	٢٠	٣٠	١٥	مربوق	عمر شاكر عبد الله حسن	الاسمار	
٦٠٠	٤٠	٦٠	٣٠	برماشة صفاية	ابن حسن أبو موسى سليمان أبو سيح	الدعامسة	
١٠٠	٣٠	٥٠	٢٠	كوم السعل	حسن	الحدود	
٦٠٠	٦٠	١٠٠	٣٠	الشيخ مسعود	الحاج بركة	تينايط	
٦٤٩٠	٦٢٥	٦٥٥	٤٢٠	المجموع			



الدراسة السادسة :

## العرب والعربان في مصر الوسطى ١٠٠٠ م

● العنوان الأصلي للدراسة هو :

ملاحظات حول العرب في مصر الوسطى



مكنتى الرحلات التى قمت بها ، وكذلك تلك الفترة التى قضيتها فى ولايت مصر الوسطى (١) ، من ملاحظة طباع وعادات العربان ودراسة النظام الداخلى للقبائل ، سواء منها تلك التى اتبعت على احترام الزراعة منذ وقت طويل أو فقط منذ اجيال عدة ، وسواء تلك التى لاتزرع الأرض او حتى تستزرعها ، والتى لاتعمل ، عندما لاتكون فى حالة حرب ، الا فى قيادة القوافل ورعى الماشية والجمال والماعز . وينطبق هذا التقسيم للعربان الى طبقتين كبيرتين على كل اولئك الذين يطنون مصر منهم أو يترددون عليها . وسوف أستخدم هذا التقسيم فى مذكرتى هذه للتعريف بالقبائل التى قمت بزيارتها ، واننى بهذه المناسبة لأحذر من ان هذه الملاحظات ، على الرغم من كونها ذات طابع عام ، انما هى بالصفة الخصوصية بالاتقليم التى تتحدث عنها .

ولست أدمى اننى اتقدم هنا لوحة كاملة لتقاليد العربان ، اذ يقتصر عملى على ان اتقدم تقريراً بالملاحظات التى أضين صحتها اذ قمت بها ودونتها فى نفس أماكنها حيث توفر لى الوقت والأمن الكافيان ، اكدهما

---

(١) تتكون مصر الوسطى من ولايات الجيزة ، والبهنسا ، والنزوم ، وأطفيح ، والأشموين ، وقد أخذت الثانية والأخيرة أثناء الإدارة الفرنسية اسماً : بنى سويف ، والمنيا ، على اسم مدينتين رئيسيتين كان يفترقهما الفيضان ، بينما كانت الأماكن الداخلية فى منأى عن هذا الفيضان لوجودها فى الداخل بعيداً عن مجرى النيل . ويتفق موقع هذه الولايات الخمس مع موقع إقليم هبتانوميد Heptanomide الذى كان يضم مدن : ممفيس Memphis اكسترينشيس Oxyrynchus وهراكليوبوليس Heracleopolis وأفروديتوبوليس Aphroditopolis وإنينيوى Antinoé وكينوبوليس Cynopolis وهرموبوليس الكبرى Hermopolis magna وفى أثناء السنوات ١٧٩٩ ، ١٨٠٠ ، ١٨٠١ ، عبرت هذه البلاد وجمعت هذه المذكرات التى تنطبق أكثر ما تنطبق وبوجه خاص على ولايتى أطفيح والأشموين .  
ومن الضروري أن نتذكر ذلك ، للاحاطة بالظروف التى كتبت فيها هذه المذكرة .

اننى كنت مصحوبا فى جولتى على الدوام بفارسان من نفس هذه القبائل،  
 او اننى كنت اقيم بينهم . وسوف اولى اهتمامى بشكل اساسى بالعربان  
 فى علاقاتهم المتعقدة مع البلاد ، وعلى كلك ، فان هذه الملاحظات — مع  
 انها قد تبدو للوهلة الاولى منعزلة — سوف تساهم فى تقديم ملامح  
 لهذه الامة الفريدة ، وفى خدمة تاريخها .

وحيث يمارس العرب المزارعون فى مصر نفوذا كبيرا ، وحيث ان  
 طباعهم وعاداتهم ليست معروفة لنا جيدا ، فسأبدأ بما يوضح أحوالهم،  
 ثم أعرض بعد ذلك ملاحظاتي من العرب البدو الرحل وهم فى وقت معا  
 محاربون ورماة . وينبغى أن تنقسم الطبقة الاولى الى طبقتين أخريين :  
 الاولى وهى التى استقرت فى مصر منذ مدة طويلة وهى من اصل آسيوى،  
 ويزرع هؤلاء الأرض بأنفسهم ، ويسكنون المدن التى تقع فى غالب الأحيان  
 على شواطئ النيل ، أما الأخرى فلم تعمل بالزراعة الا منذ فترة قريبة  
 فتتكون بصفة أساسية من عرب تنموا من شمال افريقيا ، وهؤلاء الآخرون  
 يشغلون جزءا من ارض الشاطئ الأيسر « الغربى » وهم فى غالبيتهم  
 يقبضون تحت الخيام ويستقرون أرضهم بواسطة الفلاحين اى أبناء مصر،  
 ولهؤلاء اولئك مقر ثابت ويخضعون للأمرائب .

## الفصل الأول

### المصرب المزارعون

#### ١ - القبائل التي استقرت في مصر منذ زمن بعيد :

هناك عائلات عربية بدأت الزراعة في مصر منذ دخول الاسلام ، وهناك أخرى أتت على احترام الزراعة فقط منذ دخول الاتراك ، وقد زاد تعداد هذه العائلات بشكل كبير . ولقد طور هؤلاء الزراعة والصناعات الزراعية بأكثر بكثير . مما صنع الفلاحون ، الا تدار ارضهم بعناية اكبر ، وهي كذلك افضل ربا ، كما ان قراهم أكثر ازدهارا بالسكان وبشكل عام فانه يكاد يعود الى العرب فضل زراعة وصناعة السكر في مصر الوسطى . وحيث أنهم يكادون يسكنون جميعا شاطئ النيل الايمن « الشرقى » وهو ضيق الاتساع بعض الشيء حيث يحق به الجبل ، فانهم لم يدعوا نقطة واحدة لم يزرعوها بدءا من مجرى النيل وانتهاء بسفح الصخور . ولهذا نجد لهذه القرى ملحاحا خاصا يميزها بسهولة على القرى الأخرى ، ويملك السكان الخيل والجمال بأعداد كبيرة ، كما كان يفعل آبائهم من قبل ان يقبلوا القيام بأعمال الزراعة وتبيل املاكهم بالتالى لراع وغيرة ، ومع ذلك فعند اول اشارة للحرب يرى المرء هؤلاء المزارعين وقد تحولوا على الفور الى فرسان يتسلحون بالحراب شان البدو ، بل ويمسكرون في السهول الى جوار مساكنهم الخاصة .

ومن السهل ان نميز هؤلاء عن الفلاحين عن طريق تقاطيع وجهم وطباعهم وكل خصائصهم ، فلقد استمر الدم العربى يتدفق في عروقهم دون اى اختلاط حتى انك لا تستطيع ان تميز ملامحهم عن ملامح المصريين

المحاربين ، فما أن يمتطوا الخيول ويتلفعوا بالبرنس (٢) حتى تعمد كل وسيلة للتمرف عليهم . فقد احتفظوا بخطوط الوجه ، وبخاصة بالمينين الصغيرتين اللامعتين اللتين تميزان هذا الجنس ، وإن كانوا قد احتفظوا لمق كل شيء بروح الجشع والضراوة والشجار والمبالغة .

وجيرة كهذه لا يمكن أن تكون بالنسبة للفلاحين سوى كارثة ، فهم يجورون باستمرار على أراضي الآخرين ، مرة تحت الادعاء بأن النيل قد أكل جزءا من أراضيهم وإن عليهم أن يستعوضوا عنها من أراضي الشط الآخر من النهر ، ومرة أخرى بادعاء حقوق تديمة مزعومة قد تعود حسب أقوالهم إلى عشرة أجيال ، وأخيرا فأنهم عندما لا يجدون ذريعة يمكن أن تسعهم في جورهم هذا ، فأنهم يركبون خيولهم ويستولون بقوة السلاح على الأراضي التي تناسبهم . وليس ثمة مثال واحد على أن محاولة من هذه المحاولات لم تلق نجاحا ، وإذا حدث أن استغفرت بعض القرى أنبائها لمقاومتهم بالقوة فأنها تدفع ثمن ذلك باهظا ، ويجد العربيان أفضل دعم لادعاءاتهم في قوة سلاحهم وكثرة تعدادهم عن الآخرين .. وهكذا يعيش الناس في مجاورتهم في خوف لا ينقطع وعلى مر الأيام يتناقص سكان القرى المحيطة بهم حتى تهجر تماما .

وتبنى الأخصاص التي يسكنونها بشكل رديء . وإذا ما أردنا الدقة فأننا نقول بأن هذه ليست في غالب الأحيان سوى أكواخ ، في حين يجد المرء في قرى الفلاحين على الدوام بيوتا مناسبة وجيدة البناء (٣) . ولا يرى في قرى العربيان بيوت للممالك ؛ فهؤلاء لا يذهبون مطلقا للقاتلة بين العرب وهم لا يحصلون الضرائب من هناك إلا بهشقة بالغة مع ترك تقديرها على الدوام لادعاءات مشايخ هذه القرى ، لذلك يمكن القول بثقة بأن الممالك لم يكونوا يحصلون على ضريبة عن كل مصر ، ولنفس هذه

---

(٢) رداء أبيض اللون ، مزود بغطاء للرأس ، ومصنوع من صوف تنفوت درجة نعومته يغطي به العربيان كل جسمهم فيما عدا الوجه والأطراف .

(٣) ومع ذلك فهناك قرى عربية مثل بنن حسن وبرشة وقرى أخرى مبنية على نحو طيب .



الأسباب لاقى الفرنسيون كبير غناء فى تحصيل الضريبة من كثير من هذه القرى ، التى لم تكن تدفع ضرائب على الاطلاق لآى شخص .

ويكاد يكون سكان كل قرى الشط الايمن للنيل فى ولايات اطنيف و الشموين ومنفلوط من العرب القدامى الذين ينتمون الى قبيلة تسمى المعطيات : وكثير من هؤلاء لم ينخرطوا فى الزراعة الا منذ عهد على بك ، كما انهم لم يستقروا فى وادي الطير وطهينة الا منذ عشر سنوات . وتستمد القرى المعروفة باسم المملنة اسمها من اسم جدها ، وهو عربى تميم يسمى عمران ، قدم من بلاد الحجاز الى مصر ، فغرب تلك المدينة الكبيرة الواقعة بين الحواطة والقل وبنى من حولها بعض المساكن . ولقد تصارع ابنائه لسنوات طويلة على امتلاك الاراضى الواقعة على شاطئى النهر ، ولا يزال احفاد هؤلاء حتى اليوم متنازعين حول الامر نفسه . وقد شاهدت بنفسى شجارا قام بين سكان بنى عمران وسكان نزلة سعيد بسبب اختلاف احدي السيدات على يد واحد من افراد احد الفريقين : وقد قتل مذبح هذا الشجار ، ووضع موته حدا للمعركة ، فقليل من الدم المسفوح يهدى الى المداة كل هذه الحروب العائلية لفترة من الزمن على الأمل .

وليس لثة قرية عربية الا وبها عديد من المشايخ ، ويعيش هؤلاء الشيوخ عادة فى شقاق فيما بينهم ، وبذلك تبدو قراهم منقسمة الى اجزاء عديدة متميزة وسرمان ما تؤدى العداوة التى تسود بينهم الى الاقتتال ، وينساق الى خوض هذه المصارك الأهل والأصفاء ، ويحدث ان يموت احدهم بعد وقت يطول أو يقصر ، وتضطر أسرة القتيل الى الفرار مع جزء كبير من السكان ، ولكن الى أين وقد انتزعت عنهم كل اراضيهم وممتلكاتهم وعقاراتهم ؟ لكن لا تظن بهم الحيرة ، فملوف يتجهون الى مسافة فرسخين من ارض المعركة ، ويقفون فوق اراضى الفلاحين اما باستخدام القوة الصريحة عندما يكون المهزومون بعد اكثر قوة مما يلزم لصددهم من هذه الاراضى ، وإما عن طريق المخيلة عندما يمدون بهزيمة خصومهم وتعويض الفلاحين عن اراضيهم ، بتلك التى سيستولون عليها . وهكذا رأينا مصر ، عاما بعد عام ، تفص بهذه القرى الصغيرة التى ليست سوى اكداس من الأكواخ ليس بها نخلة واحدة ، وتحمل كل منها

اسم الشيخ العربي الذى أسسها ، ومن اللافت للنظر أنها تسمى نزلة أو نزل وهي كلمة تعنى النزول . أنها اذن نوع من المستوطنات تدعى بنشأتها ككثير غيرها الى الغزو واستخدام العنف ، ويمكن أن نذكر فى هذا الصدد اسماء نزل أبو جاتوب فى ولاية أشمونين أو المنيا ونزل المطاهرة فى اطنيف ونزل بنى حسن (٤) وثلاثين نزلا آخر ، وهكذا تستمر مشاحنات القرى العربية خلال الأجيال حيث هناك ماينبئى الحصول عليه ، سواء كان ذلك لصالح الحزب المنتصر ، أو كان ذلك لصالح الحزب المهزوم .

ومعظم الجزر ذات الأهمية مملوكة للعرب . ولكن اذا ماعدنا الى اصل هذه الملكية فسنجدها قد قامت على الاستبداد والظلم ، اى انه تحت الادعاء بأن النهر قد اكل اراضيهم وأن من حقهم الحصول على شواطئ الجزر المقابلة متذرعين بذلك المثل المصرى القائل بأن النهر يرد من جهة ما أخذه من جهة أخرى ، ثم بعد ذلك يتوغلون باطراد فى داخل هذه الجزر ثم ينتهى بهم الامر بطرد سكانها القدامى ، واعرف على ذلك أمثلة عديدة، ولكن أكثرها أهمية بلا جدال هو مثال جزيرة الزعفرانة الكبرى التى كانت ملكا لقرية منشبة دعبس (٥) والتى انتزعها سكان قرية الشيخ تى وسكان قرية بنى حسن ، وهما قريتان عربيتان تتعان فى مواجهتها ، وانتزعوها حديثا من فلاحها دون مراعاة لأبسط قواعد الشككية ، وحيث كان الأمر سوف يستغرق كثيرا فى تبين الحدود القدية التى نماها الفيضان وتنظم حقوق كل طرف بالتالى ، فقد سلك العربان الطريق الأقصر وهو طريق العنف ، فقطعوا النخل المزروع بالجزيرة وخربوا بيوت القرية وقتلوا شيخ المنشية وجرحوا ابنه ومعه كثير من الفلاحين ؛ ويعيش فيها العرب اليوم ملاكا آمنين بينما هى تمد واحدة من أجمل جزر النهر .

وتضع القرى العربية أيضا يدها على الأراضى التى يتاخم الشاطئ الأيسر للنهر ، وقد حصلت على هذه الأراضى بنفس الطريقة التى حصلت

(٤) عقب المارك التى نشبت نجاة فى بنى حسن : والنى جعلت اهاليها يتركونها منذ خمسين عاما ، كون الأهالى اثنين من هذه النزل أو القرى التابعة تحت قيادة أبو عمر . وقد انفرط عقد هذين النزلين من تلقاء نفسيهما اذ اتجه سكانهما الى الشط الأيسر ليكونوا هناك قرية تسمى كرم أبو عمر .

(٥) تقع على بعد حوالى أربعة فراسخ الى الجنوب من مدينة المنيا .

بها على أراضي الجزر بلا جدال ، وتمتد هذه الملكيات الى ربيع الفرنسيح داخل الأرض ، وهناك فوق هذه الأراضي الرملية ، التي يفرتها النيل ثم ينحصر عنها على التوالي يزرع العرب التبغ والبطيخ وصبغة النيلة كما يزرعون قصب السكر ، كل ذلك بقصد تدعيم حقوقهم في هذه الأراضي . هكذا يرى المرء اطراد زيادة ممتلكاتهم في مصر ، ولست أشك في انهم سوف يستولون بطريقة غير محسوسة على اكبر مساحة من الأرض اذا لم تضع الحكومة (٦) حدا لغزواتهم ، واذا لم تمن قوائين محددة بالنسبة لحدود الأراضي ، وفي الواقع فانتسنا نرى ان هذا السلوك الاستبدادي للعرب المزارعين سيؤدي بهم ان يصبحوا سادة لمجرى النيل ، أي لتلك القطعة الأكثر أهمية من أرض مصر بالنسبة للتجارة ولشئون الدفاع عن البلاد ، بل لقد أصبحوا كذلك بالفعل مع بعض التحفظ حيث يوجد في تراهم اكبر عدد من النوتية « المراكبية » والعسد الأكبر من الصنادل والقوارب من كل نوع ، ومع ذلك فنحن لم نر الا في عدد قليل من هذه القرى قوارب مبنية ، وقد يكون علينا ان نضيف بهذا الصدد بان بقية انواع القوارب التي لديهم نأتيهم من طريق السلب .

وفي بعض الأحيان يستولى سكان الشاطئ الايمن على قطعة من الأرض تقع على الشاطئ الآخر ويزرعونها دون ان تكون لهم هناك ترقى، وفي أحيان أخرى يبيتون هناك لأنفسهم دون ان يكون ثمة أرض لهم، وفي هذه الأحوال يزرعون أراضي القرى المجاورة ، لكنهم على الدوام لا يحصلون لأنفسهم على هذه المساكن الا باستخدام العنف ، ويحدث هذا عندما تجرد أسرة أو أكثر من أسرة من أرضه وفي هذه الحالة يعبر هؤلاء النهر بلا تردد ويبيتون لأنفسهم في عجلة اكلواخا تتحول شيئاً فشيئاً الى ترقى ، ويستأجرون من جيرانهم بالقوة بعض أراضيهم مع احتفاظهم بحق املاء الشروط .. وهكذا .. وفي الوقت الذي يدفع فيه الناس في بلاد أخرى ثمن انمايتهم ، فان العرب هنا يبتزون أولئك الذين يستضيفونهم .

---

(٦) أقصد بكلمة حكومة هنا حكام مصر الذين يهيئونها حسب أنظمة أو مؤسسات البلاد كما سلك الفرنسيون أثناء حملتهم ، وكما سلك المالكين أنفسهم ، ويستطيع القاري الذي تد يرغب في الحصول على معلومات خاصة حول حكومة مصر ان يعود الى الدراسات الخاصة بهذه المادة .

وقد قابلت من شيوخ القرى العربية بعض الرجال لا يشاركون قومهم هذا الليل نحو السرقة والعتف ، على سبيل المثال فى قرى وادى الطير وزاوية الميتين بالقرب من المنيا ونزلة نوير وأمكن أخرى . وقد قدمت بعض هذه القرى خدمات للجيش الفرنسى حيث يمتلك سكانها وسائل أوفر مما يملك الفلاحون سواء فى الخيول والجمال أو سواء فى العلف ، وفى نفس الوقت فيالعماد الآخرين واصرارهم على رفض اداء الضريبة ، وكم قتل هؤلاء من جنودنا ؟

وحيث اننا لا نعرف جيدا البكيفية التى تغيرت بها ملكية اراضى مصر عند دخول العرب ، فقد يجوز لنا أن نستنتج ان الجزء الأكبر من الجيش العربى بعد الاحتلال الكامل للبلاد قد عاد الى آسيا وان جزءا منه بعد أن سرح — قد انتشر كثير من أفرادها فى مصر وعاشوا على السلب والسطو ، ولأن هؤلاء كانوا اضعف من أن يسيطروا على الوادى الكبير فقد استقر بهم المقام على الشاطئ الأيمن حيث تحدد المخور فى غالب الأحيان بالنهر ، وهناك أخذوا يتقدمون خطوة بعد خطوة من الرمال حتى بلغوا الأراضى المزروعة ، وبعد ذلك أصبحوا مزارعين ، ثم بشكل غير محسوس ، ملاكاً لقرى هذا الشاطئ بعد أن طردوا سكانها بفعل الخوف والرهبة من العدو والسلاح ،

قلت ان هؤلاء المزارعين « العرب » هم الأحسن تسليحاً . وفى الواقع فإن قراهم قهبيء ومرة كبيرة فى البنادق والطبقات والمسدسات والسيف . الخ . . . لكن مهارتهم كبيرة فى اخفائها ، وهناك سلاح نادرًا مايتروكونه ، وهو مئنتص سلاحهم — اتصد بذلك تلك الحربة القصيرة ، يضعها على الدوام الى جانبهم الفلاحون البسطاء بل وأكثرهم فقرا ، وهم الذين يعملون فى رى الأراضى ، وعلينا يتجمع هؤلاء بأعداد كبيرة للقيام بعملهم ، الأمر الذى يحدث غالبا فى الشتاء ، يرى المرء على رأس الترع غابات من الحراب المرشوقة بالأرض ولا يمكن تصور أن هذا السلوك يقصد من ورائه الذود عن أهلهم ، إذ أن هؤلاء لا يكدون يملكون شيئاً ، بل ولا يمكن تصور أن ذلك يتم بقصد حماية ملابسهم لأنهم يذهبون الى عملهم شبه عمالة ؛ لكن عادة أن تكون ملابسها هى عادة مطبوعة عند العرب .

وعندما تكون لك مصالح ينبغي أن تسويها معهم ، سواء كان ذلك مع كبارهم أو مع أبناء الطبقات الدنيا منهم فستلمس في استقبالهم في البداية شيئا من الفتور والاستخفاف والصمت المتصنع — أما إذا حدث أن ابتسموا لك ، فلابد أنهم بذلك يقصدون خداعك ، فالكذب عادة متصلة فيهم ، وبخاصة في علاقتهم مع الفلاحين والأوربيين ، ومهما يكن كذبهم هذا مطبوعا ، فانهم لا يمارسونه طواعية ، وبهذا القدر من الطبيعية والنجاح ، إلا إذا كانوا بصدد التعامل مع هؤلاء الآخرين . ويتحدث الفلاس كثيرا عن فضائل العرب ، وعن صراحتهم ، وعن العقيدة الدينية التي تدعم كلمتهم ، وعن ميلهم إلى أكرام الضيف . . لكن أيا يكن الأمر من هذه المزايا ، فإن عليك أن تبحث عنها في مكان آخر ، وليس عند هؤلاء العرب الذين يقطنون مصر ، فهذه الفضائل ، عند هؤلاء لا تكون مطلقا على حساب مصالحهم الخاصة ؛ فالزيف والرياء والكذب ، هي أسلحتهم المعتادة ، وليس ثمة ما يفوق بالذم من تصنع وعنف ، حين يريدون تنفيذ مآربهم ، وبصفة خاصة عندما يتعاملون مع آخرين ، من غير العرب .

ووقت تصنيع السكر ، يتصرف المرء من بعيد على القرى التي تحدثت منها من طريق صوت الطواحين ورائحة ثفل القصب وفخان المداخن ، أما عن قرب فأتاك تستطيع تمييزها على الدوام وفي كل الفصول . . وكأمر مؤكد ، عن طريق ملاحح السكان وتقلطيعهم . ففي الواقع ، فأتاك ستجد في أول رجل تقابله هذه العيون اليقظة التي ليست إلا للعرب . وعندما يبرز في قراهم رجال لا يعرفونهم فإن تماسكهم يضطرب كما يحدث للصمص أخذوا على غرة ، ومع ذلك فإن حيلتهم تبلغ درجة لا يمكن تصديقها ، وعندما يبلغهم نسا اعتزام بعض الفرق « العسكرية » المرور بقريتهم فانهم يخشون دوابهم وخبولهم أو يرسلون بها إلى الصحراء ، وعندما تصل الفرق بينهم ، يحتفظون بهدوئهم ويظلون بسلا حراك ، فيما عدا نائمات ملاصحة ، وتلك النظرات الكثيرة والحزينة التي تغلف بها أعينهم ، ولكن ينبغي أن يكون مفهوما أن هذا السلوك يحدث فقط من أبناء الطبقات الدنيا وأن كنت قد شاهدت شيوخا يمكن أن ينطبق هذا الوصف عليهم . وختمنا ، فلقنا إذا نحينا جانبنا هذا المظهر الخارجي وهذا الاستقبال

المعيب ، فلابد ان نتفق على اننا كنا فى معظم الأحيان نجد فى هذه القرى مثونة أكثر بل وتعاونوا الفضل مما كنا نجد فى قرى الفلاحين ، وان كان الامر فى ذلك يعود الى اسباب كثيرة منها أنه يوجد فى القرية العربية مثاليخ عديدون لابد ان يكون من بينهم ولو واحد على الأقل ، يتقدم الصفوف ويتمهد بتقديم المثونة المطلوبة شريطة ان يحصل على ثمنها ، ومنها كذلك أنه مع تساوى درجة مقت الفلاحين والعرب للأوربيين ، الا ان ما لدى العرب من ثروات غذائية ودواب يفوق ما لدى الأولين ، كما ان ما لديهم من وسائل فى كل ضرب اكبر بكثير مما لدى اولئك ، ومنها أخيراً ان الشيوخ فى القرى العربية يبدوون أكثر سطوة على مزارعهم ، من ذلك النفوذ الذي يحوزه الشيوخ فى القرى الأخرى .

والحصولان الرئيسيان عند العرب هما تصب السكر ومحاصيل الاعلاف مثل الحنطة والبرسيم . . لأن ما لديهم من جمال وخيل وماشية أكثر مما لدى الآخرين ، ويأتى بعد ذلك الذرة والشعير والقمح والخضروات ، وحيث تلقى الزراعة عندهم عنلية أكبر ، فاعتنا نجد لديهم من الشوايف أكثر مما نجد فى أى مكان آخر ، ويسود الرجال الذين يديرونها وكأنها يستمعون على القصب ، وهم يقتنون هذه الآلات من أجل زراعات القصب والقمح والشعير الشتوى ، وكما يولون بالمثل عنلية فائقة بخيولهم .

وكثيراً ما يستخدم العرب فى زراعات الذرة وكذا القمح نوعاً من السباد يعرف بالسباح ، وهو عبارة عن الرماد والأتربة التى تستخرج من انقراض المساكن القديمة ، وهى التى تحتوى على نسبة كبيرة من نترات الصوديوم . وهم ينظون هذا السباح لاستخراج قطع العملة والمعاديات والأنتيكات من كل نوع والتى تحتويها عادة ، وحيث ان القرى العربية أكثر سكاناً من غيرها فان من يعملون بها بهذا العمل ، أكثر ممن يفعلون نفس الشيء فى قرى الفلاحين الذين يستخدمون بالمثل هذا السباد .

ويزرع سكان القرى العربية بوفرة اشجار النخيل كما راينا فى بنى حسن وكذلك بالقرب من انتقوى ويزرعون كذلك الكثير من اشجار الاكاسيا والنيسق . لكنى لم أر مطلقاً حدائق فى القرى ، فالعرب لا يفتنون حلاً ضرورة له حتى ولو كان بقمص المتعة ، وهم يبتنون مساكنهم على

الدوام تقريبا على حافة الاراضى الزراعية ، او فوق ارض لا تزال تغطيتها الرمال رغبة فى الاقتصاد فى الارض القليلة للزراعة .

وفى تلك المساحة الضيقة من الارض الواقعة على الشط الايمن ، حفر العرب المزارعون كثيرا من الترع والقنوات التى تأخذ مياهها من النيل ، ولقد حفروها بعناية كبيرة ؛ ولا تروى اى من هذه الترع الا اراضى القرية التى حفرتها ، وهذا امر ضرورى بالنظر الى قلة عرض الارض هناك ، لكننى لم اشاهد جسورا بين ارض واخرى واقصد بذلك جسورا كبيرة لانه توجد جسور لا مفر منها فى حقول الذرة ، واظن ان غيبة هذه الجسور كانت امرا لا بد منه حتى يكون من الميسور تماما انشاء ترعة او ترعين بكل قرية ، دون ان يتكلف الامر مصاريف باهظة ، ولرى الاراضى دون انتظار للمياه التى يمكن ان تجيء من القرى العليا « الجنوبية » ، وهناك سبب ثان لذلك ، وهو ان وسيلة هذه الجسور — حالة وجودها — وقطعها واعادتها سوف تكون موضوعات مستمرة للشجار .

والصناعات الرئيسية لعرب هذه القرى هى تلك التى ترتبط بحاصلهم اى صناعة السكر (٧) وصناعة صبغة النيلة . وتفضل نسائهم الصوف ، ويصنعون منه فى قراهم عن طريق بعض المسيحيين ، او بعض الفلاحين الذين يرى اولئك ان يسمحوا لهم بذلك ، اثوابا خشنة تسمى بشت ، وهو تماش غابق اللون يستخدمه الفلاحون رجالا ونساء فى صنع ملابسهم ، اما الاكثر ثراء من بين هؤلاء فيشترى الثوابهم وطريوشهم (٨) من المدن .

واكبر تجارة لدى العرب هى تجارة السكر والبلح . . وهم يذهبون لبيهما فى مصر العتيقة ، لكنهم يحتفظون بالقمح والشعير لاستهلاكهم او من اجل استهلاك خيولهم . اما فى الاسواق فيبيعون الماشية ودواب الحبل كما يبيعون الصوف وكميات قليلة من مهم السنط .

(٧) يصنع العرب السكر بكميات كافية بحيث قلما يتجاوز ثمن القنطار { ريالان } ( بوطاقات ) وبذلك يكون ثمن الرطل زنة مارك ( marc ) ٦ سو ٥ (sous)

(٨) نوع من غطاء الرأس . احمر اللون . ومصنوع من الصوف ، تلف من حوله العصابة .

ولدى الشيوخ معلومات دقيقة عن أعماق الوديان في الصحراء ، ولكنهم يدينون بمعرفتهم تلك للبدو الذين يتصلون بهم على الدوام للتزود بالاشياء الضرورية لحياتهم ، وعن طريق هؤلاء يعرفون مخارج الوديان واتجاهات الأخوار أو مياه الأمطار وبذلك يعرفون كل المناطق التي يمكن لهم ان يجدوا بها الماء ، وهم يستطيعون تمييز الطرق القابلة للاستعمال من تلك التي لا تصلح لهذا الغرض ، وهكذا يستطيعون حسب بشيئتهم ان يقدموا خدماتهم او يمنعوها عن الفرق « العسكرية » التي تحتاج الى التوغل في الجبال ، وبذلك يكون في مقدورهم ان يسلموهم الى العطش ، وأن يضللوهم وأن يجعلوهم يهلكون في الصحراء . ولقد انحاز كثير من هؤلاء الشيوخ الى المالك ثم الى الفرنسيين ، كل بدوره ، في تلك الحرب الأخيرة ، ودائما ابدا من أجل الحصول على المال . وفي معظم الاحيان كانوا يرشدون الفرق الفرنسية الى طرق عكسية لتلك التي كان عليهم ان يسلكوها للحاق بالمالك ، لذلك فنادرا ما استطاع الفرنسيون ان يأخذوا هؤلاء على غرة ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان الكثير من العربان ناعمين لنا ، وكم أرتشونا الى الطرق التي تصلح لمرور المدافع وتلك التي يستطيع فيها سقاية القوافل .

وليس هناك ما يمكن قوله حول طعام العربان دون ان يكون الامر منطبقا على طعام الفلاحين ، قطعاهم يضم بالدرجة الاولى خبز الذرة واللبن والبيلاف « طعام شرقي يتكون من أرز ولحم وتوابل » . اما طبخهم السكير المشتمل على الخروف والدجاج المسلوقين معا فشهى ولذيذ الطعم ، وبصفة عامة فأنهم يتفخزون على نحو ما بشكل أفضل من بقية السكان ، وينمل أولئك مثلبا يفعل هؤلاء حين يقيمون الكثير من ابراح الهام .

وهناك فرق ملحوظ بين هؤلاء العرب وبين غيرهم من العرب الآخرين ، ذلك هو انهم لا ينطقون اللغة مثلهم لكنهم ينطقونها مثل الفلاحين . فهم على سبيل المثال لا يعطشون الجيم فيقولون جسر وجابع يسدون تعطيش للجيم كما يفعل الفلاحون وليس بتعطيشها كما يفعل العرب المحاربون « البدو » . وبالمثل فهم لا يقولون ثلاثة « بالشاء » وانما ثلاثة « بالناء » . وهذه الملحوظة تشمل اكبر عدد منهم ، ومع ذلك فكثيرون منهم ينطقون اللغة على طريقة البدو .



ولسكان هذه القرى ملامح أخرى مشتركة مع الفلاحين ، فهم يشاركون هؤلاء في تلك اللامبالاة بل في ذلك النوع من الإزدراء الذى ينظرون به نحو الآثار القديمة المصرية والرومانية ، وهم لا يتدرونها الا من أجل ما يعود عليهم منها من نفع عندما يحصلون منها على مواد تصلح لاحتياجاتهم اليومية .. ومفضلا عن ذلك هؤلاء ليسوا اتل من أولئك جهلا وخرافة بخصوص الأصل الذى ينسبونه لهذه المباني ، فهم يعتقدون أن الجن هم الذين حفروا الحاجر والمغارات وشيدوا القصور والمعابد ، بل ويدعون انهم يعرفون أسماء وتاريخ هؤلاء الجن .

وهناك شكوى لا تنقطع من هؤلاء اللصوص المرعبين الذين يسكنون شواطئ النيل في الصعيد ، وأنه لن الخطأ أن نتهم أبناء البلاد ، فليس هؤلاء اللصوص سوى سكان هذه القرى العربية ، ومهارتهم في ذلك تفوق التصور ، وهى شائعة ومعروفة لحد سيكون مضيقا للوقت أن نضرب هنا الكثير من الأمثلة . ولقد كانت فرقنا في الصعيد شهودا على الوف الأساليب الجسورة والوقحة ، والتي تبعث على الدهشة دائما ، ويهدد المرء صعوبة في تصديقها على الرغم من كونها وقائع . فكم من مرة اخفوا الخيول وهى على مقربة من فرسانها ، او اخذوا الأسلحة من موقع او دأورية استطلاع او من الحراس انفسهم ! ولقد كنا نرى هؤلاء الرجال يختبئون في النهار بين اكداش الملبق « العلف » ، ويخرجون بالليل ليمارسوا السرقة ، وكنا نجدهم عراة يكادون يقطعون النفس بين هذه الأكوام ، ونعهم الأسلحة التى اخذوها .. بل لقد انتزعوا حقائق وبنادق من تحت رموس الجنود ، وسرقوا السيوف وهى الى جانب حقائق الضباط !.

وهناك من هذه القرى ، من يمارس كل سكانها — بما فيهم شيوخها انفسهم — مهنة اللصوصية . فهم يقطعون الطريق ويسلبون الصنادل مهما تكن حمولتها ، كما ينهبون الأسواق والمسافرين ، ولدى البعض منهم ثوارب يستخدمونها في الهجوم على الصنادل الملاحية ، وبعض هؤلاء يأتى ساجدا لينتزع بمهارة كل ما يستطيع الإمساك به . ويمكن أن نذكر نزلة النوايل ، وهى قرية تقع على الشط الأيمن الى الشمال قليلا من بنفلوط ، كمثال لقرية كل سكانها لصوص محترفون ، ولقد قيل لى أن الجانيك قد

تتلوا من سكان هذه القرية ستين رجلا دفعة واحدة منذ عدة سنوات . لابد ان تكون بلاد كهذه بائسة لحد كبير ، لا حماية فيها ولا امن ، حتى تحدث فيها كل هذه السرقات واعمال تطع الطريق دون ان تتقمع ، وفى الواقع فان هؤلاء يرتكبون هذه الجرائم دون ان يلتوا اثنى عقاب شهيمدون بعد ذلك الى اعمالهم . بل انهم يدفعون الضرائب . وهناك سكان قرية اخرى مثل بنى حسن لا يجروون على الاتامة فى بيوتهم المبنية بشكل جيد ، ويفضلون الاتامة فى اكواخ من البوص وسط اشجار النخيل حتى ينفذوا مشروعاتهم بشكل افضل ولكى لا يكونوا فى متناول يد البحث « عن الصوص » وما ان تصل تراهم حتى يستولى عليهم الفزع ، وذلك الشعور الملازم للجريمة ، مما يجعلهم يجرون املك لارين فتجد المنازل مهجورة ، وتكاد لا تعثر فيها على مجول تعطيك جرعة ماء .

والجانب الاكبر من القرى السبع التى يطلق عليها فى مجموعها اسم الصارنة واحبها قرية بنى عمران قد احترق هذه المهنة المزرية ، وقد شاهدت عرب هذه القرى يوقفون بلا حياء ، وفى وضخ النهار قريبا كان يتجه الى الجنوب لينتزعوا منه النساء على الرغم من صيحاتهن ومن مقاومة الملاحين . وثمة واحد من اكثر المشاهد التى رايتها فى حياتى تهورا ووثاجة ، قد رايتاه عند ركوبى النهر . كان ريس او ملاح صندلى واقفا مسكا بالمجداف فى يد ، ونجاة خرج واحد من سكان الصارنة ، وصعد الضفة ، وانتزع من فوق راس الرئيس العبابة والطربوش وسارع بالقاء نفسه فى النيل ، واختلى تحت الماء ، وظل غاطسا لوقت طويل ليخرج بعد ذلك على بعد ٤٠٠ قامة من هناك ، على الشاطئ المقابل للنيل .

## ٢ - القبائل التى استقرت حديثا :

لقد جاءت كثير من القبائل العربية القادمة من شمال افريقيا لتستقر فى مصر منذ حوالى قرن . وقد حصل هؤلاء العرب على اراضى عدة قرى وزرعوها او استزرعوها فى غالب الاحيان : وهم يزرعونها عادة بمحاصيل العلف ، ويرعون فيها خيولهم ودوابهم لمدة تسعة اشهر فى العام ، ومن بين هؤلاء ، تلك القبائل التى تعرف باسماء : بنى وافى ، ابو كرايم ، محارب ، الطحوى ، وهناك قبائل اخرى قد تفرعت عن هذه القبائل الاساسية . . ولا تزال القبيلتان الاوليان وتلك القبائل التى تفرعت عنها

مثل الجهة والطراونة يسكنون تحت الخيام ، لكنهم لا ينصبون هذه الخيام الا فوق ارضهم او فوق الأرض التي يستأجرونها ويدفعون عنها الضرائب . ومع ذلك فانهم لا يستسلمون مطلقا للهزيمة اذا ما هاجبهم عربان الخيش ، فلدبيهم هم ايضا خيامهم ورمائحهم ، وجمالهم وخيولهم معدة على الدوام للجوء الى الصحراء اذا ملحت ان جردوا من الاراضي التي تملكوها . والمعارك والمشاحنات كثيرة بين هذين الفريقين من العرب . وقد شهدت كثيرا من المعارك الدامية ورأيت عند هذا الفريق وعند ذاك شجاعة حقة او بالأحرى سلوكا مليئا بالشراسة والبغض والاحتداد .

ويشكل العرب « المزارعون » الذين لا يزالون يستخدمون الخيام هذا فصلا بين العرب المزارعين الذين تحدثت عنهم فيما سبق وبين العرب المقاتلين او الرعاة . فهم يبتazon عن الاولين بانهم لا يشكلون جزءا من سكان القرى وبانهم لا يزرعون مطلقا بلديهم ، ويميزون على الآخرين « البدو » بانهم لا يغيرون من أماكن اقامتهم او على الأقل المنطقة التي يقيمون فيها . وهناك شيخ معين من بينهم يملك اراضي ثلاث او أربع ترى بحكم كونه ملتزما « ملتزم » ، وهو أغنى شيخ في كل الولاية . لذلك فهؤلاء العرب مرهوبون من جانب الفلاحين ، ويحرص هؤلاء على ارضائهم اذ يرون على ابواب قراهم ما يصل الى ستمائة فارس مستعدين لانزال العقاب عند ظهور أدنى مقاومة ( من جانبهم ضد العرب ) .

بل يمكن القول بأن الفلاحين يحترمونهم كسادة لهم ، ويستقبلون اقل واحد من هؤلاء العربان شائتا ، سواء كان مسافرا على ظهر جملة ، او سائرا على دحمته ، باحتفال في الريف فيهرع اليه الناس حاملين الماء ان كان عطشائنا ، والبلح والخبز ان كان جائعا ، او على الأقل ، فان اى فلاح هناك يستجيب لتقديم هذه الاشياء عند اول طلب . ويسير العرب على الدوام مسلحين ببندقية ذات حمالة ، وعندما يركبون الخيول ، فانهم يتسلحون بالاضافة الى ذلك ، بحرية ورمح قصير في اليد . اية مقاومة يمكن ان تبديها هذه القرى ، ضد جماعات الفرسان هذه ، والتي تتهاون معهم الحكومة ، في حين ان رؤساءهم انفسهم من كبار الملاك انك لا تستطيع ان تحصر عدد الجرائم المظلمة والأعمال الجائرة التي يرتكبها هؤلاء الفرسان ، ففي

أسواق القرى على سبيل المثال حيث يتجمع الناس في شكل جمهور لبيعوا الماشية والبلح والذرة والدخان .. الخ ، يكون كل الفئم في جانب العرب ، اذ هم يفرضون بسهولة سطوتهم على الحشد ، فليس هناك من فلاح واحد يكون بمقدوره ان يجادلهم في ثمن أى شيء يعرضونه ، والا يعطيهم سلعته بالثمن الذى يحدونه هم ، ويبدو الحرية التى يفرسها العربي ، في صلف وقحة ، الى جانبهم ، في عرض السوق وكأنها تقول « اننى هنا ، صائغة القاتون » ونستطيع ان نميز هؤلاء عن بعد في تجمعاتهم الكثيفة ، ومن ملابسهم البيضاء ، وصوتهم الحاد ، وهم يستولون — بمعنى كلمة يستولون — على السوق ، وينتهى بهم الأمر ان يبيعوا وأن يشتروا لصالحهم كل ما يريدون ، وفي واقع الأمر ، فانهم يعملون في خدمتهم سلاحا ليس بأقل لثرا من رماحهم وحرابهم ، ذلك هو دهاؤهم الشديد ، والذي لا يمكن مقارنته الا بجسارتهم .

واليك الملابس التى يرتديها العربيان وهم في السوق ؛ على الراس طربوش احمر ، بلا عصابة في معظم الأحيان . وعلى الجسم برنس او معطف ابيض من صوف تنسאות درجة نعومته يغطون به عادة أعلى الوجه وتحت الذقن ، وهو يغطيهم من الرأس حتى القدمين . ويلبسون تحت هذا المعطف قميصا من الصوف وحزاما ، ويرتدى الميسورون منهم صديريا فوق القميص ، وفي القدمين ينقلون خفا احمر اللون ، ويراهم المرء في هذه الأسواق حاملين مسجباتهم ، وسيوفهم ، ومطارتهم ، وحرابهم ، وبنادقهم ذات السنوكى (٩) ، ويعرضون بضائعهم وهم مسلحون على هذا النحو على الفلاحين ، كما انهم متعودون على حمل قرابينهم خلف ظهورهم ولا يخلعونها مطلقا حتى عندما يلتقى القبض عليهم . ولشيوخ القبائل والأثرياء الفرسان مهابيز جميلة ، مذهبة ، واسرجة فخمة لا تختلف عما لدى المالك الا في ان ظهر المرح مقوس واكثر انخفاضا مما يجعله بالنسبة لهم بمثابة كرسى مريح . فهل مع اناس يحتشدون على هذا

(٩) توضع المظاريف بعناية في جيب من الجلد ، ويوضع صندوق البارود الى جانب البندقية .

النحو ، ويسلحون الى هذا الحد ، يستطيع الفلاح الأعزل أن ينساز  
فى شيء ؟ (١٠) .

وعلى الرغم من القوانين التى تحرم استخدام العنف ضد الفلاحين ،  
فإنه من المعتاد أن ترى فى المساء ، عند عودة النبلس من سوق من  
الأسواق ، اثنين أو ثلاثة من الفرسان « العرب » ينقضون فجأة على  
الفلاحين (١١) وهم عائدون بمواشيهم ، لينتزعوها منهم ، فإن أبدي هؤلاء  
شكلا من أشكال المقاومة ، فإن الفرسان يجرحونهم أو يقتلونهم ، وإذا  
ماذهب الناس لشكاوهم الى رئيس القبيلة ، فهو — كما يقول — لا يدرى  
شيئا عن الأمر ، أو هو ينكر أن هؤلاء الفرسان ينتمون الى قبيلته ..  
وهكذا تظل الجريمة بلا عقاب . ولقد رأيت كثيرا من هذه المشاهد فى  
صنيو والقومية . بل إن شيوخ القرى أنفسهم لم يكونوا أقل من هؤلاء  
الفلاحين البسطاء تعرضا للعرب من جانب هؤلاء العربان ، وسيكون حادث  
العنف الذى سألته الآن دليلا كليا على ذلك ، وهو أمر يتكرر بلا انقطاع  
فى الوف من الأشكال المختلفة .

ذهب بعض العربان من قبيلة أبى كرايم لينصبوا خيامهم فى أرياق  
ترب « ببالو » وانتفخوا مع شيخها على مبلغ محدد بالغ الاعتدال فى مقابل  
أن ترمى ملاعيتهم فى حقل « حلبة » . وذات ليلة وجدت بندقيتان وزوج  
من المسدسات ضالعة من خيامهم . وعندما حل النهار ، ذهب العرب على  
خيولهم الى القرية مطالبين باستعادة سلاحهم ، وهم ينعنون الفلاحين  
بأنهم لصوص وقطاع طريق لكن الشيخ الذى لم يكن لديه أدنى علم بهذه  
السرقة الصحيحة أو المزعومة ، لم يستطع أن يجيبهم بشئ مقنع . فهددوا

---

(١٠) كتبت عدة مرات شاهدا على الجناة المتفخمة التى يبدونها فى  
أسواق القرى . ولم يكن هؤلاء العرب بأقل من ذلك زهوا واعتدادا بأزواء  
جنودنا الفرنسيين ؛ بل لقد وأنت أحدهم جراءة وقحة لحد أنه عرض على  
أحد جنودنا شراء نجوم ضابط فرنسى كان قد قتله . وهم لا يبدلون  
مطلقا بالتحية كما لا يردونها مطلقا . وأكثر مايجذب انتباههم فى الشخص  
الذى يلوح لهم هو السلاح الذى معه أو الملابس الذى يرتديها أو الحصان  
الذى يتطليه . وعندئذ يبدلون فى تصور الطريقة التى تمكنهم من  
الاستيلاء عليها .

(١١) الترجمة هنا بتصرف ظفيف . ( المترجم ) .

بإطلاق النار على الأهالي إذا لم ترد إليهم أسلحتهم ، فلم يجد هؤلاء مغرا من أن يركبوا هم أيضا الخيول إلى جانب شيوخهم . وحيث كان عدد العرب في ذلك الوقت قليلا فإن الحظ لم يحالفهم وقتل من بينهم رجل كان ينتمى إلى قبيلة الفوايد وهى قبيلة قدمت إلى مصر حديثا كما قتل في نفس الوقت سيده وفارس . . واضطر هؤلاء إلى الانسحاب وفي اليوم التالي غادر شيخ القبيلة بنفسه ، الشيخ على أبو كرايم ، مقر اقامته في ساو وجاء على رأس سبعائة فارس وحاصر بيللو وطالب بقتل العربى، وكان هذا مختبئا ولم يستطع أحد اكتشاف مخبئه . عندئذ أمر الشيخ على بالقبض على أربعة من أكبر شيوخ القرية سنا ، واصطحبهم إلى خيمته ، وهناك فرض مبلغا كبيرا من المال على سبيل «الدية» ، أيثما للدم ، وهى عادة يعاد بمقتضاها شراء دم كلقتيل بمبلغ محدد من المال ثم أمر بضرب هؤلاء الشيوخ النقصاء بالعصى ويكاد يكون الأمر قد تم كله أمام ناظرى ، ولقد تركت « بيللو » دون أن أعرف ما ان كان الشيخ على قد أطلق سراح الشيوخ ، وما هو المبلغ الذى تلقاه ثمنا لذلك (١١) .

تلك هى المساوىء والمظالم التى يتركها العرب الملاك كل يوم . وهؤلاء الرجال بالغو الثراء، ولهم نفوذ كبير في البلاد، وان كانوا يستمدون مكانتهم تلك من الفزع الذى يحدثونه في النفوس . ليكن العربى محتا أو مخطئا ، ليكن معتديا أو عكس ذلك . فشيخ قبيلته في كل الأحوال يدافع عن شجاره على الدوام بنفس الحرارة التى يدافع بها الناس عن أعدل القضايا ، ويكرس كل الوسائل للانتقام أو للانتصار له .

وثمة ضرب من العنف من جانب هؤلاء ، لا يستطيع الفلاحون أن يضحوا له حدا ، وذلك هو ماتركته قبيلة عندما تاتى لتستاجر أراضى بينهم . في البداية ياتى فريق من القبيلة ليضرب ضامه في منطقة كثيفة المرعى، وما أن يحس هؤلاء ان الأرض مناسبة لهم وما أن يستقروا هناك حتى يبدأوا يسلوون الفلاحين على ثمن السكن . ولكن ماذا ؟ فلقد اكلت الخيول والجمال بالفعل جزءا كبيرا من المرعى وانتشرت الضياع

(١١) ارتكب عيد الله بن وافي مثل هذا العنف حين احتجز شيوخ القصر وبنى عمران لأنهم لم يقرؤا على حصوله ، أو بالأحرى على استيلائه بالقوة على الأراضى التى تنفع على الشط الشرقى وهى تعد مواثية بالنسبة له .

لمى كل مكان . ما العمل اذن ؟ عنقذ يقترح شيخ العرب ثمننا للارض لا يبلغ فى معظم الاحيان سوى جزء واحد من عشرة اجزاء من القيمة الحقيقية ولا يكون امام الفلاح من تصرف آخر سوى ان يقبل . ولقد رايت فى كل مكان حوادث مماثلة ، وشهدت السهل يغص بهذه المخيمات المتناثرة . الا يعطينا ذلك دليل على بؤس الفلاحين وعبوديتهم الخائفة؟ انهم يننون فى مخابهم ويتصبب منهم العرق لكى يطعموا هؤلاء السادة المتعاليين . وينتقصهم الجلبس والخبز ليتوفر كل شيء عند العرب الذين ينهبونهم . ونادرا مايسمح اولئك المساكين لانفسهم بان يهمسوا بالشكوى ، واذا ماحدث الامر فانه يتم بصوت خفيض خفيض . انه لامر يبعث على الاسى حقا ان بري اتاليم باكملها تكاد تكون قد ضربت فيها من اقصاها لاقصاها مخيمات العربان . وفى الواقع فان عدد هذه المخيمات يماثل عدد القرى ، ويفد اليها على الدوام فرسان جدد ، ليسوا من افراد القبيلة وانما وفدوا الى هناك ليحصلوا على اذن بالسطو لان شيوخ هذه القبيلة هم هنا اصحاب الامر . لذلك نكم هناك من اواض مهجورة وغير مزروعة فى « ميدان » الخيام والمناطق المجاورة له . وكما من مناسطى اختفت فيها الحبوب وقت البذار : اما حين يستزرع العرب ارضا تروق لهم فانهم على الدوام واجدون كل الوسائل لاغراقها بالمياه على حساب جيرانهم ، ومخالفين لكل العادات والاصول المرعية . فمهم يتوجهون والسلاح معلق بايديهم الى احد السدود ودون ان ينتظروا حتى تحصل الارض المائية على ملكيتها من المياه ، يقطعون السد بانفسهم فتجرى المياه لتسقى اراضيهم هم ، ثم يحتفظون بالمياه بالقدر وبالمدى اللذين يروئان لهم ، دون ان يشغل بالهم مطلقا ان تروى او لا تروى الاراضى التى تقع الى شمالهم . واذا مااحتاجوا لمياه احدى الترع فانهم يحدنون فيها قطوعات بالعدد الذى يروونه مناسباً دون اذى تفويض او استئذان . وباختصار فمهم يسدون ويفتحون ، ويطيرون مدى الترع كما يتراعى لهم ، ويقبضون السدود ان يهدونها بحسب مصالحهم هم ، ويتم الامر دون اذى معارضة ، لانهم اقوى من القانون ، ومن اجل خاطرهم وحدهم تغيب الشرطة ، وليس من الضرورى ان اضيف هنا انهم لا يساهمون مطلقا فى مصاريف تطهير الترع او بنساء الجسور ، بل ولا فى اية مصروفات مشبهة على الرغم

من ان هذه الاعمال تعود بجل نفعها عليهم هم وبأكثر بكثير مما تعود على الآخرين .

ان المرء ليتملكه غضب شديد وهو يرى تطاع الطرق النبلاء هؤلاء يجوسون بوتاحة خلال الديار التي خربوها او يعمسرون من حول القرى التي افروغوها من سكانها . وعندهما يراهم المرء يجتازون الوادى من كل اتجاه وهم راكبون خيولهم فانه سيوقن بانهم سادة البلاد . واى بلاء سببوه للصناعة عندهما طردوا شيئا غشيا من القرى المعلمين «والأسطوات» من ابناء البلاد (١) والمثال على ذلك واضح فى سلو والعرين وعلى وجه التقريب لى كل القرى التى يرويهها بحر يوسف ، فبسبب ظهور هؤلاء الطفاسة ، فان قرى باكملها حيث يسيطرون : قد هجرها اهلوها بل تكاد تكون قد خربت لأن هؤلاء العربان لا يزرعون ولا يبنون ، واذا كانت اراضى بعض هذه القرى لاتزال تزرع فالسبب لى ذلك ان مياه النهر تفيض فترويهما تلقائيا كل عام ، وبذلك لا يلزم اى عمل سوى البذار والحصاد . وعلى الرغم من كل ذلك : فالفلاحون مرغوبون على العودة من بعيد ، ومن جميع الجهات ليزرعوا اراضيهم التى اصبحت ملكا للعرب . . وتلك هى اللوحة الحزينة التى يقدمها لنا هذا الجزء من مصر العليا ، اما فى مصر السفلى فان العرب هناك اقل سطوة ونفوذاً .

ويمكن للمرء ان يسأل : ماذا تفعل كل هذه القبائل العديدة؟ وللجابة على ذلك ينبغي ان نضع فى الاعتبار ان الجزء الاكبر من كل قبيلة يشكل مخيما كبيرا يقطن فيه الشيخ : لكن كثيرا من العائلات تنتشر فى الوقت نفسه بشكل منعزل فى مناطق مختلفة ، وتشكل مخيمات تتكون من خمس الى ست خيمات . وهناك ترى هذه العائلات جمالها وحبرها وخيولها ودوابها . واكثر من نصف رجال هذه العائلات لم يركبوا الخيل « اى ليسوا فرسانا » ويشتغلون كما قلنا للتو باصطحاب القطعان الى المراعى، اما الفرسان فيقتضون وقتهم فى القيام بجولات فى السهل وهم يبحثون على الدوام عن شئ يسلبونه . وفى أيام الأسواق العامة يتوجهون الى هناك مسلحين ويصحبون معهم جمالهم وماشيئهم ليستبدلوا بها الذرة

---

(١) الترجمة هنا بتصرف طفيف للغاية ( المترجم ) .



والشعير والبلح والدخان وأشياء أخرى من مواد الاستهلاك اليومي .  
 أما عن البلح (١٢) ، فانهم يبيعونه بأنفسهم عندما يأتون من الواحات حيث  
 يجلبون منه كميات كبيرة (١٣) كما يجلبون معه في قوافلهم الشمس الجاف  
 والأرز الذي يمد من مرتبة أعلى من أرز الدلتا ، كما يحضرون معهم مؤنا  
 متنوعة . وتشغلهم هذه القوافل لمدة شهرين أو ثلاثة أشهر في العلم ،  
 وهم يبدؤون رحلتهم عادة من الواحة الصغيرة التي تقع على مسيرة ثلاثة  
 أيام من دلجا ، كما يلجأون على الدوام الى هذه الواحة عندما يطاردون في  
 مصر ، وكذلك في اوقات الفيضان في اغلب الأحيان ، لسكنهم في هذه  
 الحالة يكتفون بأن يفرّبوا خيامهم على حافة الصحراء . وعندما يصبح  
 القش « التبن » نادرا في مصر ، فانهم يذهبون الى الواحات لتتقضى  
 خيولهم على قش الأرز ، ويقوم عرب اليوم كذلك بهذه الرحلة ، وهم  
 يجلبون بخلاف البضائع التي تحدثنا عنها ملح المناجم الذي يستخرجونه من  
 الجبال المجاورة لهذا الاقليم (١٤) .

ويربى العربيان في مخيماتهم كثيرا من الخيول والجبال ، وهذا ما لا  
 يغطيه الفلاحون مطلقا ، وسيظل هذا الأمر دافعا على الدوام لعدم دفع  
 العرب الى خارج البلاد ، اذ ليس ثمة مساوهم الآن من يستطيعون أن  
 يمحوا البلاد بالخيول والجبال ، ولابد أن عدد هذه الدواب سيكون بالغ  
 المسألة الآن في البلاد لو أن كل الحيوانات التي استخدمها الجيش الفرنسي  
 قد أخذت كلها من الريف ومعروف ذلك التقدير الذي يكله الفرنسيان  
 العرب للفرسان . وقد سألت البعوض الذين كنت أسافر معهم عن السبب  
 لسكنهم لم يخبروني ، وعادة ما يظن المرء أن الأمر يعود الى أن الفرنسيان

(١٢) هذا البلح جاف ولكنه طيب المذاق لحسد كبير ، ويساوى  
 القطنار منه ٣- { بوطاقات (ريالات) .  
 (١٣) يبدأ طريق الواحات من خلف تلة الشيخ عباس الى الشمال  
 من سرقسا . وينبغي التزود بمياه تكفي ثلاثة أيام . وتوجد في البلدة  
 نفسها مصائد للمياه ، وهي تقدم الشعير والبلح بالإضافة الى الأرز  
 والبلح ، ويواصل الطريق ارتفاعه حتى يبلغ جبل بهاية . وهناك طرق  
 عدة أخرى تؤدي الى الواحات ، أحدها في مواجهة التونة ، وثمة طريق  
 آخر لأم بنى خالد ، ومن هذين الطريقين تخرج قروص تؤدي الى البهيسا  
 وإلى القيوم .

(١٤) انظر دراسات عن المصور القديمة ، المجلد السادس .

يتجنبون سهيل الجياد التي تعلن عن وجودهم ، وبذلك لا يمكنهم أخذ فرستهم على غرة ، لكن الحقيقة في الأمر هي أن الفرس تتحمل العطش بشكل أفضل من الحصان ، كما أن احتياجاتها أقل بالإضافة إلى أنها أقل طيشا وأكثر ملامعة لرجال يظنون في غالب الأحيان عدة أيام قتالية ، راكبين خيولهم دون أن يكلوا ينزلون عنها .

والفرس العربية نحيفة عفاء لكن ذلك لا يقلل من سرعتها فهي لا تقل - في ذلك عن أفضل خيولنا تغذية . ويكاد يكون لكل فرس شرابة بيضاء أو زرقاء أو حمراء تحت الرقبة وأحيانا فوق الأذنين . ولا تقل عاطفة العربي نحو فرسه عن العاطفة التي يكنها عاشق لمشيخته . وعلى الرغم من أن العربي يظل قلما تجاه فرسته ، حريصا على ألا ينقصها من الرفاهية شيء ، إلا أنه لا يكلف نفسه عناء القيام بأي جهد لتوفير طعام جيد لها إلا إذا تم الأمر على حساب الغير . وكمن مرة رايت فرسان العرب ، بينما كتكت أسافر إلى جانبهم يترجلون على السحوم — يكاد يتم ذلك كل خطوة ويتهمون بها في حقول البرسيم والشعير بل حتى لو كان القمح أخضر أو ذا سنابل ! كثر ما يجعلونها تاكل على السحوم حتى ظننت أن السبب لإعود إلى الرغبة في اشباع جوعها بقدر ما هو اللذة في اطعامها من حقول الآخرين ، فليس هناك عند العرب لحظة أحلى من تلك اللحظة التي يلوح له فيها شيء يمكن له أن يسلمه !

والقبيلة العربية التي لا تملك أو تستأجر إلا بعض الأراضي ، تمارس مع ذلك نفوذا ونوعا من السيطرة في دائرة هي أكبر بكثير من هذه الأراضي نفسها . وهذه الدائرة محددة ومميزة عن دوائر القبائل الأخرى المجاورة ، في القبيلة لا تخرج مطلقا ، أو لا تخرج في معظم الأحيان عن حدودها لكي تجور على دوائر القبائل الأخرى . أنه نوع من الاتفاق الضمني وضعت قواعده نتيجة للمشاحنات والمعارك والحروب التي دارت بسبب هذا الموضوع .

ودوائر النفوذ هذه متلاصقة وتشتمل في مجموعها على أراضي هذه البلاد ؛ وليس ثمة ما هو أكثر غرابة من رؤية هؤلاء السادة المزعومين لمصر وهم يسبحون أراضيها على هذا النحو ، ويحددون الحدود التي تضمن

حقوق كل فريق منهم . وهم لا ينظرون الى الاراضى التى تقع داخل كل دائرة الا على انها ارضهم وبلدهم ، ويعنى هذا بالنسبة لحياة دائرة ما ان ليس من حق احد من العرب الآخرين ان يسلبوا او يرتكبوا لحداث عنف داخل دائرة تقع فى حياضهم ، وقد بلغ الامر الى حد اننى لم استطع مطلقا ان اصطحب معى الى ما وراء دائرة عرب واقى الفرسان العرب الذين كانوا معى كحراس ، ولا ان اصحب الى ما وراء ملوى الفرسان الذين ارسلهم الى الشيخ على ابو كريم ، ونفس الامر بالنسبة لعرب محارب ، والسبب من وراء ذلك ان العرب ، الى جانب انه لا يسمح لهم بالمرور فى اراضى قبيلة اخرى ، لا يحبون ان يسيروا على سفاف التيل او يمشوا بالقرب من المسكن الكبرى مثل ملوى والمنيا عندهما يكون عددهم صغيرا ، فعندما يكون العربى بمفرده ، فى مكان منسزل فانه يستشعر الرهبة من المشاعر التى يكتها نحو العرب شيوخ القرى ، لذلك فهو بالغ الحذر لا يريد ان يعلن عن وجوده ، وفى واقع الامر فان الناس يمتثلون فى بعض الاحيان اول عربى يلتقونه على شر ارتكبه عربى آخر . فكل راكب حصان ، يرتدى الزى الابيض ويتسلح بالبندقية انها هو فى نظر الفلاحين نهاب تاطع طريق ، وهم فى ذلك ليسوا مخطئين على الإطلاق .

واليكم كيف قسمت الاراضى بين مختلف القبائل التى ذكرتها :

تعسكر قبيلة بنى وائى — وهى قبيلة بالغة الثراء بخيولها من منتصف ترعة تسمى ترعة العسل وحتى صنبو فى الشمال . وكان اتابقتها الرئيسى فى تتالية وهى قرية تقع الى شمال منفوط ، يوجد بالقرب منها دير بالغ الاهمية ، وهذه القرية هى مقر الشيخ عبد الله بن محمود بن وائى ويمتد زمام الدائرة حتى ضواحي الاصفر ، الجير ، القوصية ، صنبو .

اما دائرة قبيلة ابى كرايم التابعة للشيخ على فتشمل المسافة بين صنبو وملوى . اما مقر اتابقتها فيوجد فى قرية ساو . وقد عسكر هؤلاء العرب بالقرب من بيلو ، ودشلو ، وساو ، وديروط الشريف ، ودلجا ، ودير مواس ، والبدرمان ، وبلاوط ، وامشول ، وابو الهدر ، واسمو ، بنى حرام ، وسرقنا ، بل وكذلك تندة وطوخ .

ويتنشى عرب التراهونة الى هذه القبيلة ، وهؤلاء قد اتلموا خيلهم

فى تنذة اما الجهة غرباطون على الشط الأيسر « الغربى » لبحر يوسف بين دجلة ، وديروط ام نخلة حتى صفت خبار امام مدينة النيا . ولهؤلاء خيام متناثرة فى اماكن شديدة التباعد فيما بينها ، بل ويوجد بعض منها وسط قبيلتى ابن وائى وابى كرايم .

اما عرب محارب فيقيمون كلهم على وجه التقريب فى بيوت ، وقد كفوا عن حياة الخيام منذ حوالى خمسة عشر عاما . . وداثرتهم بالفة الاهمية فهى تمتد على الشط الأيمن من بحر يوسف ابتداء من النقطة الواقعة تجاه التونة حتى جبل البهنسا على بعد عشرين فرسخا من ملوى . واهم مواطن هذه القبيلة هو قرية العرين حيث يقيم الشيخ ابو زيد « شيخ القبيلة » ، اما الشيخ زيد فيقيم فى ديروط ام نخلة ويقوم الحاج عبد الله فى اباداة ، ويشغل عرب هذه القبيلة ترى المحرص ، ديروط ، اباداة ، اشمنت . . وقرى كثيرة أخرى .

ويتفرع من قبيلة محارب عرب جبار او الجبارة ، وعرب غزالة ، والدراسة والشواذى ، وهم ينتمون اليها كما أنهم جميعا مزارعون ويطعمون فى ترى . . ويشغل الأولون طوخ الخيل ، اما عرب غزالة فيقيمون فى ديروط ام نخلة وكذلك الى الشمال ، فى العزبة فى اقليم بنى سويق ، اما الدراسة والشواذى فيشغلون ضواحي بنى سمرج وطهلا ويوجة ، ولا يزال للدراسة بعض الخيام .

اما العرب المسمون بالخوين والغريب فيشغلون ضواحي شمالوط اما عرب الطحيوى او المصراى او بالأحرى عرب طه فسفنتاولهم فيما بعد .

وتمتلك قبيلة ابى كرايم ألف حصان وعددا كبيرا جدا من الجبال ، واهم شيوخها هما الشيخان على وسليمان ، اما الجهة فيمتلكون اكثر من خمسمائة حصان . وتذهب القبائل الأربع : ابن وائى ، ابو كرايم ، الجهة ، محارب الى الواحة الصغيرة ويعودون من هناك لبييعوا بضائعهم فى الأسواق الكبرى فى دشلوط ودلجا وصنبو والقوصية .

وتعمل النسوة فى المخيمات العربية فى غزل الصوف الذى يصنع فى القرى ، ويتخذ اكثر الناس بؤسا ملابسهم من هذه القيشة الخشنة ، اما الآخرون فيشتررون من المدن البرنس المصنوع من اقشبة فاخرة .

ويؤكل الى النساء أيضا طحن الذرة وصنع الخبز وتجهيز البيلاف « طعام شرقي من لحم وارز وتوابل » وكذلك كل اعيال المنزل ، والخبز عندهم عبارة عن قرص مسطح يجففونه في الخيمة ثم ينشجونه على وقود من روث الجمل يخرج من خلال « بوز » وهو فتحة صغيرة مصنوعة من الطين على هيئة فرن ، وهكذا يجد العريان في تناول ايديهم الخبز والوقود . وما ان تحصل امرة ما على ثوبتها من الذرة حتى يصبح بإمكانها ان تستغنى عن كل ما تقدمه مصر لها من عون ، ولا يمود يعنيها الا ان تضرب خياهما بالقرب من مكان توجد به مياه ، وهذا امر يعرف العريان اكثر من اى قوم آخرين كيف يحققونه . وتحتوى خيام العريان على مخزون من البلح والارز والذرة وعلى قليل من الشمع والقمح والفسول ، ويودع كل شيء بحذاء جدران الخيمة وبطريقة تدع المكان بالغ الاتساع ، وفي منتصف الخيمة يوجد النساء والأطفال ويكاد لا يكون هناك غرق يذكر بين ملابس السيدات وملابس الرجال ، فمن يرتدين مثل الرجال حذاء نصفيًا « خفا » ويتغطين بقطعة من قماش صوفى ابيض اللون من القدمين حتى الراس ، ولم ارهن يتحجبن كما تفعل المصريات ، وهن في نفس الوقت ، ولحد ما ، اكثر بياضا من زوجات الفلاحين ، وعند بقائهن هكذا سافرات الوجه امام الاوربيين ، فقد كن يظهرن لى على شيء من الفتحة والمجون اللذين هما طابع العريان ، والذي يميزهم عن المصريين . ولا يحتم الرجال على نسائهم - اما لانهم اقل غيرة او لانهم اكثر ثقة بهن - ارتداء الحجاب الذي قد لا يكون له من غاية الا تفادي نظرات الفضول عن طريق هذا القناع الشائى الذى لا يبعث على البهجة ، ولكنه وسيلة اقل فاعلية من غيابه هو نفسه ، فإى شيء يمكنه ان يصد الفضول ويقتل الرغبة اكثر من وجه شوهته هذه الرسوم السوداء والزرقاء « الوشم والسكرال » (١٥) .

ويبدو الرجال في خياهم ، او على الأمل راكبو الخيل منهم ، وكان ليس لديهم ما يشغلهم ، فتراهم ، وطربوشهم فوق انهم ، يتجولون من

(١٥) من المعروف ان النسوة في مصر يرسمن بشكل حاد رموشهن وجفونهن باللون الاسود ( السكرال ) وانهن يضمن بقعا زرقاء على الذقن وبقية اجزاء الوجه ( الوشم ) .

خفية لأخرى ، يتطوحن في مشيتهم وأيديهم خلف ظهورهم ، يرسم المرح على وجوههم ، وهم في عمومهم ذوو مظهر طيب ، ويبدو البيض منهم ، بتساويع وجوههم ، وسمنتهم ، ومشيتهم المتعاطمة وملابسهم الفضفاضة والمطلقة ، يسدون بمظهر الأثرياء العاطلين أكثر مما يسدون بمظهر الفريسان المحاربين ، وهذا المظهر من الرضا والسعادة هو أكثر مألوفاً عند العرب .

ومع ذلك ، فإن الأمر الذي لا يقل عن ذلك جدارة بالملاحظة هو اهتمامهم لطقوس الدين ، فلم أرهم مطلقاً يتوضأون أو يصلون مثل بقية المسلمين ، كما أنهم يشربون الخمر في بعض المناسبات ولا يولون كبير اهتمام بشهر رمضان ، وحين يقومون بأداء الحج إلى مكة فاتماً يفعلون ذلك لمائدة سيجنونها من هناك .

وتبعاً لما سبق ، فإنا نجد مخيماتهم شبيهة بالقرى الكبرى وسكان تلك المخيمات أكثر بلا جدال من سكان بقية القرى في مصر ، ناهيك عن الذهب والفضة اللذين تكثرهما هذه البيوت المتنقلة . وفي هذه الخيام يجد المرء كل ما هو ضروري للحياة ، ويحصل العريان من بيع المواشى والجمال وبعض المواد الغذائية على دخول أكبر بكثير مما ينفقون على شراء الأسلحة والسروج والملابس ، فضلاً عن ذلك ، فإن من الممكن لنا أن نؤكد أن الغالبية منهم يتسلحون بأسلحة مهربة أو مختطفة تحت آلاء الإعدامات ، بل إن الكثير منهم يرتدون ملابس سرقوها من الفلاحين .

لما الفضة والأموال التي يكسبها العرب بين أيديهم بهذه الطريقة ، فيمكنها أن تسهم في تثبيت سيطرتهم على مصر بأكثر مما يمكن أن تفعل أعدادهم وفساديتهم . السبب ترى أن هذا النفوذ لا بد له — بحكم طابع الأشياء — أن ينضامف أكثر فأكثر لحد يضع مصر ذات يوم في قبضة العرب .

ولا يحتاج هؤلاء الرجال في مخيماتهم إلا للقليل ، فهم بالغو القناعة ، لكنهم يصبحون بالغى الزهم وشديدي الإلحاح إذا ما لجأ اليهم مسافرون يحتاجون لحراستهم ، فهم في هذه الحالة يصرون على طعام منقّى لا بد أن يحتوى على اللحم المشوى والبن والدخان بوفرة ، بحيث يتكلف طعام

كل واحد منهم في اليوم ما لا يقل عن بوطافه (١٦) ويدعى هؤلاء أن هذا هو طعامهم المعتاد ، وفي نفس الوقت هؤلاء العرب ليسوا بدمى الخلق ولا بالجليلين الملائفين . هذا ما شعرت به وأنا بين عرب بنى وامي وعرب أبى كرايم وعرب محارب الذين اتخذت من بينهم حراسا أثناء جولتي . ولقد كان الأولون يسدون أثناء وجودي بينهم أقل قسوة على الملاحين ، أما عرب محارب فكانوا يفتهمون فرصة تدوم ليحلبوا القرى ، راكبين خيولهم ، ليحصلوا لاتنسهم على آلاف الأشياء بدموى أنها للفرنسيين .. وهكذا نتاح لهم فرصة جديدة لكي ينتهبوا ويسلبوا دون أن يلقوا عقابا ، وتحت اسم الغير (١٧) .

وتشغل قبيلة محارب هذه جزءا كبيرا من إقليم المتيسا كما سبق أن قلت ، وتتميز امتيازاتها الى بعيد ، وتنقسم هذه القبيلة الى بطون كثيرة تسكن في قرى عديدة . ومنذ وقت طويل ، لم يعد هؤلاء يقيمون تحت الخيام كما كانوا من ارتداء الثوب الأبيض « البرنس » ، ولا يمكن لك أن تميزهم للوهلة الأولى عن طريق ملابسهم عن شيوخ الفلاحين ، وأقل هؤلاء العرب شأننا يرتدي ملابس جيدة ، وترى واحدا بهذه الصفة منهم في وضع أفضل من وضع شيخ قرية ذلك انه يرتدي فوق جسده اسلاب أربعة شيوخ .. وتساهم هذه الأبهة في الزى في زيادة زهوم ، وإذا ملاهيموا للسلب وسلكوا الطرق العصابة أو ضللت النبل فالهم لا يرتدون ملابس أقل من هذه ابهة ، وليس بمقدور احد ان يحصل على أى عون ضدهم لانه يستحيل عليه أن يجد شخصا يشكو اليه . وفي هذه الحالة الراهنة ، لا يستطيع المرء أن يجد الكيفية التي ينظر اليهم من خلالها ، فهم معروفون في المر لصوصا ، ومع ذلك فليس في مقدورنا أن نطاردهم ، لأن شيوخهم يسلكون

(١٦) قطعة نقدية نسوى ٩٠ بلورة (حوالي ٣ جنيهات و ٨ سو) .

(١٧) تدل الصفائر المهيبة التي يترفونها بقلب بهيج على قساوتهم بقدر ما تدل على ضعف الفلاحين ؛ وقد شاهدتهم بعيني رأسي يستولون عنوة من امرأة بائسة أضنتها الشيخوخة على حيلة كبيرة من أغصان أشجار الترهندي ، كانت تحملها بمشقة كبيرة في الصحراء ، دون أن يكون لديهم حتى ذريعة أن الخشب ينقصهم ، وحيث كانوا يهللون لسرقتهم هذه ، فقد وجدت مشقة بالغة في حملهم على رد هذه الأعشاب الجائفة مع قبائمي بدفع ثمنها لهم .

ظاهريا سلوكا طيبا في قراهم وأراضيهم ، حتى انه ليبدوا عليهم أنهم لم يشاركوا في السلب على الرغم من أنهم يكونون قد اقتسموا الأسلاب .. وعندما وصلت أثناء جولتي إلى دائرة عرب محارب دون أن أدرك ذلك ، سمعت أحاديث كثيرة عن الاغتيالات التي كان هؤلاء العرب يفترونها كل يوم ، ورأيت أنه قد حان الوقت لأن ادمع حراستي الضعيفة بعدد من العرب ، فاستأجرت في ديروط اثني عشر فارسا مسلحين تسلحا جيدا . وبى الطريق كنت أكثر من مؤالى إياهم حول السرقات وحوادث العنف التي يمارسها العرب في الوادي وفوق شاطئ النيل وبالقرب من ملوى ، لكنني لم أظفر مطلقا بالجابة . وعرفت فيما بعد أنني كنت اتحدث إلى نفس الذين يفترون هذه الفعال ، وتكلمت من ذلك بوسائل مختلفة . كم كان قلتي كبيرا عندئذ ! لقد أسلمت نفسي إلى قطاع طريق ، وكثيرا ما ذهبت معهم لمسافات طويلة داخل الصحراء .. ولكم آثار طمعهم أكثر من مرة ادوائى وخبولى وأمال الذى كانوا يظنونهم معى .. ومع ذلك فقد اكتفى هؤلاء اللصوص الثراء بالأجر الذى كانوا يحصلون عليه منا وبما كانوا يستطيعون أن يسلبوه من القرى . ولكنهم كانوا سعداء عندما يجدون بمقدورهم أن يتركوا فرسانهم ترمى مجاتا في مراع وغيرة ! ومع ذلك فقد كان هؤلاء الشجعان يرتجفون لمرقا عندما استوجب الأمر دخول مدينة المتيا اذ كانوا يخشون الجند الفرنسيين ، لكن ارتباطهم كان يلزمهم بذلك . فمشوا إليها وكانها هم يستجفون ، كما لم يدخلوها الا أثناء الليل وقد رحلوا على حين فجأة ودون أن يلحظهم احد .

وكل القرى التي استقر بها عرب محارب فقيرة ومهجورة ونصفت مهتمة وتخلو من الأشجار (١٨) ويكاد لا يوجد بها سوى بعض الفلاحين يقومون بزراعة الأراضي المملوكة لعرب محارب — وليس بزراعة أراضيهم الخاصة ، ذلك أن هؤلاء العرب لا يزرعون بأيديهم على الإطلاق ، فليس ثمة من مهنة أكثر نبلا من وجهة نظرهم من أن تعيش من خيرات الغير دون مشقة ودون عمل ، وليس ثمة أكثر مهانة عندهم من عمل المحراث ، وكلمة فلاح عندهم مرادفة للكلمة السلبى فهي تعنى : رجل الطين ، الذى خلق من أجل الشقاء .

(١٨) القرى التي تثن تحت وطأة نفوذ العرب محرومة من النخيل ؛ ولها مظهر عام يميزها عن بقى .



والذى ولد خصيصا لانتساج طغسام العربان . ويذهب هؤلاء القوم الى بعيد فى تقدير مهنة الفلاح حتى انهم ياتفون من ان يحطوا من قدر البدو فيرفضون ان يطلقوا اسم البدو على هؤلاء الذين شاعوا من بنى قومهم ان يحترفوا مهنة الزراعة مثل عرب طه والريزمون فيقولون عنهم : انهم فلاحون حقراء واخبساء لم تعد تجرى فى عروقهم الدماء العربية . .

اما عرب المصراة او **الطحيوى** ، او بمعنى آخر عرب طه ، فلم ترى باللغة الفخامة ، تقع على بعد اربعة فراسخ الى الشمال من المنيا ، وهم تد استقروا هناك منذ عدة اجيال ، ولقد قدم هؤلاء العرب الى الزراعة ، على النقيض من العرب الآخرين ، خدمات جليلة ، وبذلك حصلت الأرض على مزية مزدوجة . ان تزرع بشكل ممتاز ، وان يدافع عنها فرسان شجعان ضد أعمال العنف التى تصدر عن العرب المجاورين ، وهم فى حالة سوء تفاهم على الدوام مع الآخرين لكن اليد العليا تكون لهم على الدوام فى كل الممارك التى تدور بين الفريقين .

ولم اشاهد فى مصر فلاحين اكثر سعادة من عرب طه ، فهناك تسيطر الحرية ويسود الرخاء تحت سيادة قوانين خيرة وتحت حكم أسرة محبوبة ، ولذلك ازدهرت هناك الصناعة والزراعة ، وليست ثمة قرى اكثر ثراء من قرى عرب طه فى المواشى وبخاصة فى البقر ، وليس هناك ارض توزع عليها المياه على نحو افضل . والسدود مبها معنى بها بشكل احسن . من اراضيهم . . هكذا جعل الشيخ على الطحيوى من هذه القرية واحدة من اغنى قرى الإقليم ، وهكذا على الدوام يكون تأثير الشيخ الطيب وعلى هذا النحو يكون اثر المقاومة المدعومة التى تقف ضد الابتزازات والمظالم . وقد كان هؤلاء مصدرا لآلاف المعونات ، ولسد مالا يحصى من احتياجات الفرنسيين وبشكل اكثر يسرا بكثير مما هو فى مقدور عشرين قرية فى جهة أخرى . . منذ وقت طويل كف هؤلاء العرب عن الإقامة تحت الخيام ، وعن ارتداء الثوب الأبيض « البرنس » . . وارتدوا نفس رداء الفلاحين ، أى ثوبا من الصوف الغامق ، وتجذب بينهم ، مثلما تجد بين بقية العرب رجالا سود البشرة ، وهؤلاء على الدوام فرسان ممتازون . ولقد شاهدهم معركة دارت بينهم وبين عرب الشواذى ، تبين لى خلالها انهم — أى عرب طه — لم يفقدوا مطلقا

الزجاج المتسائل حين أصبحوا فلاحين ، ولربما كنت أخذت على عاتقي أمر تدريبهم لو لم أكن قد توصلت الى اكتشاف تزيف الدم بين القريتين ١٠٠٠ ، وائك لوأجد مشقة كبيرة حين تحاول تصور السرعة التي ينتها بها عرب الطحيوى للمركة . ففى لمح البصر ، يخلع الواحد منهم اكمامه الطويلة ، ويصطنع من عملته حزاما يملؤه بالخرطوشات ، ويصرع على الفور غريمه ، بينما هذا الطحيوى يقاتل وحده ضد عشرة رجال .

وكل هؤلاء العرب الذين تناولتهم فى هذه الدراسة ، اذا ما استثنينا عرب الطحيوى الذين تحدثت للتو عنهم ، يظهرون نحو الفلاحين عجرة متزايدة يبدو وكأنهم رضعوها مع لبن امهاتهم . وحيث أن هؤلاء لايتصاهرون الا فيما بينهم فانهم يزعمون أنهم بذلك قد احتفظوا بدمهم نبيلاً نقياً ، خلق خصيصا لحكم مصر . وليس ثمة من بينهم فى مخيلتهم ، حتى الأطفال أنفسهم الذين التقيت بهم من لايشارك فى هذه المعركة .

ولابد أن تخيل أن من خاصية هذه المعركة أن تمنحهم شعورا بالقوة والسمو فوق المصريين ، وتجعلهم يتدمنون بنجاح على أمور بالفسة الجراة والجسارة ، فادعاءات كهذه لن تكون وبالا على اناس بهذه الدرجة من القوة سواء بفعل عددهم أو بتأثير تقاليدهم واسلحتهم ، دخلت ذات يوم - فى أحد مخيمات عرب ابي كرايم ، وجاء عديد من العرب الفضوليين ليجلسوا الى جوارى وتحدثوا باللغة مع حراسى ، لكن سرعان ما اصطحبهم واحد من رؤساء القبيلة موجها اليهم التعنيف الحاد . لقد الفيتهم أطفالا صدمتى ملابسهم وكان بين هؤلاء ابن الشيخ ، كان يرتدى ثوبا أبيض بالغ النعومة وطربوشا جميلا احمر اللون وخفين ، وما أن اقتربت منه حتى تال على الفور وبلهجة تزدري سامعه « انا بدوى ! » ولكنى لقيت عند عرب الجهة استقبالاً أفضل ، فقد هرعوا الى ، واستعلموا بفضول عن اخبار القاهرة ، ومع ذلك فلا بد أن ننسب ذلك الاستقبال لدوام الخوف والتلق .

ويمكن التعرف على قرى الفلاحين التي تسيطر عليها هذه القبائل ، فى أن سكان هذه القرى يبدون اقل خضوعا للسلطة ولقوانين البلاد ، كما لو أن حماية العرب تكفى لحمايتهم من العقاب الذى يستوجبه التمرد . ولقد كانت هذه القرى على الدوام هى آخر من يسدد الفرائث وأول من

يبدأ العصيان . وهنالك تستقبل قوات الحكومة استقبالا مسيئا . وفي الوقت الذي يفرط هؤلاء البؤساء في ثرواتهم للقبائل العربية بدرجة كبيرة من عدم التصبر ، فانهم يتجاسرون على رفض تقديم ما هو ضروري للفرق التي تمر ببلادهم ، ذلك انهم يابلون في الاغلات من سطوة سادة بعيسيين عنهم ، في حين يرضخون لطغاة يماثلون نسر برونثيوس \* هؤلاء الطغاة لا يتركون فرستهم لحظة . وفي اتليم المنيا تخضع قرى كبيرة مثل ديروط الشريف ، وبلجا ، ودشروط لنفوذ العريان الذين ياتون ليقبوا خيابهم على الابواب . وحين لايجزؤ شيوخ هذه القرى على مقاومة الوامر التي يلقونها من القاهرة مقاومة صريحة ، فانهم على الاقل يبدون شسنا من المجرمة وسوء النية والعنوانية يحتم عليها العرب ، مما يجعل مثل هذه المشاعر دائمة بينهم . صحيح ان الناس في اماكن اخرى ثرية في مواشيها ، ومسلحة تسليحا جيدا يسهل الدفاع عنها مثل قصرية المير ، لا يخشون من اقامة العرب في السهل ، اذ هم يستطيعون على الاقل ان يقاتلوا هؤلاء على جساترتهم اذا ما تجاروا على محاولة تجريبيها ، وسعداء هؤلاء الفلاحون الاتوياء لحد يسود بينهم هذا الطبع ! فهم يمشون هادئين ملاكا احرارا لعقاراتهم وثوراتهم التي لا تلبث ان تتضاعف على حساب ضعف الآخرين وخرابهم .

اما القرى التي تحاول بالرغم من ضعف قوتها ان تدافع عن استقلالها، فان العرب يقومون بغزوها بشكل مفلجى ، فيقتلون المشايخ ، ويستبدلون بهم غيرهم بشكل استبدادى، ويهدمون بيوت هؤلاء الذين يسمونهم اعداءهم، ويستولون على اراضيهم ويتصرفون بمهارة حتى ان الامر ينتهى بهم ان يحصلوا على محبة الآخرين .

اما تلك القرى التي تخضع كابر حتى للعرب بسبب ضعفها وموقعها القريب من الصحراء ، فانها تقدم لهم صدقاتها كابر طيعى ، ولكل شيء حسابه فهذه الصدقات تكلف الفلاحين اقل مما كان سيكبدتهم الحقن المكتشف .

\* من المعروف ان العقاب الذي انزله جويتر ببرونثيوس عقابا له على سرقة النار هو ان يصلب فوق جبل القوقاز وان ياتى النسر ليلتهم كبده الى ان يخلصه هرقل . ( المترجم ) .

ومن جهة أخرى فإن المثلثات العربية ، قليلة العدد ، والتي تمتلك ترى صغيرة شديدة القرب من بعضها البعض ، تظل على الدوام فى حالة نزاع على الحدود وعلى اقامة او تطع الحدود ، وعلى مسير قواتها المياه ، وحيث لا توجد محاكم تحسم قضايا من هذا النوع فإن سكان هذه القرى يحسمون هذه الأمور بأنفسهم فهم يقتتلون ويلاحقون بعضهم البعض بلا هوادة وبشراسة لا تصدق ، وحتى تنفى فى معظم الأحيان واحدة من المثلثات المتشاحنة عن بكرة أبيها ، وعندئذ يسئولى المنتصر دون مبالاة ببسط الشكليات، ودون رسميات أخرى على اراضى المهزومين، ويثبت فيها علاقته أو من يلوذون به . وفى نفس الوقت ، فإن الحكومة لا تقوم بأى معارضة لأى من هذه الحروب الأهلية الصغيرة كما لو كان لأبيهم فى كثير شخص من سيدفع الضريبة ، بل أنها تغبط نفسها على النوام ، فالضريبة ستؤدى برغم كل شيء مع أنها — أى الحكومة — فى كثير من الأحيان لا تحصل منها أى شيء ، ويكون السبب أن قادة جنودا قد هاجموا وخربوا بدورهم . أولئك الذين سبق لهم أن انتصروا .

وشكل خيام العرب معروف . فهذه مصنوعة من تماشى يسمى : خيش . يصنع بشكل اناسى فى ولاية النجوم . ويشكل العرب منه قطعة يبلغ طولها ٢٠ — ٣٠ قدما وعرضها ١٥ قدما ، ويدعمونها من أركانها الأربعة بأوتاد يبلغ ارتفاع كل منها ٤ أقدام كما يدعمونها من الوسط بوتردين يبلغ ارتفاعهما ستة أقدام مما يعطى للخيمة من أعلى هيكل السقف المسطح ، وهذه الخيام نسيجة مريحة . وحيث أنها شديدة الانخفاض ومثبتة بالحبال فهي لا تختشى مطلقا هبوب الرياح . وعندما يسقط المطر فإنه لا يمكن الدخول إليها الا من الأمام فهي الجهة الوحيدة المفتوحة .

وقد لاحظت فى هذه الخيام نوعا من المهد « الهودج » المصنوع من اعصان الغرائية « شجر زينة » بالغة الجفاف يبلغ سمكها بوصة ، ومصنعة بشكل تتداخل معه فيما بينها وعلى نحو مقبض ، وتقع هذا الهودج يضافى الشكل او بقعر ، ولونه داكن ، وهو منتظم من أعلى . ويوضع هذا الهودج فوق جبل ، ويستخدم فى نقل سيدة وطفلها . وخشب الهودج من جهة أخرى أسود اللون بفعل الدخان ويبطن قاعه بالجلد أو يكون كله فى بعض الأحيان من الجلد . فاختطاف النساء هو أخطر ما يخشاه العرب من أعدائهم . وبمعنى آخر فإن هذه الهودج المرتفعة قد صنعت لحمايتهم .

وتستخدم هذه الأسرة الصغيرة كذلك فى التنقل كما فى حالة القوافل .  
وفى انشاء قيامى بجولة بلغت ثلاثين فرسخا فى عرض الصحراء كانت  
الفرصة مواتية لىكى ارى على الدوام جبالا محملة بالنساء على هذا  
النحو ، ولابد انكم تتخيلون هذا القدر من الانتباه والعناية الذى يولييه  
ازواج هؤلاء النساء أو اهلوهن فى حراستهن ، حيث يعملون على الدوام  
بفرسان يسبقونهم بمسافة فرسخ كامل ليستكشفوا الطريق لهم .

ومما تجدر ملاحظته كذلك فى مخيمات العرب هو السلوق أو كلاب  
الصيد ، وتلقى هذه بالارانب والثعالب ، وتقدم خدمات جليلة عند صيد  
الغزلان التى يلذ العربان من اكل لحومها كثيرا ، وهم يطلقون على كلاب  
السلوق كنية « عدو الغزالة » ، وهذه الكلاب صهباء اللون ، وهى اصغر  
حجما من كلابنا واكثر منها سرعة ، ويلبسها العربى قطمعة من الجوخ  
ويضع فى رقبها عقدا ويمسكها على الدوام من مقودها ، وهم يجعلونها  
من سيوة حيث توجد منها اعداد هائلة ، وينفع فيها لاصحابها ثبنا كبيرا  
يلغ حوالى ٣٠ - ٤٠ بوطاقة ومن المثير ان تحصل لنفسك على واحد  
منها . ومع ذلك فقد توصل كثير من الفرنسيين الى الحصول على هذه  
الكلاب وبعض منها فى الوقت الحالى فى حوزة بعض الجنرالات (١٩) .

---

(١٩) شاهدت فى مخارات وكهوف مصر الوسطى رسوما مصرية تثير  
الفضول الى حد كبير ، وتمثل بدقة طريقة صيد الغزال هذه ، ومن  
المثير ان نعرف فيها على كلب السلوق نفسه ، وتشكل رسوم هذه  
المخارات وشروحها جزءا من (الجلد الرابع للمصور القديمة، اللوحة ٦٦) .

## الفصل الثاني

### العرب المحاربون او العربان المروعة او الرجل

لما الطبقة الناقية من العرب فتشمل اولئك الذين يضربون خياسهم فى اعماق الصحراء او على مشارف مصر ، والذين هم فى حارب مع الحكومة فى بعض الاحيان ، وفى احيان اخرى فى سلم معها ، ولا تمتلك هذه الطبقة ارضا ولا تدفع ضريبة على الاطلاق ، وهى الطبقة الاكثر عددا والاكثر قوة سواء غنيا تملك من خيول واسلحة او غيبا لديها من جمال وماشية . وهى التى تمد القوافل بالجمال الذى تحتسج اليها لأغراض العجالة .

ولا يسمح لنا تغيير هذه القبائل المستقر لمكان اقامتها ، وان كان يتم فى معظم الاحيان فى اطار نفس المنطقة ، لا يسمح لنا ذلك بمعونة اسمائها . وفى الفترة التى كنت اتجول فيها فى مصر الوسطى ، كانت قبائل اولاد على هى اكثر هذه القبائل قوة ، وكانت مخيماتها تقع فى احو بالقرب من المنيا . وكانت تضم الف حصان . لما قبيلة الفوايد فكان يبلغ عدد أفرادها الالف من بينهم ثلاثمائة فارس ، وبالإضافة الى ذلك فقد كان ثمة قبسائل اخرى فى أبى الهدر والبدرمان وديروط والقرب من سمالوط فى اقليم بنى سويف وفى ضواحي الفيوم .

ويغير هؤلاء البدو من منطقة اقامتهم اذا ما بدت لهم منطقة اخرى اكثر وفرة فى مراعيها او فى مياهها او اكثر مواتاة لمشروعاتهم ولاغراضهم فى السلب واعمال العنف ، فهؤلاء فى الواقع سواء فى حالة حرب او فى حالة سلم يمارسون نفس القدر من اعمال السلب والعنف ، مع غارق واحد ، هو أنهم يمارسونها فى حالة السلم بعيدا عن مقر اقامتهم المعروفة وبحيطة اكبر ، فالبدا فى حالة السلم لا يرتكبون السرقات ولا

أعمال القتل مطلقا بالقرب من مخيمهم ، وإنما في أماكن تبعد عن ذلك بفراسخ كثيرة .

وحيث أنه ليست لكثير من هذه القبائل الجوابه من مصالح في داخل البلاد فأنها ترتكب جرائمها دون أن تلقى عقبا ، مادامت تحرص على أن تظل على بعد كاف داخل الصحراء حيث يطعمون مائيتهم على قدر ما يستطيعون . لكنهم في غالب الأحيان يصسكرون على حافة مصر ، وهناك توجد كثير من الأراضي التي كانت تزرع في الماضي ، كما تستدل على ذلك من الآثار التي يحفرها العرب هناك والتي ترميها الرمال كل يوم أكثر فأكثر . وفي غالب الأحيان ، تصل مياه الفيضان لتغمر هذه الأراضي ، وعندئذ ينمو نوع من البرسيم بالغ القصر له أوراق بالغة النعومة تفتح في شوائبه ورود صفراء ويسمونه كتة ، وهو علف جيد بالنسبة للمواشي ، في جودة البرسيم نفسه بل ويتفوق عليه حسبما يذكر أهل البلاد الذين كثيرا ما يربونهم يذهبون الى هناك ليحصوه لخيولهم ، وهو قصير لكنه بالغ الكثافة . وبعد الفيضانات الكبرى « كفيضان سنة ١٨٠٠ » ينمو هذا النبات بغرة شديدة حتى أن العرب يرهون هناك مائيتهم وخيولهم وجمالهم على نحو واسع ، ويتراخون في الذهاب لانتلاف محاصيل علف الفلاحين ، وعام كهذا هو عام مبارك بالنسبة للقبائل العربية التي تأتي لتطلى بخيولها كل حواف الصحراء . لذلك شاهدنا في عام ١٨٠١ مجيء كثير من القبائل العربية من افريقيا بهد أن جذبتها انبلاء الفيضان الكبير . وينمو في هذه المناطق بالإضافة الى محصول العلف هذا ، نباتات عطرية صغيرة الحجم تشكل مرعى ممتازا للخراف والماعز . ونتيجة لذلك تقوم الماشية بتسميد هذه الأراضي، وبهذه الطريقة يكون من السهل إعادة زراعتها لولا فقر وكسل الفلاحين أو بالأحرى لا مبالاة الحكام . والأرض التي تنتج هذه النباتات هي في واقع الأمر صلبة لحد تستصعب معه على المحراث المصري أن يشقها ، ومع ذلك فلماذا الإصرار على استخدام المحراث لهذا النوع من الأراضي ؟ أنها سوداء كالأرض المزروعة لكنها أكثر تماسكا ، ويبدو لي أنها تدين بذلك لوجود طمي بالغ النعومة قد تكتس على مر السنين وازداد جفافه أكثر فأكثر ، لأن الجزء الأكثر نعومة من الطمي هو الذي يقوم النهر بتوسيعه جد بعيد من مجرى النيل ، وتشكل الأراضي من هذا النوع في بعض

الاحيان مراعى شاسعة تمتد حتى الريف ، وتجعل الحدود الحقيقية للأراضى المزروعة غير مؤكدة ، ولهذا المراعى المليئة بالورود الحراء والبنفسجية ، شكل ورائحة جذابة ، لذلك فان حواف الصحراء على بعض المساطق مثل البحر والأصهار ولمكن اخرى ، تبعث على البهجة أكثر مما يبعث عليها اى مكان آخر فى مصر التى تعرف بانها لاتنبو بها الأعشاب .

هكذا يضطر العرب الذين يطردون من الاراضى المزروعة اذن على الهروب الى مشارف الصحراء او الى أبعد من ذلك بقليل ، وبينما يظنهم الناس قد ذهبوا الى بعيد فانهم يكونون شديدي القرب من مصر ، ومن اولئك الذين يطاردونهم ، مخفين وراء تل من الرمال .. وهم يعرفون الأبلر وكلفة البحيرات والبرك التى يكونها الفيضان فيلجأون اليها عندما يتوغلون داخل الرمال . واذا ماتتبع آثار جمالهم فستفقدك هذه الآثار بالتاكيد الى امكان توجد بها مياه صالحة . فلا يتخيلن احد انه يسبب اذى للبريان اذا ماثن عليهم الحرب كما حدث ، فليسوف يعرفون مقبلا ان هناك صففا من الجنود المشاة يجدون فى اثرهم ، عندئذ يحلون حوبهم وخيلهم ويبعثون بها الى الأمام ثم يتجمعون كلهم فوق خيولهم ليطعموا اشياءهم وبذلك يصبحون بعيدا عن مقاتلك قبل ان تدرك انت ما صاروا هم اليه ، واذا ملحت بهم فسيدافعون بسهولة عن انفسهم ضد اناس منهكين قليلي العدد ، وهم يسببون لعدوهم من الأذى أكثر بكثير مما يسببه هو لهم ، وسرعان ما يرهقون مشاة نصف مهزومين بفعل العطش ، وأخيرا فاذا كان عدوهم فى حالة تيكه من دفعهم ، فانهم يهربون ويلحقون بجمالهم فى املاق اصباق الصحراء لدرجة يستحيل مطاردتهم هناك .. وليس هذا هو كل شيء ، فعندما يعرفون ان صف الجنود قد مضى ، فانهم يستمعون موقعهم بكل ثقة ، عارفين جيدا ان العدو لن يهاجمهم مرة ثانية ، اما اذا حدث ذلك ، فانهم على اتم استعداد للقيام بنفس التاكتيك ، الذى لا يسبب لهم على الاطلاق اى تعب ، ويهربون من المطاردة الثانية ، بسهولة اكبر ،

وقد شاهدت كثيرا من القبائل تتصرف على هذا النحو فى مصر العليا ومصر السفلى ، ولم يستطع لا الفرسان ولا المشاة ان يسببوا لهم اذى اذى ، وليس فى مقدور عدوهم ان يحطم لهم اى شيء اللهم الا هدم بعض



الأكوخ واشغال النار في بعض اكوام القش . وللمعرب مزية لا تقدر بثمن ، هي ان لهم داخل القرى نفسها مستودعات مضمونة للحبوب وللبن الاخرى التي قد تسبب لهم الارتباك عند هروبهم ، وهم يحصلون بلا مشقة على هذه الخدمة الجيلة من جانب شيوخ القرى وليس لاحد من سبيل التعرف على هذه المستودعات .

وعندما طردت قبيلة اولاد على من ضواحي الاسكندرية في صيف عام ١٨٠٠ فقد انسحبت هذه القبيلة الى الصعيد دون ان يخبر احد الشك في ( امكانية ) حدوث ذلك ، اذ بينما كنا نظنها مقبلة في ليبيا ، قدم اكثر من ألف فارس ليقبوا في ادمو مع عدد هائل من الجبال ، وارحنا ذات يوم ان نفاجىء فريتا معاديا كبيرا منهم عند مدينة سمالوط ، لكن النبا بلغهم في الوقت المناسب فانتفدوا كل شيء على وجه التقريب دون ان يخسروا رجلا واحدا .

#### هل يستحيل اذن اللحاق بقبيلة معادية ؟

لو حدث ان كان لدينا العديد من فرق الجنود ، موزعة توزيعا جيدا وبسلاح جيد ، يركبون الجبال ويحملون معهم مؤنات تموينية ومياه بحيث تهون من عملية مطاردة الفارين منهم لمدة خمسة او ستة ايام في الصحراء اذا اقتضى الامر ، واذا امكنا زيادة على ذلك ان نعتمد على جواسيس مخلصين ، فليس هناك من شك في اننا في النهاية سنلحق بالجبال المحيلة ، فاستلاب كهذه هي بالتأكيد اكثر الامور اغراء للجنود كي يواصلوا هذه الجولات المرهقة . . اذا حدث وتم لنا ذلك فلا يمكن ان تكون ثمة قبيلة عربية على الاطلاق ، ومهما كانت توتها ، لا يمكنها الا ان تتحطم في ظرف عدة ايام ، او على الاقل ، تتبعر وتحرمن من نسائها واطفالها وخيائها وجمالها ومؤونتها بعد مطاردة كهذه تتم على يد خمسمائة فارس — جبال « هجانة » تتوفر لهم قيادة جيدة ، ومعلومات موثوقة ومعرفة بالطرق الصحيحة التي ينبغي ان يسلكوها (٢٠) .

---

(٢٠) ينبغي ان نحكم على هذا الزعم عن طريق النتائج الاولى التي حصل عليها الفرنسيون عن طريق تنظيم مشايخ اقباهو اثناء حملتهم على مصر .

هنا يثور سؤال آخر . هل يمكن عقد السلم مع قبيلة جواله ؟ أم انه ينبغي علينا ان نعامل كل القبائل من هذا النوع باعتبارها معادية ؟ دون ان نستثنى من ذلك حتى العسرب المزارعين الذين يقيمون داخل مصر .

إذا ما وضعنا في اعتبارنا أننا لن نحصل على أى نفع من وجود العرب ، بل وجئنا أنهم بالعكس قادرون على الاضرار بنا في كل لحظة بدعم حركات التمرد والاسهام فيها ، وبتقوية صفوف جانب مناوئ لنا تد يظهر في الألق ، فسوف يكون لزاما علينا ألا نترك قبيلة واحدة في حالة سلم ما لم يمتنعنا من ذلك خوفنا من ان تنقصنا الجبال والخيول على الفور في أسواق مصر . وفي الحقيقة ، فانه من الممكن ان نشجع تربية هذه الحيوانات في الأرياف وأن ننتج منها في فترة محددة كمية كافية ، لكن هذه الفترة لن تأتي الا بعد وقت جد طويل ، وهكذا سنجازف — لو فعلنا ذلك — بأن تنقصنا هذه الحيوانات فجأة وعلى الفور . ومع ذلك فان ثمة اسبابا هامة تدعونا بالأا نسمح لأية واحدة من هذه القبائل الجديدة التي تأتي كل عام الى مصر بأن تثبت أقدامها فوق أرض البلاد ، فان أغرابا يعسكرون على أبواب بلد لا يمكنهم في الواقع الا أن يكونوا أعداء مزعجين ، غاية كارثة يكونها أمثال هؤلاء القوم في واد بمثل شيق مصر ! وهل هي سياسة سليمة على الإطلاق ان تقاسي داخل البلاد من فرق معادية على هذا النحو وأن تنظر « البلاد » راضخة لتجار الخيول هؤلاء ؟ وهل من الحكمة أن ندعمهم ينتزعون الجزء الأكبر من أموال البلاد؟ بماذا تنبئ كل هذه الهجرات القادمة من بلاد البربر حتى ولو لم يكن بينهم المقاتلات التي تخرج من هذه البلاد ولديها هذه الرغبة المتأججة في الإثراء على حساب مصر ، وهو الأمر الذي لم يعد بالنسبة لهؤلاء إلا امرا بالغ السهولة بفضل تراخي الحكومات ؟ وإذا ما حسبنا حساب كل شيء لوجدنا ان من الواجب ألا نتفلسف مع هذه القبائل الجديدة، حيث أنه لا توجد معاهدة على الإطلاق لا تحتوي على منافع متبادلة .

أما عن العرب الملتزمين « أى الذين يقومون بوظيفة ملتزم » ، فإذا ما اعترفنا بأن ممتلكاتهم تعود كلها الى حوادث غزو ، وأن حوادث الغزو هذه تعود الى عهد جد قريب حتى أن الملاك الحقيقيين يستطيعون المطالبة

.. باستعانتها أو استرجاعها بأنفسهم فقد يكون من المحتم بلا جدال أن يطرد من مصر ، وبلا أى استثناء كل العرب الذين أقبلوا فيها أو على الأقل أن تنقص من مكنتهم ليصبحوا مجرد مزارعين بسطاء ، وأن نجعلهم يعدلون عن حمل السلاح وركوب الخيل وأن ينفذوا من حول رؤسائهم وأن يتخلوا عن نظام القبيلة الذى يحكمهم وأخيرا أن ندمجهم بالشعب . . ومع ذلك فإن الأمر ليس على هذا النحو ببساطة ، فكثير من القرى إنما هى ملك خاص للعرب اذ يوجد فى صعيد مصر منذ وقت لا تحيه الذاكرة عرب ملاك بل ومستقلون ، كانوا على الدوام حكاما خلاصا فى مقاطعاتهم حتى فى زمن المالك ، بل أن الكثيرين منهم هناك قد نالوا تقدير الناس لما لهم على الزراعة من فضل وما بذلوه فى سبيلها من عناية .

أذن فليس بالإمكان سوى أن تلغى الابتزازات القديمة والحديثة وأن ندع للعرب الأراضى التى فى حوزتهم بفعل حق الملكية القديمة ، ومع ذلك فإن الأمر يقتضى منا فى كل الحالات أن نمنع وأن نستبعد بكل شدة عادات وطباع الخيام ، فما أن يفرق هؤلاء الفرسان فى القرى، حتى يجذوا لزمام عليهم بالضرورة أن يهبوا أنفسهم للزراعة، وعندئذ سنرى انقطاع أحداث السلب كما سينتهى بخاصة ذلك التهايز المحزن بين العرب والفلاحين ، وقد لا يكون من الظلم أن نمنع هؤلاء الرجال من أن يقيموا خيامهم ، أو أن نبعدهم كلية عن البلاد اذا ما قاوموا ، ذلك أن بلدا متحضرا ، من اليسر على راكبي الخيل أن يهبوه ، لا ينبغي له مطلقا أن يتسامح فى وجود هذا العدد الكبير من العاطلين ، الذين ليس لهم من مقر ثابت والذين لا يتحملون مسئولية فعالهم ويضعون أنفسهم فوق القانون .

ومهما يكن من أمر فإن المرء لا يستطيع أن ينظر باستخفاف الى التزايد المطرد فى أعداد هؤلاء الفرسان الطموحين ، الذين لا يخشعون لشيء ، والذين يهددون بغزو غير منظور لكل الأراضى بل والسيطرة على البلاد . ولربما نصحوا ذات يوم ناذرا بالوقت قد فات ، فلا نستطيع أن نقاوم مائة قبيلة ، تضم كل منها خمسمائة فارس . . أن يكون جيش كهذا ، اذا ماحدث أن تجمع ، قويا لحد يمكنه من السيطرة على مصر !!

لنصف الى هذه القوة العسكرية قوة المال الذى يتكسب دونها انقطاع فى ايديهم بنفس القدر الذى تلتصق به العرب المزارعين . وفى

الواقع فان حصيلة بيع ماشيتهم ، والاجور التي يحصلونها من التوافل، ومنتجات خيولهم وجسمالهم وعائد تجارتهم .. كل ذلك يؤدي لذهاب كميات كبيرة من النقود الى خيالهم ، وهذه تبلغ رقما لا يعود ١/١٠ منه الى مصر ثمنا لضرورات حياتهم ، لان العرب يكادون لا يحتاجون لشيء .

ان النهم للمال والفضة عند العرب هو اولى غرائزهم ، فمجرد رؤية قطعة من الذهب تجعل اساريهم تنفرج ، وتجعل الابتسامة ترسم على شفاههم ، وهم لا يقدرّون رجلا الا لما يمتلك من المال او الا بقدر ما يأملون في الحصول عليه منه ، واذا ما نقص مال هذا الرجل ، فسوف يجد فيهم انسا لا يمكن الوصول اليهم او الحصول على شفقتهم . ولكم شاهدت ابنساء الاسكدرية البؤساء الذين عانوا من مجاعة مفرقة وهم يستجلبون هؤلاء العرب شبه جاثين على ركبهم والنقد في ايديهم ان يبيعوهم بعض مكاييل من القمح لاطعام اسرهم التي ظلت على الطوى مدة يومين ، لكن العرب انكاثوا يرفضون البيع بالدينى ، فقلب البدوى قطعة من صخر لا يمكن ان تلين الا على رنين الذهب ، والذهب وحده (٢١)

ويحتفظ العرب الرجل على الدوام ، سواء كانوا في حالة حرب او في حالة سلم مع حكام البلاد ، بملاقات متينة مع بعض شيوخ القرى تؤمن لهم المواد والمعونات الخفية ، بمعنى ان هؤلاء الشيوخ يكونون على استعداد لاختفاء امتعة هؤلاء البدو وحبوبهم واشنيتهم . ولربما اخفى شيخ عنده ذات نهار ما سرقه العرب منه هو شخصا ليلة البارحة . ومع ذلك ، فهكذا قدر على الفلاحين ان يقبلوا يد قاطلهم ، فلقد سمعت

---

(٢١) كثيرة هي النقود التي كسبها العرب من الاسكدرية اثناء شهور الحصار الستة ، فبعد ان ضيق الانجليز عليها الخناق ، لم يعد بإمكانها ان تحصل على اية مئونات من رشيد لاعت طريق البر ولا عن طريق البحر . وفي النهاية امكن للعرب ان يدخلوا اليها بالحبوب بالطواف حول بحيرة مريوط ، وحيث لم يكن الناس يستهلكون هناك الا المواد الحيوية، وكان العرب وحدهم هم الذين يقدمونها بأسعار متزايدة ، فمن الواضح انهم قد نزعوا من هذا المكان اكثر من مليونى قطعة ذهبية اذ كان يوجد هناك اكثر من الفى شخص ينفق كل منهم سكيناً « عملة ذهبية تبيية » كل يوم ، بالإضافة الى انهم كانوا يسلمون اليها كل يوم ١٣ ألف جراية ، ( حصة طعام الهدى في اليوم )

الفلاحين يصنون بالطيبة والشرف هذا الفريق من العرب الذين لا يظنونهم وانما يكتفون فقط بنهبهم .

وهذا الخطأ الذي يقرره الشيخ في تقبلهم هذه المخازن السرية هو واحد من أهم الأخطاء التي تنود الى الدمار والهلاك . وقد رايت من هؤلاء الشيخوخ ، الذين أصيبوا بمعنى البصيرة لحد يجعل منهم شهداء ثمنا لكلمة صدرت منهم ، يحتفظون بثروة العربان على حساب ثرواتهم الخاصة ، بل وعلى حساب حريتهم : بل لقد رايت من بينهم من يتحملون عقبا مريضا . ويتلقون لوقت طويل عذاب الضرب بالمصى قبل ان يرغبوا على الاعتراف على المخازن التي اوكلت اليهم . لكن هذا ليس من البطولة في شيء فليست احب هذا الوفاء للوعود التي انتزعت بفعل الرعب . لكنني اليوم هؤلاء « الشيخوخ » لرعيهم وضمهم ، واعيب عليهم ان يجدوا انفسهم بفعل وضمهم المزرى قد انساقوا الى العبل ضد الحكومة والى حياية اعدائها . وكما يتألم المرء وهو يرى العقوبات القاسية الى هذا الحد والمهينة الى هذا الحد وهي تطبق على مسنين يحظون بالتقديس بين ذويهم ، على رجال هم قضاة ورجال دين وسادة في وقت معا وفي نفس المكان الذي يحكمونه . ولما كنت قد وجدت نفسي شاهدا على حوادث مماثلة ، فقد كنت آمل على الأمل ان امثلة هذه القسوة سوف تخلص الشيخوخ من عيوبهم هذه وان سيكون بمقدورها ان تنود خطاهم نحو مصالحهم الحقيقية ، ولن تكون هذه المصالح مطلقا في معاونة شذاذ آفاق يتعاقبون عليهم ، ويأتون لينهبوهم كل بدوره . . لكن هذه المصالح ستكون في الارتباط بالحكومة التي تظل على الدوام هي هي ، ثم يطلب هؤلاء الشيخوخ بعد ذلك دعمهم ضد قطاع الطرق هؤلاء فالضرائب التي يدفعونها للحكومة تعطيم الحق في هذه الحماية .

ومع ذلك فهكذا تضى الأمور ، فشيخ البلد يقوم مرة باستقبال طيب للفرق « العسكرية » التي تمر بقريته لطاردة العربان ، ومرة أخرى لهؤلاء العربان انفسهم الذين يصادون المرور بقريته بعد ذلك ، وسوف تكون مساعدة هذا البائس مفرطة لو انه لم يلق المهانة على يد احد الفريقين عقبا له على استقباله الفريق الآخر وتقسيم عونه للفريقين . .

ذات مرة وجدت في اشمنت حوالى العشرين من العربان الذين اشتروا بالسلب ، وعندما شاهدوا مجيء متحمة جنودنا خرجوا من القرية ، وامتلوا خيولهم . . كان الطرفان « جنودنا والعربان » جسد قرييين من بعضهما البعض لحد لا يمكن معه ان يستمد ايها للمعركة ، فتلاصق العربان غيبا بينهم واطلقوا بنادقهم من خلف ظهورهم ثم وضعوها مستقيمة فوق الركبة علامة على الحرب ، ثم مضوا في تحيد وفي شكل استعراضى ، وحيث كان عدد من تجمع من جنودنا لم يبلغ بعد ، سبعة او ثمانية ، وحيث كان هؤلاء مرتبكين بامتعتهم ، فقد اضطروا ان يتركوا هؤلاء يفلتون دون ان يجسدا في اثرهم ، وان ينتهزوا فرصة اخرى لعقاب هؤلاء اللصوص النهابين . وعلى الفور هرع الينا شيوخ القرية واستقبلونا بحفاوة . . وكان هذا الاستقبال الحافل هو نفس الاستقبال الذى قدموه منذ زمن قصير للعربان ، ولقد قالوا لينا عنهم الكثير من السوء ، بنفس القدر الذى قالوه عنا لهم ، دون شك .

راينا من قبل ان العرب الجوابين يطعمون خيولهم ومواشيهم في اغلب الاحيان على مشارف الصحراء ، من تلك الاعشاب التى تنمو هناك، لكن ذلك لا يحدث الا عندما لا يستطيعون ان يذهبوا العلف من الفلاحين، حين لا يكون اولئك البدو كثيرين للحد الذى يكفى للاتامة هناك وعندما يخشون بعض المقالمة . اما في الحالة الاخرى فلن ينقصهم العلف مطلقا ، ولن يحترموا من جانبهم شيئا على الاطلاق ، فهم يمررون خيولهم على المحاصيل سواء كانت نافضة نمت ثمارها او ما زالت بعد عشيا اخضر ، ويجعلونها تاكل القمح او الشعير وهو لا يزال بعد نباتا صغيرا ، وانه لتناقض فريد ان ترى التلف الذى تحدثه الفرسات الطليقة بين القمح والبرسيم ثم ترى بعد قليل جواد شيخ القرية « وصاحب الحقل » مقيدا الى وتد يرمى السكلا ونبات الحلفا ، ويحدث في بعض الاحيان ان يشمر السكان بالمهانة من هذا السلوك ، وعندئذ - اذا ما توفر لديهم بعض الفرسان - يطبقون على العربان ولا يتردد هؤلاء مطلقا في الهروب ، ولكن اذا ما فقد العرب رجلا في المعركة ، فسوف تكون معركة لا تلوح لهما نهاية ، اذ ياتى اهل القتل في اعداد كبيرة يطالبون بالقصاص ، فلا ينالون بغيثهم ، وعندئذ ياتون ليحصلوا على ذلك بأيديهم ، وهنا تتبادل حوادث القتل والاغتصاب الفردى بين

الغريتين ، فقتل عربى واحد فى قرية يمكن ان يعرض هذه القرية لاضطهاد تبيلة باكملها لسنوات طوال ، ولابد من ارضاء هذه القبيلة على وجه السرعة ، اذا شامت هذه القرية الا ترى نفسها وقد خربت ، وكم شاهدت من قرى لم تعد فى الوقت الحاضر ، ويمد ان مرت بحالة كهذه ، سوى اطلال هجرها سكانها لأنها تجرات على خوض معركة ، كان العرب فيها هم المعتدين .

وعندما يأتى الفيضان ، ينسحب البدو نهائيا من العمل لمدة ثلاثة اشهر ، وتكون هذه الفترة بالنسبة اليهم هى ابأس شهور السنة وأكثرها مدعاة للأسى ، فليس هناك ما يطفئ تيفظ الصحراء الرهيب ، تلك التى لا يجدون ملصا من البقاء فى اسرارها ، ويحتم الأمر ان تفرش خيولهم اغصان القبرهندى ، لكن ذلك ليس بمؤاخر على الدوام . عندئذ يضطرون خلال هذه الفترة ان يقدموا الشعير لخيولهم ، وان كان ثمة ما يزيد على ثمانية اشهر من شهور السنة الاثنى عشر لا يحدث فيها ذلك على الاطلاق .

وينتهى الفيضان، ولا يلبث محصول الذرة ان ينضج . وعندئذ تبدأ جولات الغزو والسلب . وبالسوء حظ تلك القرى التى يبلغ ضعفها حدا لا يستطيع معه ان تذود من محاصيلها ! ذلك ان الذرة هى خبز العربان ، وهى نفس الوقت خبز الفلاحين لكن الأمر ينتهى بان تقول الذرة - ولو فى جزء منها على الأقل الى الأولين .. الى هؤلاء الأكثر قوة .

ويكون طعام العربان الرجل عادة أكثر سوءا من طعام الآخرين ، واغلب هؤلاء غمر حسنى الهندام ، ولون ملابسهم حائل كما انهم أكثر استعصاء على التعب ، لذلك فهلامهم أكثر جودا ، وهى صارمة على الدوام وقاسية . وزى الفرسان على الدوام ابيض اللون ، اما ملابس السيدات وملابس الرجالين منهم فذات لون قاتم . ويرى فى مخيمات كثير من الرجال يضعون عصائب على أعينهم كما يحدث فى مدن مصر ، ذلك انه من الخطأ الاعتقاد بان هؤلاء البدو لا يصابون بالرمد ، وهم لا يبذلون أى جهد ليحصلوا على الشفاء ، بل يظلون يلزمون خيامهم وينامون فى الظل كما تعودوا . وليس لهؤلاء العربان من عمل ثابت . وان

الضواري الشهباء يبحثون عن غريبتهم ، ولا يتوتفون الا حيث تستقيم  
الأسلابه .

وفضلا عن ذلك فان تقاليدهم وعاداتهم هي نفس عادات وتقاليدهم  
العرب الآخرين . فهم راضون سنعاء بحظهم في الحياة وبما يملكون ،  
وكما ينال الشيخ التقديس من قبل قبيلته فان رب الأسرة يلقى احترامه  
من قبل أسرته ، واذا ما امتلك الرجل منهم حصاتين وجلين وأربعة  
خراف وبنديقية وخيمة ، فلقد نال كل ما يبغي وتحقت كل رغباته وحيث  
لا توجد لهم في الغالب من قوانين الا القوانين الأسرية . . وحيث لا يندمون  
أية ضرائب ولا يلتزمون بأى التزامات أخرى فان مخيماتهم تبدو صورة  
مجسمة حرة لا يتمتع بمثلها مجتمع آخر على الإطلاق . ولا يهتم  
بدوى ما الا بنفسه ومكسبه وشؤون حياته هو وبفعاله ، وعندما يتم  
تجهيز قافلة فانه يؤجر جماله ويتدر هو الثمن الذي يرتضيه دون ان  
يكون عليه أن يوضح امره لأشيقه ولا لأحد آخر ، وهو يضخم من ماله  
الخاص عن طريق بيع الجمال الصغيرة والفرسان الصغيرة واللبان  
غلاته وعن طريق عائد التجارة التي يمكنه ان يمارسها . وبهذه الطريقة  
يبلغ سن الشيخوخة وهو مبجل عزيز على اولاده ويموت بعد ان يكون  
قد استمتع طيلة حياته بأثمن ثروات الرجل : الصحة والحرية .  
وعند موته يترك ابنائه وهم متزوجون ، بل وآباء ، أغنياء بثروته هو ،  
وبما يكونون قد كسبوه .

واكثر العرب يؤسا هم أولئك الذين لا يمتلكون على الإطلاق خيولا  
ولا جمالا لأنفسهم ، بل ولا خيالا وان كانوا يمتلكون بعض الحمير التي  
يربونها ويبيعونها في الأسواق ، لكن هؤلاء الرجال لا ييحدون تعساء،  
فعمودهم على ضروب الحرمان يجنبهم عدم التوافق مع الحياة ، وهم  
لا يرغبون في ثروات يجهلون أو ينتظرون اليها على أنها أبعد منالا مما  
تسبب لهم ، لسكتهم سرعان ما يفلتون من هذا القدر ، فحيث أن طموحهم  
الرئيسي ينحصر في أن يكونوا ملاكا للفرس فانهم لا يلبثون أن يحصلوا على  
ثمنها عن طريق بيع بعض الخراف وبعض الحمير . وبعد اقتناء الفرس  
يتزودون في اقرب وقت ممكن ببندقية وسيف . وفي النهاية يرى المرء  
هؤلاء الناس ، في أشد حالاتهم يؤسا ، لسكتهم يشاركون شيوخ



اتحد الممالك في التماسي بأنهم بدو ، يكون الاحتقار للأوروبيين ،  
ولكل ما هو غير عربي ..

وعلى العموم ، فأننا لا نجد لدى البدو البسطاء إلا الأشياء التي  
تعد من ضرورات الضروريات (٢٢) .

ولكن ينبغي ألا نحكم بما نرى عند هؤلاء على رؤساء القبائل ،  
بمصادر دخل هؤلاء لا تجعلهم في منزلة أقل من العرب الملاك ، وكبار  
شيوخهم وعائلاتهم وكذلك شيوخهم الشرعيون هم أغنياء بالنسبة  
للعمريين ، فهم يحصلون على دخول كبيرة من القوافل ، ويتخذون العديد  
من الزوجات والكثير من الخدم ، وطعامهم بسيط لكنه صحي  
ووزير ، والأسلحة الجميلة والخيول الجميلة ليست أمورا نادرة هناك ،  
ويشتري هؤلاء في بعض الأحيان عبيدا سودا ليتخذوا منهم غرسنا .

وقلنا ننقص البدو الذخيرة التي يطلقونها ، وهم يتزودون بها من  
تري تصنع فيها بشكل سرى ، ومع ذلك فهذه الذخيرة من نوع رديء ،  
وتدهم قرية الآشمنين الكبيرة بالكثير منها ، إذ يوجد هناك من  
البارود أكثر مما يوجد في أي مكان ، بفضل اتساع أطلال هرمبوليس  
الكبرى ، التي بنيت فوقها المدينة (٢٣) .

وعلى الرغم من أن العرب الرحل قلقون متوجسون فانه يحدث مع  
ذلك أن يؤخذوا على غرة وعندئذ يكتفون — ما أن يلمحوا الفرق  
المسكية — بترحيل خيولهم وجمالهم على وجه السرعة ، هذا أن لم  
يسعفهم الوقت باقتلاع خيولهم ، وغفد لا يبقى في الخيل سوى  
النساء والشيوخ والأطفال ، ويستقبل هؤلاء استقبالا طيبا ، فنظن  
نفسك في معسكر صديق ولست في معسكر أعداء تجد في البحث عنهم .

(٢٢) من هذه الضرورات التبغ، وإن يكن ينقص الكثيرين منهم ، وهم  
يجدون في البحث عنه ليتخذوا منه نشوقا وسعوطا ؛ وقد رأيت عربا  
يدوثون على كبريتهم للحصول عليه ، لدرجة أنهم كانوا يتحدثون ببودة  
مع جنودنا .

(٢٣) تهيه هذه الخرائب ترابا تحدفنا عنه من قبل ، يحتوى على  
الكثير من ملح البارود .

ومع ذلك فقد يكون من الميسور في بعض الأحيان أن تنتزع قطعاً من ضخمة من الجبال ، لأن هذه القبائل لا تقيم لأنفسها حرساً على الإطلاق إذا لم تكن تعرف أنها ملاحقة وإن ثمة من يجد في أثرها . فهم في العساة يعمدون بمئات من هذه الجبال إلى ثلاثة رجال أو أربعة ليتودعوا إلى المرعى ، وفي بعض الأحيان تذهب كل جمال القافلة التي يبلغ عددها ألفين لترعى على بعد فرسخ من المخيم دونما حراسة من أي نوع . .

ولقد استقرت بعض هذه القبائل الجوالّة منذ وقت طويل في مصر ، وظلت على الدوام في حالة سلم مع الحكومات ، بل تقدم إليها المساعدات ، ولا يمكن لأحد أن يوجه إلى سلوكها لوماً ، فهو في مجوعه سلوك طيب لا يتعارض مع مصالحهم ويمكن أن نورد أمثلة على ذلك في قبائل : طرابين ، الحويطت ، بلى . . وهؤلاء يقومون بكل قوافل السويس ، وسوريا ، ولولاهم لكانت تجارة البحر الأحمر عن طريق السويس بالغة المشقة .

ويختلف نطق اللغة العربية على لسان البدو تبعاً عنه على لسان الفلاحين .

ولا يمكن لنا أن نعد لهجة البدو جافة ، كما أنها لا تخلو من زخارف . ففيها بعض الرقة ، ويمتريها تنغم في الصوت أكثر رخاوة ، وتتكلم على لسانهم بعض المقاطع ولكن يعيها أنها مبتورة وأكثر صعوبة . وهم يتحدثون على الدوام تقريباً بصوت خفيض ، وتكون ألسنتهم حينذاك مطبقة ، ونبراتهم متنوعة ، وصوتهم منغماً وغنائياً في أجاديب البسيطة ، وفي المنقشة الاعتيادية ، ويرفع أغلبهم صوته حتى يصبح ثاقباً ، ولم أسمع مطلقاً حرفاً يلفظونه أكثر نقاء من حرف الزاى ، وبشكل أكثر جاذبية حرف الزاى اللافتة « الذال » ويفعلون ذلك دون أن يخطئ هذان الحرفان على الإطلاق ، وأخيراً فإن كل مخارج الألفاظ الخاصة باللغة العربية ، بل وحرف الخاء والتنغيمات الحلقية تأخذ في اقوالهم رقة خاصة تقترب من اللغات الأوربية وتثير الدهشة في مصر ، ويتضح هذا بشكل خاص في نطق الجيم التي يلفظها الكثيرون ليس غير

معظمه كما يفعل أبناء القاهرة وانما معطشة كما يفعل العرب بشكل عام ، ولكن يشوبها نوع من نطق الزاى على طريقة الأطفال أو الرجال المخنثين . وتسمع من أقوالهم حرف الشاء بشكل قاطع الرقة فى الكلمات التى يدخل فى تكوينها هذا الحرف . وقد سمعته مرات كثيرة يفتنون أثناء تجوالهم على الخيول فى لحن رتيب يخرج من الألف ، وليس لكلماته معنى مفهوم ، ويكاد يتم الأمر بدون أن تنقر شفاههم ويلاحظ المرء فى هذا اللحن تكرار المقطع « ديا » على الدوام . ويتميز البدو مموما بهذه الطريقة فى الغناء من بين أسلقتهم . وفى النهاية فأنهم يظهرون الكثير من الاحتار للطريقة التى يتحدث بها المصريون ، وينطقون بها اللغة العربية .



ولقد تبدو الملاحظات التى كتبت موشوعا لهذه المذكرة ، والتى كتبت بشكل مبثلى فى مسرح الأحداث بهدف وحيد هو دراسة العرب وتقاليدهم ، قد تبدو بلا هدف مالم تكن ترتبط بلطال عام ، أو كتبت قد اقتصرمت على تقديم بعض النتائج التى تعلق روح الفريء المتصف .

ولكى نكتفى فى هذه المجالة بكثير هذه الملاحظات أهمية ، فإن من الميسور أن نضيف الى ما سبق أن العرب المستقرين فى مصر يتزايدون أكثر فأكثر سنواء فى أعدادهم أو فى قوتهم وأنهم سيمسولون يوما على السلطة اذا لم يوضع حد لوقف غزواتهم . وفى الواقع ، فهما تكن أصول وأعداد هؤلاء العرب سواء هؤلاء الذين يسكنون الخيام منهم أو أولئك الذين يطنون القرى ، وسواء كانوا يزرعون أو يستزعمون الأراضى أو كانوا لا يشتغلون الا بالقوافل وتجارة المسائية ودواب الجبل ، وسواء كانوا ينتمون الى القبائل العربية القادمة من آسيا أو تلك التى قدمت من شمال أفريقيا ، وسواء تلك التى تعيش فى حرب أو سلم مع حكام البلاد ، فأننا نرى أنه تتوحد فيهم جيعا نفس الروح ، وأنهم يرون أنفسهم أعلى قدرا من أبناء البلاد الشرعيين أو المولودين على ضلف النيل ، وأنهم ينظرون الى مصر باعتبارها مقارا خلصنا بهم . أن خلاص هذه البلاد يمكن

فى الانقسام الحالى بين هذه القبائل ، الامر الذى يعود بشكل خاص الى غيبة زعيم. يتولى قيادتهم ويكمون فى ذلك تسويا وتقاررا للحد الكافى ، واذا كان هناك حدث. هلم قد جاء ليشتت اهتمام حكم مصر ، فقد تكون الاشارة الاولى كافية لاطلاق الشرارة ، واذا كان يحق لنا ان نوازن بين الترجيحات عندما يتصل الامر بالمستقبل ، فلا بد ان ينظر المرء الى هذا التطور باعتباره واحدا من اكثر التطورات التى تتهدد الشرق احتمالا .

اما عن طباع العرب كما صورتها ، فسوف يرى القارئ ان هذه الصورة ، لا تتفق فى كثير مع ما اشتهر من هذه الامة من النزاهة والصراحة ، وغير ذلك مما منحه لهؤلاء القوم هذا العدد الكبير من الرحالة . ومع ذلك فقد اردت ان انتقل الى القارئ باخلاص ، نفس الانطباع الذى تكون لدى وانا بينهم ، فى مخيلاتهم .

لقد كان على ان اقدم العرب كما قد رأيتهم فى مصر ، وليس كما هم فى اماكن اخرى . اما الافكار التى راودتنى وانا اراهم يسلكون ، والانطباعات التى استولت على اثناء تدوينى هذه الاسكار ، فقد احتفظت بها لنفسى ، مقتنعا بان للرحالة هدفا يختلف عن هدف المؤرخ ، وان عليه قبل كل شيء ، ان يولى اعتباره للمشاعر البسيطة التى شعر بها .

ومما لا شك فيه ان بدو الصحراء ، الذين يطبق عليهم هذا الوصف ، وبخاصة ابناء شبه الجزيرة العربية ، يقدمون ملامح مختلفة بعض الشيء عما قيل ، واننى اميل الى الاقتناع ، بانهم ليسوا فقط اقل جشعا ، وبأن لهم تقاليد اكثر لياقة ، ولكن ، فوق ذلك ، بانهم يمارسون كرم الضيافة ، وبانهم يصدقون فى ارتباطاتهم ، وفى بقية الامور ؛ بل ان هؤلاء الذين رأيتهم فى مصر ، انفسهم ، لا تنقصهم مطلقا الفضائل الاسرية ، لكن وضع هؤلاء يختلف عن وضع الاولين ، فنراء البلاد التى يترددون عليها ، فى مقبل تحول الصحراء ، يثير فيهم اكثر فاكتر ، الجشع والنهم والبخل ، امهات الفساد والخيانة وكل الجرائم .

ومن جهة أخرى ، فإن مثال المصريين والماليك ، لم يفعل سوى  
 أن أضف إلى عيوبهم ؛ فلقد ولد عندهم احتياجات كانوا يجهلون بها في  
 صحرائهم ، وأنشأوا غريبة على تقاليدهم البسيطة والأبوية ، والتي تشكل  
 الطابع المميز للعرب ، وهو طابع ملحوظ لحدّ ظلّ معهم على نفس حاله  
 منذ زمان لا تحيه الذاكرة ، دون أن تمتريه سوى تحورات بالغة الرهافة ،  
 على الرقم من أن دين محمد ، قد بوأ هذه الأمة عروشا كثيرة ، في  
 آسيا ، وإفريقيا ، وأوروبا .



الدراسة السابعة :

## القصير والعبادة

دي بوا - ريميه

العنوان الأصلي للدراسة : مقالة عن مدينة  
القصير وضواحيها ، وعن الأقوام التي  
تسكن هذه المنطقة ، التي كانت ، في  
الزمنة القديمة ، مقرا لسكان الكهوف ..





تقع مدينة القصير على شواطئ البحر الأحمر ، عند خط عرض ٥٦ ٥١ شمالا ، وخط طول ١٢ ٤٤ ٢١ ، وهى تنهض بالقرب من الشاطئ ، فوق ساحل رملى ، يبلغ مائتين وخمسين مترا ، أما عرضها فلا يزيد على مائة وخمسين من الأمتار .

وبيوت هذه المدينة منخفضة ، وهى مبنية عادة من الطوب النيمى . وإليك هذا الوصف الموجز للتقسيم المعتاد لهذه البيوت : ثمة فناء كبير ، وفوق الباب مقصورة صغيرة مربعة الشكل ، وينتهى هذا الطابق العلوى بشرقة ، أما الطابق الأخرى ، فيضم حجرة أو حجرتين بالفتح الضيق ، يلتصق بهما من الخلف جدار السور . ويستخدم الفناء مخزنا ، وإن كان هذا أمرا لا يخلو من عيب ، فى بلد لا ينثر به سقوط الأمطار .

وليس ثمة بيت فسير مزود بخزان للمياه . وتأتى المياه التى يستخدمها الأثرياء من عين تسمى درفاوة التى تقع على بعد ثمانية أو تسعة فراسخ من المدينة ، ومياه هذه العين طيبة لحد ما ، وتباع فى القصير بسعر ٢٠-٣٠ بارة للقرية الواحدة (١) ، وتزن هذه حوالى تسعة كيلوجرامات . وعلى بعد أربعة أو خمسة فراسخ ، توجد عين مياه أخرى وإن كانت مياهها أقل جودة ، ولخيرا ، فقد حفر الفرنسيون على مسافة قصيرة الى الجنوب الغربى من المدينة بئرا يبلغ عمقها مترا واحدا فى مجرى جاف لأحد الأخوار ، ومياه هذه البئر ليست مالحة على الإطلاق ، وإن كانت ماسخة الطعم بقدر ما هى ثقيلة ، الأمر الذى ينبى أن ننسبه الى سلفات الجير التى تحتفظ بها المياه بعد تحللها . ويمكن لهذه البئر أن تمد بالمياه ما يقرب من ستمائة رجل كل يوم .

وماذن المساجد هناك أقل ارتفاعا بكثير عن مثيلاتها فى مصر ، مما يعطى لمحا للقصير مظهرا من بقية مدن هذه البلاد .

(١) بارة أو مخينى وهى عملة صغيرة تساوى حوالى ٩ drachmes أى درهم ، وهو نقد رومائى ثم فرنسى ضئيل القيمة .

أما القصر ، فيقع خلف المدينة ، ويتحكم فيها بشكل تام ، فهو مشيد فوق هضبة مرتفعة من الجير الحجري ، مغطاة بزلط مستدير الشكل ، يتجمع في سلسلة من تلال تتكون كلها من هذا الزلط المستدير من مختلف الصخور ، وتعد هذه التلال التي تتحدر نحو البحر ، بمثابة نهاية لسلسلة الجبال العالية التي تحد الأفق من جهة الغرب .

وكان هذا القصر عند مجيء الفرنسيين ، عبارة عن معين تملوه أربعة أبراج ، ويبلغ سمك جدرانه من ٢٦ إلى ٣٠ فيسمتقرا . وهي مبنية بالجير الجري ، ولا يحتوي القصر الا على عدد صغير من الغرف . كما يضم بئرا محفورة بأكلها في الجص ، مياهها بالفئة الثقيل ومائلة للملوحة وتكاد لا تستخدم الا في سقاية المشية . وعلى بعد مائة خطوة من الواجهة الجنوبية الغربية خارج القصر ، يوجد خزان مياه تدب ، مكسو بالطوب يمكنه أن يحتوى على ٥٠ مترا مكعبا من المياه ، وتنتهي الى قاع الخزان مسارب عديدة ، تهبط من التلال المحيطة والجاورة ، بحيث يمتلئ الخزان بشكل طبيعي بالمياه في فصل الأمطار .

وفي الجهة الأخرى من الحصن ( القصر ) كان يوجد مسجد وعديد من الأضرحة أو المقابر هدمها الفرنسيون .

ولا يقطن هذه المدينة الا تجار قدامون من مصر ومن الجزيرة العربية ، ويتوجه هؤلاء وأولئك اليها لاتبام أعمالهم ، ومع ذلك فليس لهذه المدينة سكان بمعنى الكلمة : بل ان شيوخ المدينة انفسهم هم تجار من ينبع ، اكثروا من الحكومة المصرية جزءا من الضرائب الجبركية ( اى حصلوا على الترام الجمارك هناك ) .

وضواحي القصر صحراوية تماما ، وفيها عدا بعض نباتات الحنظل ، وهي مع ذلك نادرة ، لا يكاد المرء يرى اى نوع من الخفزة . والأرض هناك رملية ، وان كنا نجد عند الاقتراب من البحر طبقات من الصلصال ، على عمق بضعة ديسيمترات تحت الرمال .

والميناء مفتوح تماما أمام رياح الشرق ، أما من جهة الغرب فتحصى الشاطئ من الشمال هضبة من الشمعلب المرجانية تمتد لمسافة مائتين وخمسين مترا داخل البحر ، وهذه الهضبة تتحدر بشكل راسى ، وتأتى

السفن لترسو عندها ، نهى على نحو ما مرغا طبيعى بنائه المديخ (١).  
 فى هذا المكان ، لكن المياه تعطى فى حالات المد العالى بحوالى  
 ثلاثة ديسيمترات ، أما فى حالات المد المنخفض ، فيبدو سطحها خشا  
 وعرا لحد لا يستطيع المرء معه ان يسير فوقه الا بمشقة بالغة . ومن  
 المدهش حقا ان السكان لم يفكروا فى رفع هذه الهضبة قليلا ( عن  
 طريق الردم فوقها ) لكى يقيموا فوقها مدينتهم ، ولو ان ذلك قد تم لكان  
 بالامكان تحميل وتنزيل البضائع بسهولة بالغة ، أما فى حالتنا الراهنة ،  
 فان الناس مضطرون لنقل البضائع فى قوارب لا يمكن ان تقترب من  
 الشاطئ الا لمسافة ثمانية او عشرة امتار ، حيث يصبح البحر ضحل  
 المعق كلها اقترينا من المدينة ثم يكون عليهم بعد ذلك ان يفوضوا فى  
 المياه ، حاملين البضائع فوق اكتافهم .

اما قاع الميناء فهو من الرمال ، وهو مستو بعض الشيء ، ومع  
 ذلك فحيث ان قلسات ( جبال ) غالبية السفن العربية رديئة — اذ تصنع  
 من التيل او حتى من سعف النخيل (٢) ، مما يجعلها ضعيفة لحد كبير  
 بالنسبة لمثيلاتها المصنوعة من القنب — فانها ( أى السفن العربية )  
 تتعرض فى بعض الأحيان لحوادث قد لا تصيب مطلقا غيرها من السفن  
 الأنضل تجهيزا .

ويشكل الميناء عند الغرب منحنى مقعرا ، تحيط به سلسلة من اجار  
 مرجانية ، وينتهى بصخرة من نفس النوع ، تتوغل داخل البحر بحوالى  
 خمسمائة متر جهة الشرق ، وعلى بعد حوالى الف متر من هذه الصخرة ،  
 ويحاذئ الساحل ، يقابل المرء صخرة أخرى يبلغ طولها ٢٠٠ متر ، وهى  
 بالمثل من المرجان ، وتغطيها المياه عندها يكون المد عاليا ويبدأ  
 الشاطئ ( البلاج ) ، الذى يظل شديد الانخفاض حتى هذه النقطة ، فى  
 الارتفاع ، وسرعان مايشكل تلالا من الزلط المستدير .

ويقع ميناء القصير عند مداخل وديان تؤدي كلها الى مصر ، وقد

(١) جنس حيوانات بحرية من المجونات .

(٢) تصنع هذه الجبال من السعف الذى يغطى اغصان النخيل .

أدى ذلك إلى حثية اختياره على الدوام مستودعا لتجارة مصر العليا مع الجزيرة العربية . وترسل مصر إلى هناك في الوقت الحاضر ، القمح والقيق والفول والشعير والزيت و مواد غذائية أخرى ، وترسل الجزيرة العربية البن واللؤلؤ والصمغ والموسيلين وبعض الأمتشة من صناعة الهند (٢) .

و أثناء إقامتي في القصر ، ابتداء من الأول من بريريل من العام السابع حتى منتصف ترميدور ( من منتصف مايو ١٧٩٩ حتى بداية أغسطس ) كانت الرياح التي تهب على الميناء قادمة من شمال الشرق ، وقد دخلت إلى الميناء خلال هذه المدة خمسون سفينة ، يبلغ عدد أعضائها تسع أو عشر سفن ، كانت قادمة من جدة ، وكان خمس أو ست من هذه السفن مملوكة لعرب الساحل ، وكانت السفن الأخرى قادمة من ينبع . ولم تكن هذه السفن ذات سطوح على الإطلاق ، وهي تتبع الساحل على الدوام في رحلاتها ، وعندما تكون الرياح بالغة الشدة مانها تحتمى في خلجان الساحل الصغيرة ، فهي لا تخضع عرض البحر إلا إذا كانت تهرب

عبارة

هنا يسكنون البحر الأحمر بالبحر المالح ، أما في السويس فيسكنون بحر القلزم ، ويبلغ أقوى مد للبحر رأبته في القصر حوالي ٨ ديسيمترات ، وأن كان في العادة لا يتجاوز ٥ ديسيمترات ، بينما يبلغ مد البحر في السويس حوالي المترين .

وبطول الساحل ، يجد المرء كميات كبيرة من الأسفنج والمرجان ووثائق تتنوع ألوانها بالغة الجمال ، ومن جهة أخرى فالساحل هنا غزير الأسماك ، واستطيع أن أقدم فكرة عن ذلك ، إذا ما تحدثت عن الطريقة التي كان الجنود الفرنسيون يصيدون بها السمك ، فقد كانوا يأخذونه أخذاً باليد ، بعد أن يقتلوه بضربة من السيف أو العصا .

وتسكن هذا الساحل تبسقل من صيادي الأسماك ، كان لها

---

(٣) لمزيد من التفاصيل ، انظر : دراسة موجزة من تجاره الصيد مع الجزيرة العربية ، وصف مصر .

يقيم على شاطئ البحر الى الشمال من القصر ، هجره سكته عند  
تدومنا ، وكان كل كوخ من اكواخ هذا المخيم يغطى بمظلم السلاحف .  
ولا تعيش هذه الشعب الا على لكل الاسماك وهم يحصلون عليها بالشبك  
او على اسنة الرماح ، ويجففون منها كيكات كبيرة ، ويأتون الى القصر  
ليقبضوا بها بعض الأشياء اللازمة لهم . ويستخدم هذا السمك المجفف  
فى تموين السفن . ليس مما يلفت النظر اننا قرأنا فى حكايات  
القدمين (٤) أن الساحل الغربى للبحر الأحمر ، كانت تسكنه شعوب  
جوابة اكلة للأسماك ، كان من بينهم شعب من اكلى السلاحف (٥) ، وكان  
المراد يستخدمون صيدت هذه السلاحف لتغطية اكواخهم ؟ هكذا  
ان كان لهذا القبائل الضعيفة أن تفلت من حكم الزمن ، وأن تعيش  
القرن طو القرون ، محافظة على حريتها وعاداتها ، فى حين تقلبت  
احوال ام كثيرة بالقوة ، فتغيرت أنظمتها وحكوماتها بشكل تام ،  
وتغيرت مع ما تغير عاداتها ، وفى نفس الوقت الذى اندثرت فيه ام  
أخرى ، فلم يعد هناك ما يدل عليها الا ما نقرؤه عنها فى حكايات  
المؤرخين . ولكن دهشنا ازاء ذلك لأبد على الفور أن نقول ، فالقبوس  
فى واقع الأمر لا يثير اطمعاع الآخرين وحنقهم ، وهكذا سوف تظل البلاد  
الخصيبة ترى على الدوام سادة جندا ، فى حين تبقى رمال الصحراء  
العاطلة ملكا لآخر أعفاد ملاكها الأول .

ولا يزال يعيش فى هذه المنطقة شعب يستحق — بسبب تشابهه مع  
سكان الكهوف القدامى — أن نخجل فى بعض التفاصيل حول عاداته  
وتقاليده ، هؤلاء هم المبادىء ، وهم أبناء قبيلة جوابة تشغل الجبال  
الواقعة الى الشرق من نهر النيل ، فى جنوب وادى القصر وهى منطقة  
كانت تعرف فيما مضى باسم : Troglodytique « أى سكان الكهوف » .

(٤) أنظر بطليموس Patymouth ، الكتاب الرابع ، سترابون  
Strabon ، الكتاب السادس عشر ، يوزامياس Pozamias  
الكتاب الأول ، تيودور ألسلى ، الكتاب الثالث والثلاثون ، بلين ،  
الكتاب السادس .

(٥) يشع ديودور الصقلى اكلة السلاحف فى جزر قريبة من سواحل  
اثيوبيا ، ويذكر بلين أن بعضا منهم يوجدون بالقرب من الخليج الفارسى .

وتبتلك هذه القبيلة كفلك عدة ترى على الشط الأيمن ( الشرقى ) للنيل  
أهبا دراو ، الشيخ عامر ، الرديسة .

ويذبح كل التجار الذين يمارسون تجارة القصر الى العبادة ٢٣  
مدنى عن الجبل المحل ومكيالا صغيرا (٦) من القمح او الفول او الدقيق  
او الشعير حسبها يحبل الجبل ، كما يأخذ العبادة عينا ٢٠/١ من  
الخراف والماعز والدجاج والمواد التموينية الأخرى ، من تلك الأنواع التى  
تصل الى القصير . وقد أقام هؤلاء مخيمهم الذى نصبوه فى ضواحي  
هذه المدينة بقصد منع أى نوع من النهرب ( من الاتاوة ) من جانب  
التجار ، ومن جهة أخرى فقد كان العبادة ملزمين - فى مقابل هذه  
الاتاوة - بالسهر على تأمين الطريق وحراسة القوافل ، لكنهم لا يهتمون  
مطلقا بالرد على الحوادث وبخاصة تلك التى يمكن أن تأتى من جانب  
عربان الحويطات الذين ينتشرون فى هذه الصحراوات حتى تلزم  
السويس ، وتندور بين هاتين القبيلتين ( العبادة والحويطات ) حرب  
مستمرة منذ زمان لاتعيه الذاكرة .

وفى وقت معين ، عندما يشكل القمح والمواد الغذائية الأخرى  
التي يقدمها التجار اكوابا هائلة وسط المخيم ، يتزايد عدد العبادة ،  
ويبدأون يمارسون تقسيم هذه الحصيلة فيما بينهم . ولم أتكن من الحصول  
على أية معلومات حول الطريقة التى يتم بها هذا التقسيم ، ومع ذلك فمن  
الممكن الافتراض أن الأمر لا يتم على الدوام ونفسه « للخدمة والأمانة » إذ  
ينتهى بمشاجرات فى معظم الأحيان .

وعدد الخيول لدى العبادة بالغ القلة ، هؤلاء لا يركبون سوى  
الهجين (٧) ولا يختلف هذا الهجين عن الجمل الا فى أن تاجه الأول أكثر  
رشيقة بكثير ، كما أنه أكثر خفة وسرعة انثناء الجرى ، ولا تشبه  
السروج التى يستخدمها العبادة لجبالهم على الإطلاق تلك التى تستخدم  
فى مصر ، إذ هى تتكون من قطع مختلفة من الخشب مربوطة الى بعضها  
البعض بسيور من الجلد ، كما أنها ليست ضخمة الحجم ، ومع ذلك يجد

(٦) ١/٢٤ من الأردب .

(7) Dromadaire des Naturalistes.

الإنسان نفسه فيها مستريحا بشكل تام لأن الخشب محفور بطريقة تجعل السطح مقعرا مما يمنع الجسم من أن « يحمل » على جانب واحد ، وفى العادة ييسط فوق هذا السطح المقعر جلد خروف ، ومن فوق هذه السروج ، لا تتدلى سائتا الراكب كما يحدث للفارس المتطى حصانا ، لكنه يكون جالسا ، وسائتا ممتدتان الى الأمام ، تستقران أو تتشابكان فوق رقبة الهجين .

ويربى العبيدة عددا هائلا من الجبال ، يؤجرون أو يبيعون جزءا منها للقوافل ، وهذا فيما اعتقد هو مصدر الجزء الأكبر من دخلهم ، وهم يجنون من جبالهم كمية كبيرة من السنامكى والصمغ العربى ، كما يستغلون هناك النطرون والشبة وبعض المواد المعدنية الأخرى . فإذا ما أضفنا الى ذلك بعض العبيد الذين يجلبونهم من الحبشة ، فسوف نكون فكرة عن أهم السلع التى يأتى العبيدة ليستبدلوا بها فى أسواق مصر العليا ، الحبوب والمنسوجات والأتية من كل نوع ، وكل ما يحتاجون اليه .

والعبيدة مسلمون ، لكن البلاد التى يقطنونها وكذا الحياة النشطة التى يحيونها على الغوام ، لا تمكنهم من اتباع كل مبادئ هذه الديانة باخلاص وورع .

ويتباهى العبيدة بأنهم شعب محارب ، وإذا ما بادرت أحدهم بالسؤال : من أنت ؟ فإنه يجيبك على الفور فى زهو واعتداد : أنا جندى . ولقد أجاب على هذا النحو كل الذين بادرتهم بهذا السؤال .

ويزعم العبيدة بأن بايكانهم ان يضعوا تحت السلاح ألفى رجل ، ولعل هذا تقدير مبالغ فيه ، وينبئ أن تنشكك فى صحته ، ولو على الأقل ، تبعة لذلك الميل الذى يفرى الناس عادة بالمبالغة فى قوة أمتهم .

وتتيح لهم طريقتهم فى الترحال أن يجتازوا بلدا صحراويا بالغ الاتساع ، فيقطعون ما يبلغ مائة فرسخ فى أربعة أيام ، ويحمل معه كل راكب هجين ، ثلاث قرب تتحلى بطول السرج : واحدة مليئة بالفول ،

وأخرى بالمياه ، أما القرية الثالثة وهي أصغر فتمتلئ بالحقيق . وبمى  
بعض الأحيان ، وبعد أن يكونوا قد تجهزوا على هذا النحو ، يجمع  
المعبادة ويتوغلون لمسافة مائة أو مائة وخمسين فرسخا فى الصحراء ،  
ليسافغوا بالهجوم قبيلة هم فى حالة حرب معها ، أو ليكنوا ، لمى  
انتظار مرور قافلة ينفون انتهائها .

ويختلف المعبادة اختلافا تلبا فى تقاليدهم ولهجتهم وعاداتهم ، وبينهم  
الجمانية عن القبائل العربية التى تشغل مثلهم الصحراوات التى تحيط  
بمصر ، فالعربان يلبس البشرة يلقون رعوهم ، ويرتدون المعبادة ،  
ويلبسون ملابسهم ، ولديهم أسلحة نارية ورماح يبلغ طولها من أربعة  
الى خمسة أمتار ، وسيف مقوسة للغاية . الخ . أما المعبادة  
مسود البشرة ، لكن ملابسهم تشابه لمى كثير مع ملامح الأوربيين ،  
وشعرهم جعد بشكل طبيعى ، لكنه ليس كوبر الصوف ، وهم يحتفظون  
به طويلا يتدلى على اكتافهم ، اذ هم لا يلقون رعوهم مطلقا . وتنحصر  
ملابسهم لمى قطعة من القماش يقدونها أعلى السكيتين ، ولا تدلى  
لابعد من منتصف الخذين .

وحيث أنهم يتعرفون شبه عراة لهذه الشمس الحارقة فالهم  
— وذلك دون شك لكى يخفوا من اثرها ولكى يحتفظوا ببشرتهم  
ناعمة — يدهنون كل جسمهم بالدهون . بل أنهم يصفون كمية منه فوق  
رأسهم قبل أن يكون قد ذاب بشكل تام ، حتى ليظن المرء أنهم يغيبون  
المساحيق على طريقة الأوربيين . وشيوخهم ، هم وحدهم الذين  
يرتدون المعبادة لمى بعض الأحيان ، بالأسفافة الى قميص يستخدمونه  
أحيانا بمثابة ثوب .

وليست لدى المعبادة أسلحة نارية على الإطلاق ، ويتسلح الرجل  
منهم برمحين يبلغ طول الواحد منها ١٦٠ — ١٨٠ سم ، وسيف  
مستقيم ذى حدين ، وسكين مقوسة يلقونها لمى فزاعهم اليسرى ، ويحمل  
بمشابة سلاح دفاعى — ترسا مسنديرة من جلد الفيل يبلغ قطرها ٦٠ —  
٧٠ سم .

ويعرف المعبادة اللغة العربية وان كانت لهم لغة أخرى خاصة بهم .



وربما كان هؤلاء ينحدرون من أصلاب تلك الشغوب الجوابية التي كانت تبثك هذه المناطق في الزمن القديم ، والتي حدثنا عنهم المؤلفون القدامى (٨) فالتر جلوديت Troglodytes ( أى سكان الكهوف ) كما يذكر هؤلاء المؤلفون ، كانوا يحملون من السلاح دروعا مستديرة من الجلد ، ورمحا ، وكانوا عراة فيما عدا منطقة الفخذين والكفيتين ، كما كانوا يمارسون القتال ، وأخيرا فقد كانت لهم طريقة لدفع الموتى خاصة بهم ، فقد كانوا يلتقون بالحجارة فوق الجثة حتى تغطيها بشكل تام ، وتمارس هذه الطريقة حتى اليوم عند العبادة ؛ وفي واقع الأمر ، فقد لفت البعض نظري في وادي القصير الى أكوام عديدة من الحجارة ، كانت هي متاجر لبعض العبادة الذين قتلوا في إحدى المعارك ، وقد رأيت كذلك في منتصف الطريق - على بعد ثلاثة فراسخ من القصير - تلالا من الحجارة ، وقد قيل لي إن من المحتمل أن هذه الحجارة تغطي جثة أحد أثرياء التجار ، قد قتل على يد العيران .

ويبدو أن ديودور الصقلي كان يخشى ، وهو يدون منذ ثمانين سنة عشر قرنا ، أن يحمل الناس ما يقصه عن سكان الكهوف ( الترجلوديت ) على أنه خرافات ، ولها نحن نجد من جديد على نفس الأرض ، وبنفس الطريقة ، نفس الأسلحة والجزء الأكبر من استخداماتها الكثيرة . وإنه لأمر بيعث على الدهشة حقا أن يكون بمقدورنا على هذا النحو ، وبعد انصرام كل هذه القرون ، أن نكون شهودا على صدق مؤرخ .

ولم نشاهد أية خيبة في ذلك المعسكر الذي كان للعبادة بالقرب من القصير . وفي أثناء النهار عندما تلتهب حرارة الشمس ، يضع الرجل من هؤلاء على الأرض سرج جملة ، ويقيم تجاهه على مسافة معينة حجرا يماثله في الارتفاع ثم يضع على هاتين الدعامتين سيفه ورمحه ، ثم يسط فوق ذلك كله جلد خروف ، وهكذا ينهض بيت ، قلما يبلغ ارتفاعه في الواقع أكثر من أربعة أقدام ، ولا يستطيع الرجل بدخله إلا أن يكون راكدا ، ويحتوى آخزون من الشمس في كهوف صغيرة

(٨) سترابون ، الكتاب السادس عشر ، ديودور الصقلي .  
الكتاب الثالث .

كانوا قد حفروها على منحدر الجبل ، ولم أشاهد في هذا المسكر نساء على الإطلاق ، ومن المحتمل الى حد كبير ان تكون الأكواخ والخيام في المعسكرات التي توجد بها نساء ، أكثر من تلك اتساعا لحد طفيف .

ولقد دفعني الفضول مرات كثيرة للذهاب الى المعبدة ، وكنت على الدوام التي استقبلاطيا ، كنت الفرنسي الوحيد الذي كانوا يرونه بشكل اعتيادي ، وسرعان ما نظروا الى كواحد من اصحاتهم ، وكنت شاهدة لمرات كثيرة على مبايحتهم وضروب لهوهم .

وليس للرقص عندهم أية علاقة بذلك الرقص الشهواني الخليع الذي للمصريين ، فهو يتخذ على الدوام صورة المعارك والمبارزات ، فيتسلح الراقصون بالرمح أو السيف وبالدرع . ويخطون وهم يتبادلون الهجوم خطوات عديدة بخفة وقوة . وتتجلى المهارة في الخفاج من الدرع وتحل الهزيمة بن يترك درعه تلمس ، وفي كثير من الاحيان ، يندفع احد الراقصين نحو واحد من المشاهدين ، ويضع طرف سيفه على صدره مطلقا صيحة عالية ينبغى ان يجيب عليها بكلمة : عبادة ! وعندئذ يبتعد الراقص عنه ويواصل رقصه .

وليس في موسيقاهم ذلك الشجن وتلك الرتابة اللتان لموسيقى المصريين : والمعارف هو الشاعر نفسه في ذات الوقت ، وتدون أغانيه حول امتداح أمجاد قبيلته والشجعان من أبنائها . وفي بعض الأحيان كذلك تتخذ من العشق موضوعا لها . ويجلس القوم من حوله يستمعون في صمت وهو يغنى في مصاحبة نوع من المندولين ، وفي هذه الحالة تستطيع أن ترى المرح أو الخوف ، الشفقة أو الغضب يرتسم كل بدوره على وجوه السامعين .

ويبلغ عدد الوديان التي يمكن لنا ان نسلكها كي نتوجه من القصير الى مصر اذا ما سلطنا في ذلك بما أخبرنا به العبادة ، ستة وديان أو سبعة ، ويبلغ طول ذلك الوادي الذي عبرته مرتين حوالى الأربعين فرسحا ، تبسط ابتداء من القصير حتى بير الأتيل .

وفي البداية يجد المرء على بعد فرسخين من القصير ، ذلك الخور

المسمى للبلاجة (٩) ، ومياهه مسقية شتافا ، لكنها ثقيلة ومذاقها غير مستساغ ، ويؤمن العرب أنها ضارة بالصحة الى حد كبير ، ولذلك لهم لا يستخدمونها الا لجبالهم ، ومع ذلك فقد شربت منها ، ونقل نفس الشيء كثير من الفرنسيين دون أن يصيبن منها اى اذى . وعلى شواطئ هذا الخور يرى المرء بعض اشجار النخيل ، وقليل من الخضرة والونا من الطيور ، وبخاصة الحمام البرى الذى اقام هناك اعشاشه ، وهو يسكن فى تجويفات الصخور ويعيش على الحبوب التى تنساقط من التوائل .

ولا يمكن أن يعد اللباجة شيئا فى بلاد خصيبة اما فى وسط العزلة وبين تحولة الجبال الجرداء فان خورا وبضعة اشجار بالاضافة الى بعض الكتائنات الحية تكفى لجعل من المنطقة مكانا بهيجا . ولعل هذا التعبير لن يبدو مبالغا فيه بالنسبة لهؤلاء الذين سبق لهم أن استراحوا فى هذا المكان وهم يعبرون هذه الصحراء . ولسوء الحظ ، فان مياه هذا الخور تضعف فى الرمال على بعد مسافة قصيرة من منبعه . ومع ذلك فى فصل الأمطار يصبح هذا الخور فى بعض الأحيان نهرا بالغ الاهمية يصب فى البحر بالقرب من القصير .

وعلى بعد أربعة عشر فرسخا من هذه الواحة الصغيرة يجد المرء ميوئا تسمى المدوة ، وهذه عبارة عن تقويع محفورة فى الرمال فى سفح هضاب منحدر من الشمس ، وبعد من ذلك بفرسخ وربع الفرسخ ، يجد المرء عين مياه مشابهة تسمى الاحمر ، كما يلح هنا وهناك بعض الاكاسيا ( الست المستحية ) (١٠) وقد عثفتها لموجدتها تبلغ العشرين فى كل مساحة الوادى .

وقد قطعنا المسافة من الاحمر الى الجبة فى ثلاث عشرة ساعة

---

(٩) قبل الوصول الى اللباجة ، يلح المرء على اليمين ، المحاجر التى استخرجت منها الاحجار التى استخدمت فى بناء القصير .  
(10) *Mimosa nilitica*.

ونصف الساعة ، هناك تجتمع الوديان الأخرى ، وآبارها بالفة الاتساع ، يكسوها الترميد ، وثمة منحدر يسمح للحيوانات بالنزول حتى سطح الماء ، وعيق هذا المنحدر لا يزيد عن متر تحت سطح الأرض ؛ ويلجأ المرء بالقرب من الآبار بعض بقايا الأبنية القديمة ، وخانها مسفرا يستخدم لايواء المسافرين .

وابتداء من القصير حتى ما قبل الجبنة بحوالى فرسخ كنا نسير على الدوام بين جبال عالية وعارية ، من الحجر الجيرى ، والشست ، والجرانيت ، والحجر الرملى ، والرخام ، تتباعد قليلا بعضها عن البعض الآخر ، بل ثمة بعض السلاسل التى لا يتجاوز عرضها ١٢ - ١٥ مترا ، وهناك تمتد قطع الصخور الطريق لحد أن جميلين محملين ، يسيران فى طلبورين يجدان صعوبة فى أن يمرا فيها معا فى وقت واحد ، لكن الوادى عند الجبنة يبدأ فى الاتساع لحد كبير وسرعان ما يشكل سهلا واسعا من الرمال ، ينتهى فى اتجاه مصر، بمسلسلة من تلال صغيرة من الرمال والزلط المستدير .

بعد الجبنة ببضعة فراسخ لحنا على البعد أرضا مزروعة ، آه ! كم بدت مصر جميلة فى عيني فى هذا الوقت وهى التى تلمبا بدت لى مقبضة على النحو الذى مضى . وهذه النفايات من اشجار النخيل التى لا يكاد المرء يحس بأن لها ظلًا .. كم جعلتنى افتقد غابات وطنى ! وكم بدت لى مترا للتفصرة والانتعاش ! لها النيل .. ايكفى حقا أن اصور ما شعرت به ما أن رأيته عند خروجى من تلك الصحراء التى قضيت بها مدة ثلاثة أشهر ؟ كانت الخمسين تهب عندئذ بلفحتها الملتهبة ، لكن هذه المياه العذبة ، موطن امانينا ، كانت تخفف من التأثير السيئ لتلك الرياح ، فكم يخفف الأمل فى خير قريب من ألم الحاضر ، وعلى الرغم من أننا كنا متعجلين ، عطاشى وجائعين فقد منحنا الخيال الفاكهة وماء النيل ، وأسرعنا من عدو جمالنا ، فى حين كنا طوال الطريق منذ القصير نسير فى خطو وثيد .. ولقد استمر هذا العدو مدة ساعتين لكننا كنا رجالا وجبالا ، قد نسينا التعب وسرعان ما وصلنا الى بير الأتبار .

وبير الأتبار هذه قرية صغيرة تقع على تخوم الصحراء والأرض المنزرعة ، وهى تبعد بحوالى فرسخ وربع الفرسخ على مدينة فقط

القديمة ، الواقعة على بعد نصف الفرسخ من نهر النيل ، وعلى بعد ثمانية أو تسعة فراسخ من الجبنة . وتتبع هذه القرية قبيلة العازيزى العربية ، ويجد المرء بها آبار مياهها بالغة الجودة فى اوقات الفيضانات، لما فى اوقلت المياه الواطئة ماتها تكتسب مذاقا غير مستساغ ، هو طعم الأيدروجين المخلوط بالكبريت . ويعود هذا الطعم دون جدال الى فذارة الآبار .

استغرق وصولنا من بير الأثير الى قنا - وهى مدينة صغيرة على سفلى النيل - أربع ساعات ، وهذه المدينة هى ملتقى القوافل التى تضطلع بتجارة القصر ، وتلك كانت نهاية رحلتى .

والوادي الذى انتهيت من وصفه هو الوادى الذى يسلكه عادة حجاج مكة والتجار الذين يملسون التجارة مع الجزيرة العربية .

وقد دلنا بروس Bruce وبراون Browne وهما رحلتان انجليزيان على والديين آخرين . لكن أكثر هذه الوديان أهمية هو الوادى الذى اتبعه الضابط المهندس باشلو Bachelo ، ويقع هذا الوادى الى الشمال من ذلك الوادى الذى تحففت عنه . ويجد المرء فيه الكثير من الآثار القديمة ، وتبلغ المسافة بينهما حوالى أربعة فراسخ ، وهذه الآثار هى نوع من المحطات الحصينة والتى بنيت على نمط واحد ، هى عبارة عن فناء كبير مربع الشكل ، تحيط به جدران ضخمة وتعلوه الأبراج ، وتجذ بداخله بعض الأطلال لساكن كانت مبنية بداخله فيها مخبى . وفى وسط الفناء توجد بئر بالغة الاتساع ، لها منحدر ، تستطيع الحيوانات بواسطته ان تنزل لتروى . وهذه الآبار مطبوسة جزئيا ، ولكن من المحتمل ان نجد بها المياه اذا ما حفرناها قليلا .

وأول محطة تقابلها عند خروجك من مصر تقع بعد أربعة فراسخ الى ملوراء آبار الجبنة ، وقد كانت هذه بلا شك فيما مضى أول محطة حصينة على هذا الطريق . ويبلغ عدد هذه المحطات حتى القصر ستا أو سبعا ، وتبعد الأخيرة عن القصر بحوالى ستة فراسخ ، وفى النقاط التى ينقسم فيها الوادى الى عدة أفرع اقيم مكعب من المواد البنائية ، فى الفرع الذى ينبغى على المرء ان يسلكه . وعند حوالى منتصف الطريق ،

يتخذ الطريق في الارتفاع تدريجيا ، وبشكل غير محسوس ، وبعد بلوغ قمة الجبل ، يهبط ثقتية الى الوادى الذي يمتد بعد ذلك دون أى انقطاع آخر ، حتى خور اللبلاجة ليتصل بالوادى الذى سبق أن وصفته .

ولقد تحدث سترابون عن طريق يذهب من قفط Cophros إلى ميوس هرموس Myos - Hormos . وهى مدينة تقع على شواطئ البحر الأحمر ، وكانت ميناء بالغ الأهمية في ذلك الوقت ، ويضيف سترابون بأن هذا الطريق كان مطروقا بشكل اعمى ، وأن الناس في الأزمنة الأولى كانوا يحملون معهم المياه اللازمة في أسفارهم ، وكانوا يتجهزون مسترشدين بالنجوم ، ولكن حفرت الآبار بعد ذلك وانشئت خزانات المياه للاحتفاظ بمياه الأمطار ، ويبلغ طول هذا الطريق مسيرة سنة أو سبعة أيام سيرا على الأقدام .

ويستشهد كثير من المؤلفين بهذا النص لسترابون Strabon ويطلقونه على طريق قفط - بيرينيس Bérénice ، ومع ذلك فلو أننا قرأنا مكتبته هذا الرحالة بانتباه لوجدناه يتحدث بالفعل عن طريق قفط - ميوس هرموس وبالموقع الذى حدده له .

وقد ظن دانفيل d'Anville ، الذى استوعب تماما كل ماورده المؤرخون القدماء حول موقع ميوس هرموس ، أن عليه أن يعطى لهذه المدينة موقعا على بعد عشرين فرسخا الى الشمال من القصر ، حيث يبدو من المؤكد أن كان يوجد في هذه المنطقة ميناء بالغ الأهمية .

وإذا تفنينا هذا الرأي ، فإن الوادى الذى نقابل فيه هذه المحطات الحصينة يمكن أن يكون جزءا من الطريق القديم الذى تحدث سترابون عنه ، والذي كان يفضى بالقوافل الى منطقة تبعد خمسة أو ستة فراسخ من القصر ، حيث نجد المحطة الحصينة الأخيرة ، وهناك يتغير الاتجاه ويتخذ جهة الشمال حتى يبلغ ميوس هرموس .

ويهيئ لنا هذا الطريق ، الذى ظل مجهولا حتى وقت مجيء الحملة الفرنسية الى مصر ، خدمة جليلة ، ذلك انه سوف يستخدم بالضرورة ، في تحديد موانئ البحر الأحمر ، التى كان يتردد عليها القدماء ، بطريقة أكثر دقة ، وبشكل لم يكن هناك من استطاع حتى ذلك الوقت ، التوصل اليه .

الدراسة الثانية :

## القبائل العربية في صحراوات مصر دي بول - رايحه

العنوان الأصلي للدراسة هو : دراسة  
موجزة عن القبائل العربية في صحراوات  
مصر ..





ليست مصر ، ابتداء من أسوان حتى القاهرة ، سوى واد ضيق طويل (١) تحيط به الجبال الجرداء ، التي لا يكاد ينمو عليها حتى تلك الطحالب الدقيقة التي تغطي جبال أوربا وتلون أحجارها المعرضة للهواء . ولا يشق هذه الجبال نهر أو مجرى من أى نوع ، إذ أننا لانستطيع ان نطلق أيا من هذين الاسمين على تلك الأخوار العابرة التي تحدث نتيجة لسقوط الأمطار ، بالغة الندرة . ولا يمكن المرء ان يلقى هناك بعض النبسات المتناثرة اللهم الا فى قاع الوادى ، كما لا يمكنه ان يمر ، الا على مسافات بالغة التباعد ، على الآبار . وليست هذه الآبار فى غالب الأحيان سوى ثقب ضحلة العمق حفرت وسط الرمال ، وتكدس مياهها على الدوام تبيل الى اللوحة ، بالرغم من كونها صالحة للشرب ، لكنها فى كل الأحوال ليست غزيرة لحد يكفى ان تنشأ عليها بعض الزراعات . وتتقاطع هذه الوديان فى اتجاهات عديدة ، أما تلك التي تؤدي الى وادى النيل ، فتبدأ فى الاتساع كلما اقتربنا من مصر لتشكل عندئذ سهولا من الرمال تتصل بالأرض المزروعة ، وبالنيل فى بعض الأحيان . وليس ثمة نشاط نباتى اذا صح القول الا فوق الأراضى التي يروىها النهر بشكل طبيعى أو بشكل صناعى — وتتناقص الخصوبة الشديدة لهذه الأراضى وبشكل صارخ مع ذلك الاطار الخارجى الذي يحيط بها .

والى الشمال من القاهرة ، يتفرع النيل عدة أفرع ، وتشمع مصر ، وتأخذ الجبال فى الانخفاض لتنتهى بعد قليل الى سهول نسيحة من الرمال لتنتهى شمالا بالبحر المتوسط ولتنداح من جهة الشرق بصحراوات مسوريا والجزيرة العربية ، أما من جهة الغرب فأنها تمتد لتصل مصر بأعماق إفريقيا .

هذه الجبال الجرداء ، وتلك الوديان القاحلة ، وكذلك تلك

---

(١) يبلغ متوسط عرضه حوالى ثلاثة فراسخ .

السهول الرملية التي تضغط على مصر من كل الجهات ، والتي تبدو وكأنها تتحفر للوثوب حتى لينتهى بها الأمر أن تغطي أرضها الخصبية ، هي برغم ذلك كله مناطق آهلة ، يسكنها رجال ضخام أشداء يسمون بالعربان البدو (٢) ، وهؤلاء يتجولون بينها هم ينقسمون الى عائلات — مع تطلعاتهم في هذا الخلاء الموحش . والمسدن عند هؤلاء هي المخيمات ، وبيوتهم هي الخيام ، أما المراعى الوحيدة لتطعمانهم فهي نبات العليق وبعض النباتات الشوكية المبعثرة هنسا وهناك ، وبإمكان هذه القطعان أن

تقى بكل احتياجات هؤلاء العربان ، لسكن الحرب والسلب يقدمان لهم مصادر ووسائل أخرى للمعيشة ، ويشاهدكم المرء يحومون حول مصر ، كما لو كانوا ذئابا جائعة تحوم حول فريسة دسمة ، وإن كان العربان يسعون في بعض الأحيان وعن طريق معااهدات يعقدونها مع حكام مصر أن يحصلوا على الإذن بالإقامة في مناطق خصيبة ، وفي أحيان أخرى يقتحمون نفوة هذه المناطق ، والسلاح مشهور في أيديهم لينتزعوا القطعان والمحاصيل ، ثم ينسلون فجأة ليلوذوا بصحاريهم ، فإذا ملجأ من يلاحقهم لمن ماتتهم في تحمل العطش لوقت طويل ، والصبر على المتاعب بالغة الشدة ، تمنعناهم عن عدو غير معتمد الا على حياة أتل خشونة ، فالصحراء بالنسبة لهم ، حصن منيع يحز اقتحاله ، يلوثون بها في أوقات الأخطار الكبرى .

إننا نحن في أوروبا ، نستولى على حقول العدو ومدنه عندها يهرب ، ونفري أنفسنا بأمواله وكنوزه وسائر مصادر دخله ، ذلك أنه يخلف وراءه أهلا وأصدقاء وممتلكات يأسى عليها ، أما البدوي فلا يخلف وراءه الا رمالا قاحلة . . أما اذا أرغمته الظروف على أن يترك أى شيء فسرعان ما يسعوضه بأسلاب جديدة ، فليسوف يعود هؤلاء البدو — بعد أن تكون قد ظننت أنك قد دفعتمهم بعيدا عن مصر — ليشنوا هجمات مضادة . وللهؤلاء البدو حفر سرية يخفون فيها البلح بل وعلف قطعانهم ، ويسهل عليهم الأفق الواسع المحيط بهم ، وكذا بياض الرمال التي يبدو الرجال والحيوانات عليها مجرد بقع سوداء ، إن يكتشفوا العدو على

(٢) تعنى هذه الكلمة « رجل الصحراء » .

نفس المسألة التي تمكن فيها الرؤية عندما يكون الإنسان فوق سطح البحر . وليس ثمة ما على هؤلاء أن يخشوه سوى المفاجآت الليلية ، لسكرتهم ، في كلمة ، « أسلحة » يعرفون متى يقبلون المعركة ومتى يرغبونها ، فإذا راوا أنفسهم في المركز الأموى فلا بد أن ينتظرهم نصر مؤزر . أما إذا كانوا في المركز الأضعف فسيفرون ولن يجنى العدو شيئاً من غرارهم . . لذلك فكل الحروب التي يشنونها على مصر تنتهي في العادة لصالحهم . . وينتهي الأمر بحكام هذا البلد في معظم الأحيان بأن يتركوا لهم بعض الأراضي الخصبة على تخوم الصحراء ، ويتمهد البدو من جانبهم إلا ينهاهوا الريف بعد ذلك ، بل وفي معظم الأحيان بأن يدفعوا ضريبة عن الأراضي التي تركت لهم ، ومع ذلك فحيث أن السلاح في أيديهم على الدوام ، وحيث أنهم يحيطون رجالهم على الدوام عند حافة الصحراء فانهم لا يحرصون على احترام معاهدة أملاها عليهم التعب والخوف . وتظل تتحين الخيانة المطبوعة الفرصة لتمزيقها .

ومع ذلك فهناك بعض القبائل ، التي لانت طبائنها بفعل سلام طويل . . قد انتهى بها الأمر أن هجرت الصحراء وانتشرت داخل مصر وانتقلت بشكل تدريجي من حالة البداوة الى حالة الزراعة ، وكان فقدانها لحريتها المطلقة هو على الدوام النتيجة التي ترتبت على ذلك ، ويقدم الصعيد مثالا قريبا على ما تقول ، فقد كانت قبيلة الهوارة ، وهي التي جاءت الى مصر من المناطق المجاورة لمدينة تونس بعد وقت قصير من هزيمة مصر على يد السلطان سليم ، كانت هذه القبيلة قد استقرت في الصعيد ، وفي البداية اتلمت على مشارف الصحراء ، ثم استولت فيها بعد بواسطة القوة والمهارة الحربية على جزء كبير من مصر العليا، ودعمت وضعها هذا بدفع أتوة الى حكومة القاهرة ، وحين أصبح الهوارة من ثروة الملاك ، كانوا قد غصقوا تدريجيا عاداتهم الرعوية فاستبدلت بالخيام بيوتا وتحول الحب الطافي للحرية الى حب للوطن . . وظل هؤلاء العربان في رختهم يسعد حالا من قومهم بالصحراء ، حتى أعلن عليهم على بك الحرب بعد أن أثارت حفيظته قوتهم وطبع هو في ثرواتهم ، وكان أن هزمهم في لقاءات عدة . هكذا لم يعد بإمكان هؤلاء العربان بعد أن فقدوا القدرة على احتمال الرمال الحارقة وعلى مكابدة

صنوف الحرمان التي كانوا يعمسون منها في صحرائهم — لم يعد بإمكانهم أن يفلتوا من سطوة المماليك .

وعدد القبائل الطليقة في صحراوات مصر كبير واليكم أسماء تلك القبائل التي تعرفت عليها أثناء أقامتي في هذه البلاد :

طرابين الكبرى ، الطويلات ، التفاحات ، العبلدة ، بلي ، الهوارة ، طرابين الصغرى ، الجوابي ، الهنادي ، الزهرات ، محاز ، بنى واصل ، السمالو ، الفرجان ، الترانع ، العزيزي ، بن واني (٣) .

ويفترض أن هذه القبائل تستطيع إذا ما تجمعت أن تضع تحت السلاح بمقرب من ٣٠ — ٤٠ ألف فارس .

ويرتبط بكل من هذه القبائل عادة ثلاث فئات من الرجال شديدي الاختلاف : الأسرى الذين حصلوا عليهم أثناء الحروب ، والعبيد المشترون ، والفلاحون ، والفئتان الأوليان قليلتا العدد لحد كبير ، أما الفئة الأخيرة فيتساوت عددها قلة أو كثرة تبعاً لسكان الأراضي الخصبة التي احتلهاها وكذلك بحسب عدد البؤساء من الفلاحين الذين هربوا إلى مخيماتهم بحثاً عن ملاذ من طغيان الأتراك والمماليك .

وعلى الرغم من الحروب العديدة ، والأحقاد المتوارثة التي تتسم هذه العصب ، فإن علينا أن ننظر إليهم باعتبارهم يشكلون أمة واحدة ، فاصلهم المشترك ولغتهم وعاداتهم توضح ذلك بجلالة .

ولن آخذ على عاتقي هنا أن أضع حكايات حروبهم وهزائمهم ومعاذاتهم ، ولن ادخل في تفاصيل تاريخية عن الأحداث والشخصيات الشهيرة ، وإنما سأكتفي بأن أبين بعض الملامح التي قد تكون بذات نفع في التعرف على تناليدهم وحالتهم السياسية .

(٣) حيث أن للعبلدة واكله الأسماك في سواحل البحر الأحمر أصلاً وعادات مختلفة عن القبائل الرعوية الأخرى ؛ فأتى لم أتناولهم بالحديث هنا — راجع ماذكرته عنهم في مقالتي عن مدينة القصير ( الفصل السابع من هذا الكتاب ) .

تنتهى كل القبائل الرحل التي استقرت في مصر الى اصل عربي فيما عدا العيلادة (٤) وإذا كن ثمة قبائل قد جاءت من جهة الغرب لتجدو مكانها قد حطمت هذه القاعدة فلابد ان نتذكر ان هذه القبائل مربية وانها ذهبت الى المغرب في عهد الخلفاء الاول . واغلب مزارعى مصر الذين يشكر اليهم باسم : فلاحين ينتمون لأصل مشابه ، وهم قد استقروا هناك كمنتصرين عندما أصبحت مصر جزءا من امبراطورية العرب وكونوا الجنس المسيطر ، حتى اليوم الذى انتقلت فيه مقاليد البلاد الى ايدى الممالك الأتراك . وبينما استطاع العرب الذين ظلوا حتى هذه الحجة يحتفظون بالعدادات الرعوية التي ورثوها عن آبائهم ، ان يتخلصوا من قانون المنتصر ، فان أولئك الذين كانوا قد انغمسوا منهم في زراعة الأرض او احتراف الحرف والفنون ، وسكنوا القرى والمدن قد كانوا مضطرين للخضوع للسادة الجدد ، وتضاعفوا شيئا فشيئا حتى بلغوا اليوم حالة لا تختلف في كثير من حالة العبودية .

ولقد سبق للعرب البدو في زمن سابق ان يهزموا مصر ، ذلك ان المرء لا يمكنه أن يشك في أن ليس هؤلاء العرب سوى أولئك الذين اراد المؤلفون القدامى ان يسموا اليهم عند الحديث عن هذه الشعوب الرعوية التي اخضعت مصر واحتفظت بها تسرونا طويلة ، ثم طردوا منها قبل عهد سيزوستريس بحوالى ثلاثمائة عام (٥)

#### (٤) انظر الهامش السابق .

(٥) حول هذا الموضوع اليكم هذه التلمذة شديدة الاهمية نفلا عن ماتيون ولابد ان يتذكر المرء ان هذا المؤرخ المولود في مصر داخل الطبقة الدينية قد استطاع افضل من اى شخص آخر ان يستفيد من الحوليات والكتب المقدسة في امته : في عهد « تيمائوس » . احد ملوكنا ، سجع الرب وكان غاضبا علينا دون ان نفهم لذلك سببا ، بأن يأتى من جهة الشرق جيش ينتهى للشعب ليست له اية شهرة وان يسيطر بسهولة على بلادنا وان يقتل بعضا من امرائنا ويضع السلاسل في ايدى آخرين ، وبان يحرق مدنا ويدمر معابدنا وان يعاليل السكان بغلظة شديدة ويقتل عددا كبيرا منهم وان يسيى النساء والاطفال وان ينصب ملكا علينا واحدا من امته يسمى سالاتيس .

وثمة اعتقاد راسخ لدى العرب ، ودعاه القرآن ، يجعل هؤلاء العرب يتحدرون من صلب اسماعيل ، ابن ابراهيم ( ابراهيم ) الذى قال عنه الرب « سيكون رجلا فخورا . وزعويا وحشيا ، وسيرفع يده فى وجه الجميع وسيرفع الجميع ايديهم ضده ، وسيرفع اغلاله امام كل اخوته ، سلباركه وامحه ذرية كبيرة وعديدة » (١) وفى هذه اللوحة عن

== وقد جاء هذا الحاكم الجديد الى ممفيس وفرض ضريبة على المقاطعات العليا والمنفلى على السواء واتام فيها حاميات قوية ، وبخاصة فى جهة الشرق لأنه كان يرى أن الآشوريين ما أن يحسوا بأنهم قد أصبحوا اقوياء، سيسعون لهزيمة هذه المملكة ، وعندئذ بدا له أن مدينة أمارس فى اقليم سابث الى الشرق من بوباسطة ذات موقع مناسب ، فقد قام بتحصينها تحصينا قويا ، ووضع فيها وفيها حولها كثيرا من الحاربيين بلغ عددهم حوالى ٢٤٠ ألف جندي . وكان يأتي الى هناك فى اوقات الحصاد كي يباشر جمع المحصول ولكي يستعرض قواته ليحافظ على مستوى تدريبهم وانضباطهم لحد لا يجرؤ معه الأجانب على بدء التشرش به بغية ابتلاك دولته . وقد سيطر هذا الحاكم لمدة تسعة عشر عاما ، ثم اعتبه بيون وقد مكث فى الحكم ٤٤ سنة ثم ابنخاس وحكم ٣٦ عاما وسبعة أشهر ، اما ابوفيس الذى اعتبه فقد حكم لمدة ٦١ عاما ، وحكم جانياس الذى اعتلى العرش بعده لمدة خمسين عاما وشهرا واحدا ثم اعتبه اسبس الذى حكم لمدة ٤٩ عاما وشهرين . . ولم توجد وسيلة للقضاء على الجنس المصرى الا ولجا اليها هؤلاء الملوك الستة ، وكان هؤلاء جميعا يسبون الهكسوس اى الملوك الرعاة ، لأن كلمة هك فى اللغة المقدسة تعنى : ملك وسوس باللغة الدارجة تعنى : رعاة . ويقول البعض انهم كانوا عسريا .

ويضيف فلانيوس جوزيف (Réponse à Appidon, trad d'Arnauld d'Antilly, liv. I. Chap. 5) الذى نقل اليها هذا النص

من مانتيتون بأن هذا المؤرخ يقرر أن ملوك الصعيد ، اذ لم يكن قد تم اخضاعهم كلية ، قد خاضوا حروبا طويلة ضد هؤلاء الرعاة وهزمهم وطردوهم فى النهاية من مصر التى كانوا قد احتلوا مدة ٥١١ سنة ، وان هؤلاء الرعاة قد انسحبوا الى الصحراء وانتفضوا على سوريا وانتهى بهم الأمر أن استولوا على اقليم يسنى يهوذا حيث اسموا مدينة اورشليم . (٦) سفر التكوين ، الاصحاح السادس عشر ، الآية ١٢ والاصحاح السابع عشر الآية ٢٠ . وما ورد فى المتن ترجمة للاقتباس كما جاء فى النص الفرنسى ، واليك نص هاتين الآيتين كما جاءت فى التوراة :

« وانه يكون اسبانا وحشيا ، يده على كل واحد ، ويد كل واحد عليه ، وامام جميع اخوته يسكن » « ولما اسماعيل فقد سمعت لك نية . ها انا اباركه واتممه واتوجه كثيرا جدا . اننى عشر رئيسا يلد واجعله أمة كبيرة » . ( المترجم )

اسماعيل يتعرف المرء على البدو ، فالإنشاء لا يمكن لهم ان يشبهوا آباءهم بكثير مما يشبه العرب اباهم اسماعيل .

ان المرء مدفوع على ان يقر بان هذا الاعتقاد ليس خادما على الإطلاق ، ولكن الشيء الذى لا يمكن ان يتطرق اليه الشك ، هو ان للعرب والعبريين أصلا مشتركا ، فلقنرا التوراة بانتباه ، وسوف يدهشنا هذا التشابه فى التقاليد بين قدماء البطارقة وبين تقاليد العرب البدو ، وستكون هذه القراءة بالغة الفائدة اذا امكن احد ان يقرأها كما قرأتها انا فى ارض جيلسان على شواطئ البحر الأحمر ، وفى عيون موسى أو فى الصحراوات التى يحدها عند الأماق جبال حوريب وسيناء (٧) .

كل هذا يؤدى بنا ان ننسب الى العرب اصلا من اقدم الأصول ، وربما لا يوجد شعب يستطيع ان يتباهى بأنه قد أمكنه ان يحتفظ

---

(٧) تستحق التوراة التى تنال من البعض ازدياء اكثر مما ينبغي، وتنال من الآخرين ، وهم الذين ينظرون اليها باعتبارها اساسا لمعتقداتنا الدينية ، تقديسا اكثر من اللازم ، وتستحق ان تنال اهتمام الجميع من زاوية تاريخية محضة ، فلك لأنه اذا كانت صروف الطبيعة تبدو فيها غير قابلة للفهم ، واذا كان التاريخ فيها غير مؤكد واذا كانت الوقائع التى تروىها مشكوكا فى صحتها ، فسوف ننفق على الأقل بأنه كان من المستحيل ان ترسم لوحة للحياة الخاصة للعائلات الهامة فى الصحراء بمثل هذه الدرجة من الحقيقة : اذ نحن ما نزال نجد بينها نفس العادات ونفس الطريقة فى الحياة بل ونفس مبادئ القانون العلم ونفس النفس الفنية ونفس الآنية ، بل نكاد نقول نفس اللغة .

فقانون القصاص وحق الانتقام الذى يؤول للأهل الاقربين . وحتى شراء النمل ( الدية ) ومسطوة الشيوخ وعقاب الجذفين ، والختان ، وتقديم الاضحيات فوق اماكن مرتفعة ، والاصحاح فى طلب امارة على بكارة الفتيات يوم زواجهن والمقم الذى ينظر اليه كلجنة من السماء ، والرفقة فى انجاب ذرية كبيرة العدد ، وحقوق الملكية والميراث ، واعداد الاطعمة ، والفزع من لحم الخنزير ، والجوهرات والملابس ، وطريقة شن الحروب ، واقتسام الاسلاب المتزوعة من العدو ، وعادة السكنى تحت الخيام حتى فى البلاد الخصيبة والمليئة بالمحس ، وعادة القاء التراب فى الهواء فى اوقات الاخطار الكبيرة ، وفى ايام الاحزان الفظيمة . . . كل هذه امور مشتركة عند كلا الشعبين ، وفى زمن محمد كان يوجد عدد كبير من التماثل المطلوبة فى الصحراوات تتبع ديانة موسى .

بعلامحه القديمة بأكثر مما امكن لهؤلاء العرب ان يفعلوا (٨) منذ العصور

(٨) واليكم ما نقله الينا ديودور الصقلي عن العربيان في الصحراوات . وهو ما كتبه منذ ١٨ قرنا « انهم يسكنون في الخلاء ، دون ان يظلمهم اى سفف ، وهم يتخذون من العزلة علما عليهم ووطنا لهم ، وهم لا يختارون مطلقا لاتقامتهم الاماكن القريبة من الانهار وينابيع المياه خوفا من ان يجذب ذلك الاعداء الى مجاورتهم . ولا يسمح لهم قانونهم او عرفهم ان يبنوا الحب ولا ان يزرعوا اشجار الفاكهة ولا ان يشربوا الخمر ولا ان يعيشوا تحت سفف ، ومن يضبط من بينهم مخالفا لهذه العادات يعاقب بالموت لا محالة ، اعتقادا منهم بان هؤلاء الذين يخضعون لمثل هذه العادات سيخضعون عما قريب لحكام يستعبدونهم . وبعض هؤلاء يرعون الجبال وبعضهم يرعى الماعز في الخلاء . وليس ثمة اغنى من هؤلاء الآخرين بين العرب ، لانهم - على الرغم من كونهم ليسوا الوحيدين الذين يمتلكون قطعانا في الخلاء ، يقومون في نفس الوقت - وعددهم لا يتجاوز ١٠ آلاف - ببيع ابخور والمر وعقاقير اخرى ثمينة حصلوا عليها من سكان اليمن لبيعوها على شواطئ البحر ، فضلا عن ذلك فهم شديدا الفرة على حريتهم ، وعندما يبلغهم خبر مفاده ان جيشا يقترب منهم فانهم يلجأون الى اعساق الصحراء التي تعتبر حوافها بفعل امتدادها بتسابة متاخرين لهم ، لان الاعداء حيث لا يعرفون فيها موطن الماء ، لن يجرعوا على اجتيازها ، في الوقت الذي يكون فيه العرب في امان من هذه الحاجة - الحاجة الى المياه - حيث قد سبق لهم ان اعدوا لانفسهم آتية ضخمة خبأوها تحت الأرض ، ولا يعرف سواهم. المعلومات الدالة على هذه الآتية . وحيث ان الأرض كلها لا تتكون الا من ارض طفلية رخوة فانهم يجدون الوسيلة كي يحفروا فيها مغارات عميقة وواسعة على شكل مربع يبلغ طول كل ضلع منها ذراعا ، وتفتحها بالفة الضيق ، وعندما يتلىء هذا الكهف ( الجب ) ببياء المطر يتقلون منخله ويسوونه بسطح الأرض التي تحيط به ويتركون عليه بعض علامات لا يمكن ان يتعرف عليها سواهم . وهم يعودون القطعان التي يخطفونها الا تشرب الا كل ثلاثة ايام وذلك حتى تعتاد في تلك الحالة التي سيكون عليهم ان يحبوها عندما يهربون بعيدا بعض الشيء عبر سهول قاحلة على ان تقاسم العطش بعض الوقت ، وهم يعيشون على اللحوم واللبن والفواكه الشائعة والصلابة وتوجد في اراضيهم اشجار الفلفل وكذلك كثير من ذلك العسل الذي يسمى العسل الوحشي وهم يشربونه مع المياه، وثمة اجنسل اخرى من العرب يعملون في فلاحه الأرض ، وهم يخضعون لحكومات مثل السوريين ، وهم يتشابهون في امور كثيرة فيما عدا ان السوريين يسكنون في منازل .

ديودور الصقلي ، الكتاب التاسع عشر ، ترجمة الأب Terrason



الضاربة في القدم . وهؤلاء العرب - منقسمين الى قبائل ، وخاضعين لشيخ القبيلة ، ومساكين تحت الخيام - يهيئون مع قطعانهم من مختلف الفرات الى مختلف النيل ومن شواطئ المتوسط حتى الخليج الفارسي وبحر الهند ، لم يغز أرضهم أجنبي ولم يغز من لغتهم أو تلابدهم غار ، ولكم ارادت ابلان اكبر قوة واكثر شهرة بسبب فتوحاتها وهما الفرس والرومان ، أن تخضعا العرب لسيطرتها ، بلا جدوى ولكن ما أن أصبح هؤلاء العرب فاتحين في عهد الخلفاء ، حتى غطوا بجيوشهم شمال أفريقيا ، واسبانيا ، ووسط فرنسا ، وسوريا ، وفارس ، وآسيا الصغرى ، وعندما حدث أن طردوا وقت هزيمة فقد كانوا يعرفون على الأقل ، ودائما ، كيف يحتفظون بوطنهم القديم . وينظر البدو ، وهم المخورون بنقاء عنصرهم ، وبأنهم يستطيعون الدفاع دوما عن حريتهم ، ينظرون باحتقار الى أمم العبيد التي تحيط بهم .

وقد حدد الحب الأبوى والاحترام البنوى شكل حكومتهم ، كما أن هاتين الرابطين هما اللتان تربطان بين مجتمعهم ، فكل أسرة تطيع من بينها هذا الشخص من أفرادها الذي جذب لنفسه أكبر قدر من الاهتمام بفضل حكمته وقدراته وثروته ، ويكون هذا الشخص في العادة رجلا مسنا ويتخذ لقب شيخ ومعنى هذه الكلمة : العجوز أو المسن (١) .

وعندما لا تكون الأسرة كبيرة العدد لحد تستطيع معه حماية نفسها بنفسها ، فانها تنضم الى أسرة أخرى ، ويعطى أكبر الشيوخ نفوذا اسمه للقبيلة التي تشكلها هذه الأسر المتحدة ، ويمارس عليها جميعا السلطة التي لم تكن له في البداية الا على اهله ، وسلطة هذا الشيخ جد محددة فيما يختص بالأمراد ، لكن نفوذه كبير في الأمور المتصلة بالصالح العام: فهو الذي يقرر السلام كما يقرر الحرب، وهو حق خطير مالم يمنعه صالحه الخاص - وهو مرتبط بشكل حميم بمصالح قبيلته - من اساءة استعماله . وهو لا يتقاضى أى راتب عن وظيفته ، ويتكون دخله - شأنه شأن بقية العربان - من منتجات قطعانه ، ومن الزراعة الوعائية لبعض

---

(١) كلمة شيخ معناها عجوز ، ومع ذلك فيمكن اطلاقها على شاب مثل كلمة Senior عند اللاتين التي جعلنا منها كلمة Seigneur

الأراضي ، ومن نصيبه من الأسلاب وضريبة المكوس التى تدفعها القوافل التى تمر من أرض قبيلته . وتنظم سلطته طبقا للعادة ، وليست ثمة قوانين تحددها بشكل قاطع ، ولكن اذا ما دفعتة نزواته ، وكثرة استغلبه وخدحه على أساءة استخدام هذه السلطة وجعلته فى نفس الوقت بهنسأى عن الانتقام ، وهو الأمر الذى تجلعه حياة الصحراء ميسورا على الذين وقع الحيف عليهم ، فانتفا نرى على الفور جمهرة من العائلات تنفصل عنه لتتضم الى قبائل أخرى . وبهذه الطريقة ، اندثرت فى بعض الأحيان قبائل كانت كبيرة العدد ، وانتهى بها الأمر أن اختفت بشكل نهائى ، بينما تضاعف عدد قبائل أخرى فى وقت سريع وهى التى لم تكن تحظى بأى نصيب من الشهرة .

وكما أطلنا التفكير ، كلما تبينت لنا قلة وسائل القهر فى حكومة المشايخ ، حيث لا توجد فى مخيماتهم سجون يمكن أن يزج إليها بالبراءة الطليقة لتجاور الجريمة البشعة ، كما أنه ليست ثمة سرائى يستطيع الحاكم فيها أن يخفى أعماله عن كل الأنظار ، ويمضى الشيخ العربى حياته فى الهواء الطلق دون حارس ودون هوكب ، ويشهد على كل أخطائه ، وكل أعماله جميع رجال القبيلة ، فهو إذن لا يستطيع أن يخفى شيئا عن رقابة الرأى العام ، كما لا يستطيع أن يغطى على سوءة من مساوئ سلطته تحت قناع المصالح العام . كما أن رعياه ليسوا عديدين لحد يستطيع معه عن طريق لعبة اقتسام المصالح أن يضرب البعض بالبعض الآخر .

ولا تختلف الحياة الخاصة للشيخ عن حياة بقية العربان الا فى غذاء لوغر لحد ضئيل ، وفى ملابس أفضل وأسلحة أكثر انتقاء . ومهما يكن له من خدم فانك لتراه ينظف سلاحه ، ويقدم الطعام لضيئه ويسرجها بنفسه ، وتعد له زوجاته وبناته وجبات طعامه ، وهن يغزلن ملابسهن ويمسطنها وسط المخيم ، ويذهبن حاملات الجرار ليجلبن المياه من العين المجاورة ، او ليجلبن لبن القطيع . تلك كانت تقاليدهم القديمة التى لم يهل هومروس تصويرها بالخلاص ، وتلك حتى اليوم هى حياتهم الأبوية التى لا يزال سفر التكوين يحتفظ لنا بلوحاتها البسيطة والشيقة .

قلنا ان كل قبيلة تحمل اسم شيخها ، لكن تسميتها بهذا الاسم تعود الى وقت تكوينها ، أو تعود الى احدى الفترات الهامة التي مرت بها ، لان هذا الاسم لا يتغير مطلقا من جيل لآخر ، فالاسم يبقى هو نفس الاسم ، حتى يأتي شيخ يستطيع ان يصنع لنفسه ، بفضل حكمته ومواهبه العسكرية ، شهرة تجو شهرة أسلافه ، ويصبح رعاياه تحت حكمه أكثر ثراء وأكثر عددا وأكثر هيبة ، ويجعل منهم على نحو ما شعا جيدا .. هنا يأخذ الثبانه يتمودون شيئا فشيئا أن يسيروا الى انفسهم باسم ذلك الرجل الذي أخرجهم من الظلام ، وسرعان ما ينتهي الأمر بهذا الاسم أن يحل كلية محل الاسم الذي كان لهم فيما سبق .

ويوضع عادة أمام اسم كل قبيلة كلمة بنى وهى تعنى أبناء . وهكذا يبدل من أن تقول قبيلة واصل تقول قبيلة بنى واصل . واسم الابن هذا الذى يتخذه كل العرب بلا تمييز ، هو نفس الوقت سلطة فى حكومة أبوية يخضعون لها : ياله من بون شتلع بين هذا الاسم ، وبين اسم العبد الذى يتخذه غالبية الشعوب !

وتقدم الخلافات من كل نوع الى محكمة الشيخ ، لكن سلطة الشيخ هى بالأحرى سلطة حكم أكثر منها سلطة تفض . ومهما كانت الجريمة خطيرة ، فانه نادرا ما يصدر حكما بالموت .

واليك الصيغة المتبعة فى هذه الأحوال : يتوجه إمرؤ الى الشيخ طالبا اليه التماس . ويجلس الشيخ على عقبه على طريقة أهل البلد ، وألمه يجلس المتناضون على نفس طريقتيه ، ويطلب الشيخ اليهم نزع الفجر الذى يحلونه عادة فى حزامهم ويضعه على الأرض . ثم تبصت الى ادعاءات كل منهم ، فإذا مارفض التدبير الذى أشار به فانه يستدعى اليه شخصية أو شخصيتين تحظيان بالاحترام بحكم سنهما وأقلاهما ، ويمرض القضية ثم يدعوها الى ابداء الراى ويستطيع الشيخ أن يستشير مستين آخرين اذا اقتضى الأمر ، لكن من النادر أن يتسع الأمر لهذا الحد ، وعادة ما ينبرى الحضور الذين جذبهم الفضول الى مكان المناقشات للطرف المنيد ويصحبونه معهم وهم يقولون : هيا ، أتت مخطيء ، فقد جانيك المواب ، انصرف ، انصرف .. ويبعدون وهم

يقولون له ذلك بمظهر الأصدقاء اللاطنين الذين يريدون أن يحصلوا عن طريق اللباقة والرتة على ما قرره حكمة الشيخوخة ، ولكن اذا ما ظل هذا سائرا في تروده ، واذا مرفض الاستجابة للرأى العام ، وهو عندهم بمثابة الحكم الأعلى ، فانه يطرد من القبيلة وتصلح ممتلكاته .

هذا بخصوص القفصليا ذات الصبغة المدنية البحتة . أما اذا اخضع الأمر بالمسرفة لو بلية جنحة أخرى غير اراقة الدم ، اى من نوع تلك الجنح التي تعكر مسفو الأمن العام فيما عدا القتل ، فان نفس الإجراءات سوف تتبع ، مع هذا الفارق الوحيد ، وهو انه ما أن بقيت الاتهام حتى ينفذ العقاب على الفور ، ويعاقب المدان عادة برفع غرامة أو بطلب عدد معين من ضربات العصا . وهو أمر لا يأتف الشيخ من القيام به أحيانا بنفسه ، ويسارع كل المشاهدين الى معونته ، فيرددون الرجل المدان على بطنه ، ويعلقون قدميه في حلقتين من الحديد مثبتتين عند منتصفهما بعصاة ، ويمسك رجلان بطرفى هذه العصا ، ويرفعان سائى المذنب ، وتلمس ركبناه الأرض ، ويظهر باطن قدميه في الهواء بشكل لثقي وفي وضع ثابت . وعلى هذا الجزء يتم الضرب بعصا مرنة لحد ما ، أو بنوع من السياط يسمى كرجاج مصنوع من جلد الفيل أو جلد فرس النهر .

وتعد المشروبات الكحولية والمواد المسكرة مصدرا لعديد كبير من الجرائم عند الشعوب التي اعتادت عليها ، لكنها عند العرب « حيث هم لا يشربونها » ليست مصدرا لأى جرم ، ويساهم هذا في الحفاظ على الهجوم في معسكراتهم .

واذا ما رأيت الحدة التي يتناقشون بها لائنه الأمور ، فانك ستدهش من أن الضربات لا تعقب هذه الكلمات الحادة ، وتكاد مناقشاتهم كلها تمضى في تبادل المرخات ، ولعل السبب في ذلك هو أن رجالا كهؤلاء ، مسلحين على الدوام ، لا يمكنهم الاندفاع في الشجار دون تقدير منهم لعواقبه ، فتتأرجح القتل على الدوام خطرة إذ يكون لأهل القتل أن ينتقموا له ، وفي هذه الحالة ييساح الاغتيال . وهكذا يصبح القصاص قانونا مقدسا لا يستطيع الشيخ نفسه أن يتخلص منه . لكن الأمر الإشع

في كل المسألة هو أن القتل هنا لا يلاحق وحده ، بل يلاحق معه أهله الأثريون . وعندما يكون لأسرة ما ثارات عليها القيام بها تجاه أسرة أخرى ، فانه يقال حينئذ أن بين هاتين العائلتين دما ، ويكون عليهما أن تنفصلا وأن تعيشا في حالة حرب تستمر في بعض الأحيان لعدة أجيال ، ذلك أن الثار يوجب ثارات أخرى وهكذا ، بل أن موت القتل نفسه لا يأتي مطلقا بالهدوء ، وإذا ما هلك أحد من آله بسببه فإن الأحقاد تتزايد بدلا من أن تقل . وهذه المعارك الباطنية لا تنتهي ، خاصة إذا ما كانت العائلات المتعدية تنتمي إلى قبائل مختلفة لأن القبائل المعنية تتخذ عادة موقف الدفاع بالنسبة لأبنائها ، وتنتج عن ذلك حرب مائة . وفيه حروب من هذا النوع بدأت منذ زمان لا تميزه الذاكرة . ومع ذلك فيمكن — في بعض الأحيان ، وقبل أن تتمدد الفتنة لأكثر مما يجب — تهدئة العائلة المكلومة بواسطة تقديم هدايا إليها ، تتكون بدرجة أساسية من الماشية ، ويسمى الاتفاق الذي يتم على هذا النحو بالدية أو إعادة شراء الدم . ونرى في التوراة أن شراء الدم هذا كان معروفا منذ زمن موسى بين القبائل الرحل ، التي كان هو مشرعها . أما عندما تكون العائلتان المتعاديان تنتميان إلى نفس القبيلة فإن عقد اتفاق الدية يصبح أقرب مثلا . وفي هذه الحالة يستخدم الشيخ وكل منسئ القبيلة كافة نفوذهم .

ويحدث القصاص والدية أيضا بالنسبة للجروح ، وللأبناء على أبائهم حق الموت ، ويطبق الرجال هذا العقاب على أي من زوجاتهم أو بناتهم أو أخواتهم تخرج عن سبيل الرشاد .

وليست المبارزة معروفة عند العرب ، وهم يستعيزون عن ذلك كما قلنا للتو بالاعتقالات ، ويلاحظ الأمر نفسه عند غالبية الشعوب ، تدعيمها وحديثها على هذا السواء ، ذلك أن هذه العادة النبيلة ، عادة تحدى الخصم ومبارزته سلاح مماثل ، وهي العادة التي تجعل من هذا الحقد الشائك والانتقام البشع نوعا من النزاهة والإشجاعة لا تحدث إلا عند أمم شمال أوروبا . ومع ذلك ، فاقننا نجد في الواقع ونحسن نقصح التاريخ العربي مثل هذه المبارزات الفريدة التي حدثت عند كل الشعوب — سواء كانت هذه المبارزات بين عدد ضئيل من المحاربين

الذين أوكلت إليهم بانفتاح مشترك ، مهمة أن يتولوا وحدهم الدفاع من مصالح تريتهم ، أو سواء بين شخصين شجاعين عند استعراض الجيوش المتعادية لجرد تباه بالشجاعة . لكن مثل هذه الأمور من تمتعته السلاح لا ينبغي أن تخطط بالمسارعة بالشكل الذي نعره نحن في أوروبا منذ زمن ضارب في القدم كرد على الإهتلات الشخصية .

وتقتضى مصالح أمن هؤلاء العرب أن يقوم شيوخهم بدراسة أخلاق وطباع حكام الدول المجاورة ، وكنا على الدوام ندهش من صوب احكامهم . وهم يتناولون بقدر من الشرف ، ويستطيعون ويعلمون كيف يدافعون عن حقوقهم بهارة ورتة ودبلوماسية لا يمكن لدبلوماسيينا أن ينكروها . ولكم اتهمناهم بسوء الطوية ولكن هل درينا ما أن كان قد حدث من جانبنا تصرف محاد نحو تلك القبائل الصحفية والتي كان يصعب علينا على الدوام أن نميزها عن تلك القبائل التي كانت متزال في حالة حرب معنا ، وما أن كان مثل هذا التصرف من جانبنا هو الذي هيأ لهم أسبابا عادلة لمساودة حمل السلاح ضفنا ؟ ولقد كنت لمرات عدة شاهدا على مثل هذه الاسامات غير السارة ، وأتذكر وسط ذكريات أخرى ، أنه حدث عند عبورنا وادي الطميلات مع فصيلة مدفعية : أن تابلت مقدمتنا عند حوالى آخر النهار ، عربيا بدويا يجلس على الأرض مع اثنتين من السيدات ، وبالقرب منه كان حصانه وسلاحه ، وغير بعيد من ذلك كانت تبسو بعض البقرات وبعض الخراف ، ولو أن العربى كان قد أخذته المفاجأة ، لكانت ما تزال لديه الفرصة كي يقفز فوق حصانه وينجو بنفسه ، لكنه لم يفعل ، وإنما سارع برسم علامة الصداقة لجنودنا وهى عبارة عن تقريب إبهامى كلتا يديه وهو يلفظ : سوا ، سوا ، « معا ، معا » . ولكن هذا من جانبه كان بلا جدوى ، ذلك أن جنودنا - وقد حرضهم على ذلك انكشارى تركى كان يعمل مرشدا لنا - قد شتموه وشتموا نساءه وجروا خلف مائتيته . واضطرته طلقة بندقية صويت اليه أن يقرر الهرب ، فاندفع بهمة الى داخل الصحراء وهو يذود عن نفسه بسلاحه ضد أولئك الذين يحدقون به ، وأطلقت عليه طلقات عديدة من البنادق لكنه لم يصب بأذى . وأسرع صوته البنادق هذا من خطو بقية الفرقة ، وكنت على حصانى وتحدثت

الجبيح ، وسرهان ما وصلت الى المقدية . وبينما انا استسلم عما حدث ، اشترى خلامي المصرى بيده الى المراتين ثم قال لهما :

« توجهنا الى هذا الرجل وهو كليل بحمايتكما » فهرعنا على التو نحوى وقبلنا طرف رداى ، فطأتهما وتوصلت مع بقية الفباط الذين وصلوا معى الى تسوية الامر ، وحيث ان الانتكشارى الذى تحدثت عنه قد أكد ان البدوى الذى فر يفتى الى قبيلة مصادية فقد استولينا على قطيعه . وصحبنا السيدتين لتسليمهما الى شيخ اول قرية سنمبها . وفى اثناء مابقى من طريقنا لاحظت ان انتكشارينا يحرض الجنود على عدم استخدام الرحمة مع أسيرتنا ، وكان يريد ان يفتزع من هاتين البقيتين الاشياء القليلة التى كانت معهما . واضطرت ان اتوسعه بعقاب قاسى كى أجعله يكف عن اضطهاده الجبان لهما . وعندما حل الليل توتفنا ، وبينما نحن نوثك على ان نغادر خيامنا ، شاهدنا مشايخ الطميلات قادمين ، وكثت هذه القبيلة فى ذلك الوقت فى سلم معنا . وكان معهم ذلك البدوى الذى هاجمناه البارحة ، وشكوا الينا فى لهجة معتدلة اعتدانا الظالم على رجل لم يكن يحق لنا ان نعتدى عليه . واسررنا نوجه اليهم كل الترضيات الواجبة واعدت الى المراتين معظم مجوهراتهما التى كان الانتكشارى قد سلبها اياهما ، وتلقى هو على الفور ، وفى حضرة البدو عددا محددا من الضربات بالعصا ، واعدت المسائية او دفع تعويض عنها ، وبعد ان تناول الشيوخ العرب بعض اقداح القهوة معنا عادوا بالفى الضرور . لكننى هنا اتساءل: لو ان هؤلاء البدو كانوا قد ذبحوا افراد جنودنا الذين كان من الممكن ان يقابلوهم منعزلين ، بدلا من ان ياتوا الينا ليثبونا صراحة شكواهم . . . الم تكن سنتهمهم عندئذ بالخيانة ، بينما هم لم يفعلوا سوى ان انتقموا منا؟

وعندما يتم السلام بين قبيلتين يتبادل الشيوخ الهدايا ، ولهذه الرسميات سطوتها . وعندما يتعامل حكام اجانب مع العرب فانهم يمنون بالامثال لهذا الامر . ومن المعتاد كذلك فى مناسبة مماثلة ان ياكلوا معا وهو ماينسئ بتحالف او اتساق الخبز والملح وهو اشارة على صداقة لن تهر . وايا كانت بكافة الشخص الذى تلقى من عربى اقل طعام فانه سيكون رائعا انه سينال احترام كل القبيلة .

ولمينا على ذلك الوف الأمثلة من الأسرى الذين أخفوهما منا إذ كانت تتوقف أساءة معاملتهم أيامهم منذ اللحظة التي يلكون فيها معهم ، والثرر فى هذا الخصوص واقصة سجلها المسيو دينون فى مؤلفه ، وقد سمعت من يتحدثون عنها بعد قليل من حدوثها . منذ عدة أشهر طويلة كان لدى بعض العربان أسير هو ضابط فرنسى . . وفجأة ظهرت احدى وحدائنا على مقربة من مخيماتهم . . وتفرق العربان على الفور داخل الصحراء وقد أخذهم الفزع وأصبح كل مليطلكونه غريسة للمنتصر ، ووجد شيخهم نفسه - بعد أن هام على وجهه - وحيدا مع أسيره . وسط الصحراء ولم يعد معه سوى قطعة خبز هى كل طعامه ، ولايد أن قلبه كان مفعلة بالنتمة على الفرنسيين ، الذين تسببوا فى كل ما أصابه من الآم ، ومع ذلك فقد اقتسم مع ذلك الفرنسى الذى كان فى حوزته ، قطعة الخبز الوحيدة التى بقيت له ، وقال له : ربما سأحتاج إليها غدا ، لكفى لا اتحمل لوم نفسى لنفسى لو تركتك تموت من الجوع لأضمن أنا وجودى .

أن مثل هذه الأخلاق والطبائع لتشرف الإنسانية بأسرها ، ولا ينهى علينا بالمثل أن نساء القول فى حق أمة تضم رجالا يمثل هذا الكرم بين أبنائها . لكن السوءات هى التى تسترعى انتباهنا بشدة بينما نفوتنا الفضائل ! وفضلا عن ذلك فإن الفضائل لا يمكن أن تكون هى نفسها عند كل الشعوب ! فالحدث الفاضل هو ذلك الحدث الذى يكون مفيدا بشكل مباشر أو غير مباشر للمجتمع الذى يطريه . وليس هناك من هذه الفضائل الا عدد ضئيل يمكنه أن ينال امتداح كل الناس بدون تمييز .

لنعدنا على سبيل المثال ، لا يتعرض المسافر المولود فى بلد هو فى حالة حرب معلنا لأن يقتل أو يسلب ، ذلك أن مصالحتنا تحملنا على استقبال الأجانب وحمايتهم وأن نبط علاقتنا معهم . لكن العكس من ذلك هو ما يصدق على الصحراء فإن أى رجل ليس حليفا للقبيلة سوف يجرد من أمتعته ، بل ويقتل أحيانا على يد العربان الذين يقبلونه ، والعربى الذى يحظى بتقدير أكبر هو الذى يستطيع أن يثترع أكبر قدر من الأسلاب لأن السلب يشكل واحدا من أهم دخول قومهم . ومع ذلك ،



لمحيط أنهم بدورهم يتعرضون لنفس المخاطر ، ويجدون أنفسهم فى بعض الأحيان فى حاجة الى مأوى عند أعدائهم أنفسهم ، فإن البدو تد جعلوا من كرم الضيافة أول واجباتهم ، ولابد أن نقر بأنهم يمارسونها بسخاء لا يعرف فى مكان آخر : فالأجنبى الذى استطاع أن يصل الى خيامهم أو حتى يلمس عتبة خيمتهم لن يناله فقط أى أذى — بل أنه — وكما كان يحدث فى زمن إبراهيم — سيحصل دون أجر على طعامه بل أن التبيلة باكلها قد تتحمل مخاطر حرب خطيرة دون أن تسلمه الى اعدائه . وقد حدث لى ، كما حدث لكثيرين غيرى من أمضاء الخلعة، أن سافرننا وحدنا مع عربان وبقينا بينهم شهورا عدة دون أن يكون لدينا على الإطلاق ما نفهم منه على ثقافتنا بهم .

ويخالف التحالف الخاص بين قبيلة وأخرى ، توجد تلك العصبة الكبيرة التى تعترف بواحد من مشايخ هذا التجمع على أنه شيخها الأوجد ، وتأخذ هذه العصبة اسما مميزا ، مثل ذلك ما يحدث فى مصر السطى حيث توجد اثنتان : الأولى تسمى : سعد والثانية تسمى : حرام .

وقلنا يتأهل العربى البدوى الا وهو يمتلئ حصاته ، وهو مسلح عادة بسيف بالغ القصر وخنجر وحربة طويلة كما يكون فى غالب الأمر مسلحا برمح وكبيرة من الأسلحة التى يعلقها فى قوس سرجه ، وفى بعض الأحيان يستعير من رمحه بينقية كبيرة يستخدمها بمهارة حتى عندما يعفو به حصاته ، رافعا يده دون أن يترك عنان قمرنسه بطريقة يستطيع بها أن يثبت سلاحه وأن يصوبه كما لو كان راجلا ، وبالرغم من أنه يدرّب على القاء حربيته لأبعد مدى وبفئة شديدة فائه من النادر مع ذلك أن يتخلى عنها فى المعركة ، فهو يمسك بها عادة بالقرب من سهمها ، ويرمى بها بقوة تاركا ايائها تنزلق من يده دون أن يتخلص منها كلية ويحركه معلقة يستعيد سريعا الى وضعها الأول وحيث أن كفافته كفارس أكبر منها عن درجة تباهيه بسلاحه ، فاته يحرص على اتخاذ الجانب الأيسر من خصمه ، وهو يحوم حوله ويتقاعى ضرباته هاربا بحصاته الذى تضخمه مرونته المذهلة بشكل رائع فى تلك المعارك التى يلحزم فيها القاتلون .

ويمنع البدو بأنفسهم البارود الذى يستخدمونه وهو ردىء ،  
 وتزيد فيه على الدوام نسبة الفحم بدرجة أكبر مما ينبغى . وليست  
 لديهم مدفعية ، فالمدفعية حسب أسلوبهم فى القتال ليست مفيدة  
 بالنسبة لهم ، وإذا ما اضطروا للتجمع فانهم يهاجمون كرماة ، ويتم هذا  
 دون أدنى نظام ، فكل منهم يتخذ مكانه حسب هواه . وليست مماركهم الا  
 تلاحمات ، اذ يبالغ أكثرهم شجاعة بالانففاع نحو الخصم ، ويثير بذلك  
 حمية رفاقه . هذا هو واجب القتلة عندهم ، وهو الوحيد الذى  
 تسبح أوامرهم ، وسرعان ما يتم احراز النصر ، ويتفرق المهزومون فى  
 الصحراء ، ويحبهم الليل من ملاحقة أعدائهم .

وإذا ما دارت معركة على مشهد من المخيم ، او اذا كانت مع الفريقين  
 اسرهم ، فالتك ترى النساء والفتيات ، جماعات جماعات ، يدقن طبولهن  
 ويثرن بصرخاتهن واغنياتهن حمية المقاتلين : ووسط كل هذه الضجة ،  
 لا يكون عليهن أن يخشين بأسا . فالجميع يحترمون ضعفهن .

ولا يهاجم العربان مطلقا أثناء الليل ، ويتلخص تكتيكهم فى مفاجأة  
 العدو بانقضاضات سريعة وهجمات غير متوقعة ، وفى نصب السكائن  
 له ومناوشته لانهلكه عندما يكون هو الأقوى ، وهم فى هذه الحالة  
 لا يخرجون من أن يفروا ، ليعيدوا حشد سلاحهم وهم يجبرون باتمنى  
 سرعة ثم يعودون الى الحركة حيث لا يكون ذلك متوقعا . والويل لأولئك  
 الذين يبتعدون من أعدائهم عن فرقتهم ! لكم شاهدت فرنسيين  
 يختطفون وهم على مدى مرمى بنادق زملائهم ، ثم جردوا وذبحوا أمام  
 فرقتهم قبل أن يكون لدى زملائهم الوقت لتجديتهم .

وكم دهشنا ، ونحن نراهم يهربون أمامنا على الرغم من تفوقهم  
 العددي علينا فى حين أننا شاهدناهم فى مرات أخرى وعلى العكس  
 من ذلك يهاجموننا بشراسة برغم أنهم كانوا فى موقف أضعف بالنسبة  
 لنا ، وتفسير ذلك أنه لم يكن مع جنودنا فى الحالات الأولى أى أمتعة  
 يمكن لها أن تغرى عدوا لا يقاتل الا للحصول على مقام ، بينما كنا فى  
 الحالات الأخرى نصحب قوافل تثير لصاب شهيتهم التى لا تسبغ ، ذلك  
 أنه لا ينبغى علينا أن ننظر للعربان مثلا ننظر للام الأوربية ! فالدول  
 الأوربية تسمى منتصرا من سلك ميدان القتال ، بينما من الممكن عند

العرب أن يعد نصرا أن تلوذ بالفرار بشرط ألا تفقد من الرجال إلا أقل مما تفقد العدو ، ويشترط أن تحصل على بعض الأسلاب . وكثيرا ماخذعنا منهم ، فقتد كنا نظن جيسا ذلك الذى يهرب منا بينما هم ينظرون اليه فى معسكرهم — ربما — على أنه بطل .

وحيث ليست لديهم لا مدفعية ولا مشاة فإن أقل سور كليل بائقاف زحفهم ، لذلك فإن معظم المدن فى مصر ، قد أحاطت نفسها — حتى تحتوى من غاراتهم — بسور عال يبلغ سمكه طوبة واحدة ، ويكفى ذلك كى يجعل من الأمر فى نظر العربان حصنا لا يمكن الاستيلاء عليه إلا باستخدام القوة المسلحة ، عندئذ يضطرون للقيام بحصار المكان ، وهو نوع من المعارك لايتفق مع تلهنهم وعجلتهم، لذلك فانهم سرعان مايوافقون على الابتعاد فى مقابل الحصول على بعض الهدايا .

ولنفس هذا الغرض يقيم الفلاحون فى هذه البلاد ، هنا وهناك ، وسط الحقول المزروعة أحواضا من الطين على شكل أبراج يطلوها سطح مزود بتراس . ويزرع هؤلاء البؤساء وعيونهم يقطنة : وهم لا يتركون سلاحهم مطلقا ، ويزرعون وهم يرتجفون تلك الأرض التى عليها أن تطعمهم ، وما أن يلمحوا البدو قادمين حتى يسوقوا — على وجه السرعة — حيواناتهم إلى أكثر الأبراج قريبا ، ويتسلقونه على درجات صمرة محفورة فى جسمه الخارجى ، ومن سطح هذا البرج يذودون عن ممتلكاتهم ويصدون عدوهم بطلقات البنادق .

وعندما تقوم حرب بين قبيلة وأخرى فإن العرب لا يتخذون مطلقا من اسراهم عبيدا ، فهم يطلقون سراهم بعد أن يسلبوهم امتعتهم ، وإذا ما استبقوا بعضهم فانما ليتخذوا منهم رهائن ، لكنهم لا يسلكون نفس المسالك مع الأجناس الأخرى وانما هم فى هذه الحالة كذلك — يحتفظون بعدد قليل من الأسرى ، لكن هؤلاء الأسرى يكونون بمثابة عبيد ، يستخدمون فى أعمال البيت وبخاصة فى طحن الحبوب ، وهذا النوع من العمل يضمهم مباشرة تحت إمرة النساء فى القبيلة : وتستطيع أن تميزهم عن العبيد المشتريين ، وهم كذلك قليلو العدد — فهؤلاء الآخرون زواج فى غالب الأحيان ، يشترون وهم مسخرة ، ويعاملون بقدر من الرأفة كما لو كانت تربطهم بالقبيلة روابط الدم . وعندما يمسحون

كثيرا ، يتبعون سادتهم الى الحروب ويحصلون فى الغالب على حريتهم  
مكافأة لهم على شجاعتهم ، ويحصلون كذلك على عطاء من الامتعة الضرورية  
لحالتهم الجديده ، بل انهم فى بعض الأحيان يقتسمون تركة سيدهم مع  
ابنائهم ، وفى معظم الاحوال يعترف بهم كورثة وحيدى لسادتهم اذا  
لم يكن (١٠) لهؤلاء الآخرين ابناء ، حتى ولو كان لهم اهل عديدون وعندما  
يصبحون افرادا فى القبيلة ، يكون بمقدورهم ان يتوصلوا هم واخلائهم  
الى مرتبة الشيخ . وبهذا يكون الامر هنا اقرب الى التبنى منه  
الى العبودية .

وأخيرا فان البدو لا يرغبون الأسرى الذين يحصلون عليهم فى  
الحروب على امتلاك الاسلام لكنهم يرغبون على ذلك العبيد الذين  
يشترونهم . ولا يعنى الامر انهم شديدا التسقيق فى مسألة الدين ،  
فقطا يكون هؤلاء مسلمين الا بالاسم ، وتنتظر اليهم بقية الشعوب التى  
تدين بهذه الديانة على انهم غير مؤمنين . والخضآن ، هو الممارسة  
الدينية الوحيدة التى تحظى بالاحترام بينهم ، ومن المعروف انها كانت  
تمارس قبل مولد محمد « صلى الله عليه وسلم » بزمن طويل . اما الوضوء  
الذى امر به هذا النبى فلا يمكن المواظبة عليه فى الصحراوات حيث  
المياه نادرة وثمينة لحد كبير . وعلى الرغم من ان القرآن قد فرض  
الصلاة خمس مرات فى اليوم الواحد ، فان هؤلاء لا يؤدون الصلاة فى  
معظم الأحيان الا مرة عند شروق الشمس ومرة أخرى عند الغروب .  
بل وربما كانوا يخلطون بين ذلك وبين التقديس الذى يولونه لكل النجوم ،  
ولعل ذلك شيء قد بقى من ديانتهم القديمة تلك التى كانت بسيطة  
بقدر ما كانت طبيعية . وهم يعيشون كائنات سليا ، وينظرون الى  
الأجسام السماوية كوسطاء بينهم وبينه وهى التى تبدو وسط سماء بهذا  
الجمال وعلى هذه الدرجة من الصفاء وكثتها تدل على عظمة الله  
التي تتبدى هنا بقدر من الروعة اكبر مما تبدو به فى بقية مظاهر  
الطبيعة (١١) .

(١٠) نجد فى التوراة عادات مشابهة ، فقد كان ابراهيم ينظر الى  
ابن خالته كوارثه الوحيد قبل ان تجعل منه هاجر ابا ( سفر التكوين ،  
الاصحاح الخامس ، الآية ٣٧ ) على الرغم من أن ابراهيم كان ينتمى الى  
أسرة كبيرة العدد .

ولا يرى مطلقاً في معسكرات العريان مكان مخصص للصلاة . فكل امرئ يؤديها حيث شاء . ونسلك في هذا الأمر على النحو الذي سمع به ، إذ ليس ثمة رجال دين أو ثمة على الإطلاق ، ولكن ثمة قاضيا ، وإن كان هذا الفقيه الذي ينبغي أن يحفظ القرآن ويعترف القوانين والفلاسير لا يعرف حتى القراءة . يقول شيخ القبيلة لأحد العريان : أنت قاض ، فيكون كذلك ، ولقد أخذوا بهذه الإجراءات بدافع سياسي ولارضاء جيرانهم ، لكن ما يميزهم على وجه الخصوص عن بقية المسلمين هو أنهم لا يكونون لا حقدا ولا احتقارا للأديان الأخرى ، بل ويقال أنه لا تزال توجد داخل الجزيرة العربية قسائل يهودية ينظر إليها أبناء البدو المسلمين ، على أنهم أخوة لهم .

وفي بعض الأحيان ، ومن المستحسن أن يحدث ذلك فوق الأماكن المرتفعة ، يذبح العريان خروفا أو جملا صغيرا ، ويذكر اسم الله ، ويوزعون على الفقراء جزءا من لحم الضحية (١٢) .

وتوقر المسلمين للحيتهم أمر شائع ، ولا يسقطون العبد أن يطلقوا لحاهم . وحلاقة فخذ رجل حر أمر مهين لكرامته : لذلك يقسم البدو بلحاهم وهم ممسكون بها بأيديهم ، وفي أحيان أخرى يقسمون براسهم ، لكن أكثر الأيمان تقديسا وأكثرها قوة ، هو القسم الذي لا يلجأون إليه إلا في الحالات ذات الأهمية القصوى ، ويلفظ به مع رفع طرف الرداء والامساك بعضو التذكير ، ومادة القسم بالأعضاء التناسلية يعود إلى زمن جد بعيد فلقد قال إبراهيم لأخيه « ضع يدك تحت فخذي ، واقسم أن تذهب إلى بلاد ما بين النهرين لتتخذ زوجة لاسحاق ابني » \*

(١٢) ذبح الأضحية فوق الأماكن المرتفعة تقليد شائع عند العرب منذ الألفية الضاربة في القدم ، فعلى أحد الجبال قاد أحد شيوخهم ابنه ، لكي يذبحه قربانا إلى الله ( سفر التكوين ، الأصحاح ٢٢ ) وتقسم الفؤارة العديد من الأمثلة المشابهة .

\* هذه ترجمة للنص الفرنسي واليك النص كما جاء في القصة : « وقال إبراهيم لعبد كبير بيته المسئول على كل ما كان له ، ضع يدك تحت فخذي ، فاستحلفك بالرب اله السماء واله الأرض ألا تأخذ زوجة لابني من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم ، بل إلى أرضي وعشيرتي تذهب وتأخذ زوجة لابني اسحاق » — وهكذا تزوج اسحاق بن رفقة بنت بتوئيل ابن لحي إبراهيم — سفر التكوين — الأصحاح الرابع والعشرون . (الفرج )

وللتعاويز والتماثل نفوذها الكبير على العقليّة السانجة لهؤلاء القوم البسطاء ، حيث يحمل السكثرون منهم كيسا صغيرا من الجلد ، مدلى فى رقبته أو تحت إبطه ، ويحتوى على قطعة من الورق كتبت عليها كلمات غامضة على يد درويش. بل وفى كثير من الأحيان على يد مسيحيين أو يهود وهم الذين ينظر اليهم البدو على انهم اكثر علما من المسلمين فى تلك الأمور التى تتصل بالتماثل والرقى . وقد شاهدت بعضا منهم يحملون كذلك بعض احجار عليها نقوش بحروف كوفية لا يفهمونها على الإطلاق بل وكذلك بعض التعاويذ المصرية القديمة ، وفى النهاية فانهم يولون ثقتهم الكبيرة فى التنبية التى عملت خصيصا لمرض اصابهم اكثر مما يولون هذه الثقة لكل فنون الطب واسرارها . ويحرصون على وضعها فوق الجزء المصاب من الجسم ، وقد يثير الأمر ضحك البعض ، وانا مقر بذلك ، ولكن ، هل ينبغي لمثل هذه الأمور أن تثير مسخريتنا. بينما نحن برقم كل حضارتنا مازلنا أسرى لخرافات مشابهة .

وعندما تنمو شجرة بالقرب من مقبرة ، أو فى أية ظروف قد تضفى عليها نوعا من مظهر المعجزة ، فانها قد تحمل البدو على الاعتقاد بان بها روح جنى ، وتصبح منذ ذلك الوقت امرا مقدسا ، بحيث لا يمكن انتهاك حرمتها بقطع فرع منها أو حتى بقذفها بحجر . ويعلقون بها شعر الراس وشعر الجسم ومزقا من القماش ، ووقطعا من الورق خطت عليها حروف غريبة وكلمات سحرية . ويأملون من وراء الطقوس التى يصحبون بها هذا الفعل أن يسخروا القدر لصالحهم وأن يوقعوا الضرر والأذى بأعدائهم . وقد شاهدت وسط الصحراء - بين القاهرة والسويس ، شجرة ضخمة من أشجار الأكاسيا مغطاة بمزق من القماش ، ويعمرر بالقرب من هذه الشجرة عادة القافلة الكبيرة التى تتوجه كل عام الى مكة « للحج » ويقوم الغرب بهذا الأمر فى تجديد كبير ، وتلبا بغوت الحجاج أن يسخروا هنالك نفورهم اذا ما كتبت لهم النجاسة من أخطار السفر ، وذلك بأن يعلقوا فى فروعها جزءا من ملابسهم .

كنت اود لو أستطيع أن أستخدم هنا تفاصيل الحفلات الدينية التى تصاحب عند كل الشعوب بعض المناسبات الهامة فى حياة الناس ، لكنى لن اتحدث هنا - حيث اثنى ساقترص فى هذه الدراسة على الوقائع

التي لمستها وتلك التي تحققت منها بنفسى - عن حفلات الزواج والميلاد،  
وتحت بند الأخلاقيات والمعاداة المدنية .

يتزوج العربان فى سن جد مبكرة ، وهم شديدو الغيرة على نساءهم،  
مالخنجر مشرع عند أثل هفوة خيافة ، وهم لا يخفون على الإطلاق فينهم  
فى استعادة أى من نساءهم يقعن سبيليا فى الحرب لتضمهن أحضان  
المتنصر ، وتستطيع الفتاة التى موت بهذه المحنة أن تعثر على زوج وكأن  
شيئا لم يحدث لها ، ومع ذلك فإن هذه الفتاة فى حالات أخرى ، إذا  
لم تبين بكارتها ليلة زفافها - ستطرد الى أهلها مجللة بالخزى ، ويقتظر  
هؤلاء الأهل ببارغ الصبر فى خيمة الزوج قطمة القماش المخضبة  
بالدم والتي تشهد بمقتل ابنتهم واستقبالها ، بل ويعرضونها أحيانا خارج  
الخيمة لانتظار الجهور ، ثم تطويها الزوجة الشابة بعفوية وتحتفظ بها  
طيلة حياتها .

ولا يعرف شباب العربان هذه لسوء شديدة الانتشار لسوء  
الحظ فى أوربا والتي تحطم قوى الأخصاب عند أبنائها، وتقضى على البهجة  
التي يبنى أن تقرب بين البشر وتحيل الحياة الى كآبة منفرة ، تصيب  
صاحبها بالانطواء ، وقناعة المزاج وتجعل منه أنانيا فظا وتسبب  
له فى امراض الوهن والعجز القاسية بل وإلى موت مؤسف مالم يؤد حب  
النساء الى علاج سريع له ، لكن هذه السوء تحل محلها هنا سوء  
أخرى عرفت فى الماضى عند اليونان ، وكانت شائعة فى كل الأمم  
الرموية ، تلك هى عادة أن يبادلوا الحب فيما بينهم. ويحدث هذا على  
وجه الخصوص اثناء مسيراتهم الطويلة حيث ليس لمة من مجتمع يحيط  
بهم سوى تقطعتهم .. وهناك ، يفتهمون فى أمور تبعث على الخجل .

ويؤدى الزواج الى اختفاء أو على الأقل الى التخفيف من هذه الملائذ  
الآتية . والعربان كما سبق القول يتزوجون فى سن جد مبكرة ، وليس  
ثمة ما يملونه أكثر من الحصول على الكثير من الأطفال فلذلك هى  
الوسيلة الأكيدة للنفوذ والثروة . ومولد طفل ، هو حدث يملؤهم  
بالفرح الطاسفى ، وسبب هذا الحب الأبوى الكبير فانهم يضيئون  
الى اسمهم اسم مولودهم : فلذا كان الأب يسمى محبدا وابنه يسمى

عليان اسم الاول يصبح هكذا : محمد ابو علي ، او ابو علي فقط ، وهو ما يعنى والد علي .

ويحل الشبان من جانبهم اعظم احترام لواهبيهم الحياة ، كما يحترمون كل الشيوخ على وجه العموم ، فينهضون عند قدومهم ، وينصتوا اليهم بل احترام شديد ، بل ويكونون من التذخين في حضرتهم الا اذا طلب اليهم ان يواصلوا التدخين . وهكذا تتأسس حكومة القبيلة على هذا الخضوع . التلقائي لحكمة السنين وخبرة الأيلم ، وعلى حب الإباء لإنسانهم .. وهذا هو ما سبق ان لاحظنا من قبل حول هذا الموضوع .

والعربان رشيقي الأجسام ، خفيوا الحركة أكثر من كونهم أشداء ، تتميز أجسامهم بالنعالة ، لكنها نحافة الصحة ، وثمة نوع من التشابه الكبير في شكل قلمتهم ، إذ قلبا تشذ عن طول يتراوح من خمسة أقدام وبوصتين الى خمسة أقدام وأربع بوصات ، ولا نرى بينهم مطلقا — كما نرى عندما — اقزاما الى جوار عمالقة ، او مقمدين الى جانب أشداء مفتولي العضل كما لا يرى بينهم على الإطلاق من هو كسيح منذ مولده .. فهناك تتقارب القوى الفيزيائية ، كما تتكارب الصفات الأخلاقية والمعادات الاجتماعية بقدر من المساواة لا مثيل له في مكان آخر من العالم .

والعربان بيض الوجوه : لكن الشمس لوحت بشرتهم لحد كبير ، حيث يشتد أثرها إذ تنعكس اشعتها بفعل الرمال : ولون لحيتهم وشعرهم وعيونهم اسود ، اما أسنانهم فلانصعة البياض متناسقة ، في العادة ، وجيلة وملحمهم روحاني ورقابهم كثيرة العضل ، واكتافهم وصدرهم عريضة ، لكن الركبة كبيرة بعض الشيء ، ولعل هذا قد نتج عن طريقتهن في الجلوس على الأرض حيث تتشابك سيقانهن من تحتهن .

وعيون النساء أكثر اتساعا من عيون الرجال لكنها سوداء بالمثل ، كذلك فان أسنانهن بيضاء متناسقة ، وقامتتهن هيفاء مرنة ، اما أذرعهن وأيديهن وسيقانهن وأقدامهن فعلى درجة من الجبال تصلح معها أية واحدة فهن ان تعد أنموجا « موديل » لكن ملامحهن فيها عدا عيونهن قليلة التعبير ، تنقصها الحيوية ، وهو أمر ينبئ أن نعود به دون جدال



الى عادة اخفاء الوجه تحت النقاب بعناية لا يوليناها لاي جزء آخر من جسيمه ، وانفهن كبير ، وممنه واسع ، وتصيح الكثرات ممنه قبيحات بالفعل عندما يغطين وجوههن بوشم يجعلن قريبات الشبه بهنود امريكا .

وسرعان ما تهدل صدورهن ، وهو الذى كان نافسجا وجيبيلا عنخما كفت المرأة ما تزال فتاة فى سن العاشرة او الثانية عشرة ، وما ان تنجب الواحدة ممنه طفلا حتى يستطيل صدرها بدرجة كبيرة ، وما يساعد فى تشويهه اكثر فلكثر انهن لا يبذلن اية عناية لخله او اخفائه ، لذلك فالجييلات من نسلهن فى حكم الفادرات ، ومع ذلك فهناك بعض الجييلات يمكن لك ان تلحهن وبخاصة بين صغيرات السن ممنه .

وتتيز هؤلاء النسوة جميعا بخصوبة هائلة ، وعندها لا تنجب سيدة متزوجة فاتها تلتى الاحتقار ولا يتردد زوجها فى تطليقها ، او على الاقل ، فى اتخاذ زوجة اخرى ، ذلك ان الطلاق وتعدد الزوجات امران مسموح بهما .

ومن اصعب الامور عليك ان تستطيع تمييز شيوخ العرب من شبانهم عن طريق ملابسهم ، فهم يرتدون بصفة اساسية ائله هذه الملابس خشونة وتنفرا ، اصف الى ذلك ان رداء العربيان لا يتغير ، على الإطلاق ، اذ بظل هو نفس ما كانه فى الازمنة الخوالى ، وينبغى ان يقود هذا الى الاعتقاد بان الازمنة انما هو نوع من التقدير الذى تحظى به الشيخوخة ، اما عندنا ، فعلى العكس من ذلك ، فاهواء الموضة تتغير كل يوم .. ومن ثم تلتى من معينة يجد المرء نفسه فيها لايسغى اهواء « موضة » جديدة ، فيثبت على بذلة لا تعود تتغير طيلة السنوات الاخيرة من عمره ، لذلك فسرعان ما تعد ملابسنه مضحكة حيث يكون الشباب وهو الذى يبعث البهجة فى كل شئ ، قد كف عن استخدائها . ومن جهة اخرى فان الموضة فى اوربا لا تؤدي فقط الى تنوع الملابس ، بل انها تبسط سطوتها على كل شروب الحياة ، وينتج عن ذلك فى غالب الاحيان تفافن قاس بين الشباب وبين الشيخوخة ! فملابس الآباء تبسو فى عين الابناء مضحكة ، بينما لا يكف الآباء عن انتقاد الزمن الحاضر ولا يبلون من الاسف على الزمن الذى فات ، ويتبذلون فيها

بينهم المرارة فيقولون : فيما مضى كنا نفعل كذا .. وهذه الكلمات التي قد يلفظها البعض بسخرية وقد يلفظها الآخرون بأسى ، تبدو كما لو كانت تعيد الى الأذهان ذكرى زمن سابق على الوقت الصاضر بقرون هدة ، بينما هى فى أغلب الأحيان لا تنطق الا بفترة مضت منذ حوالى المئتين عاما . لكن الأمر ليس نفس الأمر عند أم الشرق ، فللمعادات ثابتة لا تحول . يقول العرب هكذا كان يفعل آبائنا وعلينا ان نحذوا حذوهم . ومع ذلك فلا بد أن نتفق على انه اذا كان مثل هذا الأمر فى معظم الأحيان ، أفضل من ذلك التغيير الذى يحدث بلا انقطاع فان له أيضا عيوبه ! ذلك ان شيئا لن يتطور بمرور الوقت .

ويرتدى العريان جلبابا بالغ الاتساع من القماش أو من الصوف ، وهم يشدون حول وسطهم بواسطة حزام عريض . ويرتدون تحته كلباس داخلية سروالا من النيل . وهم يخلقون رعوسهم بالوسن ويغطونها بعمامة ، ويطلقون لحيتهم ، وتظل عارية رقابهم وأذرعهم وسيقانهم . وفى معظم الأحيان يرتدى العريان الذين يقطنون صحراء مصر الغربية فوق ملابسهم معطفا أبيض اللون « عباءة » من قماش صوفى شديد الرقة . وقد شاهدت عربانا آخرين فى مناطق تحيط بمدينة السويس يلتقون فوق ظهورهم أثناء الشتاء جلدا ثقيلا من جلود الخراف يعتقدون تدميه الأمهيتين فوق الصدر ويتلى الذيل الى الأرض وهو الأمر الذى يشبه تمام الشبه تلك الطريقة التى يبدو لنا هرقل بها وهو يرتدى جلد أسد ، ويبدو هذا المعطف البدائى على درجة من الجائبة والروعة ، اما ملابس السيدات فتكون عادة من رداء طويل يستخدم فى نفس الوقت فستانا ، ومن سروال وعمامة وحجابين ، أولهما وهو الأوسع يوضع فوق الرأس اما الآخر وهو أقل اتساعا فيوضع فوق الوجه أسفل العينين مباشرة ، ويثبت بقصاصتى قماش تعقدان خلف الرأس . وثمة اطواق من الفضة — وهى فى أغلب الأحيان من الزجاج الأزرق — تحيط بالذراعين والساقين اما الحلى التى يتزين بها، فهى الخواتم والأقراط المصنوعة من النحاس أو الفضة ونادرا ما تكون من الذهب ، وبعضهن يثقبن إحدى فتحتى الألف لتتدلى منها حلقة فوق الفم .

وتظن النسوة من كثرة الفئات انهن يتزين عندما يصبغن بالأصفر  
 باطن القدمين واليدين « بالحناء » وهو امر بدا لى على الدوام بالغ  
 القبح ، لكننى سأقول عكس هذا الراى بخصوص عادتى فى احاطة  
 جفونهن بخط أسود يمتد قليلا عند ركن الجفنين فقد كان تأثير ذلك على  
 الدوام طيبا بالنسبة لى ، فالعين تكتسب بذلك حيوية وتبدو نجلاء  
 وأكثر اتساعا ، ويمكن أن نستنتج من الخطوط التى نراها محفورة حول  
 عيون التهاثيل المصرية ان هذه كانت نفس عادة النسوة فى مصر القديمة .

ومثولات البدوى كما لا بد أن يتخيل المرء تتضائل الى حد الضرورة  
 المباشرة : راحة ، رقيقة من الحديد لتحميص حبوب القمح أو لاثضاع  
 الخبز ، اناء لصنع القهوة « كتكة » ، دلو من الجلد لصب المياه ، بعض  
 القرب ، قصعات من الخشب فلانجين صغيرة لشرب البن ، قدر ، حصيرة  
 تستعمل سجادة وقرأشا ، وفى بعض الأحيان نول لنسج الأقمشة الخشنة ،  
 الأسلحة التى سبق أن تحدثنا عنها ، ماسورة طولها من ٤ — ٥ اقدام ،  
 قليل من الملابس ، نوع من الماتوليين (١٢) طبله وهى عبارة عن اناء من  
 الفخار المحروق لا تاع له ويغطى من احدى فتحتيه بجلد مشدود بقوة ..  
 هذا هو كل ما تضعه على وجه التقريب خيمة البدوى ، وهذه الخيمة  
 ترتفع الى ٥ — ٦ اقدام ، وهى مريسة الشكل ومصنوعة من قماش  
 غامق خشن يمنعه العربان بأنفسهم من وبر الجمال . أما الجزء الخارجى  
 من الخيمة ، وهو الذى يصنع سقفها ، فهو قليل الانحدار ويتخذ فى غالب  
 الأحيان شكلا افقيا ، وثمة فاصل من نفس القماش يفصل داخل الخيمة  
 حجرة الحريم عن حجرة الرجال .

---

(١٢) استخدمت كلمتا ماتوليين وكمان  
 الآلات تختلف كثيرا عن تلك التى تطلق  
 وقد أطلقت كلمة ماتوليين على تلك الآلات  
 صغيرة من قرن أو من خشب ، وكذا  
 أو تارها بواسطة قوس ، وإما كان  
 بتفصيل أكثر دقة ، أن يعود  
 Villoteau عن الموسيقى ،  
 الفرنسية والسبع فى القرن

وتتناثر كل خيام العرب بلا نظام الواحدة بعد الأخرى ، ولكن في نفس الوقت بطريقة تجعلها تحوى فيها بينها فراغا فسيحا يستخدم كميدان عام وكهربط للقطعان ، وإذا ما شاعوا أن يرحلوا فإن كل عائلة تعبىء منتولاتها الخفيفة في قماش خيمتها وتحملها فوق جملها وتساق القطعان في مقدمة الركب ، يتبعها النسوة والأطفال والشيوخ ، ويسير بعض هؤلاء على قدبيه ويمتطو البعض الآخر الجمال أو الحمير ، وهناك بعض الرجال ، على صهوات جيادهم ، يرشدون ويتودون المسيرة ولا شيء يبقى في المؤخرة ، وسرعان ما تأتي الرياح لتحو آخر أثر لهذه المدينة المؤقتة .

والعربان قوم بالغو الفناعة اذ تكتفيهم بضع بلحات وحفنة من التنج أو الشمير المحبص غذاء ليوم كامل : بل لقد رأيت البعض منهم في أعماق الصحراء يكتفون ببعض من الفول النوى كانوا يأخذونه من طعام جبالهم ، ويأكلونه دون أية تجهيزات سوى أن يكسروه الى قطع صغيرة بواسطة حجر حتى يتمكنوا من مضغه بسهولة أكبر ، وهكذا ، فسيت أوثنيات من الطعام أو سبع هي كل ما يستهلكه البدوي من طعام طيلة اليوم في الصحراء ، وهم يأكلون أكثر من ذلك بقليل عندما يحلون بأرض خصبة ، ومع ذلك فإن زهافتنا ، وهم المعتادون على فترات الصيام الطويل ، لا يستطيعون بحال أن يقتربوا من بساطة هؤلاء وقناعتهم ، هؤلاء يشربون أقل من القليل ، ويتحملون العطش لأيام بأكملها ، وبلا جدال فأنه نتيجة لهذه الفناعة المستمرة فإن افراقاتهم ، نتيجة لهذه الفناعة<sup>١٥</sup> ، حد قليلة (١٤) .

العرق عندهم بشكل مطلق فيها اعتقد  
وقت واحدا من النتائج لقناعتهم،  
لا يوجد نقط لأنهم يأكلون قليلا  
شمس حارقة ، وهم لا يرتدون الا  
بنايف جلودهم وخشونتها تضيق  
: يتعرضون لقدر قليل من النقد  
تملأ قواهم تقل تبعاً لذلك ،  
ذلك بفضل ان اترك الامر

واليكم ما يأكله العربان عادة : فطائر صغيرة من الذرة أو القمح لم تنضج لحد كاف ، أرز ، بلح ، عنس ، فول ، لحم ولكن في أضييق الحدود، لبن طازج أو رائب ، زبد ، جبن شحيد الجفاف ، ملح ولاذع الطعم يصنعونه دوما من لبن الفرس والبقر والجاموس والحصير والماسز بلا تفرقة ، ولا يشربون سوى الماء والبن بدون سكر ، وهم يحولون القمح الى دقيق بواسطة رعى شبقاها من حجارة أو يسحقونه ببساطة في حجر يتمر على شكل محقة ( هاون ) ، بنفس الطريقة التي يصنع بها الرسابون ألوانهم .

وبعد عجن الدقيق ، يبسط العجين على سطح من الحبيد المحي من قبل مسوق النار داخل حفرة في الرمال ويغطى الجبيع بالرماد المسخن ، ويجذب الخبز قبل أن يبلغ بكثير درجة النضج التي نعطيها له في فرنسا . وهذه عادة استمرت في الصحراء منذ زمن لا يمكن تذكره « لنضجوا الخبز تحت الرماد » هكذا كان يقول إبراهيم لسارة .

ويستخدم نفس هذا اللوح الحديدي الذي ينضج فوقه الخبز في تحميص حبوب القمح والشعير التي يأكلها العرب عادة بدلا من الخبز .

أما روث الماشية المجفف في الشمس ، فهو على وجه التقريب ، الوقود الوحيد الذي يستخدمونه ، ومن العسير عليهم في الصحراء أن يثرونوا بوقود غيره .

وفي وجبة الاحتفالات يقدم عادة خروف باكملة .

وقد تناولت العشاء ذات يوم مع بعض البدو ، ولقد استخدم هؤلاء لحني على الطعم وسائل قد لا تقع وقع الاستفكار من أكثرنا تادبا نحن الأوروبيين وهذا أتمس هذه الحكاية التي سوف تسهم في تعريفنا بشيقي من زوايا مدة :

كنت مكلما أثناء شفاء العام السليح ( ١٧٩٩ ) بعبور وادي التيه، الذي لم يكن قد سبق لأي من جنودنا أن اجتازه من قبل . ورحلت من القاهرة مع سرية تتكون من خمسة وعشرين رجلا من المشاة ، وكان مع كل جندي من الخبز مايكتفيه لمدة أربعة أيام ، وكان معنا جملان يحملان

المياه التى قدسنا اثنا مستحتاج اليها . وعندهما وصلنا عند غروب الشمس قرب محفل الوادى ، على مشارف الأرض المنزرعة ، قررت ان نمضى الليل فى هذا المكان ، وتجد الجنود على الرمال ، وبينما هم ياكلون خبزهم ، مغموسا فى قليل من الماء ، كان خيالهم الذى استثاره اسم الوادى ، قد جعلهم يتخيلون آلاف المخاطر الخرافية وارتدت ان اتبين — بتوجهى الى قرية كنا غير بعيدين عنها ، ما ان كان بمقدورى ان اتزود من هناك بمرشد يدلنا على الطريق : اخذت بندقيتى وسرت وحيدا ، ولكن سرعان ما دنفعتنى الرغبة فى التعرف على محفل الوادى الى القيام بدورة كبيرة ، ابتعدت معها دون ادراك منى عن سريتى ، وما ان تسلفت بعض القلال التى حجبته كلية عن الأنظار . حتى وجدت نفسى نجاة أمام مخيم عربى : فكرت فى الانسحاب لكننى تبينت ان بعض البدو من راكبي الخيول قد قطعوا على كل خط رجعة ، فقررت ان اجعلهم يدفعون ثمن حياتى غاليا . كنت مسلحا بشكل جيد ، اذ كان معى بخلاف بندقيتى المشوة وسونكيها ، مسدسان ممتازان ، وثانرا ما يحدث ان اخطيء هدفى عند التصويب . شغرت ببندقيتى ، لكننى اردت فى نفس الوقت ان اجرب — وأنا رجل جرىء صاحب حيلة — ما ان كنت بمستطيع ان اتفادى معركة غير متكافئة لحد كبير ، فاعطيت اشارة للعربان الذين كانوا يحذقون فى ان يقتربوا منى ، وتوجهت فى نفس الوقت اليهم ، بادى الثقة ، وما ان اصبحت على مسافة تكفى كى يسمعوا خلالها صوتى ، حتى طلبت اليهم ان يصحبونى الى شيخ قبيلتهم لاتحدث اليه . بدأ عليهم أنهم دهشوا لطلبى ، وتبادلوا النظرات فيما بينهم ، فكررت اليهم بلهجة حازمة طلبى ، فاشاروا الى ان اتبعهم ، وسرعان ما أصبحنا فى داخل المخيم ، ونبحث الكلاب عند اقترابنا .

كنت أرى هنا وهناك عديدا من الخيول المرسجة ، مربوطة بالقرب من الخيام ، ولاحظت فى دهشة أن العديد من النسوة كن يغطين وجوههن بعنابية نهائل ما كان يمكن ان تصنعه زوجات الفلاحين فى موقف كهذا . توقفتنا أمام خيمة الشيخ التى لم تكن تخطف فى كثير من بقية الخيام الا فى كونها أكثر اتساعا بعض الشيء . دخلت فى شئ من التوجس ، فوجدت الشيخ ومعه اثنان من العربان ، وهم منهمكون جميعا فى التدخين وشرب البن . كانوا جالسين على الأرض حول قليل

من النار استقر فوقها الغلاى ، وكان دخان هذا الموتد ، وكذلك دخان النار **جبلات** ، بالإضافة الى السحنة الجادة والمهيبة لهؤلاء الرجال الثلاثة ، وكذا المسحسات والخناجر التى كانوا يتسلحون بها .. كان كل هذا يتطلب مع الفكرة التى كتبت لدينا عن مغارات اللصوص .. القيت عليهم بتحية الاسلام : السلام عليكم ، فردوا السلام دون ان يخرجوا مما فى ايديهم ، ثم اضافوا وهم يقدمون الى قنحا من القهوة « اجلس واشرب » استجبت على الفور ، فقد كنت اعرف انه نوع من الحماية لك ان تشرب أو تاكل معهم ، وقتلت للشيخ : « عرفت انك تسكر هنا فتركت تافلتى على مسافة واتيت وحدى بنقطة ، طالبا اليك دليلا ليقودنى حتى البحر الاحمر عن طريق وادى القيه ، ويمكنك ان تثق بانه سينال اجرا طيبا » واضفحت : « ليست معى الآن نقود لكننى سادفع اليه مقدما نصف الأجر الذى سعتيق عليه ما ان أعود الى مريتى » ، فاجابنى « ستحصل على دليل فانا فى سلم مع الفرنسيين » واخبرنى بعد ذلك ان الفرنسيين قد تركوا له اراضى وقرية البساتين التى كان يسكر بالقرب منها وأن قبيلته هى قبيلة طرابين .

وبينا نحن نتحدث ، لاحظت أن نساء الشيخ كن يزحن قليلا حتى يريننى فاصل القماش الذى يفصل حجرتهن عن حجرتنا ، ولابد انه كان امرا مثيرا لفضولهن ان يرين واحدا من الفرنسيين الذين قص عليهم بالضرورة محاربوهم مئات الحكايات الخرافية عنهم والذين كانت ملابسهم ولغتهم واسلحتهم تختلف اختلافا بينا عما تعودن .

استأذنت فى الاتصاف ، بعد أن تيقنت أن دليلا سيأتى فى القمد ليحلق بى فى المكان الذى اوضحته لهم ، وعدت الى معسكرى مغتبطا اننى قد توصلت الى هذه النتيجة السارة .

وعندما عدت الى القاهرة ، بعد ذلك بشهر . قصصت مغامرتى على كثير من زملائى ، واتفقنا معا على تنظيم رحلة لرؤية هذا المخيم . وفى يوم الرحلة ، كنا اثني عشر رجلا جيدي الضليح ، نركب جيادا ممتازة ، ويسبقنا سياسنا (سايس) ١٩. الذين كانوا حسب عادة أهل البلاد بجرون

---

(١٥) الساييس ( سايس ) خدم مصريون . وهم فى الوقت نفسه مشهورون بأمر الخبل ويجرون بجوار سادتهم وهم لا يعرفون التعب ويحلبون معهم فى معظم الأحيان وبخلاف عصاهم بنقطة مخدومهم .

على اتخدامهم ، وبأيديهم عصى طويلة . سرت وحسدى فى الخدمة بى  
انزع كل شك من الطرايين حول مشروع زيارتنا .. وعلى الفور ، تمرنوا  
على ، وعندما وصل زملاى بعد ذلك بتليل ، لقوا ترحيبا طيبا .

وبعد أن استرحنا وتجولنا خلال مخيمهم ، وشربنا معهم بعض  
اتساح البن ، شرعنا فى الرحيل على الرغم من الحاح كبار القبيلة الذين  
أرادوا استبقاها كى نشاركهم الطعام من الخروف الذى ذبحوه عند  
وصولنا ، لكننا ، بتصنعا الأورى ، شكرناهم مدعين أن لدينا أعمالا  
لا تمكنا أن نبقى لأكثر من ذلك ، ولاحظت أنهم لم يستريحوا لرفضنا ،  
ومع ذلك ، فبعد أن تبادلوا بعض الكلمات فيما بينهم بصوت خفيض ،  
استعدادوا لمحهم البشوش الذى كان لهم حتى ذلك الوقت ، وقال لنا  
الشيخ وهو يمتلئ حصانه مع بعض العريان ، انه ذاهب معنا ليدلنا  
على طريق أفضل من ذلك الذى نعرفه . وما أن خرجنا من المخيم حتى  
امتعل مناوشة ، وتقضينا نحن بعض وقت فى ملاحظة المهارة التى يوجهون  
بها خيولهم ويتقاذفون بها الجريد (١٦) .. كنت قد شاهدت هذا الأمر  
مرات عديدة ، وحيث اتنى شغوف بهذا النوع من الألعاب ، فأتنى لم  
استطع أن أمنع نفسى من المشاركة فيها ، فدخلت بينهم ، واستمر اللعب  
طيلة مسيرتنا .. وفى النهاية وصلنا الى شسواطىء النيل ، حيث غابة  
صغيرة من النخيل ، وهناك فوجئنا بوجود وجبة معدة ببذخ على حصر  
مبسوطة على الأرض ، فقال الشيخ :

---

{١٦} والجريد . عصا يبلغ طولها ١ - ٥ اخدام وتستخدم كرمح ،  
ويفضل العرب عادة النروع الخضراء من النخيل لأنها جد ثقيلة . ويستطيع  
الرجل وهو واقف أن يرمى الجريد على بعد أكثر من ٥٠ قدسدا . أما  
إذا كان محتطيا حصانه ويمدو بالقصى مرعته فانه يستطيع أن يلقي بها  
لأبعد من ذلك بكثير ، وهناك من بينهم من يستطيع أن يقذف بها بقوة  
لدرجة يمكن لهذه العصا معها أن تسبب فى حدوث جرح خطير ، بل  
وفى قتل من لا يستطيع تفاديها . وقد حدث لى ذات مرة أن وقعت  
على الأرض دون أن أعرف واحدا ممن كنت ألعب معهم ، وفى نفس اليوم  
تلقيت ضربة بالجريد منعتنى لشهر كامل من أن استخدم ذراعى .



» ها نحن نجد وجبة فى طريقنا .. بإمكاننا أن نتناولها معا دون أن نضيع عليكم مزيداً من الوقت « فترجلنا ، ويدانا مرفعتين وعريا ، ونحن جالسين على الأرض نأكل بشهية طيبة .. كان ثمة لبن فى آنية كبيرة ، ودجاج ، وجبن أبيض ، وعسل ، وبعض الفطائر وخبز ، ووسط كل ذلك خروف بأكمله فوق تل من الأرز لم يكد ينضج ، ويدون شوك ولا ملاق ، وباستخدام أيدينا مثل العربان ، كنا ننزع قطع اللحم ، ونأكل كيفما اتفق من نفس الأطباق . وإذا كان قد سبق لنا أن تدرنا على عدم مهارة العرب فى استخدام الشوكة فى طعامهم فقد كان بإمكانهم فى ذلك اليوم أن يتسددوا من الطريقة المبسطة التى كنا نقلدهم بها ، وكان بعضهم يغمس اللحم بالعسل محاولا أن نفعل نفس الشيء ولكننا وجدنا الطعم غر مستساغ لنا ، وشربنا مياه النيل الرائعة وتدد بردوها بالقلل (١٧) . كانت وجبة بالغة المرح على الرشم من أن نصف المدعوين كانوا يجدون مشقة فى فهم التصف الآخر .

ولقد انتهى مضيفونا من الطعام قبلنا ، وعندما كان يشبع أحدهم كان ينهض قائلاً : شبعنا والحمد لله .

وعندما نهضنا جميعا اتخذ خدمنا وكذلك خدم العرب أماكنهم ، وتال الشيخ بصوت عال حسب عادة العرب « يا أبناء البلاد ، تقدموا وكلوا » وعندئذ اتخذ بعض فقراء الفلاحين الذين جذبهم الجوع أو الفضول أماكنهم حول الحصى ، ولاحظت أن أقل شيء يشبعهم وأنهم يتسحبون بسرعة أماكنهم لآخرين وسرعان ما اختفى كل شيء . ركبنا الجياد من جديد مع البدو وتفرقنا كأصدقاء تداوى بعد أن تبادلنا التحية العربية علامة على المودة ، وهى عبارة عن التلامس عدة مرات باليد اليمنى ووضعها عدة مرات فوق الصدر مع قول . خذ بلك من نفسك ، هناك الله ؟ وهى مجلبة لا يبل المرء مطلقاً من ترديدها .

منذ ذلك اليوم وأنا أعود على الدوام لرؤية الطرابين ، ولقد أخذت عنهم معظم الأفكار التى أتونها اليوم . وعندما كلفت بعد ذلك بعمليات

---

(١٧) الظل آتية فخارية ، غير مطلية . تشغ المياه من خلال مسابها ، وتوضع فى الظل فى تيار الهواء . ريؤدى البخر الذى يحدث فوق جسمها الخارجى الى تبريد المياه التى نحويها .

كثيرة جعلتني أجتاز صحراوات مصر السفلى أو العليا وأتتني الفرصة أن أتعرف على قبائل أخرى ولاحظت في كل مكان نفس المصادات ونفس السمات والموارد والاحتياجات المشتبهة ، ومع أن هذه الجولات كانت مرهقة بالنسبة لى ، فإن رغبتي في التعرف جيدا على هذه الشعوب المنفردة — كانت تجعلني أقوم بها بسرور ، واضيف بأنني كتبت على الدوام أتوغل في الصحراء رغم أنه كان ينقصني تقريبا كل شيء ، إذ لم يكن أحمل معي الا قليلا من البسكويت وبعض البلح وقدرًا من الماء يكفي لكي لا أهلك من العطش ، وكنت أفضل ذلك على أن أبقى في مدن مصر وسط الوفرة والرخاء فجو الصحراء صحتي لدرجة تضسوى ، ونادرا ما يبلغها الطاعون ، أما أمراض العيون فتقليلة هناك ، ويكاد يكون الجدرى هو المرض الوحيد الذي ينبغي على المرء أن يخشاه في الصحراء. وبالرغم من هذا الجو الصحى ، الذى لا يقدر بثمن بالنسبة لأحوال المناطق الجاورة فانه من العسير علينا أن نفتتح أن ربما قاطلة كهذه يمكن أن تقتسم الى ملكيات مميزة ! ومع ذلك فلقد اقتسمت القبائل العربية هذه الرمال ، كما انها تكن لهذه المناطق الموحشة لحد الرعب نفس مايكته المواطن الفرنسى من الحب للحقول اليانعة ، والظلال الوارفة في وطنه، وهم ينافحون ويؤدون عنها ضد العدو بنفس القدر من الجدارة التى تدافع بها الأمم الأخرى عن أراضيها شديدة الخصوبة . وامتلاك بئر هو على وجه الخصوص كما كان في زمن البطارقة المبريين امر بالغ الأهمية ولابد أن ندرك بأن الحدود في بلد ليست مزروعة ولا تقطعها الأنهار أو مجارى المياه ، كما لا تغطيها المباني والمنشآت ستكون بالضرورة عسيرة التحديد . لذلك تتولد على الدوام الاحن ، بين القبائل من أجل المراعى ومن أجل المكوس التى تفرض على القوافل ..

وتبرق السماء اللازوردية بالضوء خلال النهار : كما انها شديدة الصفاء خلال هدأة الليل ، ومع ذلك فالأمطار تسقط على المناطق الجبلية بقدر اكبر قليلا من القدر الذى تسقط به في بقية أنحاء مصر — وهو قدر ضئيل — كما أن رياح السموم تعكر في بعض الأحيان صفاء الجو .

وتهب السموم أو الرياح المسومة من الجنوب الغربى ، وسرعها ليست ثابتة ، فهي تسرع وتبطيء من لحظة لأخرى ، وترفع معها الى

بمسافة جد عالية دواملت الرمال التي ترمم — كما يحدث أكثر من مرة —  
تواصل ، بل جيوشا بأكملها ، وينسب الى هذه العواصف الهوج سبب  
ضباب الجيش الذي أرسله تمييز لتسليط سكلن واحة آمون «سيوة»  
وهذه الدواملت الضخمة ، وهي نافرة لحسن الحظ ، اقل حدوثا في  
محرارات مصر الشرقية عنها في صحراواتها الغربية حيث الرمال  
هنا أكثر حركة ولكن السموم ، حتى عندما لا تثير أية دواملت امامها  
تعد كارثة رهيبية ، اذ هي محلة على الدوام بالرمل الدقيقة والماسخة ،  
وهي تحجب ضوء الشمس ، وتعطى للجو لونا كلبيا ، وتصل بالحرارة  
الى درجة غير محتلة ، وتجنف النباتات بل وتقتل الانسان والحيوان  
مالم يتجنبوا في لحظة هبوب الزوايع أن ينشقوها وهم يغطون وجوههم  
أو يستعجبون عنها برعوسهم . . وهذه الخواص الضارة والشريرة لهذه  
الرياح هي التي جعلت الناس يطلقون في الصحراء عليها اسم السموم ،  
وهي تسمى داخل مصر — حيث هي اقل خطورة — الخماسين ذلك أن  
الناس يشعرون بهبوبها لمدة الخمسين يوما التي تواكب الربيع .

وهناك ظاهرة أخرى تقدمها الصحراء ، وهي تلك التي وصلها  
وشرحها المسو مونتج بذلك الوضوح الذي هو صفة مميزة لكل انتاج هذا  
العالم الشهير . فهناك يظن المرء أنه يرى على بعد حوالي الفرسنج  
مساحة هائلة من المياه . بل أن الأجسام التي ترى على هذا البعد ترى  
صورا معكوسة لها في أسفلها ، أنه السراب كلبا ، وكمن المرات هلك  
مسافرون بؤساء استدرجهم هذا المظهر الخادع ، فهلكوا في مينة  
قاسية وهم يسعون الى الارتواء من عطشهم من هذه البحيرة — الوهم  
التي تتراجع أمامهم على الدوام ، في حين يظن زملاؤهم في مؤخرة الركب  
أن هؤلاء قد وصلوا الى تحقيق بشيتهم ، ويغطونهم على ما يظنونهم قد  
وصلوا اليه . وتعود هذه الظاهرة الى انكسار الضوء عند اختراقه  
للطبقات السفلى من الهواء الذي تتخلل كثافته على سطح الأرض بفعل  
حرارة الرمال .

وتستخدم الغزالة الرشيقية ، ذات الخفر ، والحياء والعيون السود  
البقلة ، في معظم الأحيان كصورة يرسمها العاشق العربي لحبيبته  
الجيلة ، أما النعابة المريمية ، والحياء البطيئة ، فهما الحيوانان

الوحيدان اللذان رأيتهما في الصحراء (١٨) ، وفي معظم الأحيان ، كنا نرى حول الخيام كلابا قوية البنية ، كسفنائية الشعر ، لا يملكها فرد بعينه ، وإنما تعيش في حالة شبه وحشية وهذه لاتصاب مطلقا بالفسار ، على الرغم من الحرارة الشديدة والحرمان شبه النام من المياه ، وهي تعيش على جثث الحيوانات الميتة والقاذورات الدنسة .. الأمر الذي يساهم في الحفاظ على صحة الجو من حول المخيمات ، وبالأضافة الى ذلك فإن هذه الكلاب التي تستطيع أن تميز الأغراب من أبناء القبيلة تعد حراسا اماميين تسارع عن طريق نباحها بتقديم الانذار عندما يلوح أي خطر ، وتوجد كذلك عند بعض جماعات من العربان كلاب سلوكية « كلاب صيد » من سلالة جميلة .. لكنها لا تعيش طليقة مثل الأولين ، فلها سادة يسكنون بها مقيدة في معظم الأحيان ويستخدمونها في مطاردة الغنم والغزلان .

وتضطر القوافل التي تعبر الصحراء الى دفع المسكوس للقبائل المالكة للأراضي التي تهر بها خوفا من أن تهاجم وتسلب امتعتها ويؤخذ أفرادها عبيدا وسبائيا أو يشتتونها في الصحراء ، ومع أننا كنا على الدوام نستنكر هذه العادة ، إلا أنها في حقيقة الأمر تتفق كثيرا مع نظم الضرائب عند بقية الأمم ، ليست لنا نحن أيضا قوانين صارمة بخصوص جوازات السفر وتحصيل الجمارك على البضائع الأجنبية التي تعبر أراضينا ؟ السنا نعتقب بالمصارعة والسجن والسلاسل بل وبالموت نفسه أولئك الذين يلجأون إلى الخديعة أو إلى القوة للتخلص منها ؟

وأرض القبيلة ملك مشاع لكل الأفراد الذين يكونونها . وإذا كانت هذه الأرض جرداء ، فإن كل واحد يقود قطعاته الى حيث يشاء ، أما إذا كانت خصيبة فإنهم يستزعمونها بواسطة الفلاحين أو يستزعمونها في غيبة هؤلاء بواسطة أسراهم وعبيدهم وخدمهم ، ويقسم المائد بعدالة شديدة بين الأمر المخطئة .

---

(١٨) توجد في الصحراوات حيوانات مفترسة أخرى مثل ابن آوى والذئب الأفريقي والضبع ... الخ ، لكنني لا أتحدث هنا إلا عما شاهدته بعيني .

ويخالف الصحراء التي هي ملك كامل لهم ، ينظر البدو لأنفسهم كحكام شرعيين لمر ، وينظرون الى الأتراك والماليك باعتبارهم غاصبين ونتيجة لذلك فقد اقتسموا هذه المنطقة ، واخذت كل قبيلة تحصل في المنطقة التي آلت اليها بعض الضرائب العينية ، وبذلك يتخذ الملاحون التمسك لأنفسهم حياة يدافعون عنهم ضد التباثل الأخرى التي ترغب في انتهابهم ، بل ويشفرون كذلك في معظم الأحيان ملاذا يلجأون اليه عند الحاجة للاحتماء من طفيان الحكومة ومن الجشع التهم لساقتهم .

اما الملكيات الخاصة عند العريان فهي الأثاث والأثنية والقطعان ومنتجات بعض المهن ، مثل صناعة بعض الأنسجة الخشنة والزبد والجبن وبيع الجياد والجمال واكرء الجمال للقوافل — كما تتمثل هذه المهن أيضا حسب المكان في تجارة بعض البضائع مثل الفحم، والسلمكي ، والملح البحرى والأسماك المقددة والنظرون والصودا والشبة والجدائل المستفدية في صناعة الحصر .

ويقتنى العرب كثيرا من الجمال ، وهذا الحيوان ذو نفع كبير لهم ولولاه ما استطاعوا سكنى الصحراوات ولاستسلموا « لحياة الخضوع » لذلك يقال في معظم الأحيان ان الله — او الطبيعة — قد خلقه خصيصا كي يجعل الصحراوات قابلة لسكنى البشر . وهو قول لا يماثل خطأ إلا الغرور البادى فيه (١٩) .

(١٩) تعيش الجبال على نحو طيب في الصحراء لأن تكوينها يجعلها لا تحس بحاجة لا تستطيع الوفاء بها ، لكن القول بانها خلقت خصيصا من أجل الصحراء ، بل ولكي تجعل الصحراء أهلة بالإنسان ، انما هي فكرة تصدر عن غرور كبير . ومع ذلك فهذه الطريقة في التعبير والشروح قد تنبأها فلاسفة وعلماء طبيعة يتميزون عن أولئك الذين تركوا أنفسهم ينساقون بفعل مشاعرهم الى تجاوز الحقيقة الباردة . وعندما يتأملون في تفاصيل تطليق مدهش لحيوان او نبات فانهم يتولون لأنفسهم : ان الطبيعة الخيرة قد منحته هذا العنصر كي يؤدي هذه الوظيفة الأساسية للحياة أو لقد أعطته هذه الوسيلة للدفاع كي تمنحه من الانقراض على يد أعدائه ! الا يكون من الأيسر أن نقول : انه يعيش لأن له هذا العضو أو لأن له هذه الوسيلة للدفاع فقد استطاع ان يقاوم أعداءه ، ولولا ذلك لما ظهر مطلقا على ظهر الأرض أو لكان سرعان ما اختفى منها ، فإين كانت هذه الجودة الخيرة المزعومة للطبيعة بخصوص الأنواع التي انقرضت بشكل تام .

وعندما يجد العربي نفسه بلا ماء ولا حطب ولا غطاء ، طريداً في الصحراء ، وعندما يرى جباله وأبقاره وخرافه تنفق من التعب أو الجوع فليسوف تبقى له جماله ولسوف تكفيه . فهي تحمله على ظهورها ، وتطعمه من لبنها وتحمل الجوع والعطش وتواجه هذه العزلة الشاسعة لتحبيه شر أعدائه .

وتكاد الجبال لا تحتاج الى الراحة ، وهي تقرض في طريقها بعض النباتات الشوكية التي قد يعافيهها حيوان آخر ، ويطعمها العربان مادة بالقتش المهروس « التبن » والفول ونوى البلح . وفي أثناء رحلة تحت بها في عرض الصحراء لم تشرب الجبال التي كانت معي الا في اليوم السابع .

وليس للجبال الكبيرة سوى مسنم واحد ، ومشيقها المعتادة هي : الخطو ، ووقع عدوها ثقيل ولا يمكنها ان تستمر فيه لوصلت طويل ، ويقودها العربان بواسطة زمام « مقود » وعندما تسير الجبال في شكل قافلة فانهم يربطونها الواحد بالآخر من ذيلها ، ويستطيع شخص واحد في العسادة ان يعنى بستة جمال ، وتحمل الجبال على ظهورها كل الاحمال ، لان الانسان لا يعرف في الصحراء لا العريث ولا الزلاجات ، وينقسم الحمل على جنبى الجبل بواسطة برذعة مزودة بالحيال ، ومن النادر ان يبلغ وزن الحمولة اكثر من مائتى كيلوجرام الا اذا كانت المسافة التي على الجبل ان يقطعها بالقوة القصر .

ومتوسط السرعة لقافلة تتكون من مائة جبل محملة على هذا النحو ، وتسير بخطو معتاد ، حوالى ثلاثة آلاف وخمسمائة متر في الساعة ، وقد يقطع الجبل اذا سار بمفرده اكثر من ربع هذه المسافة زيادة على ذلك في هذه المدة نفسها .

وثمة نوع اكثر ضسفا واكثر رشاقة واكثر خفة عند الجرى يسمى به العرب ، الهجين ، ولا يستخدم هذا الحيوان الا للركوب ، ويقوده العرب بواسطة حبل مربوط في حلقة مدلاة من منخاره ، وليس له الا سننم واحد كالجمال ، يوضع عليه السرج ، وعدوه في العادة اكثر رقسة ويكاد

يبلغ عدو الحصان ، ومهما كان عدو الحصان بالغ السرعة فإن الهجين سيلحق به اذا ما طال الطريق .

وعندما يراد تحميل جمل أو ركوبه فإن الإنسان يشطر بسبب ارتفاعه الى جعله ينخ ، ومن أجل ذلك يعودونه على طاعة يعض الأوامر التي يبلغونها اليه عن طريق اطلاق أصوات خشنّة من الحلق تكاد تشبه صوت الإنسان عندما يتفرغر ، ويبدأ الحيوان أولا بأن يطوى الركبتين . ويشن ساقيه الأماميتين تحته ثم يدع الساقين الخلفيتين تنزلان الى الأمام لنتخذنا بعد ذلك بكاتهما الى جانبيه ، وتلامس بطنه الأرض .

وعلى المرء عندما يركبه أن يتخذ مكانه بهارة على السرج وأن ينحنى الى الخلف وإلى الأمام ، لأن الجمل ينفض — ما أن تفسح قدمك في الركب — بشكل فجائي على قدميه الخلفيتين ثم على قدميه الأماميتين بطريقة تجعلك تبيل أولا ناحية رأسه ، الى الأمام ، ثم تلقى بك بعد ذلك الى الخلف . وعلى المرء أن يعرف كيف يسيطر على هاتين الحركتين المتعارضتين ، وهما شديتان . وتتبايعان بسرعة . ولحم الجمال طيب المذاق ، ويكاد يكون له نفس مذاق لحم البقر ، وهو مفضل بشكل خاص على لحم الحصان .

وتتمتع الخيول العربية الأصيلة بسمعة طيبة ، وهي تنقسم الى جنسين مميزين : العبادية والنبيلة ، وتسمى الأخيرة : حيل ، وهي أكثر قسرة في صحراوات مصر منها في صحراوات الحجاز وسوريا . ولا يمكن لحصان أن يعرف بأنه نبيل الا اذا كان أبوه وأمه كذلك في وقت معا ، وتقول مثل هذا الرأي في حصان ما سيكون له اثره الكبير في تقدير سعره فإن الناس يحرصون عندما يراد اتصال فرس نبيلة بحصان من نفس النوع أن يسجلوا بذلك حجة في حضرة شهود ، وتصحب هذه الحجة على الدوام حركة بيع الخيول ، ويعطى الناس في رقاب الخيل داخل جراب صفي من الجلد ، وهي تحتوي عادة على كتابة غامضة مخصصة لجلب السعادة للحصان وفارسه . والعرب غير معتادين على الاطلاق ان يعضوا خيولهم ، أو أن يقطعوا ذيولها أو آذانها ، إذ لا يلجأ الناس الى تشويه هذا الحيوان النبيل على هذا النحو الا في أوروبا ،

فلا أسلوب الذى سيطر بشكل مستبد فوق هذا الجزء من العالم قد اخضع الحيوانات نفسها لهفوات شاذة .

وابتداء من سن ال ١٨ شهرا ، يأخذ العرب فى تعويد خيولهم حمل الركاب ، وعندما تبلغ هذه سن العامين يدعون أطفالهم يركبونها ، ولا تستطيع الخيل فى هذه السن الا ان تخطو او ان تعسو ، وهى تاكل فى النهار القش المهروس وعند غروب الشمس تاكل من سلا ارجل من الشعير ، ولا يقدم لها العشب مطلقا ، وهى لا تشرب فى اليوم الا مرة واحدة ، ويقل هذا بثلاث مرات عما يشربه الحصان الفرنسى .

وتضعف سلاتا الخيول العربية الاماميتان وهى فى سن مبكرة . ويعود ذلك لسببين رئيسيين : الاول ، هو الوضع المتقدم للغاية للسرّج ، والثانى هو الطريقة التى يوقنّبها العرب خيولهم وهى تجرى باتّصى سرعة ، اذ يجذّبون للجسام بقوة ، فترفع الحصان سلاتيه الاماميتين ، ويزحف على قديميه الخلفيتين متصطلما بالاماميتين . وهكذا يتوقف فجأة وهو فى اقصى سرعته .

ويستخدم العربان شكائهم جافة لحد كبير ، ولذلك فانهم يضطرون عندما يدفعون خيولهم باتّصى سرعة ان يطلقوا ايديهم كليّة ، وعندما يستحثونها على مواصلة السرعة فانهم يضايقونها لحد كبير .

ولسرّج العربيان ، وهو نفس الحال فى السرج الذى يستخدمه المالبك ، مسند يبلغ ارتفاعه من ٨ — ١٠ بوصات ، وهو يشبه ظهر الاريكة الى حد كبير ولهذا السرج فى مقدمته قريوس فى سمك الذراع ، يرتفع رأسيا من ٥ — ٦ بوصات ، أما الركاب فيكون من لوح من النحاس ، مقوس من الجانبين بطريقة تجعل منه متكأ للتقدم . مسطح الشكل ، واكثر طولاً وعرضاً من القدم نفسها وهو محدب بعض الشيء وشكله رباعى ، وزواياه التى تتجاوز خصرى الحصان مقواه بالصلب ، وتفتى هذه عن استخدام المهاميز .

وهذا النوع من السروج مناسب للغاية . فعندما تكون سلاتا الفارس فى ركبتين قشريين على هذا النحو ، فانه يستطيع ان ينهض واقفا عندما



يجرى بالتمس سرعة أو عندما يقتل . وحيث أنه يستطيع أن يستند الى مسند نمرجه فانه يجد نفسه مهما يكن مقاتلا غير كفاء ، تطبيق الحركة ، مسيطرا على كل حركاته (٢٠) .

وعندما ينتهى العربان من سباق عبلوه فانهم يحرمسون قبل ربط خيولهم على أن يسيروا بها فى خطو بطيء لمدة نصف ساعة حتى ولو لم تكن هذه الخيول تشعر بالحر من جراء الجرى ، ثم يدعونها مدة نصف ساعة بلا طعام .

ولا يرى المرء عند العربان لا جيادا كبيرة الحجم ولا جيادا صغيرة . اذ تكاد تبلغ قامة كل منها ٤ اقدام و٩ بوصات ، ويقابل المرء بعضا منها — كما يحدث فى كل مكان — وقد نزع عنها السن والمرى كل حيوية ، لكنه لن يقابل مطلقا كما هو الحال عندنا حصانا شائها أو رخوا لا يستطيع برغم عافيته وقوته ان يمدو ، اذ هو ثقيل لا يفيد الا فى جر العربات أو حمل الأثقال . جرب وضع سرج على ظهر حصان عربى عجوز يدور بالطلاحونة منذ سنوات عدة ، عندئذ ستراه ينهض ليمدو الى حلبة السباق ، ويضع نفسه فى خفة سيد جسيده ، يمكنه أن يظل يستخدمه — مادام به رفق من حياة — كحصان عظيم .

والحصان العربى ، فى معظم الأحيان ، بالغ الرقة ، واعتقد ان وداعته تعود جزئيا الى القيود الكثيرة التى تحمل بها سيقانه منذ سنه البكرة ، وقد كنت فى كثير من الأحيان أرى عربيا متعبا أمام حصانه ممسكا اياه من رصفه ، وينحن بهدوء *نارجيلته* ، بينما يظل الحصان ، الذى أهله القرب من بعض الفرسان .. بلا حراك ، يمرر فقط بصهيله عن نفاد صبره .

وتعرف الخيول العربية بدقة سيقاتها ، وصفر حوافرها وخفة

---

(٢٠) يدين المالك بجزء كبير من هذا التفوق الملحوظ ، الذى كان لفرسانهم على فرساننا فى بداية اقلبتنا فى مصر ، لشكل مروجهم ، فقد كنا على نحو ما نقاتل ونحن جالسون ، وكانوا همقاتلون وهم واقفون ، فكانت المعركة بذلك غير متكافئة .

راسها وبقلة سرعتها عن سرعة خيولنا التي تستخدم في السباق ، ومع ذلك فالخيول العربية أكثر مرونة بشكل لا يمكن المقارنة معه ، فهي تعدو فجأة ويأقصى سرعة اذ بإمكان المرء ان يضعها على مبعده ٦ - ٧ خطوات من حاجز ما ثم يجعلها تعبر عدوا هذا الحاجز بعد هذه المسافة الصغرى، كما ان بإمكانه ان يجعلها تدور حول نفسها وفي كافة الاتجاهات بأيسر من اليسر وان يضيق من الدوائر التي تدور فيها لحد يبعث على الدهشة دون ان يقلل ذلك من سرعتها، وهذه المرونة المذهلة وكذا السهولة القصوى التي يوقفونها بها فجأة عندما تندفع حتى ليلاص بطنها الأرض، تجعلانها ثينة لحد لا يقدر بشئ في حالات القتال جسدا لجسد ، ولذلك فهي مرغوبة بشكل كبير من الأمم المجاورة ، وهكذا فقجارة الخيل واحدة من أهم تجارات العرب ، ولهذا السبب يفضلون الاحتفاظ بالفرسات، ويقال انهم يفضلون ركوبها عن ركوب الجياد لأنها اقل صهيلا ، كما ان أسفارها الليلية اقل صخبا . وهذه ميزة لا يمكن اهمالها عند شعب تعتد حروبه على المفاجأة الشديدة لعدوه .

والبدو قليلو التعليم، ويكاد لايقابل المرء من بينهم سوى بعض الشيوخ الذين قد يعرفون القراءة ، ومع ذلك فان لديهم الكثير من تلك المعارف التي يعطيها طول الملاحظة، فهم يعرفون على سبيل المثال كيف يسترشدون بالنجوم وهم يسرون في الليل وسط أراضيهم الجرداء والمتشابهة والتي لم يشق بها طريق واحد ، وهم يحددون الوقت الذي تبلغ فيه الشمس درجة الزوال ، ويقسمون النهار بواسطة قياسهم لطول الظل ، ويتطابق القاعدة التي يستخدمونها بحسب الفصول المختلفة لحد كبير مع خط طول البلد الذي يسكنونه، ولهم بعض المهارات في مجال الطب . كما لايمكن على الإطلاق الاستهانة بفن البيطار عندهم ، وهم يعرفون عادات حيوانات الصحراء والنباتات التي تمتاز ببعض الخاصيات **القائمة** ، وقيل ان يكتشف علماء النبات عندنا بوقت طويل اجناس النباتات ، كان العرب يستخدمون تسميات مذكرة ومؤنثة لتمييز اشجار النخيل التي لا تنتج سوى الزهور من تلك التي تنتج الزهور والثمار ، وكانوا يعرفون ان ذرات الاوليات **لازمة** لخصاب الاخرى ، وعندما يريدون اثناء حملتهم السريعة ابتاع الاذى باعدائهم فقام يكتفون بقطع النخلات الذكور وهذه على الدوام قليلة العدد .

والعرب البدو ذوو خيال مطلوب ، متوهج وحاد ، وهم يتحدثون على الدوام بأسلوب مليء بالكنايات والاستعارات ، هذه اللغة هي لغة طفولة الشعوب ، كما أنها لغة طفولة الرجال : قليل من التجريد وكثير من الصور . وعند الشعوب التي نسميها نحن شعوباً متوحشة فإن الإنسان لا تضايقه إلا الأحداث ، إذ ليس هناك هذا الحشد من القوانين والقواعد والقيود من كل نوع ، تلك التي تموجه على الإطلاق عن استخدام ملكته ، بل إنه هناك ليس مضطراً للرضوخ للأغلبية ، فحيث إن احتياجاته قليلة ، فإنه يهرب إذا ما كدره أمره ، وبملكته أن يجد لنفسه ملوئ في أي مكان وفي كل مكان ، كما أن مشاعره لا يصيبها ذلك الإتهك ، الذي يصيب مشاعرنا ، بفعل هذا التوافق والتطبيق في الحياة التي ، وإن كانت لا تخلو من قلق ومضايقت ، فإنها على الأقل خالية من تلك الأخطار الكبرى التي نجتازها دون اختيار منا لأفعالنا . أما عندنا نحن ، فإن البعض منا تشغلهم شؤون الدفاع المشترك ، بينما يقوم الآخرون بالزراعة ، ويتولى فريق ثالث بإعداد الخبز الذي يطعمنا والابتسحة التي تكسونا ، فنحن بانتسابنا العمل على هذا النحو نرود أنفسنا دون شك ببساح أكثر ، لكننا في نفس الوقت نستعيد أنفسنا . وعلى العكس من ذلك فالإنسان في المجتمع البدائي قليلاً ما يعتمد على رفاته . وحيث أنه يشعر في كل لحظة باحتياجات كبيرة وبأخطار كثيرة ، فإن روحه أكثر تلقاً وعواطفه أشد جموحاً فلهذا أن لا تنعكس لفته أسلوبه في الحياة . أنه نادراً ما يستخدم الكلمة بمعناها الأصلية ، الكلمة المجردة ، إنما هو يكس الصور والتشبيهات ، لأنه إنما يعبر عن عواطفه هكذا . . وهكذا أيضاً فهو غير معتاد على قمع عواطفه هو . . أنه إن يقول « أن هذه السيدة جميلة » ، وهي تتصف بهذه الميزة أو تلك ، وسأحبيها ضد أعدائها » لكنه سيقول لنفسه : « أنها جميلة كأول ضوء نهار ، كالقمر عندما تنعكس صورته على سطح البحار ، لها رقة النسيم الطويل في تيط الصيف ، يتدلى شعرها على كتفيها العاجيتين في تموجات ماء رقرق ، أن هذا الشمر ليشبه أغصان نخلة فضة ، وتشبه عيناها عيون الخزالن ، أما صدرها فيشبه يحمورين » نوع من الأيائل » تولمين بريعان بين الزنابق : ساظل بجوارها كلوبة غضوب تدافع عن صغارها ،

وسارعها بسيفي ، وساجعل منه بمنابة حصن لها يعز اقتضالها ..  
الخ .. الخ » .

وهذه اللغة ، التي ليست عند الشعوب المتحضرة سوى لغة عند صغير من الأشخاص الموهوبين بخيال متقد ، هي لغة الغالبية عند العرب الذين لا يزالون برغم أصلهم الضارب في القدم في طور طفولة الحضارة ، والذين تشبه حياتهم حياة الشعوب الأولى .

وقد يجادلني البعض دون شك بأن الأسلوب المجازي لا يزال هو أسلوب كل أمم الشرق التي وصلت الى مرحلة أنهارت فيها حضارتها وخضعت للاستبداد المطلق ، هذا صحيح ، لكن هذه ليست المرة الأولى التي تتشابه فيها الشيخوخة مع الطفولة مع الاختلافات الملائمة لكلا الطرفين من الحياة ، لكلا الحالتين يسهل تحديدها ، انها نفس الموجة من الأفكار التي تتدافع في الصدور لكنها في الحالة الأولى «الطفولة» حية مبهجة ، بينما هي في الحالة الثانية متهدجة وحزينة ، ونفس الشيء يمكن أن يقال بالنسبة للانفعال غير المنتظم للخيال عند الإنسان الحر والذي نلاحظه بسهولة بين تلك اللغة المليئة بالتكلف ، وتلك التي تملأ المخاوف . ففي الحالة الأولى ، تعبر اللغة في محسناتها عن تلك الرغبة التي يريد المرء أن يبلغها ، بينما تظل اللغة في الحالة الثانية تحوم وتدور دون أن تجرؤ على الاقتراب مباشرة من أهدافها .

وحب البسود للشعر هو نتيجة طبيعية لكل ما انتهينا اليه الآن ، ويتمتع شعراؤهم بهذا الاحترام والتقدير الذي كنا نكته في الماضي لشعراء البطولة عندنا ، ذلك ان شعراء العرب اليوم هم ما كانوا أولئك في الماضي ، أي موزعو الامجاد .. وأي امرئ هذا الذي لن يكون مولعا بلوغ الحد ؟ وفي بعض الأحيان تخصص اشعارهم للحب ، وغالبا ما يجلس الواحد منهم أطم خيمته وقت الفسق ونسيم المساء ينمش النفوس ، يدعوها للبراهج السهلة ، ويفريها بالترجيع بعد نهار شاق ، وعلى النفحات المنبعثة من أوتار ربابته يهرع العربان جماعات ويجلسون من حوله على الرمال ، متشابكي السيقان ، يعمرونه أذانا صاغية ، أما هو ، فبعد أن يجرب ببعض التفوهات آله لبضع لحظات ، يبدأ ، وعينه

شلفستان نحو السماء ، أو خفيضان الى الأرض ، وفي هيئة من يحاول ان يتذكر وتائع الأزمنة الخوالى ، يبدأ يغنى انتصارات قبيلته ، وللمفاخر التى منمها شجاع شهم ، أو لظك المأسى التى حلفت بعاشقين (٢١) ، وكمن مرة لم لاحظ فيها وأنا جالس بينهم ان الشمس قد اختفت وراء الأفق فى الصحراء ! كانت أشمة الفسق تضئ الوجه المتقد للشاعر المبنى وتضع فى دائرة الضوء حركته المعبرة ، بينما كان المستمعون يمدون أجسادهم الى الأمام ، ويصفون فى صمت ، وبدلوا جميعا وقد استغرقتهم الرواية التى يقصها يتركون دون أن يحروا نارجيلتهم الطويلة ، واخذت ترسم على وجوههم البرونزية امارات الرقة والإعجاب والفخر ، وللتخيل كل هؤلاء الرجال المتحثرين فى خيلاء على افضل نحو يستطيعون تتطلى منهم لحيتهم السوداء وتفتقر شفاههم عن أسنانتهم الماحجة البيضاء وتمتلىء عيونهم السوداء بحيوية دافقة ، يهز شلالهم وعباقتهم وأرديتهم الطويلة نسيم الليل ، ويقرب منهم تربع أسلحتهم ، وتحيط بهم من كل جانب تلك الصحراء الصنوت ، بينما لايقطع صمت الطبيعة الا صوت ذلك الرجل اللهم .. ويعيدا بعيدا ، يأتى صوت سهيل الخيول المسرحة استعدادا للمبارك ، وهى تضرب الأرض بقدمها ، معبرة عن شجرها بقيودها ، بينما تنيخ الجمال الصبورة على ركبتها وتمضغ فى وقار بعض التسلحات الشوكية تحاول ان تصل الى الاسماع شكلاتها الحزينة . ولنرسم وسط هذه اللوحة ، رجلا فرنسيا بملابس بلاده ، مقبولا بكل ثقة ، وعلى الرحب والسعة ، من كل رجال القبيلة .. عندئذ ستتكون لدينا صنورة لمشهد صحراوي كان على الدوام مثار غضولى .. وعنديا كانت تتوقف الاغنيات ، كانوا يشعلون من جديد نارجيلاتهم من الموقد الموضوع وسط الدائرة ، وهناك فى غلاى كبير كانت تعد القهوة ، وتدور لحداح مليئة بهذا المشروب من يد ليد

---

(٢١) وهكذا نحن طريق اغنيات تنتقل من عصر لعصر- نقلت الشعوب تاريخها ، من قبل أن يخترع الإنسان هذا الفن الدعوب ، من تجسيد السمكيات بالرسم ، ومخاطبة العين بالكتابة ، لذلك فقد كانت الكتابات الأولى شعرية ، لأنه كان على الانسان أن يبدأ بنقل ما كان يعرّفه من الذاكرة ! ولأن الكلمات - التى كانت تغنى على الدوام - قياسا على ذلك كانت كلها منظومة .

لتعيد الى المرء قوته المتهكة ، وتزوده بخدر لذيذ دون أن تغيب عن ومينا كما تفعل بنا مشروبنا القوية .. وهكذا يعود النشاط ، وتنبه الحواس ، ويلتهب الخيال ، وتمتد السهرة أوقانا أخرى ، ثم يتفرق الناس وفي مخيلتهم تجول ذكريات المجد ، وفكريات الحب التى بهج الأحلام ..

ولدى العرب عدد هائل من الحكايات على نبط ألف ليلة وليلة (٢٢)، يلعب فيها العنقا والجنيات دورا كبيرا ولا ينبغى على الإطلاق أن ندهش من ذلك لمحاياة المقلتين مليئة بالمغامرات ، وهذا هو الأمر الذى يحدد ملهم نحو الحكايات الرائعة ، ليست لدى الجنود الفرنسيين ، كذلك ، حكايات من هذا النوع ، لا يغيبنى واحدة منها ذكر الشيطان أو السحرة (٢٣) .

(٢٢) إذا كانت الحكايات التى جمعت تحت هذا العنوان تبهج القارئ المصادى ، فانها مئزر اهتمام أكبر ، لأولئك الذين زاروا الشرق ، فالتقاليد والعادات ، والأثاث ، بل والبلد نفسه ، كل ذلك قد وصف بأكبر قدر من الدقة والصدق .

(٢٣) فى مسترانا ، وبعد أن يختار كل امرئ المكان الذى سيهيج فيه وبعد أن تصف الحقائق والأمتعة على الأرض لستخدّم كبنادات ، يرتعد الجميع ثم تصدر عن أحد الجنود صيحة عالية ، كما لو كان ليقول .. هل تريدون أن تصفوا الى ؟ . فإذا ما سجع من كل الأركان الصيحات التى تعلن الموافقة يبدأ ، كان ياما كان فى سالف الأزمان .. وفى هذا النوع من الحكايات ، يدور الأمر حول امرأة شابة جميلة كانت تحقر كل السادة الشبان المتساقين فى بلاطها وكذلك كل رجال الطبقة الحاكمة ذوى النفوذ ، وتصبح عاشقة لجندى بسيط وتتزوجه وتصدق عليه الشرف والجاه والثروة ، ويتوسع الراوى فى امتداح الشجاعة والمهيزات الأخرى ، فيجمله يصارع ويهزم الشيطان نفسه، ويشرب براميل من الخمر دون أن يغيب وهي ويوصل به لرتبة هيرقل فى غرامياته ، ويتفنن فى وصف مفاتن محبوبته بأسلوب حصى لا يخفى منها شمسينا ، ويصحب ذلك كله بايمان مغلظة ، وهذا ما يعجب الجنود، ذلك أن خيالهم سوف يمنهم للحظات بمصير مشابه لمصر رجل يشبههم، ولكن النعاس سرعان ما يتقلب على مجاهج الرواية بسبب تعبهم، ولهذا السبب يعنى الراوى بأن يتأكد أنهم يصغفون اليه بأن يطلق من لحظة لأخرى نفس صيحته الأولى ، وتطمئنه صيحات المستمعين ، وعندما تصبح الصيحات التى ترد عليه قليلة أو عندما لا تعود تسمح فاته سرعان ما يستغرق فى النوم مثلهم .

وقد يدهش المرء للوهلة الأولى من تلك اللوعة والرقعة اللتين ييثهما  
 الصحراء العرب في تمبيراتهم عندما يتغنون للحب ، ولكن لماذا ؟  
 هل نريد أن نقول بأن مثل هذه العاطفة المحبودة لا ينبغي أن تسود عند  
 أبناء أمة لا تختطف فيها حياة النساء عن حياة العبيد ؟ أتساءل هل  
 يمكن للرجل والمرأة هكذا خاضعة لمشيئته أن يجعل منها مالكة لمسيره . ؟  
 قد يبدو أن مثل هذه الأسئلة تقوم على أسس قوية لكن انصام الفكر  
 سرعان ما يجعلها في حكم العدم ، حقا أن النساء عند أمم الشرق يحيين  
 في عزلة تامة حيث يحرم عليهن مجتمع الرجال ، وعندما يفرجن ثمرة  
 حجاب صفيق يخفيهن عن كل النظرات . لهذا كان من المفترض أن تكون  
 مغامرات الحب هنا شديدة الندرة ، لكن كثرة وزيادة التحفظ والاحتياطات  
 القوية ضد أقوى العواطف وابعدها عن الخضوع والسيطرة .. كل  
 هذا يجعلها أكثر قوة وحدة ، فإذا ما لح شاب أثناء لقاء عابر ملامح سيدة  
 جميلة أو صورها له خياله على هذا النحو ، فإن الصعاب ستؤجج رغباته  
 وتبدأ التعبيرات الملتهبة ترسم كل مليشمر به .

وفي واقع الأمر ، لماذا يهم أن تكون النساء أكثر أو أقل ارتباطا  
 بأزواجهن ، يئلىن احتراماً أكبر أو أقل في محيط الأسرة ، ذلك أن الأمر  
 ليس أمر من يمتلك ، ولكن أمر من يفتبط بالتملك ، ويبالغ في قدرة المملوك  
 ويتحدث عنه بحماسة مشبوبة .

أما عنفنا ، فحيث أننا نرى أكبر عدد من النساء ونعيش معهن في  
 مجتمعهم فلا بد أننا قد تحصنا ضد مفاتهن ، أن لنا بالتطوع رغباتنا  
 لكنها أكثر غموضا ، وإذا ما تسلطت هذه الرغبات على المرء منا  
 لبعض الوقت وهو بمفرده متسلداً ما يطول به الأمر ، إذ سرعان ما تجذب  
 عواطفنا مفاتن أخرى لسيدات أخريات .. وهكذا نسوف نفنى لذائق الحب  
 في غرنسا ، وللواعجه عند العرب : حيث أن لتطرفات الأئين والشكوى  
 مباحها ..

وزيادة على ذلك فالثساء عند عربان الصحراوات عادة أكثر اعتبارا  
 منهن عند بقية أمم الشرق ، بل لقد رأينا زوجات الشيخ يحكن القبيلة  
 بعد موت زوجهن ، وهناك حافلة كنا نشهدا عليها تبرهن بشكل طيب

أن تسعر النساء العربيات ليس مطلقاً على هذه الدرجة من العسف التي كنا نظنهن عادة عليها . فقد حدث أن فلجاً بعض البدو المنصورة وذبحوا حوالى المئنة من جنود الفيالة الذين كانوا يحرسون هذا الموقع واصطحبوا معهم سيدة إيطالية كتبت زوجة العريف الذى لقي حتفه فى هذه المعركة . وعندما حل السلام ، اشترطنا ضرورة أن نستعيد هذه المرأة موافق البدو على ذلك لكنها هى التى لم تشأ أن تقيد من هذه المادة من بنود المعاهدة وفضلت أن تبقى بينهم ، وراودنا الشك فى أن الشيخ الذى تزوجها كان قد لحها فى شوارع المنصورة عندما دخلها ذات يوم متخفياً فى زى فلاح فهاهم بها حبا حتى أنه عندما عاد الى مخيمه جمع اعدائه ، واستثار حساستهم ممثلاً اياهم بالمقام والأسلاب .

واختتم مذكرتى هذه بأن آمل أن تكون الوثائق التى تحتويها بذات نفع ولو ضئيل ، وسيكون هذا هو الجزاء الأوحد الذى سيعود على بفضل سماحة قرائى .



## كَيْفَ خَرَجَ الْيَهُودُ مِنْ مِصْرَ الْقَدِيمَةِ

تأليف: دى بوا - إيميه

« العنوان الأصلي للدراسة : مذكرة موجزة عن  
أقلامه العبرانيين في مصر ، وعن هروبهم الى  
الصحراء (١) ، تأليف دى بوا - إيميه مراسل  
المجمع العلمى الفرنسى ، وعضو شعبة العلوم  
والفنون بمصر ، وعضو أكاديمية العلوم فى  
تورينو ، والقراس الحائز على وسام الشرف »

---

(١) قدمت هذه الدراسة الى شعبة مصر فى أول أكتوبر عام ١٨١٠  
باعتبارها مكملة لدراسة أخرى للمؤلف حول القبائل العربية فى صحراوات  
مصر ، ثم سحبها المؤلف بعد ذلك ليدخل عليها بعض التعديلات ، وأرسلها  
الى اللجنة فى أكتوبر ١٨١٣ .



# الفصل الأول

## مقدمة

اشتهر المصريون ، فى عهد بعض ملوكهم ، بمهارتهم فى فنون القتال ؛ كما حازوا شهرة أكبر من ذلك بكثير بفضل حكمة تواضعهم ، واتساع معارفهم ، فلقد ولدت غالبية العلوم والفنون بين أيديهم ، وحين قاموا — هم — بتحضير اليونان ، فقد غدوا أساتذة لأوروبا .

ولقد اختلفت هذه الأمة الشهيرة ، كما اختلفت مئات الأمم غيرها ، فى حين يظل يعيش حتى اليوم شعب كان عبدا للفراعة ، ومع أنه قد بات مشتقا فوق الكرة الأرضية كلها ، خاضعا لكل صنوف الحكومات ، فقد احتفظ بكل عاداته وشرائعه ، ولغته وملابحه ؛ وفى الوقت الذى تجد أقوى الأمم فى أوروبا نفسها غير واثقة من أصلها ، وفى حين يجهل الفرنسي الذى انتزع النصر من فوننتوى وڤينا وبرلين وموسكو وروما ان كانت السماء التى تتدفق فى عروقه هى نفسها التى تتدفق فى عروق أعدائه ، وفى حين لا يعرف اكلان أجداده من الفرنج او من الغالين ، اكلقوا يقطنون ضفاف السين او التبر او الدانوب ، فان أبسط يهودى يحوز ذلك الشيء ، الذى قد يكون مدعاة فخار للمتحمكين فيه ، أى انه يمتلك أصلا يفتى لجنس تسديم ؛ ان بإمكانه ان يقول ، سواء كان قد ولد فى بولونيا او فى إسبانيا ، لقد كان أجدادى يقطنون حقول سوريا ومحاروات مصر فى وقت لم تكن قد وجدت فيه بعد روما ولا أثينا ولا أسبرطة ولا أى من تلك المدن التى تشكل مباحج العصور القديمة وأبجاده .

وتعود هذه الظاهرة السياسية الى قوة تلك الشرائع والمؤسسات التى أقامها موسى مثله بعزله شعبه هكذا ، وبشكل تام ، عن بقية البشر ، تسد جعل من تشتهه أمرا سهلا ، لكنه فى الوقت نفسه جعل مناهه كذلك

مستحيلا ؛ ان اليهود — منتصرين — لم يستطيعوا ( بفعل هذه الانظمة ) ان يجعلوا من قوتهم اقوى من قوى الأمم التي اخضعوها ، أما عندما كانت تحقيق بهم الهزيمة فلم يكن بمقدورهم ان يخططوا بالمنتصرين .

وتعود غالبية النقائص التي تعلب عليهم اليوم الى حالة الاذلال التي انتهوا اليها في كل مكان ؛ وحيث انه لا دور لهم في ادارة شئون الدولة ، كما انه ليس بمقدورهم ان يملكوا الاراضى ولا ان يتمتعوا بحرية العمل الحقلى ، تلك التي ترى الروح والوجدان ، بل ولأنهم — فسوق ذلك — يضطرون لأن يقيموا في احياء منفصلة في داخل المدن ، تغلق عليهم بواباتها كل مساء ، وان يعيشوا فيها مكسدين بعضهم فوق بعضهم الآخر ، والا ينخرطوا في أى من شريف ، فلم يعد يتبقى لهم من عمل يقومون به الا ان يشتروا وان يبيعوا ؛ أما الذهب ، ذلك الذى يمنحهم الوسائل لاذلال قاهريهم ، الذهب الذى لا يزال يعطيهم بعض ضروب المتعة ، فقد بات هو الهدف الوحيد لطموحهم ، وليست هناك شهوة تستطيع أن تطفئ الانسان في جسده وروحه أكثر من هذه .

وقد يكون من غير المجدى ان نحاول ان نثبت ان عيوبهم هذه تعود الى شرائعهم وتنظيماتهم ؛ ولنتأمل للحظة المسيحيين الخاضعين لسيطرة الأتراك ؛ بنفس الأساليب قد سريت الى هؤلاء نفس المساوئ ؛ فالانسان ، ولو كان حرا مليئا بالشجاعة ، ربما يصبح ، مهما تكن الحماة التي تتدفق في عروقه ، مختلا ورمعيدا حين يصير عبدا مهانا .

وفي البلدان التي تحسن فيها الأفكار والفلسفات ، والحيانة البسمة من قدر اليهود ، ينهض من بينهم — هناك — رجال فضلاء وادباء متميزون ولقد رأينا في ابلنا هذه اسرائيليين يقتلون بعظمة تحت راية فرنسا .

اننا نعلم اننا لا نخط من قدر امة لاحتياج ، كى تصبح جديرة بالاحترام ، الا لأن نحترم ؛ ودينها فضلا عن ذلك ، هو قاعدة لدينا ؛ وعلينا ان ننسى بصفة خاصة أنها اظهرت وسط المدن والالام خالصية عظيمة ، وانه اذا كلن المعنى يعد شرما للقوة فان المشاعر الرقيقة تكون شرما للضعف ، ونسوق مثالا على ذلك لا ينسى ، لقد تجرأت اورشليم على قتال روما التي كان يرتعد اهلها احدى ملوك الأرض ؛ ثم انهم اليهود المهزومون ، في روما ،

بأيديهم المسجلة بالقبول الحديدية النصب الضخم وقوس تيتوس \* Titus  
الذى تخلد نقوشه البسارزة ذكرى سقوط المدينة المقدسة ، حسن ، لقد  
انقضت حتى اليوم سبعة عشر قرنا لم يمر خلالها مطلقا ، من تحت هذا  
القوس الذى يكرس هزيمتهم ، أحد من احبادهم اولئك الذين ظلوا على  
الدوام يحتفظون ذكرى هذه الالهة ؛ وعن طريق منفذ ضيق شقوه لانفسهم  
قريبا من هذا المبنى ، كان اليهود يخرجون من الفورم \* Forum  
قبل أن تؤدي عمليات الهدم والتفتيق التى تمت هناك الى فتح منفذ اتصال  
أخرى .

وذات يوم ، كنت أتلبل فى هذه النقوش البسارزة لهذا القوس ،  
شعنا ذا سبعة شعب يزين المسيرة الظلمة للإمبراطور ، وير بالقرب  
منى رجل عبرانى ؛ تعرفت عليه من تلك الملامح التى لم يستطع أى طقس  
أن ينسأ منها ، ولظننى قرأت فى نظراته التى التى بها على هذا المبنى ،  
أهتات الشعر هذه ، التى وضعها شاعر كبير :

أى صهيون ، يلمن يستحق الرثاء ؛

ماذا صنعت بمجدك ؟

عالمك كله مأخوذ بعظمك ؛

أما أنت : فلم تعد سوى غبار ؛

ولم يعد يبقى لنسا من هذا المجد ،

إلا الذكريات الحزينة .

« استير ، الفصل الأول ، المشهد الثانى »

وقلت لنفسى : كم من الأسئلة يمكن أن يلقاها هذا العبرانى على ،  
لو عرف أننى أهتم بهمر ، وأننى أتمت خيى فى أرض جاسان ، وعبرت  
البحر الأحمر سيرا على قدمى ، وتجوأت هنا وهناك ، ومرت على غير  
هدى فى الصحراوات التى يحيط بها جبلا حوريب وسنهاء !

\* إمبراطور روما من ٧٩ الى ٨١ ، وكان يطلق عليه اسم « ملاذ  
البشر » ، وكان واحدا من الحكام الذين يسمون باخلاص شديد لتخفيف  
آلام شعبيهم ، وحين لم تواته الفرصة فى أحد الأيام لتقديم الخير مساح  
لقد ضاع يوم من حياته ، وفى عهده حدثت كثرة بركان فيزوف ( عام ٧٩ )  
( المترجم )

(\*) ميدان عام فى روما حيث كان الشعب يتجمع ليقاضى المسائل  
المسألة . ( المترجم ) .

ومع ذلك فأى إنسان هو ، مهما تكن معتقداته ، ذلك الذى لن ينهر بأسئلته على رحالة وطننت أقدامه أرض المعجزات والأجناد هذه ؟ وهل هناك ملاحظة ، ولتكن اصطناعية لآى مدى ، يكون من شأنها أن تعود بنا الى التقلب فى تاريخ الاسرائيليين . . دون أن يستمع اليها الإنسان بشغف ؟ وعلى هذا ، فمع يقينى بأن من شأن هذا أن يسترعى كل انتباه ، فسأحكى ما أملتته على عملية التنقيب فى المواقع ، حول اقامة العبرانيين فى ارض جاسان ، وحول هروبهم الى الصحراء ، وستوثب الفائدة من وراء هذا الموضوع من ثانيا ما أحكيه .

### عن الأسفار

١. اسفار موسى هى مجموعة الكتب الخمسة التى خطها موسى ، سفر التكوين ، سفر الخروج ، سفر اللاويين ، سفر العدد ، وسفر التثنية .

وعلى الرغم من التناقضات التى يعتقد بعض النقاد أنهم قد وجدها فى هذه الأسفار (٢) ، وعلى الرغم من اختلاف آرائهم حول زمن نشرها ، فإن الجميع مضطرون للاعتراف بأنها اتسم اثر مكتوب قد وصل إلينا ، كما أنهم لا يستطيعون . مهما تكن طبيعة آرائهم الدينية ، أن يرفضوا ما تجده فى هذه الكتب من غائدة كبيرة ترتبط بالتاريخ لشعب كان رعويا جوابا ، ثم زراعيا ، ثم جماعة من العبيد ، ثم عاد مرة أخرى الى حالة التجوال ليصبح بعد ذلك غازيا . أن تفسيرات شبيهة تستخدم عند التعريف بالجنس البشرى ، لأنها تشكل تاريخه ، فى الوقت الذى تكون فيه تاريخا لشعب بمينه .

(٢) وفضلا عن ذلك فما هى غالبية هذه التناقضات التى تم اكتشافها بكثير من الطنطنة والتقمير ؟ بعض أخطاء من الناسخين ، وعدة تفسيرات عارضة هى من اجتهد المترجمين ، ثم لا شيء أكثر ، ليس من الأسهل على سبيل المثال أن نقبل فكرة أن رجلا ينسخ فى سوريا ، فى قرب الأردن ، نصوص الأسفار ، قد أمكنه أن يضع عبارة فيما أعلم هذا النهر فى موضع ما كان مذكورا فى الأصل على أنه الى ملوراء ، وأن يشير الى مقاطعات قديمة بأسمائها الحديثة ، وأن يذكر كذلك أسماء المدن التى أنشئت فيها بعد ذلك ؟

ومى الوقت نفسه ، فالتنا عند تصدينا لمادة من هذا النوع ، نحاضر ان نجرح اى راي : فليقرانا المسيحي واليهودى والمسلم والربانى دون ان يستشعر اى حرج او اهانة ؛ فليسنا هنا بصدد كتاب دينى ، ولكننا ننظر اليه كوثائق تاريخية ، وجغرافية ، ومبادئ اخلاقية وروحية .

ومع ذلك فلماذا لا يتقبل أولئك الذين يرون انهم ليسوا فى حاجة الا لمعتقدهم الدينية حتى انهم يؤمنون ايماننا مطلقا بكل ما جاء فى الأسفار ، لماذا لا يتقبلون عن طيب خاطر ان هناك بعض الوثائق ( التى تروىها هذه الكتب ) تعز على التصديق حين تستخدم طرق أخرى للتفكير ؟ اما هؤلاء الذين تدفعهم شكوكهم الى تحية كل عمل يكتشفون فيه بعضا من الخطا ووضعه فى مرتبة الأساطير ، والى النظر الى وقائع بالفسحة البساطة باعتبارها امورا سببهة تكتنفها الشكوك لمجرد انها تختلط — فى نظرهم — بظواهر تنتمى الى مالوراء الطبيعة — لماذا نراهم غاضبين حين يحاول بعض تبديد شيء من شكوكهم ؟ واما أولئك الذين يتعرفون على الله فى نظام الطبيعة الرائع فلماذا — هم بدورهم فى النهاية — يكابرون ، عن غير حق ، فيعتقدوا ان اسبابا روحية يمكنها ان تمارس تأثيرها على المادة ، وان الصلوات وان الدعوى تستطيع ان تغير شيئا ما من نوايس العالم الفيزيقي ؛ ولماذا يسمى هؤلاء الذين لا يمكنهم ان يتقبلوا ان يكون اله الكون شبيها بالهة هوميروس ليصارع بدوره فى سبيل اشخاص زائلين او امور غاتية ، لالتناء الملامة على لبحائنا ، اذا ملسعت هذه الابحاث الى ان تجلو ابلهم تاريخ شعب فريد . وذلك بان تقدم لهم بعضا من المعجزات التى ترفضها وتتأباهها عقولهم باعتبارها شيئا من المصانفات السعيدة التى توجد بها ظواهر الطبيعة ؟

### عن الرعاة الرحل

لم يجد الانسان ، فى اكثر مناطق العالم بدائية يمكن ان تصل اليها قدماء ، اشباهه بمنزولين ، بشكل تام ، كل منهم عن الآخرين ؛ لكنه وجدهم متجمعين فى شكل قبائل تتفاوت احبابها ؛ واذا لم يكن لدينا فى هذا المصدر من زعم اجماعى مثل ما لدى الرحالة فان فكرة القبائل قد تقودنا الى تصنيفنا هذه اذا ملاحظنا بصفحة مليدور فى عالم الحيوان ، واذا ماقرنا

التنظيم عند هذه الحيوانات بتنظيمنا ، وعاداتنا الطبيعية وخصالنا الروحية والجسدية بمثلاتها التي سوف نجدها عند الحيوان .

وتحصل هذه الاعتبارات نفسها ، اذا ما اضيفت الى الشهادات التاريخية ، على الظن بأن الانسان كان صيادا وراعيا قبل ان يكون مزارعا ، وانه قد ساح في الأرض قبل ان يكون لنفسه فيها مقر ثابتة ، وان الناس لم يكن كل مكن خصيب التربة ، رقيق الطمس ، صحرى الهواء لدرجة كبيرة ، قد تزايدوا بسرعة هائلة ، بعد ان مروا ، من باب أولى ، من الصلتين الأوليين ( الصيد والرعى ) الى الثالثة ( الزراعة ) .

وفي هذه الحالة الجديدة خلق الانسان لنفسه ، وقد اصبح اقل انشغالا بأمور غذائه والدفاع من نفسه ، احتياجا جديدة ؛ اصطناعية بلا جدال ، لسكنه بلذ له ان يبقى بها ، فارتقى بالفنون ، وزاد من عددها ، واخترع العلوم ، وعندما داخله الزهو من تسلمى معارفه بدأ يحتقر جهل المتوحشين ( البدائيين ) ، ورد الأخير على الاحتقار باحتقار مماثل لماذاق الأول ، لأكثر من مرة ، ماتستطيعه القوة والشجاعة ، وليدنى الاستقلال والفكر .

وبسبب هاتين الحالتين بالفتى التمارض تولدت اقتصاد واضحة وحروب دائمة بين الشعوب الرعوية والشعوب المزارعة . وفوق ذلك ، فلقد ساهم هذا الأمر نفسه في تنافس الأولين لأنهم سعى حالة انتصارهم — يأخذون عادات المهزومين ، ويرغمون — في حالة هزيمتهم — على هجر أنماط حياتهم ؛ وكان يمكن ان يندثر هؤلاء الرعاة — على المدى الطويل — كلية لو لم تكن توجد على ظهر الأرض اقاليم تحولت حولتها ، او عدم صحتها ، دون تقدم احوال سكانها ، وحيث لا يستطيع الانسان ان يعيش الا بمعونة القطعان ، مع تغييره المستمر لمكانه ، ولو لم توجد في النهاية اماكن يجد فيها هذا الانسان المأوى الأمين ضد جيوش الأمم باللغة القوة . اما هذه الأماكن ، فلقد كانت ، من بين مناطق أخرى ، صحراوات مصر والجزيرة العربية وسوريا وبلاد ما بين النهرين التي سكنها فيما مضى قبائل العبرانيين ، والتي لا تزال تقطنها حتى اليوم قبائل الرعاة الرحل .

ان الحالة الطبيعية لهذه البلاد لا تقدم جانبيه من أى نوع لتقدم غزوات أجنبية ، كما انها لا تدع فرصة للاختيار بين عدد كبير من الأنماط



لا فى طرق المعيشة ولا فى العادات او العلاقات السياسية لسكانها ؛  
اذن فعلى المرء ان يعثر هنا على عادات وتقاليد تاريخ ضارب فى القدم ؛  
ان هذا فى الواقع هو ماحدث ، اذ يبدو تاريخ الأسباط القدماء هو نفسه  
تاريخ شيوخ العرب فى أيامنا هذه (٢) .

### أبراهام

فى تلك الصحراوات الغاخلة التى انتهينا من الحديث عنها تطلعت  
مشائر بأسرها الى تلك الفكرة المسامية التى تتحدث عن وجود اله  
واحد (٤) . وهناك نشأت هذه الديانة التى انتشرت وسادت فى أكبر  
جزء من هذا العالم حاملة اسم اليهودية او المسيحية او الاسلام بحسب  
التعديلات التى تناولتها .

أما فى اقالييم اليونان الزاهية ، على ضفاف نهري روفيا وسيفيزا \*  
فقد استطاع الإنسان ان يعبد ، تحت أسماء فلورا وخيريس وبومونا ،  
الطبيعة وقد جعلتها الورد والمحاصيل والثمار ، كما أمكنه ، متبعاً ببياهج  
الفنون الجميلة ، ان يتضرع اليها باسم منرفا او أبوللو ، أما فى قبرص  
المعطرة وايزونيا الرخوة ، وسط اجواء تحمل النفس الى الدعة فقد يعبد

---

(٣) انظر دراسى من القبائل العربية فى صحراوات مصر ، الدولة  
الحديثة ، المجلد الأول ، ص ٥٧٧ ( الدراسة السابقة من هذا المجلد ) ؟  
لكننى اكتفى بأن أضيف هنا الى القائمة التى قصتها عن بعض العادات  
الشائعة عند الشنعبين ، عادة تمزيق هؤلاء وأولئك للابسهم وأهالة  
التراب على وجوههم علامة على الحزن الشديد .

(٤) تقدم لنسا القبائل العربية التى اخذت على عاتقها ، بعد ان  
تجمعت فى شكل دولة تحمل اسم الوهابيين ، ان تقوم وأن تنقى الدين  
الاسلامى ( من الشوائب التى شابته ) ، برهاناً جديداً لما نقوله الآن ؛  
فلقد توصل هؤلاء الرجال الخشنون ، فى بساتنهم هذه ، الى نفس نقطة  
المعتقد الدينى الذى توصل اليه غالبية الرجال المتحضرين فى ارضى أمم  
الأرض ، أى الاوهية الخالصة ؛ فالوهابيون لا يدعون لله شريكاً قط ،  
ولا يتهلون الا اليه ؛ أما محمد وموسى والمسيح فليسوا بالنسبة لهوسى  
حكباء ( انبياء ) ، أما الأجداد العينية التى يردها الناس الى هؤلاء  
( وقد يعنى هنا التوسل بهم مثلاً ، او تعظيمهم — المترجم ) فليست  
فى نظر هؤلاء الوهابيين سوى وثنية .  
\* فى البهلونيز ( المترجم )

فى تسمفت وملامح أجمل النساء اللذة التى تجر الى جنس يسحر الالباب،  
وحيث كان يحصل على مباهجه بمئات الطرق فقد كان يجد فى كل بهجة  
الها محسنا مختلفا .

وتحت سماء اقل خطا امكن اهالى تراقيا ، كما استطاع الجرمانون،  
الذين كانوا هؤلاء وأولئك قد تعودوا فى صيدهم وحروبهم الدائمة  
على سلع دماء فرائسهم او نظرائهم ، كل يوم ، ان يجدوا مقر رب الحرب  
فى هذه الغابات المعتمة التى تبدو هممة الريح فيها كما لو كانت صيحات  
سلكية تتوجع من الآلام .

لكن ، اكان شئ رعى ، يضرب فى سهول فسيحة من الرمال ،  
بمستطوع ان يعبد الأرض مع خواصه المعيدة واحداثه المتنوعة فى حين  
كانت تبدو الأرض بالنسبة له شحيحة للغاية واحادية الشكل ؟ اكان  
بوسمه ، وهو يجهل ترف الفنون ان يؤله خالقها ( اى مظاهر الطبيعة  
التي تؤدى الى نشأتها ) ؟ وفى الوقت نفسه الذى نجده فيه انسابيا  
ورقيقا ، يعيش على لبن قطعانه ، اكان فى مقدوره ان يعبد اله الحرب  
شائه شأن المتوحش الذى لا يلجأ الا لقوته عندما تجلبه مخاطر الأيام ،  
والذى يتغذى على لحم يبيض ( بالحياة ) ويروى غلته بالدماء ؟ كلا ، وانما  
النجوم وحدها هى التى تبعث على اعجابه : فالشمس التى تحيى وتوقظ  
المخلوقات هى التى تمنى القوة لأجسادهم كما تنشيط أفكارهم ؛ هكذا ناله  
القمر وتألعت النجوم التى تضىء ليلالى الصحراء ، تلك الليالى الممتعة للغاية  
بعد حرارة النهار الملتهمية ؛ وديانة كهذه كانت اقرب بكثير من اية ديانة أخرى  
لكى تسنو بالانسان حتى يدرك الكائن الأسنى .

وفى واقع الأمر ، فكل شئ فى السماء لا نهائى ، يشمله نظام يدعو  
الى الاعجاب ويبدو بوضوح للوهلة الأولى ؛ اما هنا على الأرض فكل  
شئ محدود ، يبدو وكأنه متروك لقرار أعمى ، بها البحر ، والأرض ،  
والهواء ، والظواهر التى تصغر عنها والتى لا يمكن للمرء ان يتنبأ بها ؛ و  
شروب الجمال فى الريف ، وغنون المدن ، والشبهوات الانسانية فهذه كلها  
أمور محددة ومتميزة لحد يكون من العسير معه عليها ان تولد فكرة السبب  
الأوحد ، محرك الكون : وعلى العكس من ذلك ، فإن مراقبة النجوم تكشف

التشابه الغائم بينها على اوسع نطاق ، وسرعان ما تندو حركتها المنتظمة التي تخلع النقلاب عن مواضعها نتيجة لإرادة عليا ، ودائمة .

اذن فقد كانت الآلهة التي اصطنعها الإنسان لنفسه حين ثبت عينيه على الأرض اما طيبة واما شريرة ، تدعو الى المحبة او تبعث على الاسى ، لكنها كتبت على الدوام متعددة كذلك كانت سلطتها محددة ، اما حين رفع الانسان بصره نحو السماء ، فقد اهدى الى اله واحد ، لا نهائية لقوته وحكمته : فكرة سامية ، وهي حين تضع كل البشر على مسافة متساوية من الكائن الاسمى ، فانما تجعل من العبد المسكّل بالأغلال حرا ، مالم تكن الخرافة والعبودية قد امتعتنا بعد ، وبالدرجة الكافية ، روحه حتى يرى في اولئك الذين يزعمون لانفسهم انهم سادته ، صورة من الرب .

اما ابرام ، ابراهيم او ابراهيم ، كما شاء الناس ان يسموه ، فيبدو انه هو الذى بشر ، باكير قدر من الحماسة عرفته العرب ، بوجود اله واحد ، لجعل عبادته محل عبادة النجوم (٥) ؛ ولقد كان المجد الخالد هو جزاء هذا الصنيع الطيب ؛ ففى حين لاتكاد تمصرف اليوم ، اللهم الا لاشخاص معدودين ، اسماء مثل اتيتلا \* وجنكيز خان ، وكل اولئك الملوك الذين ظنوا انهم قد ملقوا العالم بانسائهم ، فان راعيا صحراويا بسيطا ظل موضع تقديس من كل شعوب الأرض برغم كل القسرون التي انقضت منذ تحول جسده الى رماد ؛ فالطفل الذى يبدأ فى تعلم القراءة يتأثر بالفعل اسمه ، كما ان المسيحي واليهودى والمسلم يطلقون على اله الذى يعبدهونه اسم رب ابراهيم ، صحيح ان بعض العلماء النابيين يعتقدون ان غالبية

---

(٥) كانت بعض القبائل بالفعل تعبد « العلى » ومن بينها شعب شاليم ( سفر التكوين ، الإصحاح ١٤ ) ، وان كان ابراهيم قد أعطى روعة خاصة لهذه العقيدة ، عندما خلصها من كل ما كان من شأنه ان يشوه بساطتها .

\* اتيتلا ملك الهون الذى انتصر فى عام ١٥٠ على اباطرة المشرق والمغرب ودمر بلاد الغال ( وهى المنطقة المحيطة بجبال الألب وتشمل شمال إيطاليا والبلاد الواقعة بين جبال الألب والبرانس وبين المحيط ونهر الرين : وكانت تسكنها شعوب كثيرة مقللة ) ولكنه لقي الهزيمة فى سهول تبالونيا عام ٥١٠ بالتقرب من شالون ومات على ضفاف الدانوب عام ٥٣٠ ( المترجم )

الشخصيات الشهيرة في الأرملة البطولية ؛ الألسيد والجازون \* وحتى ابراهيم وموسى والمسيح نفسه هم كائنات مجازية ، لا يرون في تاريخها الا تاريخ الاجرام السماوية ، ومهما يكن حظ المفراضات هذه من الحق فليس بمقدورنا ان نقبلها لأنها تبدو لنا متعارضة مع مسيرة العقل الإنساني، ومع ما لمسه نحن كل يوم ، لقد كانت للإنسان أساطيره قبل ان تكون له علاقة بعلم الفلك . بل ان ما حدث ، في معظم الأحيان ، هو ان النجوم ومجموعات النجوم كانت تسمى ، ولا تزال ، بأسماء تذكر بأحداث تمت على الأرض ، وفي النهاية ، فان الإنسان حين يؤله كائنات بسيطة فائية، ويفطى فنهالها بقتاع من الرمز ، حين ينسب اليها أعمالا لا يمكنها ان تتحقق الا على يد الطبيعة ذاتها وتلك نتيجة للمصادفة الدينية ( مايودى اليه الدين من قابلية خاصة للتصديق او الايمان ) ، تلك التي تسهب او تضخم من أفعال البشر الذين تجعل منهم آلهة او أولياء أو أنبياء وتنسب الى مقدراتهم او الى وساطتهم عددا كبيرا من الأحداث المخيلة أو الحقيقية.

لقد اختلطت الخرافات بالتاريخ في كل مكان ، فلقد راتت الأعجوبة للبشر على الدوام ، ولسوف تظل تغريهم الى الأبد ، ولدينا كل يوم الوف الأمثلة على ذلك . فلنتعلم كيف ننحيها بحكمة عن كل رواية ، ولكن لنحذر في الوقت نفسه من أن تقع في تطرف آخر ، مقابل ، بأن نفكر في رعونة بالغة الوقائع التي تختلط بأحداث خارقة ، ومثلاً نقول في هذا الذي يخلص من رفضه أن يصدق أن راية الصليب قد ظهرت في الأجواء عندما زحف قسطنطين ضد ماكزانس \* \* ان هذين الحاكمين لم يوجدوا على

\* Les Alcides ، أحماد هيرقل ، و Les Jasons هم أبناء

جازون ابن أبزون ملك يولكوس Iolcos ؛ وكان جازون قد قاد أبطال الأغرقي ( الأرجوتوت ) للحصول على جزات الذهب من كولشيد، وهناك أحبته ميديا ابنة ملك كولشيد الساحرة وهربت معه وتزوجها، لكنه هجرها ليتزوج من خريوس ابنة سيزيف ، وانتقلت ميديا لنفسها بأن عملت على دمار سيزيف وخريوس وطفليها . ( المترجم )

\* \* \* ماكزانس هو امبراطور روما من عام ٣٠٦ الى ٣١٢ وقد غرق في نهر التبر بعد أن منى بالهزيمة عند أسوار روما على يد قوات قسطنطين الأول امبراطور روما من ٣٠٦ الى ٣٣٧ ؛ وأدى انتصار الأخير الى انتاعه بضرورة جعل المسيحية دينا رسميا للامبراطورية ، ثم اصدر في عام ٣١٣ مراسيم ميلانو التي تنص على حرية العقيدة الدينية، ثم نقل عاصمته الى بيزنطة ( القسطنطينية ) ، ( المترجم )

الإطلاق؟ أما عن إبراهيم، فإن ما يحول بصفة خاصة دون أن ننظر إليه باعتباره مخلوقاً رمزياً يمكن أن يرمز حسب فكرة قديمة من نشأة الكون إلى بعض خواص المسادة أو بعض خصوصيات الذكاء الأسفى ، هو أنه لم يحدث أن اتخذ منه أحد فى أى مكان على الإطلاق لها أو واحداً من سلالة الهة، ورغم أن زهو كثير من الشعوب كان شفوياً بذلك ، ورغم أن عبادة الأوثان التى انغمسوا فيها كانت تحبذ مثل هذه الفكرة ؛ وأخيراً فإن اسم إبراهيم قد جذب إلى مكة ، منذ زمان ضارب فى القدم ، شعوب الجزيرة العربية ، فمقبر محمد نفسه فى المدينة ليس بالنسبة للمسلمين أنفسهم سوى شئ ثانوى فى طقوس الحج بالمقارنة مع الكعبة ، فهذا ( المعبود ) فى رأى العرب ، هو أول بيت رفع للناس لعبادة الإله الحق ، وهم ينسبون بنسائه إلى إبراهيم وإسماعيل ، ويبدو أن ديودور الصقلنى كان على معرفة به عندما يذكر أنه « يوجد على شاطئ البحر الأحمر معبد شهير يقدسه كل العرب » (١) . وحين أبطل محمد عبادة النجوم، وإزال الأوثان (٢).

#### (6). Biblioth. hist. lib III.

(٧) كان الحجر الأسود ، وينتظمه اليوم جدار فى إحدى زوايا الكعبة ، هو الوثن الوحيد ( كذا ! ) من أوثان الكعبة الذى حظى باحترام محيد ، وسبب ذلك بلا ريب هو أن هذا الحجر لم يكن يجسد أى شكل إنسانى أو حيوانى ، ومن المحتمل أن يكون هذا الحجر الخام أو غير المصقول كان مخصصاً — قبل مجيء العقيدة الإسلامية — لعبادة الشمس ومن المعروف أن للشمس كانت تعبد فى سوريا على هذه الصورة ، وأن روما قد شهدت فى عصر هليوجابال حجراً أسود بسيطاً يتصدره إلهة إيطاليا واليونان التى كانت تتجسد فى أعظم أعمال النحت ، فوق جبال بالأتان . وقد يكون من المثير أن نبحت عن الدافع الذى قد يكون وراء عبادة أروع النجوم وأكثرها بريفاً ولعناً فى أكثر الأشكال خشونة وأكثر الألوان قتامة ؛ فغسل هذه الأحجار كانت نيازك سماوية ، وبهذا يكون الناس قد تصوروا أن كرة ملتهبة تهبط من السماء تصبحها ضجة مفرعة لأبد أن تكون قطعة من الشمس ولابد كذلك أن تتسأل الاحترام والولاء من البشر الفاتين ؛ وبالمثل فإنهم قد رمزوا بها فى كثير من الأديان إلى الأشياء بالغة الحساسية والنفاسة عندما يظنون أن هذه الأشياء تنتمى إلى الهة أو

التي اتلمها الناس لها بين جدران الكعبة المقدسة ، فقد احترم الأثر القديم الخاص بهذين الأبوين ؛ كما كرس القرآن عملية الحج القديم الى مكة تخليدا لاسميهما القديمين والمقدسين ، ولعلته قد تم كذلك يقصد سيافى يهدف الى ربط الأمم التي مستدين للإسلام عن طريق هذه التجمعات المهيبة؛ فجعل القرآن من الحج فريضة دينية على كل مسلم .

كذلك كان العبرانيون ينظرون لإبراهيم باعتباره زعيما لجنسهم ، وهو مايتطبق مع شهادة العرب الذين يشكل العبرانيون ، فى رائنا ، واحدة من أقدم قبائلهم (٨) . وتتباهى أمم كثيرة فى الشرق ، فى الحقيقة،

== ولا يزال حجر السكبة ( الأسود ) حتى اليوم موضع تقيديس من جانب المتعبدين المسلمين ، فعلى الحجاج أن يطوفوا به سبع مرات ؛ أما أولئك الذين لا يستعملون أن يقبلوه فيجاهدون كي يلمسوه باليد على الأقل ؛ وهو من بين كل « الأحجار » المعروفة أكثرها قديما . أكثرها حظا من التبريل والاحترام .

تعقيب : ينهار زعم المؤلف من أساسه اذا مااستمعنا قصة إعادة بناء السكبة فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد تم ذلك قبل بعثه بالرسالة ، وعلى يد قبائل قريش مجتمعة وبإمر الرسول الكريم بوضع الحجر فى مكانه حسبا للخلاف بين هذه القبائل .. الى آخر القصة المعروفة ، أما إزالة الأوثان فلم يتيسر للرسول (ص) الا فى العام الثامن من الهجرة . عند فتحه مكة ، ولم يكن الحجر الأسود أحد هذه الأوثان كما يزعم المؤلف الذى تبذو معلوماته عن الإسلام وتاريخه بالغة التصور . والقيمة الحقيقية للحجر الأسود ، كما نسر لى أحد العلماء الاجلاء، هو أنه حجر أسود بين أحجار بيضاء . وانه يحدد بدء الطواف بالسكبة وييسر بالتالى تصداد نرات الطواف بدقة ، وهذا شرط أساسى فى مناسك الحج .

٨- نجد فى التوراة ان غالبية العشائر الرحل كانت تقطن صحاروات سوريا والجزيرة العربية سواء كانت تنتمى الى اسماعيل او الى عيسو ، كانت تشترك فى أصلها مع العبريين او كانت تتحد معهم برباط الدم ، ولا تزال تشهد شطآن الفرات ، كما شهدت شواطئ النيل والأردن ، حتى يومنا هذا قبائل من الرحل يعرفون بهذا الاسم التومى : العرب البدو ، ويحيون على وجه الدقة نفس حياة الأسباط او العشائر الأول ؛ ومع ذلك العبرانيين قد سكنوا جزءا من ارض السكديانيين بعدون من السكديان كما ان الديو الذين أشرنا اليهم للتو ليسو فرسا ولا مصريين ولا سوريين ؛ فضلا عن ذلك ، فلا يهمن كثيرا أن نصرف ما ان كان العبرانيين هم من نسل العرب او كان العرب هم الذين جاءوا من أصلاب اليهود ؛ ويكتفى ان نعرف ان لهم أصلا مشتركا ، وتقاليده وعادات متشابهة .

بان ابراهيم هو واحد من اجدادها ؛ واذا نحينا جانبا الراى القائل بأن هذه الشخصية ، لهذا السبب ، لم توجد قط ، كما عبر عن ذلك بعض المؤلفين ، فانتسا نرى فيه ، على العكس من ذلك ، شهادة على شهرة لم تسكن لتنتشر قط عند الكثير من الأمم لو لم يكن لها من اساس واقعى ؛ فلقصد تنازعنا من كثرة على شرف انتساب هوميروس بمولده اليها ، فهل يمكن القول بان هذا الشاعر ، لهذا السبب ، لم يكن موجودا قط ؟ من ذا الذى لايعرف زهو وخيلاء البشر ؟ والشعوب ، مثلها مثل الافراد بصفة خاصة ، يتهلون بنهم واضح اقل الشواهد احتمالا لبلوغ اصل قديم ضارب فى القدم ، وبعد أن ينجحوا فى خداع الغير ينتهى بهم الأمر أن يخدعوا أنفسهم ؛ والخطا الذى يحظى بالاعجاب سرعان مالا يعد بعد خطأ .

ويتطابق تاريخ ابراهيم كما قرأناه فى كتب العبرانيين ، فى نقاطه الاساسية ، مع كتابات المؤلفين العرب والفرس . ومع ذلك ففى حين يقدم سفر التكوين لوحة ساذجة وامينة عن حياة احد مشايخ الصحراء ، فان هؤلاء المؤلفين قد خلطوا ذلك بأساطير تجافى العقل ؛ وهكذا نجد ابراهيم ، طبقا لأقوالهم ، قد رفض حين جاء الى الدنيا مصدر ابه ووجد فى اصابعه هو غذاء رباتيا . فمن احد اصابعه كان يتدفق اللبن ومن اصبع آخر تدفق العسل ؛ وعندنا بلغ شهره الخامس عشر كانت له ثمانية رجل يبلغ من العمر خمسة عشر عاما ، وحكمة ومعرفة رجل ناضج ؛ وحين أصبح ملاذا للفقراء واستند مخازن حبوبه بفعل الصدقات الكثيرة التى كان يقدمها تحول الرمل من اجله الى حقيق ؛ وتد امره الله ان يأخذ اربعة من الطير وأن يمزقها اربا وأن يوزع هذه الأشلاء فوق اربعة جبال وأن يناديها فتجتمعت أشلاء الطيور على صوته وطاروت نحوه ؛ وحينلقى به فى لهيب مقد فقد لطفته النار بدلا من أن تلتهمه ❊ .

ومع ذلك فوسط هذه الحكايات الطفلية ، الصبيانية بخيالها الفاسد لدى الشرقيين ، مهنك نص يتميز ببطل بسلطته وسمو العقيدة التى يكرسها جاء فيه : « وبينما كان ابراهيم يمشى مع ابيه اثناء الليل ، وهو بعد طفل ،

---

❊ يلاحظ القارىء ولايد اننا بازاء كاتب يرفض فكرة المعجزة تماما ، وهو على هذا الاساس يرفض الأخذ بكثير مما نعسده نحن من المسلمات . (المترجم)

رأى في السماء نجومه من بينها ، مع نجوم أخرى كوكب الزهرة الذي كان يعبدّه كثيرون ، وتفكر ! قد يكون هذا هو الرب سيد العالم ، ولكن بعد بعض من الوقت والروية قال لنفسه : أرى هذا النجم يقرب ويختفي ، فلا يكون هذا إذن هو مدبر الكون ، ونظر كذلك القمر في تمامه ثم قال : لعل هذا هو خالق كل شيء وهو نتيجة لنفك ربى ، ولكنه عندما رآه ينزل عند الأفق مثل الكواكب الأخرى أصدر عليه الحكم نفسه . وبعد أن عكف على التأمل والتفكير بقية الليل بطوله ، وجد نفسه بالقرب من بابل عند شروق الشمس ، ووجد أعدادا لا حصر لها من الناس كانوا يعبدون هذا النجم ويسجدون له مما جعله يقول : هذا كائن يبعث ولا يبد على الإعجاب وسأخذ منه خالقا وسيدا لكل الكون ؛ ولكنني تبين أني ينحدر ويتخذ طريق الغروب كما تفعل النجوم الأخرى ، لنسبت الشمس إذن خالقي ولا الهى ولا ربى . وبعد ذلك رأى إبراهيم النمرود جالسا على عرش بالغ الارتفاع وحوله يصطف ، ومقا لمرآتهم ، فرقة من العبيد راضى الشكل من هذا الجنس وذاك ، وسأل إبراهيم على الفور : من هذا الشخص الذى يعلو الآخرين على هذا النحو ، فأجابه والده : هذا هو رب كل الذين تراهم محبطين به وكل هؤلاء القوم يرون فيه ربهم . وعندئذ تأمل إبراهيم النمرود ، وكان بالغ القبح وقال لهم : كيف يمكن أن يكون هذا الذى تدعونه ربكم قد صنع مخلوقات تفوقه في جمالها ؟ وكثرت هذه هي المرة الأولى التي بدا فيها إبراهيم يسمى كى يحرق أباه من أوهام الوثنية ، ويدعوه إلى وحدانية الله خالق كل شيء . ٨



## الفصل الثاني

عن العبرانيين حتى عصر دخولهم مصر (١٠)

كان العبرانيون في اقدم مراحل تاريخهم ، يشكلون جزءا من هذه الشعوب الجوبة التي - على الرغم من كونها ذات اسماء مختلفة ، ومع عادات وتقاليد متشابهة - لم تكن تكف عن الاستحواذ على بعض مناسلق فيما بين الفرات والنيل .

وهم يستمدون اسمهم من عابر ، وهو اسم احد اجداد ابراهيم ؛ وقد ظلت عادة اتفاذ اسم احد رؤساء القوم القدامى وخلعه على الابناء شائعة لدى العرب المحدثين .

وحيث كان هؤلاء العبرانيون قد انغمسوا ، شأنهم شأن البدو ، في الحياة الرعوية ، وكونوا مثلهم منشآت زراعية قليلة الدوام ، فقد تركوا ارض كلدان كي يعضوا الى منطقة من ارض ما بين النهرين تابعة لسوريا ؛ وكانوا في ذلك الوقت وثنيين ؛ وكان تارح ، والد ابراهيم ، من ناحور واران ، على راس قبائلهم . وعند موته انقسم القوم : فظل بعض غيما بين النهرين تحت حكم ناحور ، وواصل الآخرون مسيرتهم الى ما وراء الفرات ، ابراهيم ولوط ، ولدا اران ، وتكرر حدوث انقسامات مماثلة عند الشعوب الرحل ؛ ونستطيع هنا أن نلحق بالاسباب التي حثمت حدوث الانقسامات هناك تلك الديانة الجديدة التي كان قد بشر بها ابراهيم . وهي ديانة لم يتبناها في الواقع اولئك العبرانيون الذين ظلوا في

---

(١٠) نرجو من الذين سيقرونا الا يغيب عن ناظرهم مطلقا اننا لسنا هنا بمسدد أن نبرهن على أن هذا الرجل أو ذاك قد وجد ، أو أن هذا الحدث أو ذاك قد وقع في حقيقة الأمر ، ولكننا نريد أن نقول فقط انه من المحتمل ، أو على الأقل ، من الممكن أن تكون الأمور قد جاءت على هذا النحو الذي نسوقه نحن .

بلاد ملجين النهرين . وقد اثنار سفر التكوين الى هذا الدافع الذى يكن وراء الانقسام ، اذ نرى في هذا السفر ان ابراهيم قد انفصل عن اخيه (١١) حتى يستجيب لوحى مقدس . وفى هذا تتطابق التقاليد العربية والفارسية ، وطبقا لذلك فقد حدث ان ابراهيم ، كى يحافظ على عقيدته وينأى بها عن اضطهادات الوثنيين ، قد انسحب الى جوف الصحراء . ومع ذلك فقد ظل يسيطر هذا الوفاق الأفضل بين القبائل التى انقسمت على هذا النحو ، ويكى للتليل على ذلك زواج ابن ابراهيم ( اسحاق ) من ( رفقة ) بنت بتوئيل بن ناحور ، وزواج يعقوب من بنت لابان بن بتوئيل (١٢) .

وتقدم ابراهيم فى البداية نحو الجنوب عبر أرض السوريين ، وبعد ذلك دخل مصر ثم عاد الى سوريا . وهناك انفصل عن (لوط) ابن أخيه ، وبعد مرور وقت قصير انتزعه من أيدي أعدائه ( اعدا لوط ) ، وينظر بعض الكتاب الى المعركة التى شتها ابراهيم فى هذه المناسبة باعتبارها عارية من أى ترجيح ، وبرغم ذلك فليس فى هذا الأمر ما يمكن ان يصد خارتا بالنسبة لشخص عبر صحراوات سوريا وعرف تقاليد الشعوب التى تتطنها . وفى واقع الأمر فان ما هو أكثر من ذلك طبيعة — أى انه أمر عادى للنضاية — ان نرى رؤساء او ملوكا أمثال ملوك ورؤساء شبنم وعيلام والاسنار ( بشدة على اللام ) وجوييم يشنون الحرب على ملوك سدوم وعمورة وادبة وصبوييم وبالع ( او صوغر ) . وهذه الاسماء الأخيرة هى أسماء مدن ذائعة الشهرة ويمكن الظن بأن الاسماء الأخرى تشير الى بعض لمسائل من الفرق الآشورية تقيم بين أربعة شعوب تخضع على الدوام لهذه الإمبراطورية ( الآشورية ) ، كان شعوخ المدن والقرى والقبائل يتحاربون فيما بينهم ؛ وكان شيخ فريق ما من البدو يعيش لأكثر من مرة فى حياته فى حالة حرب مع سلطان إمبراطورية الترك القوية ، ومع

---

(١١) « وقال الرب لإبرام اذهب من أرضك وعشيرتك ، ومن بيت ابك الى الأرض التى أريك ، فأعطتك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك . وتكون بركة وأبارك مباركك ولاعنتك لعنة » مسفر التكوين الأصحاح الثانى عشر .

(١٢) توجد عند العرب البدو هذه العادة نفسها ، عادة تفصيل الأصهار على أشخاص من العائلة نفسها .

ذلك ، فمهما تكن قوة الأمراء الذين أخضعوا البنتابول الأردني (١٢) : فقد استطاع إبراهيم ، باتحاده مع ثلاثة من مشايخ الصحراء هم عاشر واشكول وميرزا الأموري أن يساجيء وأن يلحق الهزيمة بالمنتصرين . ويقدم لنا التاريخ عددا لا حصر له من أحداث مشابهة ؛ فقد استطاع خالد ، على رأس ثلاثة آلاف عربي أن يحطم ويشقت في عصر هرتل وبعد معركة من أشد معارك التاريخ بأسا وعنادا جيشا يتكون من عشرين الفا من الرجال من خيرة جيوش الإمبراطورية ( الرومانية ) ؛ واستطاع على بك ضاهر في عصر اقرب ، بخمسائة من البسوة أن يلحق الهزيمة بخمسة وعشرين الفا من الدروز ؛ وعلى ضفاف الأردن ، عند سفح تل طابور ، شنت ١١٠٠٠ جندي فرنسي بقيادة كليبر Kleber ، أمامهم جيشا « يتغنى إلى مائة شعب مختلف » كما يقول أهل البلاد « ويسلوي في عدده نجوم السماء ورمال البحر » (١٣) .

وفي الحقيقة فإن اسم ملك الذي تمنحه التوراة لرئيس مدينة بمفردها أو شيخ قبيلة واحدة قد أمكنه أن يتوج قصصة انتصار إبراهيم بهالة مبهرة ، فنحن ننسب لهذه الكلمة معنى المقفرة العظيمة ( والملك الشاسع ) ، لكن الكلمات نفسها لاتعنى في كل الأحوال الأشياء نفسها ، وتظل معانيها تتغير في مختلف البلدان ؛ فشيوخ بضعة ألوف من الرجال في الشرق قد يتسمى باسم أمير الأمراء ( أو ملك الملوك ) ؛ وفي حين أن لقب ملك هو مانطلقه نحن على لويس الرابع عشر أو بطل ترموفيل Thermophyles

(١٢) منطقة خماسية المدن ( أي بها خمس مدن ) ، ويطلق اسم البنتابول على العديد من تجمعات مدن مماثلة ، ويتكون البنتابول الأردني من مدن : سدوم ، عمورة ، أجمة ، صوبيم ، بالغ ( التي هي صوغر كما تذكر التوراة ) .

(١٤) قدر هذا الجيش بنحو خمسين ألف رجل أكثرهم من الفرس . \* أو الأبواب الحارة ، يمر شهر في تساليا ، حاول عنده ليونيداس الأسبرطي ومعه ثلاثمائة من الأسبرطيين أن يوقف جيش الفرس بقيادة كيركسيس ؛ وحيث لم يتخيل الأخير أن هذه الحفنة من الرجال تعترم حقا أن تقطع عليه الطريق فقد كتب إلى ليونيداس رسالة لاتضم إلا هاتين الكلمتين : « سلم أسلحتك » فكتب إليه الأسبرطي تحت كلماته « تعال خذها » ؛ ولكن أحد الخونة أرشد الفرس إلى مرور وسنط الأحرار يسمح لهم بالإحاطة بالجبل الذي كان يتحصن فيه ليونيداس ؛ وحين تبين الأخير أن من المستحيل عليه أن يتفادى الموت ، دعا رفاقه إلى وجبة طعام منقشة ثم قال لهم « في هذه الليلة سنتمشى عند بلوتون اله الموتى » .

( المترجم )

فأثمة يخلع فى السالء الأفرى على رنسى بضع ضىاع صفرىة من ضىعات الزنوء ؛ وبالمثل فقد تلقى شىشرون التلىة من الفرق العسكرية التى اطلقت علىه لقب امبراطور بعد حملته على صقلية ، ومع ذلك فلىس هناك من يخلط بين سطوة هذا المواطن الفاضل وبين القوة الفاشسة لاولئك الطفاة الذين رمعوا عروشهم عالية فوق انقاض جمهرىة روما .

وبعد ان خلص ابراهلم لوطا ، عاد الى بلوطات ممرا الامورى ؛ وقد حدث بعد سنوات عدىة من الوقت الذى حدثته التوراة لدمار سدوم وعمورة الذى ربما قد تسبب فى حدوثه صاعقة رعد او ثورة بركان .

وتتطابق الرواية التى تحكى اقامة ابراهيم بعد ذلك فى ارض ابىمالك ملك الفلسطينيين وما قدمه الىه هذا الزعيم العبرانى من ثىران وماز ، مع ماىحدث فى ايامنا هذه عندما تريد تبائل جوبة ان تقىم فى ارض لا تملكها .

وقد خلف ابراهيم ابنساء عدىدين اشهرهم اسماعىل واسحق . وقد اصبح الاول بفعل جمسارته زعيما لقبائل عدىة تشكل اليوم الامة العربية، وحملت فى ذلك الوقت طبقا لتقاليد الصحراوات اسمه وتتنادوا باعتبارهم ابنساده (١٥) ، اما الثانى فقد أعقب والده ، وترجع جولاته وحروبه وتحالفاته واخرا سيرة حياته الى الوجود الخاص والسىاسى لزعيم من زعماء البسدر .

وبعد موت اسحق، انفصل ولداه يعقوب وعيسو، وتسمت القبائل التى اتبعت الاخر بعد ذلك ( او نسله كما تذكر التوراة ) اسم الادوبىن ؛ اما يعقوب فقد استحوذ على الجزء الاكبر من ميراث ابيه ، وتسمى الرعاة الذين ظلوا محيطين به ، وبشكل نهائى، باسم العبرانيين او الاسرائىلىين . وتجرى التسمية الاخرة من اسرائىل ، وهى السكنىة التى كان يحملها يعقوب منذ عودته من بلاد ملىين النهرىن .

---

(١٥) انظر دراستنا عن القبائل العربية فى صحراوات مصر ، الدولة الحديثة ، المجلد الاول ، ص ٥٨٠ ( وهى الدراسة السابقة من هذا المجلد ) .

وكان ليعقوب اثنا عشر ولدا ، أشهرهم يوسف ، وإن استعبد هنا قصته المؤثرة ، فكل الناس يعرفونها ، ويعرفون أنها تعبر بشكل تام عن تقاليد وعادات شعوب الشرق . وفيما بعد أصبحت أسماء ولديه واخوته تشير إلى اسباط بني إسرائيل .

كان يعقوب قد أصبح شيخا كبيرا حين الجاته المجاعة إلى ترك ضواحي بير سبع والأهلب إلى مصر حيث حصل من فرعون على إذن بأن يستقر في أرض جيلسان .

وكانت أسرة ملوك الرعاة تشغل في ذلك الوقت عرش مصر ؛ ونعتقد أننا نجد الدليل على تجافى الحق والتطير اللذين كان يمكن أن يستثمرهما الحكام من العنصر المصري بالنسبة لرعاة القطعان — في الزحيب الذي لقيه إبراهيم من قبل ، وفي تنشئة يوسف وبالسماح ليعقوب وإبنائه بالإقامة في مصر . ١٦

(١٦) ماثيتون ؛ يوسيفوس ، رد على أبيون ، الكتاب الأول ، الفصل الخامس .

وقد كان ماثيتون مصرياً من طبقة الكهان ، وكان يشغل منصب كبير كهنة هليوبوليس والحافظ للأرشيف المقدس ، عندما كتب تاريخ مصر ، ويبدو لنا مؤلف كهذا أنه يستحق على أقل تقدير نفس القدر من الثقة التي تحظى به مؤلفات هيرودت وديودور ، برغم قدمها ؛ فهما تكتن المجابلة التي أبداهما السكهان المصريون نحو هيرودت كبيرة ، فإن المعلومات التي جمعها بنهم عن تاريخ مصر لا يمكنها أن تقارن بمؤلف مستبد بمسائرة من المخطوطات الأصلية عن طريق رجل يستطيع ، حيث هو موكل بحفظها ، أن يقارن بينها وأن يرجع إليها وأن يدرسها بعناية دون أن يكون في عجلة من أمره ، شأن مسافر متسرع يريد أن يعرف كل شيء عن البلد الذي يجتازه ، تاريخه ، فلسفته ، عاداته ، جغرافيته ، تاريخه الطبيعي . الخ .

وبنهم المسيو لارشيه Larchet المترجم الضليع لهيرودوت ، بنفوعا بشعور من عاطفة تشيع عند رجل يتجاوز دوره كترجم ، بنهم ماثيتون بالجهل في كل مرة لا يكون فيها هذا المؤرخ على وفاق مع هيرودت ؛ دون أن يسعري انتباهه أن ماثيتون كان يعرف مؤلفات هذا الأخير ، وأنه اكتشف فيها أخطاء عديدة ، وأنه بهذه الطريقة على الأقل لم يتعمد عما جاء بها بسبب جهله . وأخيراً فإن المسيو لارشيه يتسبب بحرفة اللغة المصرية القديمة لواطن من هاليكارناس وينكرها على كبير كهان هليوبوليس ؛ ويعطى هذا الحق للأول لأن هذا الرحالة يقرر أن الكهنة

وسوف تساعدنا هذه الملاحظة على تعويض النقص الخطير الذى نلجده فى السكتب المقدسة منذ موت يوسف وحتى مولد موسى ؛ وإن كان لابد لنا أن نحاول فى هذه اللحظة السريعة حول نشأة وسقوط أسرة الملوك الرعاة فى مصر ، أن نلقى بصيصا من الضوء على هذا الجزء القديم من تاريخ العبرانيين .

### عن فتح مصر على يد الرعاة ، وعن العبرانيين منذ وفاة يوسف حتى هروبهم الى الصحراء

تتم هجرات الشعوب فى معظم الأحيان فرارا من عدو يحمل اليها معه القنود ، أكثر مما تتم سعيا وراء مناخ أفضل ؛ وفى معظم الأحيان كذلك ، يقوم هؤلاء الفارون ، حين يصبحون غزاة بالضرورة ، بتأسيس امبراطوريات قوية .

ولكن عندما يدفع حب السيطرة والمجد والثروة ، وحده ، أمة ما بأن تحمل السلاح ، فانها قد تستطيع أن توسع املكها بشكل هائل ، لكنها لا تغادر وطنها ، فالارتباط بسقط الرأس أمر اكيد فى كل زمان ومكان ، وعندما تشكل الاقاليم المغلوبة والمستعمرات البعيدة دولا مستقلة فانها تحتفظ بعلاقات من المودة والاحترام مع الوطن الأم ، تستطيع المصالح أن تمكرها فى بعض الأحيان لكنها لا تقدر أن تنهيبها بشكل تام الا بعد قرون طويلة .

المصريين قد قرعوا له حوليات بلادهم كما لو لم يكن بمقدور هؤلاء الكهان أن يشرحوا له باليونانية النصوص باللغة الأهمية من المخطوطات التى أتاحوا له رؤيتها ، ثم ينكروها على مائتين بسبب العصر الذى كان يعيش فيه ومعنى ذلك فان اثر رشيد ( حجر رشيد ) يبرهن على ان اللغة القديمة من عصر البطالة ، بل حتى السكتبة الهيروغليفية نفسها ، كانت لاتزال معروفة من كاهن مصر .

وأخيرا فإن هذا الاعتراض الذى تكرر مرات كثيرة من أن مائتين لم يستطيع أن يرجع الى الحوثيات المقدسة التى انتزعها ارتكركسيس من أوخوس حين ضرب هذا الأمير مصر فى الأولياد السابع والخمسين يسقط من تلقاء نفسه اذا تلفقنا الى أن ديودور ، الذى يقص علينا هذه الواقعة ، يضيف بأن باجونس . المقرب من ارتكركسيس قد رد الى الكهان المصريين وثائقهم ، فى مقابل مبلغ كبير من المال .

وحين يخبرنا التاريخ بأن مصر قد غزاها جيش من الرعاة قادم من جهة الشرق . فانه لا يحيطنا علما بما ان كانت هي روح الغزو أو هي ضرورة دفع عدو قوى هي التي جعلت هذا الشعب الرعوى على غزو الاراضى الخصبة التى يروىها النيل ؛ وان كان المراء يستطيع طبقا للمبادئ السابقة ان يستخلص ان فتوحات الآشوريين ، بامتدادها الى جنوب الدرات ، كان لابد لها ان تدفع الى مصر بالقبائل العربية البدوية ، التى تشغل جزءا من سوريا والجزيرة العربية . ويتطابق هذا الراى مع شهادة مانيتون ، حين يقرر أن أول ملك من ملوك الرعاة حكم مصر تد وضع الجزء الأكبر من جيشه على الجبهة السورية لأنه كان يخشى قوة الآشوريين .

وقد تبنى الرعاة العرب ، دون جدوى ، خلال امتلاكهم الطويل لمصر ، غالبية طقوس الديانة المصرية ، لكن احتفاظهم ببعض عقائدهم ، وبصفة خاصة تحالفهم مع قبائل الصحراء الذين واصلوا التضحية لآلهتهم بحيوانات يقدمها المصريون ، جعل المواطنين من أهل البلاد ينظرون اليهم بكرهية وازدراء .

وقد ادى انتشار أحد الأمراض ، هو البرص أو الجفام ، الذى أصبح أكثر شيوعا فى مصر لأن المنتصرين كانوا — ربما — يجهلون مبادئ الصحة التى تدعو اليها الديانة المصرية للتقليل من عمل طقس غير صحيح — ادى بالتداعى من أهل البلاد أن يطلقوا عليه اسم مرض الرعاة ، وهو الشيء نفسه الذى فعله اهالى نابولى عندما أطلقوا اسم امتنسا ، فى القرن الخامس عشر على مرض واند ، وذلك بفعل ماكانوا يكتونه لنساء من احتقاد . وقد اوقع اسما « المجنومون أو الانجاس » ، اللذان كان المصريون يستخدمونهما سرا للإشارة الى المنتصرين عليهم ، المؤرخين فى اخطاء خطيرة حين اعتقد هؤلاء أن الأمر هنا يشير بالفعل الى اناس أصيبوا بالجذام ، كما لو كان باستطاعة قوى الماهات والمرض أن يكونوا هيكل أمة وينشئوا جيوشا قوية !

أما ملوك مصر الشرعيين ، الذين لاذوا بالصعيد ، فقد كونوا هناك دولة مستقلة ؛ ثم نزل ادهم ويدعى اليسفراجو توفيس ، ولعل ذلك قد تم بمعونة من الآثوبيين وبدعوة من الساخطين ، نزل نحو ممفيس ،

واحرز انتصارات هائلة على العرب واضطروهم الى ان يركزوا قواهم في افاريس ، وهي مدينة بالقوة تقع في اقصى الشرق من مصر السفلى \* .

وباختصار ، فيمكن القول بأنه منذ هذه الفترة قد انتهى عهد ملوك الرعاة في مصر ، بعد مرور نحو خمسة قرون من تأسيس اسرتهم وتربيعها فوق عرش الفراعنة ، واذا كان كهنة ممفيس وهليوبوليس أو طيبة قد لزمو الصمت بشكل تام عن هؤلاء الملوك عند حديثهم الى هيرودوت فقد كان ذلك دون ريب لأنهم كانوا يضعون في عداد ملوك مصر أولئك الأمراء من الجنس المصري الذين حكموا مصر خلال الفترة نفسها من الزمن ، اذ كانوا يعتبرون هؤلاء الذين صتوا عنهم ملوكا غاصبين .

أما تحيوسيس ( احمس ) ، ابن وخليفة اليسفراجو توفيس ، فقد حاصر في افاريس بقايا جيش الرعاة ، وعندما لم يتمكن من الاستيلاء عليها ، وافق أن تخرج الحامية من ارض مصر مع كل ملكات تملكه .

وقد عبر هؤلاء الرعاة صحراء سوريا ، ولما كانوا يخشون بأس الآشوريين — وكان هؤلاء بالفي القوة في آسيا — فقد استقروا في جبال الجودية حيث اسسوا مدينة جيروزاليم ( أو : اورشليم ) ( ١٧ ) ، وإن كان هذا الطريق من الأمة التي أدى استحوادها على مصر لفترة طويلة ، الى تبعثرها بالضرورة في كل البلدان ، قد اضطر للخضوع وأن يستسلم بدوره لما يليه عليه قانون المنتصر .

\* يقول الأستاذ محمد رمزي في قابوسه الجغرافي للبلدان المصرية، الجزء الأول الخاص بالمدن المدرسة ، من مدينة افاريس : أواريس مدينة اثناسها الهكسوس جنوبي بيلوز ( الفرما ) ، واسنوها هلت أورات Hot Awrat ، ومنها اسمها أواريس ، وقد اتخذها رمسيس الثاني سكنا ومعتكرا له ، وسماها برميسيس أو مدينة رعمنيس . وقد انفثرت الآن وحل محلها تل الحير أو الهر ؛ وظن بعض الباحثين أنها هي مدينة تيكو التي اسماها الرومان هيروبوليس وكتبتها الآن تل المسخوطة . ( المترجم )

( ١٧ ) كانت هذه المدينة في واقع الأمر موجودة حين دخل الاسرائيليون ، بعد وفاة موسى ، ارض كنعان ، لكنهم لم يستحوذوا عليها بشكل مطلق الا في عهد داود .



أما العبرانيون ، الذين كانوا قد وجدوا قبل ذلك فى مصر ، مأوى وحماية ، بسبب أصلهم المشترك وتطابق عاداتهم وتقاليدهم مع عادات وتقاليد الرعاة ( العرب ) فقد واصلوا سكى هذه المنطقة ، وجرت عليهم نفس اقدار المهزومين ، وانسحب عليهم ما كان يكنه الوطنيون من احقاد نحو هؤلاء الرعاة ، واخذ الوطنيون يشيرون الى هؤلاء واولئك ، دون مواربة ، باسم الانجاس أو المجذومين .

وقد ظل الانجاس ، وهى تسمية كان يندرج تحتها كذلك المصريون الذين تمثلوا بعض ممارسات الرعاة الدينية ، يتمتعون فى مصر ، مع ذلك ، بقدر محدود من الحرية حتى عصر امينوفيس ، والد سيزوستريس الشهير ؛ بل لعل القوم قد تركوا كذلك لعدد من القبائل مقاطعات صغيرة ، ضئيلة الاهمية ، على تخوم صحراء ، أو فى مستنقعات مصر السفلى ، وهو امر لا يزال يتم حتى اليوم مع البدو . وقد آمن امينوفيس ، بدمعه فى ذلك الكهان . انه سوف يتقرب الى الآلهة ، باضطراده للرعاة ، وكل المصريين الذين لم تعد عقيدتهم — فى رايه — خالصة نقية ، فجمع عددا كبيرا منهم ، استخدمهم فى قطع الأحجار من جبل المقطم .

وبعد ذلك ، دفعت بعض المخاوف الأسطورية ، والمظنرة ، امينوفيس لأن يسمح لكل هؤلاء البؤساء بالانسحاب الى ارض جاسان ؛ وهناك اختاروا رئيسا لهم ، واحدا من كهنة هليوبوليس اسمه اوزرسيف ، كان قد نفى منهم بسبب آرائه الدينية دون شك ؛ ولحق به وانضم اليه كهان مصريون آخرون كانوا يشاطرونه معتقداته ، وتبع هؤلاء كل الأشخاص الذين يريدون الفرار من اضطهادات واقعة أو يخشون من حدوث اضطهادات جديدة ، لأنهم يفكرون بالطريقة نفسها ، وقد أعطى اوزرسيف لهذه الالوف من المنشقين المصريين ، وللقوم من جنس الرعاة ، ديانة خاصة كانت بالضرورة خليطا من ديانتى هذين الشعبين ، وأمر هؤلاء الا بتصاهروا الا غيبا بينهم ، ولكى يحول دون حدوث أى صلح بين هؤلاء وبين المصريين ، أباح لاتباعه ان يأكلوا حيوانات كانت تعدد مقدسة عند هذا الشعب وأصدر تعليماته لهم بهدم تماثيل آلهة مصر .

وقد كانت النتيجة الحتمية للاضطهادات الدينية من جانب امينوفيس ، والحروب والثورات ونوبات القزوه الأجنبية التى نبهت عنها ان اضطهر

عدد كبير من العلاقات أن تبحث لانفسها ، ومعها آلهتها عن وطن جديد . وعلى هذا ، يكون هذا الوقت هو الفترة المحتلة التي نشأت خلالها مستعمرات عديدة في بلاد الاغريق ؛ فان رأى البعض أن هذه الديانة لم تكن هي ، على وجه الدقة ، نفس الديانة المصرية القديمة فاننا نضطر الى الظن بأن مؤسسيها كانوا من هؤلاء الرعاة القدماء الذين لم يقتنوا جيما - وهذا مرجح - معتقدات أوزيريس ، والذين كانت لهم ، بالضرورة ، في عاداتهم أوجه شبه مع الفينيقيين والمصريين (١٨) ، باعتبارهم

(١٨) في واقع الأمر فان الاحتمال ضئيل في أن يكون المصريون قد اسمنوا المستعمرات العديدة التي تشعب اليهم عادة ، فهم الذين اغلقوا لوقت طويل للغاية ابوابهم في وجه تجارة البحر الأبيض المتوسط اذ كانوا ينفرون من هذا البحر ويكنون له الكراهية ، كما أنهم أخيرا كانوا يرتبطون بروابط كثيرة بسقط رأسهم ، لأنهم أثرياء ، تجمعهم دولة وحكومة ، وتحكم فيهم الأساطير الدينية ؛ لكن الأمر ليس على هذا النحو بالنسبة للرعاة ، فامة تتكون من قبائل متفرقة يصنع عليها أن تظل متحدة ؛ فالرؤساء القلقون أو الساخطون يعزلون بأنفسهم ، ويسعون لأن ينشئوا لأنفسهم مؤسسات أو أنظمة خاصة بهم ، ولم يكن الرعاة الذين فتحوا مصر يقطعون ببلد أكثر مما يقطعون بآخر ، لقد كانوا رحلا ومقاتلين ، وسرعان ما قدر عليهم أن يعملوا بالملاحة ، على طريقة هؤلاء العرب - وهم من نفس جنسهم ، وقدموا من نفس صحراواتهم - الذين حملوا معهم الى اسبانيا ، في القرن الثامن ( الميلادي ) ، الفنون والعلوم التي ارادوا هم انفسهم قبل ذلك بوقت قصير أن يحوا كل اثر لها ، حين حرقوا مكتبة البطالمة [ سبق لنا أن حرضنا هذا الافتراء عندما نقلنا رأى جاستون مبييت بهذا الخصوص عندما ورد مثل هذا الزعم في دراسة جراتيان لوبير من مخينة الاسكندرية ؛ انظر المجلد الثالث من الترجمة العربية - المترجم ] .

انن فيبدو مما لا ريب فيه ان هؤلاء الذين نقلوا الى اليونان فنون مصر ، هم هؤلاء الرعاة الذين ادى بهم استحوادهم الطويل على مصر لان يقتلوا هذه الفنون . وهذا الرأي هو نفس رأى فريريه Fréret وهو لا يسلب قط عن مصر الطليعة مجد انها اهدت اليونان بالبتون الأولى لحضارتهم ، وهي بذور شينة دون شك ، لكنها قد تطورت وتقدمت بسرعة بالغة تحت سماء اليونان الفاضرة ، موطن ربات الفن والجمال حيث ارتقى الجنس البشري لاسمى درجات النبل والحرية والسعادة .

ينتمون أصلا إلى الشرق ، وتطبعوا بهذه الخصال على سفن النيل بفعل سلسلة طويلة من الأجيال ، وإذا لم يكن كتاب آريوس ، ملك لاسيديومونيا إلى أونيس كبير أحبار اليهود ، مزيينا قط ، فانه يأتي ليدعم هذا الرأي ، الذي يعطى العبرانيين وبعض لهم الاغريق ، أصلا مشتركا (١٩) .

وأخيرا فلن علينا أن نجعل مولد موسى يتم في عهد امينوفيس هذا ، وأن نضع فيه أيضا أول الاضطهادات التي لحقت بالعبرانيين ، والذي تشير إليه التوراة .

وقد دفع الخوف من سطوة فرعون ، وكذلك ، ودون جدال، الرغبة في الانتقام ، أوزريسف لأن يطلب من رعاة الجودية أن يلحقوا به ، ليزحفوا معا لفتح مصر ؛ وفكرهم بأنهم كانوا من قبل قد تملكوا هذه البلدان الغريبة، وبأن قد لحقت بهم ( هنالك ) أهانت ينفي الاقتصاد فيها ، وهرع أهالي اورشليم إلى افاريس استجابة لنداء أخوتهم ، وانضموا إليهم ، وحملوا على مصر « فلم يكن ثمة ضرب من ضروب القبسة لم يرتكبه » ، كما يقول مانيتون ، ولم يكتفوا بأحراق السدن والكور وتحطيم صور الآلهة ، وإنما قتلوا حتى الحيوانات المقدسة ، وأرغموا السكان المصريين والعرفانين بأن يكونوا هم ذابيحها ، ثم أطلقوهم بعد ذلك عراة كما ولدتهم أمهاتهم » .

وانسحب امينوفيس إلى ملوراء الشلالات على حدود مملكته ، وثبت هنالك بدعم من الأثيوبيين مدة ثلاثة عشر عاما ينالوى الرعاة ؛ وفي

---

(١٩) والكم ترجمة هذا الكتاب كما أورده المؤرخ يوسفوس « من ملك الاسبطيين ( أصل لاكيدايمونيا ) آريوس أويناي — تحيةوسلايا . حدث أن وجدت في بعض النقوش أن اليهود وأهل لاكيدايمونيا ينتمون لجنس واحد وأن الآخرين ليسوا بغرباء عن نسل إبراهيم . لذلك فمن الأوفق — ناهمنا أخوة — أن نطلعونا على كل ما يرغبون فيه ، ونحن من جانبنا سنفعل الشيء ذاته ، ولسوف نعتبر شئوكم مثل شئوينا سواء بمواء ، وبالمثل سوف تكون بيننا وبينكم علاقات مشتركة » وأن ديموتيليس الذي يحمل هذه الرسالة هو الذي سيقوم بحمل رسائلنا ، وهذه الرسالة مدونة في صفحة مربعة الشكل وتحمل خاتما هو عبارة عن نسر يصارع ثعبانا » .

نهية هذه المدة جمع قوات كبيرة ، ونزل الى مصر السفلى وهزم  
أوزريسيف ، وطارد ، ودفع نحو سوريا شتت جيشه .

وإذا لمصدقنا رواية ماثيتون ، فلا بد أن يكون أوزريسيف هو موسى  
نفسه . ولابد أن يعترف المرء أن التشابه بينهما شديد ، بل قد يكفى  
الافتراض بأن الجودية كانت قد تم غزوها على يد قبائل أخرى ، فى  
الوقت الذى كان سكانها غيبه يخربون مصر كى نفس أقامة الاسرائيليين  
الطويلة ( تيهيم ) فى الصحراء ، وكذا الحروب التى كان عليهم أن يخوضوها  
كى يعودوا الى سوريا بعد أن تم طردهم من أرض جاسان . ومع ذلك ،  
فإذا ما قبلنا ، فيها يتصل بالوقائع الأساسية ، أن يكون هذا الراى محددا  
نلاطار العمام لذلك الذى جاء فى أسفار موسى الخمسة ، فينبغى القول  
ايضا بأنه سيظل يوجد فى قصة موسى ، إذا ما قبلنا هذا الراى ، عدد  
هائل من الأحداث لابد أن تلقى بها جنبا الى جنب مع الأساطير . فضلا  
عن ذلك ، فمن السهل أن نوائم بشكل أفضل بين ما جاء بكتب العبرانيين  
وبين ما جاءت به كتب التاريخ الدنيوية ؛ وهكذا نستطيع ، على سبيل المثال ،  
القول ، مرتكرين على أسس كافية بأن جزءا من الرعاة الذين هزمهم  
امينوغييس قد ظلوا أسرى فى مصر ، حيث فرضت عليهم أقسى درجات  
الميسودية ، وأن القبائل الاسرائيلية ، قد تلفت فإذا بها ضمن  
هؤلاء العبيد .

فلنقبل إذن الفكرة القائلة بأن العبريين كانوا لا يزالون يقطنون مصر  
حين اعتلى سيزوستريس العرش .

ومع ذلك فإن الجاهج التى تمتع بها المصريون فى عهد هذا الملك  
الشهير تحول دون أن ننسب لعهده تلك الكوارث التى خربت هذه المملكة  
وأدت الى تخليص شعب الله . لقد كان سيزوستريس شديدا البأس ،  
لحد لا يستطيع معه أن يخشى من هؤلاء العبيد البؤساء ، الذين عرفتكيف  
يفيد منهم حين استخدمهم فى اقامة الجسور وحفر الترع وبناء المدن ،  
وهى أعمال خللته بأكثر مما خللته فتوحاته .

وقد خلفه ابنه الذى يسميه هيرودوت فيرون فى حين يسميه ديودور  
سيزوستريس . الثانى ؛ لكن الابن لم يرث لا فضال ولا مواهب والده ،

ويصوره التاريخ أميرا ضعيفا ، مطفرا ، يؤمن بالخرافات ، وتلبا . ويبدو أن يد الرب ، على حد قول المؤرخين الفنيويين أنفسهم ، قد ثقلت عليه ، ففأش النهر بدرجة غير مألوفة وجرم القرى والحقول وافزعت المواصف والإعاصير والسيول الشعب ، وأصيب الأمير بمعنى البمسيرة حتى غمت عليه هذه العلامات التى تثير بغضب السماء (٢٠) .

ونعتقد نحن من جانبنا أن فى عهد هذا الأمير — ولابد — تمت عملية هروب العبرانيين الى الصحراء .

### هروب العبرانيين الى الصحراء

بعد الهزيمة الماحقة التى حاقّت بالرعاة ، أرغم العبريون على ترك الحياة الرعوية ، ويعد أن كانوا بدوا تحولوا الى فلاحين (٢١) وأرعقوا بالأعمال ، ولكنهم لم يستطيعوا طيلة العهد الطويل والمجيد لسيزوستريس أن يتلمسوا من العبودية ، ومع ذلك ، فحين لغوا بعض المعاملة الإنسانية بلا ريب ، تضاعفت أعدادهم وحيث تد بداءوا يستوعبون حالتهم الجديدة ، فقد كان كل يوم يمر ، يجعل من المسير عليهم أكثر من ذى قبل أن يخرجوا ( من مصر ) ، ثم ارتقى فيرون العرش وانتقل كاهل العبرانيين بنير من حديد (٢٢) ، فلم يجد هؤلاء اليأساء الذين كانوا ينفون فى صمت اية نهاية للألم إلى أن ظهر بينهم واحد من أولئك الرجال غير العاديين الذين يبدون وكأننا قد جاءوا خصيصا لتغيير أقدار أمثهم ، وكان موسى عند طفولته قد جرفه الماء ، وكان هذا فى عصر امينوفيس ، واثققت ابنته حياة الطفل العبرانى ، لكنها لم تكف بما قدمته اليه من رعاية واحسان ، وانما أبرت بتعليمه كل حكمة المصريين وعلومهم ، ومن المعروف أن العلوم والفنون فى مصر كانت فى ذلك الوقت فى أوج ازدهارها ؛ واذا اضطر

---

(٢٠) هيرودوت ، الكتاب الثانى ؛ ديودور ، الكتاب الأول .  
 (٢١) لاتزال تغييرات مماثلة تحدث فى بعض الأحيان فى مصر ، بين القبائل العربية التى استقرت فيها ، انظر دراستى عن القبائل العربية فى صحراوات مصر ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول ، ص ٥٧٩ . وانظر كذلك دراسة جومار عن العرب والعربان فى مصر الوسطى ، من هذا المجلد — الترجمة .  
 (٢٢) سفر الخروج ؛ الأصحاح الثالث ، الآية ٧ .

موسى بعد موت تلك التى احسنت اليه لان ينجو بنفسه لاثذا بالصحراء لقتله أحد المصريين فقد مر الى البحر الأحمر ليقسم بين عرب مديان (مدين) وذكره نمط حياة هذه القبيلة بلا ريب بالزمن الذى كان ابراهيم قيسه يتجول فى عزلة بقطعائه ؛ ويحث له الحرية والاستقلال ، برغم ضروب المخاطر وصنوف الحرمان افضل كثيرا من العبودية مع الوفرة والسكينة وصمم مشروعه النبيل لقطع أغلال العبرانيين .

وعند قمة جبل حوريب ، وسط البروق والرعود ، وعلى مشهد البحر الهائج والصحراء الصنوت ، تأمل طويلا ، فى عزلة بعيدا عن البشر ، مشروعاته الواسعة (٢٣) ؛ وفى النهاية رجع الى اخواته ودعاهم للهروب ، وتذرع فى ذلك عند فرعون بأنهم سيقيمون أضحية فى الصحراء: « ندعاهم فرعون وموسى وهارون وقال اذهبوا اذبحوا لالهكم فى هذه الأرض، فقال موسى لا يصلح أن نفعل هكذا ، لأننا انما نذبح رجس المصريين للرب الهنا ، ان ذبحنا رجس المصريين امام ميوتهم أفلا يبرجمونا ؟ » (٢٤) .

وتردد الملك : هل يعطى الاذن المطلوب منه ام يرفضه ، هل يخفف من شقاوات العبرانيين ام يضاعف منها ، ويتراجع الملك بين هذا الموقف وذلك تبعا لدرجة الفزع الذى يتلبد كلها توالى الكوارث التى كانت تفكك وتدمر دولته ، وعلى الدوام فان افكار الاتساع المسبقة وخرافاته تربط اقداره بنظام السكون .

ولقد وردت فى ذلك الجزء من الكتب المقدسة الذى تناول هذه الفترة وقائع كثيرة ، لسكتها برغم خروجها عن كل مالوف ، تتوافق مع روايات المؤرخين النديبيين (٢٥) ومع الحالة الراهنة لهذه البلاد ؛ فلا يزال الحواة

---

(٢٣) نجد فى حياة محمد [ص] خصوصية مماثلة ، فقد كان ينشد العزلة فى غار فى جبل حراء ، ويمضى هناك خمسة عشر يوما (كذا) فى حياة العزلة قبل أن يعلن نبوته . وليست هذه وحدها فقط هى نقطة التشابه التى نجدها بين هذين المشرعين (كذا) .

(٢٤) سفر الخروج ، الأصحاح الثامن ، آيتان ٢٦ و ٢٧ .  
 ❖ بسبب غضب الرب عليه لرفضه السماح بخروج بنى اسرائيل من مصر كما يشرح ذلك سفر الخروج . (المترجم) .  
 (٢٥) هيروdot ، ديودور ، الخ .

هناك حتى اليوم يأتون مع الثعابين بأشياء خارقة تعد من قبيل المعجزات،  
 فهم يستدمونها وينومونها ويخدونها حتى تظن أنها قد ماتت ، ويعلمونها  
 كذلك كيف تنهض وأتلفه وتتبع سبيلها على هذه الحال ، ثم يخبئونها  
 في ثيابا ثيلهم ويلفون بها حول رقابهم دون أن يخشوا أن تلدغهم يؤلم  
 جراح مصر التي لا تتحمل تتبذل في مياه النيل ، الصفراء والخضراء ،  
 العكرة والضارة في بعض الأوقات ، والتي يمكنها على نحو يكاد يكون  
 ثابتا ، وحين تتغير أحوالها بفترة عابثا ما ، أن تروع الشعب ، كما تتبذل  
 في الحشرات من كل نوع \* تلك التي تكثر بوفرة في بعض الأحيان  
 في مصر وبطريقة مفرقة في كل مكان تشتد فيه الحرارة والرطوبة (٣) ؛

---

\* يتحدث سفر الخروج عن أن الرب قد ابتلى مصر بالضفادع  
 التي كثر حتى ملأت البيوت والأنهار ثم ابتلاها بعد ذلك بالبعوض ..  
 الخ . ( المترجم )

(٣) يمكنني أن أفكر هنا ، نغلا عن المؤرخين العرب ، سنوات  
 كثيرة كانت فيها الضفادع والثعابين وفيرة حتى ظن الناس أنها تتسلط  
 من السماء ، واكتفى بأن أورد هنا واقعة كان المقرئ نفسه شاهدا  
 عليها ، وقد كتب في هذا الخصوص : أنه في العام ٧٩١ والأعوام  
 التالية تزايد الدود الذي كان يهاجم الكتب والأقمشة الصوفية بشكل  
 كبير في المنطقة المحيطة بمرعى الزيات الواقع خارج القاهرة بين المطرية  
 وسرايوقس ؛ وقد أكد له رجل أهل للغة أن هذه الحشرات قد قرضت له  
 ١٥٠٠ قطعة قماش تشكل حمولة أكثر من خمسة عشر جبلا ، وحين دهش  
 المقرئ من حادثة شاذة لهذا الحد فقد اتخذ طبقا لمعادته كل الاحتياطات  
 اللازمة كي يتأكد من الحقيقة . فشاهد بعيني رأسه أن الضفادع التي  
 سببتها الديدان لم يكن ( تقديرها ) مبالغا فيه ، وإنما دمرت في الجهات  
 التي تحدث عنها كمية كبيرة من الخشب والأقمشة ، وقد شاهد بالقرب  
 من المطرية جدران حنيقة بها صدوع وتشققات طويلة وعميقة أحدثتها  
 هذه « الحيوانات » الصغيرة . وفي نحو العام ٨٢١ تكررت هذه الكارثة  
 في حي الحسينية الواقع خارج القاهرة ؛ فبعد أن أتت الديدان على كل  
 ما يؤكل وما يلبس الخ ، وهو ماسبب للسكان خسائر لا يمكن حسابها ،  
 هاجمت البيوت وقرضت العوارض التي تصنع السقوف حتى أصبحت  
 هذه العوارض جوفاء تهالبا ، وأسرع الملاك بهدم البيوت التي غزتها  
 الديدان حتى كاد الحي أن يكون قد دمر دمارا تاما . ثم منعت هذه الحشرات  
 نطاق دمارها حتى بلغت البيوت التي تجاور بابي النصر والفنوح . ولم  
 تكن تلفياتها هناك أقل عنها في المدينة ومكة حيث قرضت الديدان سقف  
 الكعبة — من ترجمة إيتان كارتير .

وفى الطامون الذى يغرب هذه البلاد من وقت لآخر ، ويبسو فى معظم الأحيان وكلثما يصر على انفساء جنس دون آخر ، وفى الرعود والبرد ( بفتحة على الراء ) ، نادى الحدوث حتى انه لا يسمع بحدوثهما هناك ، وقد لا يحدثان سوى مرة واحدة على مدار قرن بأكمله ، فهما اذا حدثتا لن يسببا سوى الفزع الشديد ؛ وأخيرا فى أسراب الجراد التى تانى من جوف الصحراوات ثم فى الظلام المؤقت الذى تسببه الدوامات الترابية التى ترفعها وتحملها رياح الخماسين ، وفى هذه الرياح المؤذية نفسها والتى لا يحس بها الناس فى كل أنحاء مصر ، دفعة واحدة (٢٧) .

فلنجنب اذن من وصف النكبات التى حلت بمصر تلك المبالغات الشاعرية المسموح بها ، لشخص يحلو له ان يسترسل فى وصف الظواهر التى استخدمها لتخليص شعبه وسوف نرى كل سطوة لها قد خبت ، ومع ذلك فان تسليع أحداث كثيرة غير مألوفة ، برغم كونها مع ذلك ظواهر طبيعية ، مع مالها من نتائج على قلب فرعون القاسى ، يمكنه ان يعد برهانا قويا على حماية الرب .

فهذا الحكيم فى الواقع لم يستطع ان يقاوم شكاوى رعيته التى كانت تنسب آلامها ومصائبها ، بعد ان اصابها طاعون فتاك ، الى رتبات « الاتجاس » المؤذية فاعتقدت الرمية ان ابعاد هؤلاء ، سيجعل الآلهة أكثر لطفا بها : « فدعا - اى فرعون - موسى وهارون ليلا ، وقال قوموا اخرجوا من بين شعبي ائتما وبنو اسرائيل جميعا » (٢٨) .

(٢٧) عندما تهب الخماسين ، تصبح الشمس ذات صفرة كلية ، وتجنس اشعتها ، وتزيد العتمة فى بعض الأحيان حتى يظن المرء انفسا قد بتنا فى ليل شديد الحلكة ، على النحو الذى رأينا بانفسنا عند منتصف النهار ، فى انفسا ، إحدى مدن الصعيد . ويورد بعض المؤرخين العرب ، انه عندما غزا السلطان سليم مصر ، فان السماء قد وهبتة نفس « الخدية » التى قدمتها لموسى ، فقد حجبت سحابت كبيرة سوداء ، مسيرة جيشه ، عن عدوه طومان باى .

(٢٨) سفر الخروج ، الاصحاح الثانى عشر ، الآية ٣١ .



## مسيرة العبرانيين في الصحراء حتى المنطقة التي عبروا عندها البحر الأحمر

رحل الاسرائيليون من أرض جاسان ، ولا يمكن ان تكون هذه المنطقة سوى منطقة السبع ابيار الممتدة الى الشرق من مصر نحو سوريا ، لاننا نقرأ في سفر التكوين ( الاصحاح السادس والاربعين ) انه عندما فاجر يعقوب ضواحي غزة كي يذهب الى مصر ، ارسل يقول ليوسف الذي كان يقيم في ممفيس ان ياتى للقائه « فارسل يهوذا امامه الى يوسف ليرى الطريق امامه الى جاسان ثم جاءوا الى أرض جاسان » ، وقد ترجم النص على هذا النحو في التوراة اللاتينية ❖ « وارسل يعقوب يهوذا امامه الى يوسف لينبئه بمجيئه لكي ياتى هو امامه في أرض جاسان » ؛ فقد كتبت أرض جاسان اذن تقع على الطريق بين ممفيس وغزة ، وقد منحت للاسرائيليين بالطريقة نفسها التي منحناها بها ، أثناء اقامتنا في مصر ، ثلاث قبائل عربية<sup>(٢٩)</sup> ، كما جاء العبرانيون ، من سوريا .

اما وقد عرفنا نقطة البدء ، فسوف يكون من السهل علينا ان نتبع مسيرة الابرائيليين ؛ كان موسى يريد ان يقودهم الى شنواحي جبل سيناء ، وكان واثقا انه سيتجلبل بالترحل من غرب مدين ، لانه عاش طويلا بينهم ، وتزوج من ( صفورة ) ابنة كاهنهم يثرون ، وكان طريقه المباشر يقتضى المرور شمال البحر الأحمر ، لكنه خشى ان هو اقترب اكثر مما ينبغي من بلاد الفلسطينيين ان تنهض ضد الاسرائيليين حروب تجعلهم يأسفون لفراقهم مصر ويمتزمون العودة اليها (٢٠) ؛ ولذلك فقد

---

❖ الـ Vulgate هي الترجمة اللاتينية للتوراة ، وهي المستعملة في الكنيسة الكاثوليكية ؛ وتام بالجزء الأكبر من هذه الترجمة سان جيروم ، وقد قرر مجمع الثلاثين في العام ١٥٤٦ ان يعد هذا النص المرجع الأوحد للتوراة . ( المترجم )

(٢٩) وهذه القبائل الثلاث هي : ترابين ( أو طرابين ) الكبرى . عرب طحا ( أو عرب طه ؟ ) ، والأعاجير ، وكان هؤلاء في ذلك الوقت في حرب مع باشا غزة الذي كلن قد دبر لاغتيال كبار شيوخهم .

(٣٠) سفر الخروج ، الاصحاح الثالث عشر ، الآية ١٧ j وهذا هو نفسها : « وكان لما أطلق فرعون الشعب ان الله لم يهدهم في طريق أرض الفلسطينيين مع انها قريبة ، لأن الله قال لثلاثين الشعب اذا رلوا حزبا ويرجعوا الى مصر » [ .

أثر موسى أن يسر يحذاء الساحل الغربى للخليج العربى \* ، وتجنب بذلك ، فى الوقت نفسه ، أن يشر ، لأكثر من اللازم ، وفى وقت مبكر ، الرئيسة فى عزيمه على الهروب ، لدى فرعون ، الذى أعطاه الآن بأن يقود شعب الله فى الصحراء لتقديم الأضحيات ، ولهذا فإن موسى ، كما جاء فى سفر الخروج نفسه قد أمر بأن يقوم العبرانيون فى مسيرتهم بلغة طويلة ، وصحبهم ، متخذين طريق الصحراء التى تقع بالقرب من البحر الأحمر (٣١) .

لكن الوضع الحالى للخليج العربى سوف يحول فى الواقع دون تصور كيف وجد الاسرائيليون أنفسهم على الفور على شواطئه عندخروجهم من أرض جيلسان ، أن لم يكن المرء على بينة من أن الخليج ، فى الفترة المتأخرة التى نحن بصدها ، كان يمتد الى مسافة قريبة من منطقة السبع أبصار : وتأتى طبيعة الأرض بين هذه النقطة وبين مدينة السويس ، مع ترسيمات القواقع البحرية ، وعدد لا حصر له من ملاحظات جغرافية أخرى ، تضلف اليها شهادات القدماء — لتمطى لهذا الراى ، على أقل تقدير ، ككبر قدر من الترجيح (٣٢) وهكذا يمكننا أن نتصور كيف

#### \* البحر الأحمر .

(٣١) سفر الخروج ، الأصحاح الثالث عشر ، الآية ١٨ ] وهذا نصها : « نادار الله الشعب فى طريق برية بحر سوف » ج .  
(٣٢) وهذا دليل جديد على صحة رأى عن العنود القديمة للبحر الأحمر . انظر دراستى حول هذا الموضوع ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول ، ص ١٨٧ ] المجلد الثالث من الترجمة العربية ج ولكنى اكتفى هنا بنقل هذه الفكرة عن نيبور Niebuhr ، والتى لم أكن أعرفها فى حينها ، والتى تتفق مع افكارى : « ويقول الرحالة دانوا Danois : ان شاطئ البحر قد تغير هنا كما حدث له فى أماكن أخرى ؛ ويقابل المرء على كل ساحل الجزيرة العربية أكثر انحسار البحر ، فعلى سبيل المثال منا التى يقول عنها كل القدماء بأنها كانت ميناة العربية السعيدة ( اليمن ) تقع اليوم بعيدا عن البحر بفراسخ عدة ، ونرى اليوم بالقرب من الوجة وجدة تلالا كبيرة تملأ بالمرجان والقواقع من الأنواع نفسها التى نراها حية فى الخليج العربى ( البحر الأحمر ) ، وتوجد بالقرب من السويس تكلسات من كل هذه الأشياء . وقد رأيت على بعد ثلاثة أرباع الفرسخ ، نحو الغرب من هذه المدينة كمه من القواقع الحية فوق صخرة لاتغطيتها المياه إلا بفعل حركة المد والجزر . وهى عالية لحد لا تبلغها معه مياه هذه الحركة ، إذن نمىذ الوفاة من السنين كان الخليج العربى أكبر اتساعا ، كما كان يمتد لأكثر من ذلك تجاه الشمال ، وبصفة خاصة ذراعه القريبة من السويس ؛ لأن الشط عند هذا الطرف من الخليج بالغ الاتضال » .

سار الاسرائيليون ، فى ذلك الوقت ثلاثة ايام بالقرب من البحر الأحمر لكى يصلوا الى النقطة التى يحدد عندها الأثر طريقهم الذى شقته لهم المعجزة بين الأمواج .

كان محطهم الأول يسمى سكوت ، وهى كلمة تعنى الخيمة ، ويمكنها ان تدفع الى الظن بأن هذا الاسم لاينطبق أبداً على مدينة قديمة وانما على مجرد معسكر . وزيادة على ذلك ، فهناك خرائب عديدة على حواف الأرض التى هجرها البحر ، وهذه أو تلك يمكنها أن تنتمى الى سكوت وفى اليوم التالى مسكروا فى ايتام عند طرف « البرية » (٣٢) .

ويدفعنى هذا الموقع لأن أجزم أنه بير السويس (٣٤) ، الذى يقع فى الحقيقة ، وكما يبدو ، عند طرف الصحراء اذا كنت قادما من جهة السبع ابيسر ، لأن البحر ، باتخاذ شكل مرفق يتجه الى الغرب ، يبدو ، عند اتصاله بسلسلة جبل متعاقبة العالية ، وكأنه يشكل النهاية الجنوبية للصحراء . فضلا عن ذلك ، فإن المياه العذبة بلغة النفرة فى كل هذه المنطقة ، كما أن الآبار ، ولابد ، هى التى تحدد التقاط التى تحط عندها القوافل .

ويعد ذلك تحدث الرب الى موسى قائلا : « كلم بنى اسرائيل ان يرجعوا وينزلوا ايام ثم الحيروث بين مجدل والبحر أمام بعل صفون » (٣٥)

(٣٢) سفر الخروج ، الاصحاح الثالث عشر ، الآية ٢٠ .

(٣٤) بير السويس تعنى البئر الموجودة بمدينة السويس ؛ ويقع هذا المكان على مسافة نحو الفرسخ الى الشمال الغربى من السويس . وهو يشتمل على سورين صغيرين متلاصقين ، ومهشمين جزئيا ، وينسب بناءهما الى السلطان سليم الأول . ووسط واحد من هذين السورين توجد بئر لياهما مذاق غير مستساغ تنوح منها رائحة هيدروجين كبرى . ولا تستخدمها فى العسادة الا الحيوانات ، ولستكنى شربت منها دون أن أشعر بقرف ، وكذلك فعلت البعرة التى صحبتها معى . فقد وصلنا الى هنا بالقى الظلم وبعد نهار شديد القىظ ومسيرة مرهقة على الأقدام ، وقضينا منه الثمانية عشرة ساعة الأخيرة دون أن نشرب . ويلاحظ المرء خارج السور بقايا مجرى مائى كان يستخدم فيما مضى فى توصيل مياه البئر الى السويس .

(٣٥) سفر الخروج ، الاصحاح الرابع عشر ، الآية ٢ .

ومن السهل أن نتبين سبب هذا الارتداد إلى الخلف ، فلعل لم الحيروث أن يكون مكثا حصينا به حامية مصرية . وفى الواقع فإن المرء يرى أن الاسرائيليين لم يخطوه قط ، وإنما عسكروا تجاهه على شاطئ البحر ، وهناك كان عليهم أن يعبروا ، وامكنت حاجتهم للماء المذنب أن تدفعهم إلى اجتياز هذه النقطة فى اليوم التالى ؛ وبمعنى آخر ، فعلى بعد نحو ثلاثة فراسخ من بير السويس ، مع الارتداد نحو وادى السبع أبيلر ، نجد قمرا قديما وحسنا يسمى الها جيروث ( المجرود ) ؛ وفى النص العبرى نجد أن المقطع  $\Phi$  ( فى ) ينفصل بصفة دائمة عن كلمة الحيروث، بل لقد حذف تماما فى الآية الثامنة من الاصحاح الثالث والثلاثين من سفر العدد \* . ويعتقد ان كلمة Phi أو Pi ( فى أو بى ) كانت هى أداة التعريف فى اللغة المصرية ثم ظلت كذلك فى اللغة القبطية . إذن فقد كان الحط الثالث يسمى هاجيروث ؛ وهذا التشابه مع كلمة هاجيروث ( المجرود ) لايد فى رأى ان يسترعى الانتباه .

### عبور البحر الأحمر

تجاه الهاجيروث ، على وجه التقريب ، تكونت نحو الجنوب الشرقى، كتلة الرمال التى اقتطعت من البحر الأحمر هذا الحوض الواسع الذى نجده اليوم الى الشمال من هذا البحر . والذى لاتزال تربته ، وهى أدنى بكثير من أدنى حركت المد والجزر ، تحمل كل الخواص الدالة على اثر المياه ، ومع ذلك فقد كان من الضرورى ، قبل أن تكون هذه الكتلة من الرمال قد ارتفعت لحد يكفى لصنع بحيرة من الطرف الشمالى للخليج العربى ، ان يبقى فى هذا المكان مستنقع ظل الحوض فيه مستحيلا ، لوقت طويل ، حتى عند حدوث نوبات المد الواطئة .

ومن المحتمل ان يكون الاسرائيليون قد اتبعوا موسى عند هذه المخاضة ؛ فهذا الرجل الشهير ، الذى ترى على حكمة وعلوم المصريين، والذى لاذ لوقت طويل بشواطئ البحر الأحمر ، كان يعرف إمكانية عبورها

---

\* وتقول هذه الآية : « ثم ارتبطوا من أمام الحيروث وعبروا وسط البحر إلى البرية .. الخ » .

وهنا نلاحظ غياب كلمة ثم التى يشير إليها المؤلف بالمقطع فى أو بى الواردة فى الآية الأولى من الاصحاح الرابع عشر من سفر التكوين (الترجم)

سيرا على الأقدام من عند هذه النقطة ، في حين كان على عبيد يؤساء ، غارقين في أحط درجات الجهالة ، والذين لم يخرجوا قط من مصر من قبل ، أن يعتقدوا ، عند ظهور الجيش المعادي من جلب ، ووجود البحر من الجانب الآخر ، أن خط الرجعة قد قطع عليهم (٢١) ؛ ويورد فلافيوس جوزيف (٢٢) أن الاسرائيليين كانوا محصورين بين الجيش المصري والبحر وصخور وعرة ؛ ويتفق هذا الوصف تماما مع الوضع الذي انشبه للجيش الاسرائيلي ، إذ أن سلسلة الجبال التي يلمحها المرء إلى الجنوب تتوغل فيما يبدو حتى الشط .

ولقد كان مع فرعون ، في جيشه ، دون ريب ، أشخاص كثيرون ، لم يكونوا ليجهلووا النقاط التي يمكن اجتياز البحر عندها ، ومع ذلك ، فإذا اكتفى فرعون بأنه قد أصبح على مرأى من الاسرائيليين ، فقد كان من الطبيعي للغاية أن ينشد الراحة للفرق العسكرية التي ارهقتها مسيرة لابد أنها كانت بالغة التملج دون أن يخشى ، مجرد خشية ، أن يتمكن هؤلاء اليؤساء الشاردون ومعهم زوجاتهم وأطفالهم ، من الانلالت منه ؛ أما موسى ، فقد أماد من الضباب أو دواب الرمال التي يتحدث عنها الكتاب المقدس ويسمونها « غبارا » ليخفي مسيرته عن العدو ، كما أمكنه أن يستغل نوبة المد الوطنية لكي يخوض البحر على رأس العبرانيين . وقد اعترض بعض بأن عدد هؤلاء كان كبيرا لحد لا يمكنهم من اجتياز البحر في تلك المسافة من الزمن ، التي تفصل بين حركة مد وأخرى ؛ ومع ذلك فلا بد أن نتوخى الحذر عند وثوقنا على روايات المؤرخين ، عندما يحتمل أن تكون هذه قد جاءت متأثرة بفعل السكبرياء القومي (٢٣) . وفي هذا الصدد ، على سبيل المثال ، فإن ما نعرفه عن طبيعة الصحراء والقبائل التي تسكنها ، يحملنا على الاعتقاد أن بعض اليهود ، من أولئك المتحمسين للغاية لجد أمهم ، سوف يستطيعون لأنفسهم ، في الأصحاب الأول

(٢١) كذلك توجد في البحر الأحمر ، تجاه السويس ، مخاضة يتردد عليها البدو ، وتجهلها غالبية سكان مصر .  
(27) Antiquités Judaïques, liv. II Ch. 6.

(٢٢) فلنستبدل ، على سبيل المثال بكلمة ملك كلمة شيخ ، عندئذ سوف يمكننا أن نتصور كيف يستطيع يشوع أن يهزم في معركة واحدة ٣١ ملكا ( انظر سفر يشوع ) .

من سفر العدد واحدة من هذه التحريفات التي يعترف الكراكلة والمجامع المقدسة بإمكانية وجودها في الأسفار الخمسة. (٣٩) ؛ وتكفي ظروف نشر هذه الأسفار نفسها لتوليد الشكوك ، ان لم يكن بخصوص الوثائق الأساسية ، فعلى الأقل بخصوص التفاصيل ، لاسيما عندما يتعلق الأمر ، كما هو الحال هنا ، بدقة العدد ؛ فمن المعروف في واقع الأمر أن كتاب الشريعة تد نشر لأول مرة في أرض موآب « في عبر الأردن ، في أرض موآب ابتداء موسى يشرح هذه الشريعة » (٤٠) . أى بعد أربعين عاماً من خروج العبرانيين من أرض مصر (٤١) ، ولم يكن قد ظل على قيد الحياة ، عندئذ ، في كل إسرائيل ، ممن شهدوا الوثائق التي وردت بالأسفار ( الخمسة ) سوى اثنين هما : يشوع بن نون وكالب بن يفتة (٤٢) ، اللذان كانا متعاونين على الدوام مع موسى (٤٣) الذي باركهما وجعل منهما وراثى سلطته ، لقد كان الأبناء الذين لم يكونوا بعد يعرفون كيف يميزون ان يقتصروا الخير والشر ، حين كان آباؤهم يمسكون في صحراء ناراً ، كانوا — وحدهم — الذين نالوا من الرب الاذن بدخول

---

(٣٩) عندما كان مصلحو القرن السادس عشر يسمعون لأحراج بلاط روما بأن يجابهوه على الدوام بالسكتب المقدسة ، كان رجال الكنيسة ، من حائزى ثقة البابا والمقررين اليه يقولون بصوت عال : ان هذه النصوص تستمد قداستها من تبنى الكنيسة لها ؛ ولم يقتصر التشيع لهذه الفكرة على رجال خايلى الذكر ، بل ان قاصداً رسولياً في مجمع الثلاثين ، هو الكاردينال وارمى Warmie لم يخش من مغبة ان يعلن في مؤلف مطبوع انه لو لم تكن الكنيسة قد احتضنت الكتاب المقدس وبشرت به كمشروع كنسى لما استحق هذا الكتاب الكثير من الاعتبار أو طبقتا لنص كلماته : « ذلك انه من المؤكد ان مؤلفنا ( الكتب المقدسة ) هذا كان سيفقد عملاً ضئيلاً الأهمية ، لولا ان سلطة الكنيسة قد علمتنا أن هذه الكتب المقدسة كتب أصيلة » ؛ وفي النهاية ، فان أكثر آباء الكنيسة عليها من امثال اوريجين وسان اوغسطين لا يأخذون بالمعنى الحرفى للتوراة على اطلاقه ، ويرون فيها ورد فيها رموزاً واستعارات .  
(٤٠) سفر التثنية ، الاصحاح الاول ، الآية ٥ ؛ والاصحاح ٢٩ الآية الاولى ، الاصحاح ٣١ ، الايتان ٩ ، ٢٤ .  
(٤١) سفر التثنية ، الاصحاح الاول ، الآية ٣ .  
(٤٢) سفر التثنية ، الاصحاح الاول ، الآيات ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ .  
(٤٣) سفر العدد ، الاصحاح ١٤ ، الآية ٦ .

الأرض الموعودة (١٤) ، فهل كان بمقدور هؤلاء ، وقد أصبحوا رجالا ، أن يعرفوا حقيقة أعداد قبائلهم عندما غادرت مصر ، وأن ينحو جانباً شهادة رجل كان هو نبيهم . وفى الوقت نفسه مشرعهم وحاكمهم المطلق الموهوب (٥) أولسنا نعرف بآية سهولة يتبنى الرجل المتدين ، كما يفصل الرجل المتوحش ، أكثر المبالغات بعداً عن العقل إذا كان الأمر يتعلق بقوة أمته وعدد من هزمتهم من الأعداء ؟ وأخيراً ، فلن شريعة موسى فى اورشليم كما فى المسامرة قد هجرت فى غالبية الأوقات من أجل عبادة آلهة مزيفة ، ولقد ضاعت الكتب المقدسة الأولى ثم عثر عليها من جديد ، واستوجب الأمر مرات عديدة تجديد الشعب اليهودى عهده مع الرب . لذلك فلا ينبغي أن يخالفنا الشك فى أن بعض تغييرات طفيفة قد حدثت للأشعار ، وأن بعض الأخطاء فى الأرقام على وجه الخصوص تتسرب إليها حين يكون للكثيراء القومى بعض المتعة من وراء الترويج لها (٦) .

وبمجرد أن علم الفرعون أن العبرانيين قد اجتازوا البحر ، أخذ فى ملاحظتهم ، واتقنت قواته ، مجموعة بالحماصة التى تؤججها خطواتهم دون أن تلقى بالآلء البحر الذى لن يدع لها الوقت الكافى لبلوغ الشط المتعبل ، فاتفق المد بعضها منهم وابتلع آخرين . وعلينا أن نضع فى الاعتبار تلك

#### (٤٤) سفر التثنية ، الإصحاح الأول ، الآية ٣٩ .

(٤٥) حين تعبر الأعداد عن نفسها بالأرقام فمن الممكن أن تقسرف أكبر الأخطاء من مجرد جرة قلم ، وخصوصاً إذا كان لهذه الأرقام تشابه كبير فيما بينها ولها فى الوقت نفسه قيم شديدة الاختلاف . ويضاف إلى أخطاء النسخ هذه خطأ من نوع آخر ؛ وإذا شئنا على سبيل المثال أن نبين إلى أى حد يمكن أن يؤدى سهو مترجم ما ، أو سعيه وراء كل ما هو عجيب أو غير مألوف ، إلى تحريف مؤلف ما ، فلفتح التوراة اللاتينية ، سفر الخروج ، الإصحاح الثانى والثلاثين ، ونجد فيه أن موسى بعد حادثة عبادة العجل الذهبى قد أرب بقتل ٢٣ (ثلاثاً وعشرين) ألفاً من الإسرائيليين ، فى حين نجد الأمر فى النص العبرى ، وفى الترجمة السبعينية يتناول ٣ (ثلاثة) آلاف رجل ، وهو تقدير كبير مع ذلك ، وهناك خطأ آخر أكبر ، وهو الذى اقترعه المترجم نفسه حين قدر بـ ٥٠٠٧٠ (خمسين ألفاً وسبعين ) عدد سكان بيشان المخروبيين بالموت عند عودة التسابوت فى حين كان عليه أن يقول أن من بين هؤلاء الآلاف الخمسين هلك سبعون ، وقد نقلت هذه الأرقام ( ثلاثة وعشرين ألفاً ، وخمسين ألفاً وسبعين ) إلى ترجمات أخرى نقلت عن التوراة اللاتينية ، ولعلها قد تفكر ذات يوم ، قليلاً على بقعة الأعداد ؛ وهذا مثال يوضح كيف يتخذ الخطأ بتكراره ، شكل الحقيقة .

الرياح القوية التي كانت تهب في ذلك الوقت (٤٦) . وبذلك لن تعترينا  
الدهشة أبداً لأن جزءاً من المصريين قد ابتلعهم الأمواج (٤٧) .

يبلغ المد عند السويس نحو المترين ؛ وفي أوقات العواصف ، حين  
تهب بشدة رياح الجنوب ترتفع لدى يبلغ في بعض الأحيان ستة وعشرين  
ديسمترا ؛ وهذا أكثر من كاف لكي يفرق المد جيشاً كبيراً ؛ فإذا كان  
جيش المصريين لم يهلك قط بأجمعه ، وهو ما يوضحه فيما يبدو صمت  
المؤرخين النوبيين ، فيمكن افتراض أن هذا الجيش ، وقد أفرغه حجم  
الغسائر التي لحقت به ، ولأنه قد بدا يخشى في ذات الوقت أن يكشف  
نفسه في صحراء لا يعرفها بالقدر الكافي ، لم يحاول قط أن يخوض البحر  
الأحمر عند نوبة المد المنخفض ( الجزر ) القليلة .

وهكذا أمكن الاسرائيليين أن يترنموا بهذا النشيد :

- ١ - « أرنم للرب فقد تعظم ، الفرس وراكبه طرحها في البحر ؛
- ٢ - « الرب قوتي ونشيدى ، وقد صار خلاصى ، هذا الهى فاعبده ،  
اله أبى فارغمه ؛
- ٣ - « الرب رجل الحرب ، الرب اسمه ؛
- ٤ - « مركبات فرعون وجيشه ألغاهما في البحر ، فغرق أفضل جنوده  
المركبة في بحر سوف ؛
- ٥ - « أعطيهم اللجج ، قد هبطوا في الأعماق كحجر ؛
- ٦ - « يمينك يا رب معتزة بالقدرة ، يمينك يا رب تحطم العدو ؛
- ٧ - « وبكثرة عظمتك تهجم بمقاوميك ، ترسل سخطك فيأكلهم كالقش ؛

(٤٦) سفر الخروج ، الأصحاح ١٤ ، الآية ٢١ .

(٤٧) في العلم السابع من نشأة الجمهورية الفرنسية ، شاهدنا  
الجنرال بوناپرت ، وهو عائد من عيون موسى ، يريد أن يعبر البحر عند  
الخاصة الواقعة قريبا من السويس بدلا من تلمس الخطوط السكتورية  
لقمة الخليج ؛ وهو الأمر الذي يختصر طريقه لسانة تزيد على الفرسخين ؛  
حدث هذا في أول الليل ، وكان المد يعلو ، ثم ازدادت سرعة نوبار المد  
لدرجة لم يعد الانتظار معها ممكناً ؛ وتعرض الجنرال ومن معه لأمس  
الاضطرار ؛ في وقت كان معهم أدلاء من أهل البلاد .



- ٨ - « وبريح انك تراكمت المياه ، انتصبت الجارى كرابية ، تجددت اللجج فى قلب البحر ؛
- ٩ - « قال العدو اتبع ادرك أقسم غنية ، تمتلئ منهم فمضى ، أجرد سيفى ، تفنيهم يدى ؛
- ١٠ - « أنفخت بريحك غطاهم البحر ، غاصوا كالرصاص فى مياه غامرة ؛
- ١١ - « من مثلك بين الآلهة يا رب ، من مثلك معترى فى القداسة ، يخوفنا بالنسييح ، صامتا عجائب ؛
- ١٢ - « تد يمينك فتبتلعهم الأرض ؛
- ١٣ - ترشد برأفك الشعب الذى فنيته . تهدي بقوتك إلى مسكن قدسك ؛
- ١٤ - « يسمع الشعب فيرتعدون ، تأخذ الرعدة مسكن فلسطين ؛
- ١٥ - « حينئذ يندهش أمراء آدم ، اقوياء موآب تأخذهم الرجفة ، يفوب جميع سكان كنعان ؛
- ١٦ - « تقع عليهم الهيبة والرعب ، بمظلة ذراعك يسهتون كالجر حتى يعبر شعبك يا رب ، حتى يعبر الشعب الذى اقتنته ؛
- ١٧ - « تجيء بهم وتفرسهم فى جبل مراثك ، المكان الذى صنعه يا رب لمسكنك المقدس الذى هيأته يدك يا رب ؛
- ١٨ - « الرب يملك الى الدهر والى الأبد ؛
- ١٩ - « فان خيل فرعون دخلت بمركبته وفرسانه الى البحر ، ورد الرب عليهم ماء البحر ، أما بنو اسرائيل فمشوا على البلبسة فى وسط البحر (٤٨)
- هكذا كانوا يشكرون الله على خلاصهم : كانت مريم النبية ( أخت هارون ) ، وكانت نساء اسرائيل ، وقد انقسمن الى جوفات ، يكررن على صوت دفوفهن :
- « رنموا للرب فانه قد تعظم ، الفرس وراكبه طرحها فى البحر » .

فلو شاعت بعض العقول المقتدة ان تتبين معنى هذا التعبير الذى جاء فى التوراة : « فدخل بنو اسرائيل فى وسط البحر على اليابسة ، واما سور لهم من يمينهم وعن يسارهم » (٤٩) لجاءها الرد بان الامر لا يعدو ان يكون اسلوبا مجازيا للتعبير عن انهم كانوا يعبرون النهر عند مخاضة ، ولما لم يكن ينبغي لهم ان يبتعدوا لا ذات اليمين ولا ذات الشمال ، فقد كانوا محصورين بفعل المياه فى مساحة بعينها كما لو كانوا بين بحرين .  
هكذا ، ان ترائيم شاعر ما لا يصح ان تفسر بقدر اكبر من الصرامة ، كما ان الآية الخامسة من الاصحاح ١٥ والتي اوردها من قبل ، تبين لنا كيف ان المصريين قد سقطوا فى قاع البحر ، وليست المياه هى التى عاودت سقوطها فوقهم ( او انطبقتها عليهم ) (٥٠) .

وقد احتفظ الأثر لدى العربان البدو بذكرى عبور البحر الأحمر ، فنجد على شاطئه الشرقى - على بعد ثمانية عشر ألف متر الى الجنوب من النقطة التى افترض ان الاسرائيليين قد عبروها - عيون مياه تسمى حتى اليوم عيون موسى .

ويعتقد بوكوك Pococke ان العبرانيين قد خاضوا البحر تجاه هذه العيون ، ولا يعطى سنداً لقولته هذه الا ان هناك اثرا عن ذلك لا يزال موجودا لدى البدو ؛ ومع ذلك فلو كان علينا ان نصدق فى هذا الصدد ما يقول سكان الصحراء .  
لتحدد المسلك المؤدى إلى موقع العيون الذى نسالهم عنه .

ويرجع الدكتور شو Shaw بنقطة العبور هذه الى الجنوب بدرجة ابعد ، ويجعلها محددة تجاه وادى التيه ، وهناك من المؤلفين من يمتدنون ان بحرا واسما وعيقا هو الذى تتجلى فيه أكثر من غيره قدرة الاله .

(٤٩) سفر الخروج ، الاصحاح ١٤ ، الآية ٢٢ .  
(٥٠) يترتب على أخذنا تعبيرات الشعراء الاقدمين بمعناها الحرفى ان يخطط بالتاريخ كثير من الخرافات البعيدة عن كسل عقل . ومع ذلك فليست هذه هى غلطة الشعراء بقدر ما هو خطأ تفكيرنا ؛ فعبارات مثل : المليون الذى بنى طيبة على انغام قيثارته ، وأريحا التى انهضت على صوت قرع دفوف بني اسرائيل ، انما هى عبارات من السهل ان نعطيها المعنى الصحيح لها بقدر ما هو سهل ان نشرح هذا البيت من الشعر للشاعر الفرنسى بوالو Boileau : كوندنيه ، هذا الذى يكفى مجرد ذكر اسمه ، لاستشاط الحصون .

وفى مقابل ذلك ، فهناك آخرون يظنون ان بنى اسرائيل لم يعمروا البحر من شاطئه لآخر ، وانما هم — بعد ان دخلوا سريره ( مجراه ) فى حالة المد المنخفض ، انسحبوا نحو الأرض مع بدء ارتقاع نوبة المد ، مواصلين مسيرتهم فوق منحى بيفسلاوى الشكل ، من جهة المياه يؤهذا رأى لايتهض على اساس ، وانما يبرهن فقط كيف يصبح المرء عرضة للخطأ حين يعمل بحسب خياله ، وفى جهل تلم بالمواقع .

وهناك آخرون كثيرون كانوا اكثر توليها فى شرحهم عبور البحر الأحمر عن طريق المستنقعات ؛ فيتحدث أوزيب (٥١) . Eusèbe \* عن شخص يدعى أرتابانوس Artapanus قد أورد هذا الرأى ناسبا إياه لـكهان ممفيس ؛ وعندما خشى المؤرخ يوسيفوس أن يسدو روايته عن عبور البحر الأحمر بعيدة عن التصديق لدرجة كبيرة فقد قرر ان الشيء نفسه قد حدث للمقدونيين عندما عبروا بحر بافيلي Pamphylie \*\* تحت قيادة الاسكندر ، واضاف « ومع ذلك فائنى أترك لكل امرئ ان يحكم على الأمر كما يشاء » . وهذا الاعتراف من جانب أحد الاخصار ، وواحد من أكثر أعضاء الاكليروس اليهودى علما ، انما هو اعتراف ثمين للغاية لأنه يبين لنا ما كان عليه عندئذ رأى هذه الهيئة الدينية ؛ ولذلك فان لوها شديدا قد وجه الى يوسيفوس بسبب صراحته هذه ، من جانب أناس ظنوا ، برغم كونهم مسيحيين ، أن عليهم أن يبدوا أكثر منه فى يهوديته ، وهو ما يستحيل على المرء ان يأخذ به عند تراعه لهذا المؤرخ ، ومن بين المحدثين ، نجد نيبور Niebuhr ولوكليك le Clerc يحددان السويس موقعا لهذا الحدث بسبب المخاضة التى تقع امام هذه المدينة ، ولم يك بمقدور هذين الرجلين أن يعتقدا ، مثل ، أن العبور قد تم لايعد من ذلك : قليلا ، نحو الشمال ، وعند نقطة لايشتملها البحر اليوم ، لأن

(51) Procop. evang. lib IV, Cap. 17.

\* أما أوزيب فهو مطران قيسارية : وله مؤلفه ضخيم عن التاريخ الكنسى ( ٢٦٥ الى ٣٤٠ م ) ( المترجم )  
\*\* إحدى مقاطعات آسيا الصغرى قديما وهى اليوم مقاطعة ألبانيا ، وهو هنا يشير الى خليج يحمل نفس الاسم . ( المترجم )

الحدود القديمة للبحر الأحمر لم تكن معروفة لهما ، ولأنه لم تكن قد حدثت بعد أية عمليات تعديل في هذا الجزء من البرزخ ؛ وفوق ذلك فهذان الرأيان لا يخلطان شيئا بينهما الا بقدر طفيف للغاية حتى يمكن للمرء ان يتبين ، دون تفرقة، هذا الرأي أو ذلك ، فلقد كان موقع حصن هاجيروت أو الحيوث الذي ضرب امامه الاسرائيليون خيامهم ، بالإضافة الى أن البحر في الفترة المتأخرة كان في الأرجح أكثر عمقا تجاه السويس مما هو عليه اليوم — كان هذا كله هو الذي قد حسم اختيارى (٥٢) .

وهكذا رأينا ، ماهو ، في نظري، التفسير الأكثر طبيعية لعملية عبور البحر الأحمر ، فأما أولئك الذين يضعون الحدث في صف الخرافات فسوف يتفقون معنا ، على أقل تقدير ، أن يحتمل أن يكون الأمر قد حدث على هذا النحو ، وأما أولئك الذين يعتقدون بصحة وقوعه فلا تثريب عليهم ، دون ريب ، أن لم يجدوا من الضروري أن يتقلب نظام الكون كي نعرف على قدره الله في تخليص العبرانيين ، وفي الحاق الخسارة بالمصريين .

### المياه المرة تصبح مياه عذبة

« ثم ارتحل موسى بإسرائيل من بحر سوف وخرجوا الى بركة شور ، فمساروا ثلاثة أيام في البرية ولم يجدوا ماء ، فجاءوا الى مارة ، ولم يقدروا أن يشربوا ماء من مارة لأنه مر ، لذلك دعى اسمها مارة ، فتذمر الشعب على موسى قائلاين ماذا نشرب ، فصرخ الى الرب فأراه السرب شجرة فطرحها في الماء فصار الماء عذبا » (٥٣) .

لو أن موسى قد كان يعلم خاصية هذا الشجر أثناء هربه الأول الى الصحراء لظل هذا البر محفوظا لديه ( أو معروفا منه ) ، ولوجدناه

(٥٢) لابد أن البحر قد كان في ذلك الوقت ، امام السويس ، أكثر عمقا مما هو عليه الآن . مادامت كتلة الرمال التي تحول دون امتداد منحنى الشمال بحوالى خمسين الف متر لم تكن بعد عالية بالقدر الذي يكنى لابقائه داخل حدوده الحالية . انظر دراستي عن الحدود القديمة للبحر الأحمر ، الدولة الحثية ، المجلد الأول ، ص ١٨٧ . ( المجلد الثالث من الترجمة العربية ) .

(٥٣) سفر الخروج ، الإصحاح ١٥ . الآيات ٢٢ الى ٢٥ .

عند البدو الذين لهم بلا جدال مصلحة كبيرة في جعل الماء صالحا في صحراء  
تتقصر المياه الصالحة بدرجة كبيرة ؛ اذن فطينا في هذا السرد  
ان ننقل مقالته المؤرخ يوسف<sup>٥٤</sup> ، واليك نص مقاله حول هذه القضية (٥٤) ؛  
وبعد ان مشى الاسرائيليون طويلا ، وصلوا عند حلول المساء الى مكان  
يسمى مارا ، وسمى كذلك بسبب مرارة مياهه ، وحيث كانوا منهكين  
للخاية فقد وقع اختيارهم على التوقف هناك في الوقت الذي كانت  
تنقصهم فيه المؤن ، ذلك لانهم وجدوا هناك بئرا جملةتهم يأملون ، برغم  
انها لم تكن لتستطيع ان تفي بحاجة مثل هذه الآلاف العديدة ، في بعض  
الانفراج في احتياجاتهم ، كما ان هذه البئر قد واستهم ، لاصيما وقد  
قيل لهم انه لا توجد آبار مطلقا على طول طريقهم. لكن هذه المياه جاءت مرة  
حتى انه لا البشر ولا الخيول ، ولا الحيوانات الأخرى ، اكلها  
ان تشرب منها . يالها من مارقة تدمو للاسى ، قد جعلت الشعب كله  
في حالة من اليأس ووضعت موسى أمام صعوبة اليمّة وعجيبة ، فلأعداء  
الذين عليه ان يهزمهم هذه المرة ليسوا من أولئك الذين يمكن دفعهم بفعل  
بذل سخي ؛ انهم الجوع والمطش للذان قد جعلوا ، وحدهما ، هذه  
الآلاف كبيرة العدد من الرجال والنساء والأطفال يشربون على الهلاك ؛  
وفي الوقت نفسه لم يكن موسى ليعرف نصيحة ما يأخذ بها ، واستشعر  
هو آلام الآخرين جميعا باعتبارها آلامه الخاصة اذ كان الجميع يلتجئون  
اليه ، فالأمهات يستطفقنه ان يكون شغوقا بأطفالهن ، والأزواج يلتبسون  
منه ان يحنو على زوجانهم ، وكل امرئ يتضرع اليه كي يبحث عن بعض  
علاج لهذا الألم العظيم . وبينما هو في مثل هذه الحاجة الماسة اتجه  
الى الله يطلب عفوه ورحمته وأن يحيل بقدرته وفضله هذه المياه المرة  
الى مياه حلوة ، فأنشأه الله انه قد منح هذا الفضل ؛ عندئذ اخذ  
موسى قطعة من الخشب ، وشقها الى اثنتين ، وبعد ان القى بها في  
البئر قال للشعب ؛ ان الرب قد استجاب لدمواته ، وانه سينزع من  
هذه المياه كل ما فيها من مرارة او طعم غير مستساغ ، شريطة ان ينفذوا  
ما يأمرهم به . ثم طلب اليهم ما ينبغي أن يعملوه فامر اشدّهم قوة وأمتهم  
بنية بأن يسحبوا جزءا كبيرا من ماء البئر مؤكدا لهم ان الماء الذي

(54) Antiquités Judaïques, liv. III, Chap. 1.

\* يوسف أو جوزيف أو يوسيفوس ، وهي طرق ثلاث لكتابة اسم  
واحد يشير الى المؤرخ نفسه ( المترجم ) ،

سيبقى سيكون صالحا للشرب . فطاعوه ، اجنوا بعد ذلك ثمرة الوعد الذى اعطاه لهم » — عن ترجمة المسيو ارنو داندلى Arnaud d Andilly

هذا اذن هو تفسير المعجزة ؛ فمن المعروف انه بالفراغ احدى الابار ، صبح المياه التى تتبقى عادة افضل بكثير ؛ وتتطابق هذه الملاحظة مع قوانين الطبيعة ، وبغلا عن ذلك فقد واكتنا الفرصة ان نكرها مسرات عدة فى مصر ؛ ففى المناطق الصحراوية التى ائتمنا فيها بعض التحسينات ، اصبحت المياه المقللة للبلوحة ، والنتنة فى معظم الاحيان ، افضل على الدوام بعد مرور بعض الوقت على اغترافها .

### عن السحاب وعهود القار

#### وعن بعض الظواهر الأخرى المثيرة للاهتمام

هناك معجزة أخرى اخذت تتبدى للعبانيين منذ خروجهم من مصر ، وظلوا يحظون برؤيتها بعد عبورهم البحر الأحمر ؛ لقد بدا الرب لهم نهرا فى صورة سحاب ولىلا فى شكل عبود نار ؛ وعلى هذا النحو سار فى مقدمتهم ليرشدتهم الى طريقهم . . ثم يجلس فوق مظلة حين يمسكون . اليس لمة احتمال فى وجود بعض اخطاء ، او سوء فهم ، من جانب الشراح المتبحرين فى التوراة ؟ وهل يمكن ان يستدعى موسى مثل هذه الشواهد عند مسيرة العبرانيين ، ليقدمها كمعجزة ؟ الأمر المؤكد هنا هو ان القوائم تستخدم فى بعض الاحيان ، اثناء سيرها الليلية ، شعلات ضخمة يحملها الادلاء يسبقون بها الموكب ، واليكم حول هذا الموضوع ، نصننقله عن المصد ٢٤ من بريد مصر Courier de l'Egypte ، وهى الصحيفة التى كانت تطبع فى القاهرة ( اثناء الحملة الفرنسية ) :

« فى العاشر من نيفوز ، رحلنا من السويس ، واتجه الجزء الاكبر من القافلة نحو المجرد ، ومضى القائد العام وفى صحبته الجنرالات برتبيه Berthier ، ودمارتان Dommartin ، وكافاريللى Cafarelli ، والمواطنان مونج Monge وبرتوليه Berthollet — الى الطرف الشمالى الاقصى لخليج ، كى يتبينوا على الطبيعة ما ان كانت توجد أى آثار لتلك القرعة التى ترسمها الخرائط باعتبارها كانت تقيم اتصالا بين النيل والبحر الاحمر ، وفى الواقع ، فقد تم العثور على مثل هذه الآثار ، وكان اول

من تبينها هو الجنرال بونابرت نفسه . ثم سارت الفترة لمسافة أربعة فراسخ في مجرى القرعة نفسها ؛ وفي الوقت نفسه ، تمح السير في هذا الاتجاه ، ابتعدت هذه الفترة كثيراً عن العجود ، حيث كان عليهما ان تعود لتطرح ببقيّة القنطرة حيث الماء والمؤن والإطعمة ، كان الليل يقترب ، وكان موقع العجود بالنسبة لها غير معروف ؛ وقمرض من في الفترة لخطر أن يضلوا الطريق .

وصحب كل من الجنرالين بونابرت وبرثيه رجلاً فوق حصناته ، وساراً في المقدمة ، واتجها باتجاه سرعتيها نحو النقطة التي كانت تغيب عندها الشمس ، وسالاهم هذا الاتجاه لحسن الحظ الى العجود ، وأمر الثالث المسام بإطلاق قذيفة مدفع ، وباشتعال النار فوق أبراج القصر ، وبأن توضع فوق بعض النقاط العالية من الطريق الذي انتهى هو من اجتيازه مشاعل ( أو فوانيس ) من تلك التي تقروء بها القوافل على الدوام لتكون علامات على الطريق أثناء الليل ؛ وهذه الشعلات بالغة البساطة ، فالشعلة منها إسطوانية الشكل ، توضع بها نار قوية ولائمة ، إذ توجد بها قطع بالغة الجفاف من خشب السنط ؛ وهذه المشاعل مثبتة في الجزء العلوي منها بفصا يصل طولها خمسة الى ستة اقدام ، وتغرس في الأرض حين يراد التوقف ؛ فإذا شاعت القنطرة أن تسير خلال الليل ، يمشي في مقدمتها رجال عديدون يحملون شعلات مماثلة ، ويحرصون على بقائها عالية ليطلع كل مسافر نلرها .

وعند المساء ، التأم شمل الجميع (٥٥) .

سيقال ، بلا جدال ، أن ليست هذه قط شعلات تماثل تلك التي تكون السحاب وعمود النار اللذين تشير اليهما التوراة ، ذلك أننا نقرأ في التوراة ، في الآية ٢١ من الإصحاح الثالث عشر من سفر الخروج أن الرب كان يسير أمام العبرانيين . ومع ذلك فهل يتحتم علينا أن نأخذ هذا التعبير بمعناه الحرفي في حين يعرف المرء أن شعباً شديد التدخين

يجعل كل شيء من صنع الرب ، وأن الاسرائيليين ، بشكل خاص كانوا يتقبلون في الشعر ، وفي النثر ذاته ، كل المبالغ التي تتجاوز كل حد؟ ولدينا نحن ، حيث تضع اللغة الكثير من التحفظ والعقل أو القيود ، ألمنا نجد اناسا يتسمون ملائكة أو كائنات مقدسة أو مخلوقات سماوية؟ لنضع انفسنا لحظة في مكان العبرانيين ؛ اجنبي يسير على رأسنا ليهدينا السبيل في صحراء مجهولة منا ، الشبلة التي يحملها في الهواء تلقى خلال النهار دخانا ، وخلال الليل ليهيا يهتدى على ضوءه رجالنا . الامر المؤكد أن لن يكون ثمة ما هو أسط ولا أيسر من أن نقص ذلك بأسلوب يخلو من الشاعرية . ومع ذلك فعلينا ألا نواجه الامر في ذاته ، ولنتدبر نتأمله ، وعندئذ سوف نغير من لفتنا ، ولسوف نقول : كيف هبط علينا هذا الرجل في الوقت نفسه الذي نحتاج اليه فيه أشد الاحتياج؟ كم نحن محظوظون أن وهبنا إياه ! انه رجل مبارك ، انه ملاك ، انه الله !

وحيث يتعاطف كل شيء ، بالنسبة نفسها في لغة الحباسة ، تتحول الشبلة الى عمود من النار ، الى عمود من السحاب ، الى مجد الرب (٥٦) .

وما يدل على أن موسى لم يكن يريد أن يقدم هذه الواقعة باعتبارها أمرا خارقا للطبيعة انه يخبرنا بأن حماه ، هذا العبري من مديان (مدين)\* هو الذي تاد الاسرائيليين ، واليكم مائتة هؤلاء حول هذا الموضوع في سفر العدد ، الاصحاح العاشر :

آية ٢٩ : « وقال موسى لجويل بن رعوثيل المدياني ، حبي موسى ، انفسا راحلون الى المكان الذي قال الرب اعطيكم اياه ، اذهب معنا فنحن نحسن اليك ، لأن الرب قد تكلم عن اسرائيل بالاحسان ؛

آية ٣٠ : « فقال له لا اذهب ، بل الى ارضي وإلى عشيرتي امضي ؛

آية ٣١ : « فقال لا تتركنا لأنه بما أنك تعرف منازلنا في البرية تكون

انسا كميون ؛

(٥٦) أطلق القديس يوحنا على مطارنة الكنائس الاسيوية السبعة اسم ملائكة هذه الكنائس : « وقال ابن الرب اكتب الى ملاك كنيسة ايفيزوس » .

\* وهي إحدى المدن الايونية على بحر ايجه ، (الترجم).



آية ٢٢ : « وان ذهب معنا فبنفس الاحسان الذى يحسن الرب  
الينا تحسن نحن اليك »

آية ٢٣ : « فارتحلوا من جبل الرب مسيرة ثلاثة ايام وتلبوت عهد  
الرب راحل امامهم مسيرة ثلاثة ايام ليلتس لهم منزلا » .

وبالتاكيد ، فلو ان ملاك الرب كان حقيقة هو الذى يمشى امام  
العبرانيين لكان موسى فى غير حاجة الى حمية ليكون مرشدا لهم ولما  
كان وعده بالكثير من « الاحسان » - اى الثروات - ليحصله على البقاء  
بالقرب منه ،

لما هذه المبارات : ان الرب او ملائكته كانوا يقودون جيش اسرائيل  
فى شكل دخان او لهيب فيقتصر معناها على ان تلبوت العهد كان محبولا  
فى مقدمة المسيرة (٥٧) .

لما هذه الوسيلة فى ارشاد الفرق او الجيوش ، من طريق اشارات  
فارية توضع انشاء نوبات الراحة فوق خيمته القنائد ، فامر لإيخص  
العبرانيين وحدهم . فمن المعروف انها كانت مستعملة عند الفرس ، كما  
اننا سنسوف نقرأ هنا باهتمام النص التالى عند كينت - كورس .  
Quinte - Curce بسبب تشابهه الشديد مع ما جاء بالاصحاحين  
التاسع والعاشر من سفر العدد ، يقول كينت كورس عند حديثه عن

(٥٧) التلبوت عبارة من صندوق من خشب السنط تكسوه مسناتع  
من ذهب ، ويبلغ طوله ذراعين ونصف الذراع ، وعرضه ذراعا واحدا  
ونصف الذراع وبارتفاع يماثل عرضه ؛ وقد حفظت فيه الواح الشريعة؛  
ويسمى غطاء التلبوت المساندة ، ويعلموه اكليل من الذهب ، يشكل جناحاه  
المبسوطتان مايشبه مئسدين يفترض ان تجلس عليهما ذات الرب غير  
المرئية ، يفر العدد ، الاصحاح السابع ، الآية ٨٩ . وكان جانبا التلبوت،  
من ناحية الطول ، مزودين بطفتين كانت تدخل فيهما العمودان اللتان  
تستخدمان فى حمله فوق الاكتاف ، ويمكننا ان نرى فى اطلال العصور  
القديمة ، اللوحة الثانية ، المجلد الاول ، الشكل ٤ ، رسما يبرز فى جزيرة  
بيله يماثل التلبوت لدرجة كبيرة ، وهو ما سبق ان لاحظته من قبل المسيو  
لانكريه Lancret فى دراسته عن وصف جزيرة بيله ، ص ٢٧ .

✽ مؤرخ لاتينى عاش فى القرن الميلادى الاول وله مؤلف كبير عن  
فاريخ الاسكندر . ( المترجم ) .

الاسكندر : « ومنه حان يريد أن يقض معسكرا ، كانت الطبول تعطى الاشارة ، ومع ذلك ، فحيث كانت الضجة في معظم الأحيان تحول دون سماع دقات الطبول ، فقد كان الاسكندر يأمر بأن توضع على خيمته عصا يستطيع أن يلحها الجميع وأن ترفع فوقها شارة الرحيل : وكانت هذه نارا أثناء الليل وخافانا أثناء النهار » (٥٨) .

ونقرأ في الاصحاح التاسع من سفر العدد :

آية ١٥ : « وفي يوم اقامة المسكن غطت السحابة المسكن خيمة الشهادة ، وفي المساء كان على المسكن كمنظر نار الى الصباح ؛

آية ١٦ : « هكذا كان دائما ، السحابة تغطيه ، ومنظر النار ليلا ؛

آية ١٧ : « ومضى ارتفعت السحابة من الخيمة كان بعد ذلك بنو اسرائيل يرتحلون ؛ وفي المكان حيث حلت السحابة هناك كان بنو اسرائيل ينزلون » .

وفي الاصحاح المائث :

آية ١ : « وكلم الرب موسى قائلا ؛

آية ٢ : « اصنع لك بوقين من فضة ، مسحولين تعملهما فيكونان لك لمناداة الجماعة ولارتحال المحلات ؛

آية ٣ : « لماذا ضربوا بهما يجتمع اليك كل الجماعة الى باب خيمة الاجتماع » .

ولا يمكن المرء بالتاكيد أن يجد تشابها كبيرا بين عادات الامتين فيما يتصل بمسيرة فرقتهما .

معجزات اخرى كثيرة يمكن تفسيرها بشكل طبيعي مماثل لما تم مع المعجزات السابقة . كذلك فان السمان ، الذي يكون منهكا بعد رحلة طويلة يتساقط الكثيرون منه في الايدي عند شاطئ البحر ، في الفصول

نفسها التي كان العبرانيون يستخدمونه خلالها طعنا لها لهم . ونقرأ عند ديودور الصقلي أن مصريين منفين لادانتهم بالسرقة في عهد أكتيزانيس، في صحراء برزخ السويس ، كانوا ينفذون بالطريقة نفسها ، أما الآن ، فما برح يحصد من شجرات لعلها كانت في الماضي وفيرة العدد في المناطق المحيطة بجبل سيناء ، أما النار اليونانية ، فهي مثال على أن الشرقيين قد عرفوا ، في لغزات سابقة ، كيف يشعلون النار ، وكيف يستخدمونها على هذا النحو الخيف .

ومع ذلك فإن كل هذه التفسيرات لا تتعارض في شيء مع الرأي القائل بأن من المستطاع أن يكون الرب قد جاء لمساعدة شعبه ؛ فهذا الاتفاق العارض أو العجائى لأحداث موأبة ، والتي ليس بمقدور أحد أن يكرها ، يمكن أن ينظر إليه باعتباره ( في حد ذاته ) معجزة ، وفضلا من ذلك فلا ينبغي أن نتوقف عند هذا الأمر أكثر من ذلك ، ولنصل مباشرة الى تلك اللحظة التي أثار فيها الاسرائيليون ، دون جلبة ، في الصحراء ، بعد أن هزموا العماليق في رافيديم .

### الشريعة تنزل على جبل سيناء (٥١)

كانت كل الشعوب القاطنة في ضواحي جبل سيناء على يقين من أن الرب يقبهم هناك ؛ ذلك أنه يكاد ينظر الى الجبال العالية في كل مكان ، باعتبارها المقر الإلهي للالهة ؛ وهذا أمر طبيعي ، فليس هناك واحد منا لم يستشعر عند سماع هذه السكت الصخرية العظيمة شمله ، وهو أمر ينتج عنه خضوع وتأمل يهيئان لاتبعات روح الاسكار الدينية ، وفضلا من ذلك فإن الجبال تكون مسرحا لعدد كبير من الظواهر المزعمة ، التي تبدو كما لو كانت جهازا هائلا في أيدي آلهة جبارة ؛ ولقد ملأ الخوف ، بأكثر مما تملأه المفرة ، البشر أولى أفكارهم من الألوهية ، فمن قبها تندفع السيول الموحرة ، كما تتكون في باطنها وعلى شجيج الشجارات التي تزلزل وتقلب باطن الأرض ، الأحجار المتهبة ، والمعادن المنصهرة التي تبطح المعدن وتدمرها حين تخرج في شكل شواظ من ثار

---

(٥١) يسمى العرب هذا الجبل باسم جبل موسى .

وانهار من حمم ؛ كذلك ، على ذراها ، ترمجر الرياح العائيات ، وتتراكم السحب التى تتخذ من الأشكال مايبحث على الرهبة ، وتتفجر الرعود الهائلة وسط البروق التى تبدو وكأنها ستصقق الوديان (١٠) .

على مشهد عاصفة مماثلة ، اراد موسى ان يصدم خيال الاسرائيليين حتى ينتهى باقتناعهم بصحة تلك العلاقة القائمة بينه وبين الرب ، لم تكن سماء مصر قد قدمت لهم من قبل ، شيئا شبيها بذلك ، فهى تتوهج بالضوء الباهر اثناء النهار ، وباجل لون لازوردى اثناء الليالى الهادئة ، ولا تحجبها قط اية سحب معتمة ؛ وفى الربيع فقط نرى بعضا من سحب بلغة الارتفاع تدفعها بسرعة ريح الشمال ، لتضئ سريعا كى تتراكم فوق جبال الحبشة العالية ، حيث تتحول الى امطار ينشأ بسقوطها عدد لا حصر له من الأخوار التى تصب فى النيل مكونة فيضان هذا النهر . اما الخماسين أو الريح المسمة ( ريح السموم ) ، بدوامتها الترابية الملتبها واعيدتها الرملية فتعكر وحدها صفو الجو ، ومع ذلك ، وبخلاف انها لا تهب على مصر الا مرة أو مرتين على مدار العام لمانها هناك ضئلة أو مؤذية اكثر منها مفزعة ، فهى تمارس على الحيوانات والنباتات اثارها الضارة ، وتسبب امراضها ، بل قد تقتلها احيانا ، فان ذلك يحدث فى معظم الأحيان بالطريقة التى تحدث بها آثار السموم ، تلك التى تعمل دون جلبة ، دون عنف ظاهرى ؛ وبالإضافة الى ذلك ، فبماكانسا ، ان نحكم عليها بدوامتها تلك بانها بنت الأرض اكثر منها وليدة للسماء ، لذلك

---

(٦٠) عنقما قرأت فى المجمع العلمى بالقاهرة ، فى السادس عشر من برومير من العمام التاسع ، مذكرتى هذه عن عبور الاسرائيليين للبحر الأحمر ، وعن اقامتهم عند سفح جبل سيناء ، أعلنت ان هذا الجبل يمكن ان يكون بركلتا خليدا ؛ فالأحجار البركانية الضخام التى كانت رابقتها فى صابورات السفن ( الصابورة : تثل يوضع فى سفينة لحفظ توازنها ) عند مدينة الطور تلك التى كانت تصل الى النوبس والقصر ؛ كما ان الوصف الذى يعطيه موسى للحظة تجلى الرب فوق جبل سيناء قد رجحت عندى هذا الراى ؛ وبعد وقت من قراءة دراستى توجه اثنان من رفاق رحلتنا هيسا السيدان كوتل Couelle وروزيير Rozière الى كهف فى جبل سيناء ، وتبين لهما ان الجبل جرانيتى وليس به أى اثر لبركان ، ومع ذلك فان الأعاصير او العواصف ، تتفق بنفس القدر مع مايمكن أن تحدثه ثورة بركانية كذلك التى جاءت فى رواية موسى .

فمنح نعمتد أن تقدماء المصريين قد اتخذوا منها رمزا للقدوة السنية . وعلى هذا يكون من السهل علينا أن نتصور كيف كان العبرانيون مأخوذون بفعل رعب ديني عند أول مرة يرون فيها البروق تشق ظلمات السحب ، ويسمعون فيها هزيم الصواعق تموق الجبال العالية ، تتزايد أصداؤه وتمتد لأبعد مدى تمتعساته (١١) . وفي الواقع فإن السحب تقدم لمن يرصدها أشكال شياطين بالغة الغرابة ، كما أن حركتها ، وأشكال المسخ التي تقدمها قد أفزعته في معظم الأحيان والهيبت خيال الضعفاء من الرجال أو جهالهم ، فقد رأى بعض فيها علامة على غضب السماء ورأى آخرون فيها ألتهنم ذاتها أو أرواح أجدادهم الهائلة ، أما الرعد ، فقد جعلت منه كل الشعوب سيد السكون ، وهما نحن نرى ، برغم تقدم العلوم والفنون الذي يهينه التعلم ، أن كثيرا من الناس يبحرخوا يفسافونه بأكثر مما يخافون الأخطار الوشيكة أو الداهية ، والسبب في ذلك بالغ البساطة : أن من الممكن لنا أن نصارع ضد هذه الأخطار في الوقت الذي لا نملك فيه وسيلة ما لدرء أخطار الرعد . وزيادة على ذلك ، فكل ضجة هائلة تولد الأحساس بوجود قوة عظيمة ، كما يجعل منها الخيال صرخة غضب هائلة تصدر من كائن عظيم وقادر في حالة غضب وهياج .

لقد ظل موسى لوقت طويل يرمى تطعان حبيه فوق جبل سيناء . وهناك كان شاهدا على ظواهر وأشكال مسابية شكلتها الرعود والعواصف فوق هذا الجبل الشامخ : ويلا ريب فإن ذكرى ما كان هذا الرجل المساهر قد استنصره منها هي التي دفعتة الى استغلالها في تحقيق ما يرى .

وننقل هنا نصا خريفا من جزء من الأصحاح التاسع عشر من سفر الخروج :

آية ١ ، ٢ : في الشهر الثالث بعد خروج بني اسرائيل من أرض

(٦١) أثناء قرابة نحو أربع سنوات قضيتها في مصر ، لم أسمع سوى مرة واحدة صوت الرعد ؛ ومع ذلك فقد كان هذا الضنوت ضعيفا حتى أن كثيرا من الأشخاص ، ممن كانوا معي ، لم يلجأوه قط .

مصر ، فى ذلك اليوم جآءوا الى بركة سيناء ؛ ارتحلوا من رمديم وجآءوا الى بركة سيناء فنزلوا فى البرية . هناك نزل اسرائيل مقابل الجبل ؛

آية ٣ : « ولما موسى فصعد الى الله ، فساداه الرب من الجبل قائلا : هكذا تقول لبني اسرائيل ؟ »

آية ٧ : « فجاء موسى ودعا شيوخ الشعب ووضع قدامهم كل هذه الكلمات التى اوصاه بها الرب ؛

الايات من ٨ الى ١٢ : « فاجلب جميع الشعب معا وقالوا كلمائكم به الرب فنعل ، فرد موسى كلام الشعب الى الرب ؛ فقال الرب لموسى ها انا آت اليك فى ظلام المسحط لكى يسمع الشعب حينما اتكلم معك فيؤمنوا بك ايضا الى الابد ، واخبر موسى بكلام الشعب فقال الرب لموسى اذهب الى الشعب وقدمهم اليوم وغدا وليفسلوا ثيابهم ؛ ويكونوا مستعدين لليوم الثالث . لانه فى اليوم الثالث ينزل الرب امام عيون جميع الشعب على جبل سيناء ؛ وتقيم للشعب حدودا من كل ناحية قائلا احترزوا من ان تصعدوا الى الجبل ان تمسوا طرئه . كل من يمس الجبل يقتل قتلا . »

وفى واتح الأمر ، فليس من المسير ان يتنبأ بحدوث الرعد قبل موعده ببضع ساعات (٦٢) ؛ فالبحارة ومكان الجبال العالية يبرهنون لنا كل يوم على صحة ذلك اذا تحملهم غريزة البقاء على ان يلاحظوا بعناية كل نذر الظواهر الجوية التى يخشونها ، وقد تطلب الأمر من موسى — وقد عمل لمدة طويلة راعيا فوق جبل سيناء — ان يقوم هناك بتأملات

(٦٢) تنضح نذر الثورات البركانية كذلك ، وبطريقة تكاد تكون شبه مؤكدة ، عن طريق توهج المستنقعات والابخرة التى تحمل روائح كبريتية وكذلك عن طريق الهواء الثقيل والحر ، والاصوات تحت الارضية وجفاف الآبار ، ونقص — وفى بعض الاحيان التوقف التام — للدخان الذى يتصاعد عادة من فوهات البراكين القديمة ، وكذلك عن طريق الفزع الذى يتلك الحيوانات فتعبر من قلعها بصرخانها وسيرها المتخطب والقلق ، وتلعل الطيور نفس الشيء فتطير هنا وهناك — هذه كلها علامات على قرب حدوث العواصف او الأعاصير او الزوابع ، كما اثبتها فى الوقت نفسه نذر بحدوث هذه الكارثة الرهيبة ( ثورة البراكين ) .

وملاحظات مماثلة . أما عن الفترة المحددة والتي تبتمدد قليلا عن الأيام الثلاثة التي حددها موسى في الآيات من ١١ الى ١٥ فإن علينا أن نعتقد أن موسى ، عند حديثه الى العبرانيين ، كان يعطى لكلماته غموض الوحي القائم بالوساطة بين النفس وبين الرب ، والذي يكرر ذلك دون أن يصيبه الفشل ، وإن كان يدون نبوءاته ( الغائضة تلك ) — ما إن تبشئ الحوادث ، بطريقة واضحة محددة (٦٢) .

ونواصل مرة أخرى النقل عن الإصحاح التاسع عشر من سفر الخروج :

آية ١٦ : « وحدث في اليوم الثالث لما كان الصباح إن صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل وصوت بوق شديد جدا فارتعد كل الشعب الذي في الحلة ؛

آية ١٧ : « وأخرج موسى الشعب من الحلة للقاء الله ، فوقفوا في أسفل الجبل ؛

آية ١٨ : « وكان جبل سيناء كله يبخ من أجل أن الرب نزل عليه بالنار . وصعد دخانه كدخان الأتون ، وأرتجف كل الجبل جدا » .

الآيتان ٢٠ ، ٢١ : « ونزل الرب على جبل سيناء الى رأس الجبل ، ودعا الله موسى الى رأس الجبل فصعد موسى ؛ فقال الرب لموسى انحدر حذر الشعب لئلا يقتحموا الى الرب لينظروا فيسقط منهم كثيرون » .

السنا نضع أيدينا الآن على وصف بالغ الحقة للرمز ؟ ألسنا نرى كم كان موسى يخشى أن يلقى أحد أبناء شعبه ليجده وسط السحاب التي تغطي قمة الجبل ، لكنه لن يجد هناك الرب المتحسس الذي أصطنع له نكاح موسى وحكمته ، وتبليغ هؤلاء للإيمان والتصديق مكانا هناك .  
وأما موسى فقد اقترب الى الشباب حيث كان الله ، هكذا تخبرنا الآية ٢١ من الإصحاح العشرين من سفر الخروج .

---

(٦٢) انظر بالانضمام الى ذلك ما سبق أن ذكرناه في الجزء الخاص بعبور البحر الأحمر من نشر الإستغفار .

ويتعرف المرء كذلك - ولا يزال - في هذا الاصحاح نفسه على الدوافع التي حدثت بموسى ان يقود الاسرائيليين الى جبل سيناء، اذ يقول لهم : « انه الله انما جاء لكي يمتحنكم ولكي تكون مخافته امام وجوهكم حتى لا تخطئوا » .

« انتم رايتم اننى - اى انا الرب - من السماء قد تكلمت معكم » \*

وبعد ذلك ، وبعد ان منع موسى ان يتنصه احد ، ذهب فوق الجبل ، وامضى هناك اربعين يوما ، وخط خلال هذه العزلة لوحي الوصايا وتقدمها الى الشعب باعتبارها حسب قوله « المكتوبين باصبع الرب » \*

وبهذه الطريقة نفسها فرض غالبية المشرعين الاحترام الكبير لشرائعهم ؛ نوما Numa يستلهم حورية الماء والفساد ايجريا ، والملك جبريل يلى القرآن على محمد ، ومانكو كاباكا Manco Capac يتحدث باسم الشمس ، وليكورج ، نفسه ، حتى ليكورج Lycrgue الحكيم يبحث عن دعم لشرائعه في وحى معبد دلفي ، ان هؤلاء الرجال العظام ، الاكبر مهارة والاكثر علما من عامة الناس \* \* \* يفيدون من ظواهر الطبيعة المعروفة لهم جيدا كي يحيطوا انفسهم بالمهابة والقداسة . السنا ترى كريستوف كولومبس ، في زمن اكثر حداثة ، وحين كاد يهلك جوعا ، ينفذ البسطاء ، سكان جامايكا ، بانهم ، ان لم يجلبوا الاطعمة الى معسكر الاسبان ، فسوف تعاتبهم يد الله ، ثم حدث كيبوف الشمس الذي كان يتوقعه فخر القوم سجدا من الرعب ، واطاعوه .

---

\* اقتباس من الآيتين ٢٠ ، ٢٢ من الاصحاح العشرين من سفر الخروج . ( المترجم )

\* \* \* سفر التثنية ، الاصحاح التاسع ، الآية ١٠ ( المترجم ) .

\* \* \* ينظر المؤلف الى الجميع بلا استثناء باعتبارهم مشرعين وبذلك يطبق فكرته على المشرع الحقيقي والمشرع المفترض وجوده وكذلك الانبياء . وفكرته هنا تعبئية لا تعصى حدد ، قد تصلح دليلا على حنقه هو ولكنها لا تعد دليلا على صدق ما يذهب اليه . وقد وضع من سياق مقاله قلة معركته - ويكاد يكون جهله - بالاسلام وتبنيه العظيم . اما السخني فيشير اليهم هنا فهم :



حقا ! ان طفولة الشعوب تمتلئ على الدوام بالمعجزات. (١٤) .

٣ = نومة Numa : ثلثى ملوك روما كما تحكى الأساطير ( ٧١٤ - ٦٧١ ق.م ) وكانت السلطة في ذلك الوقت في يد الرؤساء أو السيناتوريين ، لها الملك فكان يقوم بدور الكاهن الأكبر . ولكن يلزم شعبه وقومه الهجى في ذلك الوقت بالأخلاق القوية وجد أن من الضروري له أن يبدو في صورة من يستلهم كلماته من غير حكمة البشر فلادعى انه يلتقى في الليل بالجزياء الحورية المقدسة التي تلهمه الرشد والنصيحة ، وأفلح بذلك في توحيد دين قبائل روما وتوحيده وجدة الدولة وزاد استقرارها .

ماتكو كابكا Manco Capao : مؤسس امبراطورية بيرو ولول ملوك الإنكا ؛ عاش في القرن العاشر الميلادي .

ليكورج Lycurgue يقول عنه هيرودوت انه ابن عم الملك كاريولوس ملك اسبرطة ، تلقى من الوحي في ثلثى بعض مراسيم يراها البعض قوانين ليكورج نفسها ويراهم آخرون تصديقا ربانيا على قوانين ليكورج . وقد وجد باعتباره مشرعا أن أفضل طريقة لتغيير عادات الناس القائمة ولادخال عادات جديدة أن يقدم قوانينه باعتبارها أوامر من عند السماء . وفي حين يجزم بعض المؤرخين بأنه واضح قوانين اسبرطة يرى كثيرون انه شخصية خيالية ، ولعل هذه الشرائع لم تكن من وضع رجل واحد بعينه ، ولكنها طائفة من العادات تحولت الى قوانين وسنيت باسم الفخفس الذي قام بجمعها وتوثيقها . ( المترجم ) .

(١٤) ليس هناك ما هو أسهل من خداع الطبقة الدنيا من الشعب عن طريق المعجزات مزعومة حتى عند الشعوب المتحضرة . ألم يهرع القوم في إيطاليا في أيامنا هذه ، لحيطوا بصورة العذراء المقدسة التي كانوا « يرونها » وهي تحرك عينيها ؛ ولهذا السبب لم يكن القسوسة يكفون أنفسهم عناء تحريك أى جهاز لاتمام « المعجزة » ؛ كانوا يكتفون بالقول : هل ترون ؟ ويجب الجميع . نعم . نحن نرى .

وكم يكون الخيال قادرا على الخلق !

بعد أن سار الاسرائيليون لبعض الوقت على غير هدى ، وعلى طريقة  
العربان ، فى المناطق المحيطة بجبل سيناء ، حاولوا التوغل فى اراضى  
مصروريا الى الغرب من البحر الميت .

كان موسى قد استنهض عزيبتهم مخبرا اياهم ان الرب قد اعطى  
لفنسل ابراهيم ارض كنعان . ومع ذلك فقد رفضوا . عند وصولهم الى حدود  
هذه الدولة ان يمضوا لابعد من ذلك فقد افزعتهم تقارير جواسيسهم ، ثم  
عادوا فطلبوا ان يدخلوا المعركة بعد ان استنفرتهم ملايكات موسى ، وحدث  
هذا الرجل الذى كان شاهدا على ما ليدوه من فزع منذ وقت قصير انهم  
سيهزمون لو تجلسوا على الهجوم برغم منعه اياهم من ذلك ؛ ولم يستمعوا  
اليه ، وحالت بهم الهزيمة التامة (٦٠) . وادرك موسى من هزيمتهم تلك ،  
ومن عصيانهم الذى تفجر قبل ذلك بقليل ، ان الاسرائيليين ، لم يسبحوا  
بعد ، مضرسين بالقتال ولا منظمين بالتقدير السككى حتى يمكنهم ان  
يستقروا بالقوة القاهرة فى ارض السوريين ؛ فانتظر فى الصحراء  
ثمانية وثلاثين عاما حتى مات غالبية العبرانيين الذين ولدوا بمصر . ولقد  
سمعهم مرات عديدة يأسفون على قيودهم ، وشعر كم هو عسير ان يولد  
روحاً قومية لدى رجال ربما كانوا ينتمون لأجناس متفرقة ، وولدوا فوق  
ذلك فى اغلال العبودية . واستغل من جانب كل هذا الوقت فى تطويعهم  
لشرائع تتناسب مع اوضاعهم وما يهدف هو اليه . ولقد نجح فى ذلك .  
وحين يتخيل المرء صعوبة هذه المحاولة من جانب موسى ، فانه يجد مايفريه  
على أن يضع هذا المشرع فى مقدمة كل المشرعين الآخرين ، ليس فقط  
لأنه انتزع عبدا من سلاطنتهم وانما — كذلك — لأنه جعل منهم امة شهيرة  
غير قابلة للنفاء ، واذا كتبت فتوحاته وفتوحات من خلفه لا يمكنها من  
ناحية الانتعاش والاهمية ان تتأثر بفتوحات محمد وخلفائه ، فى ظروف تكاد  
تكون متشابهة ، فقد تم الامر على هذا النحو لأن موسى كان يجابه فى  
لزمته اما قوية وشعبا مضرنة بالقتال تشغل ارض مصروريا وفارس

ومصر وبلاد العرب ، أما عند ظهور محمد ، فقد كانت امبراطورية الرومان العملاقة وكذلك امبراطورية الفرس قد بليتتا من القدم بعد ان اقتسمتا العالم ، وكانت الشعوب التي اخضعها هؤلاء والتي سُميت اغلالها تظن انها تحطم اغلالها بانتقالها من سيطرة سيد قديم الى ايدى سادة جدد \* بذلك فان موسى كى يخلق من عبود دولة متباعدة قد اضطر ان يوحى اليهم بالهلع من الاجانب وهو شعور ظلوا يحملونه بين جوانحهم حتى انهم يفضلون ان يستاصلوا شاة عدوهم عن ان يهزموه ، بل انهم يزعمون المعتنقين الجدد لدينهم حتى فى ذرايعهم ، فلا يعطون الا للجيل المباشر من هؤلاء الحق فى دخول جباة الرب . فى حين ان محمدا ، بعد ان اخضع للاسلام كل العرب — وكان لدى هؤلاء شعور قوى بالغ الوضوح منذ زمان بعيد ، قد امكنه ان يستخدم القوة والانتعاج لحشد انصار جدد مالمحا اياهم كل الحقوق المقررة للمؤمنين القدامى ، وبهذه الطريقة ضاعف قواه الظاهرة بجنود من الامة التي فتحها \* \*

وقد عكف موسى ، كما سبق لنا القول ، لاكثر من ثمانية وثلاثين عاما منذ انتصار السكتانيين (٦٦) ، على تطويع العبرانيين لشرائعه، وفى النهاية حاول من جديد ان يستقر فى مسورية ، وزحف نحو الشرق من البحر الميت ، متخذا هذه المرة ، طريقا مختلفا عن الطريق الذى كان قد اتبعه عند جلسته الاولى ، متجنبيا فى كل الاحوال ان يمر بأرض ملك ادوم الذى كان يخشى بآسه (٦٧) ، وضمن موسى لنفسه ، من هذه الفاحية دمم او على الأقل حيدة كثير من المشائر حين اذاع ان العبرانيين يشتركون معهم فى اصل واحد ، وحين وعد باحترام املاكهم وبلان يدفع حتى ثمن المساء الذى سيشر به هو وقومه عند عبورهم بلادهم (٦٨) .

\* لا يمكن اى منصف ان يقبل هذه الانكار على اطلاقها ، بالاشارة الى ان الكثير مما جاء فى كلايه مردود عليه ولا يمكن تفسيره الا بالتجاهل او تجاهل معطيات التاريخ ، وهو امر يؤسف له من جانب رجل يتسم بروح متحررة ، وباطلاع واسع . ( المترجم ) .

\* وهكذا تحول الميزات والفضائل الى عيوب وماخذ عند من يرون التحامل على الاسلام بآية وسيلة ( المترجم ) .

(٦٦) سفر التثنية ، الاسحاح الاول ، الآية ٤٦ ؛ والامتناح الثانى ، الآية ١٤ .

(٦٧) سفر العدد ، الاسحاح العشرون .

(٦٨) سفر التثنية ، الاسحاح الثانى .

وعندما شنت عليه معارك أثناء مسيرته ، فقد انتزع انتصارات عديدة لا بأس بها ، واستولى على منطقة جصية تقع الى الشمال من نهر الأردن ؛ وهنالك ، حيث شعر بقواه تخور ، شاء أن يجعل من موته أمرا مغيذا في تحقيق مآربه ، فأعلن للشعب أن الرب قد رفض أن يدخله الأرض الموعودة لأنه قد شك مرة واحدة ، واحدة فقط ، في قدرته \* وأعلن باسم الرب الخالد أن يشوع بن نون قد صار خليفة له ؛ وبعد أن صعد موسى جبال عباريم ونبو أشار بيده للعبرانيين الى الأرض التي سيكافئهم بها الرب جزاء فضائلهم ولا سيما عقيدتهم الدينية .



وهناذا استحضر صورة هذا الرجل المسن ، الجدير باسمه ، في ملامح موسى الذي رسمه ميكل انجلو في كنيسة القديس بطرس ، في روما ؛ جبهته التي جعلتها السنون لا تتم الا عن الهدوء ، أما عيناه فتحتفظان ببريقهما مع القدر الأكبر من الرقة والحنو ؛ ولقد احترمت يد الزمن عظمة تقاطيعه ، أما أسنانه البيضاء كالعاج (٦٩) فتظلها حياة كثيفة تسدلى فوق صدره ، هذا هو يمشي ببطء ولكن في ثقة ، أما شحوب لونه ونظراته الشائخة الى السماء فتنبئ بوحده أنه تارك الأرض كي يذهب الى مقام أكثر قداسة ؛ يحيط به المقاتلون والنساء والأطفال ؛ بل والعبيد ، كلهم تلقون ، لكنه بصوته الملمم يثبنا لهم بأقدارهم التي يحملها لهم المستقبل ، ويباركهم ؛ ويجثو الشعب على ركبتيه ؛ وحين يعلن لهم عن موته الوشيك يتفجر النحيب وتتساقب الدموع ؛ في كل مكان ؛ ويقول لهم كلمة الوداع الأخير ثم يتقدم ؛ يندفع الناس ليتبعوه ؛ لكنه بحركة واحدة من يده الخائرة يلزمهم ؛ أملاكم ؛ من يتجاسر على عصيان

\* نقرأ في التوراة : « فقال الرب لموسى وهارون ، من أجل أنكما لم تؤمناني حتى تقدستاني أمام أعين بني إسرائيل ، لذلك لا تدخلان هذه الجماعة الى الأرض التي أعطيتهم إياها » سفر العدد ، الأصحاح ١٤ ، الآية ١٢ .

وكذلك : لأنكما خنتانني في وسط بني إسرائيل عند ماء مرية قادش في بيرة حين إذ لم /تقدستاني في وسط بني إسرائيل فانك تنظر الأرض من قبلاتها ولكنك لا تدخل الى هناك ، الى الأرض التي أعطيتها لبني إسرائيل » .  
سفر التثنية ، الأصحاح ٣٢ ، الآية ٥٢ . ( المخرج )  
(٦٩) « وكان موسى ابن مائة وعشرين سنة حين مات ولم تكن عينه ولا ذهبت نظارته » سفر التثنية . الأصحاح الرابع والثلاثون ، الآية ٧ .

هذا الرجل الذى اصطفته السماء فى اللحظة نفسها التى يذهب فيها كى يتحد بالذات الخالدة ؟ ولم يره أحد بعد ذلك يعاود الظهور ، أما يوشع المخلص الوحيد لما كان يهدف اليه ، وكذلك بلا ريب لقراره الأخير ، فيسود الاسرائيليين من جديد فى عربات موآب حيث يظنون بكونه ثلاثين يوما ؛ مشرعا وثيبا وأبا .

ومع ذلك فلن أمضى لأبعد من ذلك فى بحثى ، فالجيل الذى عبر الأردن كان غريبا عن مصر ، وقد لا يتصل تاريخه بتدر كاه بخطبة هذا المؤلف \* لكننى اختتم بهذه الفكرة ؛ إن كل ما انتهينا الى استخلاصه من الأسفار الخمسة إنما هو احتمال وتريب كذلك من المسحة ، ويتطابق أو يتفق بشكل تام مع روايات المؤرخين الفنيقيين لدرجة يستحيل معها أن تكون هذه الأحداث أسطورة كما شاء بعض أن يزعم ذلك بقل خيال عزرا أو حلقيا \* \* \* الذين كانوا يعملان خيالهما لتقصيد سياسية ودينية . فضلا عن ذلك فلعل هذين الجدين اليهوديين قد اصطنعا — مع ذلك — للعبانيين اجدادا أثريا وأقوياء ، ولعلهما قد تمرا حديقتهما على الانتصارات وليس عن الهزائم ؛ فحين يخرع انسان ما تاريخ أمة ؛ كان الكبرياء القومى هنا هو الذى يملئ عليه كل جملة يقولها .

#### \* وصف مصر .

\* \* \* Esdras أو Helcias ونلمس هنا خلطا فى الأسماء وتعب فيه المؤلف ، فنحن فى الواقع بصدد رجل واحد هو عزرا بن سرايا بن عزريا بن حلقيا ، أحد مصطلحي وباعلى القومية اليهودية عند نهالية الأمر البابلى ، وهو كما تصفه التوراة « كاتب ماهر فى شريعة موسى » ، عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد وهو حفيد الكاهن الأكبر الذى كان نبوخذ نصر قد أمر بإعدامه بعد استيلائه على اورشليم ، وبعد عودة اليهود من الأسر ، بعد أن سمح لهم بذلك الملك كورش أصبح حاكما للجودية ، وظل صاحب نفوذ قوى على قومه ، وقد أمرهم بالتخلص من زوجاتهم غير اليهوديات باعتبارهن « من شعوب الرجاسات » وأن عليهم ألا يتزوجوا أبدا بأجنبيات كى لا يزيديا « على أمم اسرائيل » . ويرى بعض المؤرخين أنه هو واضع « أخبار الأيام الاول » و « أخبار الأيام الثاني » التامين لسفر الملوك الذى قام هو كذلك بوضعه ، كما يقال أنه قد غير الكتابة العبرية القديمة واستبدل بها الحروف العبرية الحديثة وهى نفسها الحروف الكلدانية ( المقترجم ) .



الدراسة العاشرة :

# حصار للقبائل العربية التي تقطن بين مصر وفلسطين أسير جويير

العنوان الأصلي للدراسة هو :

حصار شامل للقبائل العربية التي تقطن بين  
مصر وفلسطين ابتداء من خان يونس وغزة  
حتى نهر الماصى ، والجزء الشمالى من  
الصحراء التي تفصل مكة عن سوريا .

أصبحت اليوم تقاليد وعادات العرب الذين يهيمنون منذ زمان لاتعميه  
الذاكرة فى صنجراوات مصر وسوريا ، معروفة بشكل كاف ، ولقد نقل  
الينا مؤرخو وفلاسفة وجغرافيو العصور القديمة ، فى هذا الخصوص ،  
تفاصيل لاتختلف فى كثير من تلك التى نقرأها فى مؤلفات الرحالة المحدثين ،  
لكن الاسماء الحالية للقبائل وقوتها العسكرية المفترضة ، والأماكن التى  
تقطنها ، لا توجد فى أى مؤلف من هذه المؤلفات ، بكل التحديد والدقة  
المرفوبين .

وإذا لم نول بالآلا للظلام الدامس الذى يبدو وكأنه مقدر على هذه  
المسائل نصف المتوحشة ، وانعدام اتصالاتنا بهم ، فقد يبدو أمرا ضئيلا  
الاهمية فى الواقع أن نتعرف على كل الخصوصيات الماسة بهم ، اللهم  
الا إذا كان من شأن هذه الخصوصيات أن تلقى بصيصا من الضوء على  
جغرافية صحراواتهم بحيث تصبح بذات فائدة للرحالة الذين يأتون من  
بمعدنا ، ذلك أن العرب ، وهم بطبيعتهم متعجرفون ومتفطرسون ،  
لايرحبون الا بأولئك الذين يقدرونهم ويحترمونهم ، خاصة ، أولئك الذين  
يعرفونهم ، لذلك فقد ظننت أن حصرا لهذه القبائل العربية ، أى لهذه  
الجماعات الرحل التى تقطن البلاد الواقعة بين نهر النيل ونهر العاصى ،  
لن يكون أمرا عديم الجدوى . ولكى يكون لهذا العمل ، ذلك النوع الوحيد  
من التقدير الذى نرجو أن يناله ، فقد قارنا بعناية ثائقة هذه المعلومات  
التي هيأها لنا رجال من أهل البلاد لاجئين الى فرنسا بتلك المعلومات التى  
جمعت فى نفس أماكن حدوثها أثناء الرحلتين المختلفتين ( اللتين قمنا  
بهما ) ، وقد دونا أسماء الأعلام بالحروف العربية والفرنسية ، وتنادينا  
بشكل خاص أن ندرج ، سواء فى العمود الخاص بالاسماء ، أو بالعمود  
الخاص بالملاحظات كل ما قد يكون عرضة لعدم الدقة وكل ما قد يكون  
هدامة للتشكك .



**بيان بالتبطل العربية**  
**في مصر السفلى**

اسم القبيلة	أماكن إقامتها	العدد المقترض
عرب الترابين أو ترابين	وادي القبة ، ضواحي غزة وبخاصة المنطقة المسماة دير القين	٥٠٠ فارس
عرب السواركة	نفس الصحراوات حتى جبل الطور	مجهول
عرب الطور	تسكن هذه القبيلة كما يوحى بذلك اسمها ضواحي جبل الطور	٤٠٠ فارس
عرب محارب أو نفيعات	ضواحي بلبيس والقرين	أكثر من ٤٠٠ فارس
عرب النهابنة عرب الطرابنس عرب بن البرائق	تسكن هذه القبائل الثلاث الضواحي الرملية والقلعة لخان يونس	من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ فارس
عرب الحناجرة	المحراء الى جنوب خان يونس	العدد مجهول

المصادر والمراجع	ملاحظات
استخدمت هذه المعلومات بمعرفةنا ومن نفس الأماكن التي توجد بها القبيلة .	كانت هذه القبيلة التي يعرفها كل من زاروا مصر في الأرمينية الأخيرة ، أكبر محددات فيها مضي عما هي عليه الآن . فهي واحدة من تلك القبائل التي عانت من غضبة على بك عندما عزم هذا الزعيم المملوكي على تخليص مصر من العريان .
هذه المعلومات مستمدة من مذكرات في حوزتنا وصلت إلينا عن طريق الرحوم ميخائيل صباغ الناسخ العربي بالمكتبة الملكية .	هذه القبيلة هي تحالف مع القبيلة السابقة ، وكان اسم شيخها في عام ١٧٩٩ يسمى ابن معوى .
من معلومات استخلصناها بمعرفةنا من نفس أماكنها ومذكرات د. روناليد أعدت حديثا ونشرها مايو Mayeux	ينقل عرب الطور إلى القاهرة الفصح وفواكه هذا الجبل وكذلك بعض سلح الهند القادمة عن طريق السويدس .
من معلومات استخلصناها بمعرفةنا من نفس أماكنها ومن مذكرات ميخائيل صباغ .	لا ينبغي أن نخلط بين هذه القبيلة وقبيلة أخرى تحمل نفس الاسم وسنتناولها فيما بعد .
من مذكرات في حوزتنا نقلها إلينا السوري خليل مسعد .	على الرغم من أن هذه القبائل تابعة لحكومة غزة إلا أنها تعتبر قبائل مصرية بسبب رحلاتها المتعددة إلى القاهرة . وفي عام ١٧٩٩ لم يكن لها سوى شيخ واحد يسمى أبو شكال وحيدى .
شرحه	. . . . .

اسم القبيلة	أماكن إقامتها	العدد المفترض
عرب القطاف	ضواحي القاهرة ، إلى مسيرة يوم من شرق الجنوب من هذه المدينة	٦٠٠ فارس على الأقل
عرب البساطين	على بعد ثلاثة فراسخ من القاهرة	تليو العدد
» الحويطات	تجاور القبيلة السابقة	٤٠٠ فارس
» الصوالحة	ضواحي العريش وإلى الشمال منها	٤٠٠ فارس
» نصف حرام	ضواحي بحيرة صغيرة تسمى بركة الحج بالقرب من القاهرة	٥٠٠ فارس
» البيصار	ضواحي مصر المتينة	٣٠٠ فارس
» المعايدي	ضواحي القاهرة ، إلى مسيرة يوم إلى الشرق من المدينة	١٠٠٠ فارس
» الصبيلية	على مسيرة يوم ونصف من القاهرة إلى الصحراء	٦٠٠ فارس
» نصف سمعد	نفس المكان	٣٠٠ فارس
» بلى	شرحه	٣٠٠ فارس
» الزناتى	شرحه	٢٠٠ فارس
» الطيللات	وادي يحمل نفس الاسم كانت تهر به فيما مضى ترعة السنويس المسماة خليج أمير المؤمنين	٥٠٠ فارس

ملاحظات	المصادر والمراجع
. . . . .	من مذكرات الرحوم ميخائيل صباغ .
. . . . .	شرحه ، وكذلك من مذكرات الدكتور روفائيل .
كانت لهذه القبيلة علاقات كثيفة مع الفرنسيين	من معلومات استخلصناها بمعرفتنا من نفس أماكنها .
المواالحة متحالون مع القبيلة السابقة . وكان شيخها الذي تعرفنا به شخصيا في عام ١٧٩٩ يسمى الشيخ محمد بن صالح .	شرحه
. . . . .	
يجد المرء بالمثل عربا يحملون نفس الاسم بالقرب من أهوام الجيزة .	شرحه ، ومن مؤلف المسيو مايو Mayeux
تنقسم هذه القبيلة الكبيرة العدد الى فروع كثيرة أسماؤها مجهولة لنا .	من مذكرات ميخائيل صباغ
كانت هذه القبائل الأربع وبخاصة القبيلتين الأخيرتين في حالة حرب ضد الفرنسيين .	شرحه ، ومن معلومات استخلصناها بمعرفتنا من نفس أماكنها .
. . . . .	من مذكرات ميخائيل صباغ ، ومن معلومات استخلصناها بمعرفتنا .

## عرب

اسم القبيلة	اماكن اتامتها	العدد المفترض
عرب العايد » قلازين » الجبارات » العمارين	مناطق القل ، وعراق المنشية	مجهولة العدد
» بكير	بين غزة وجبل الخليل وهو مقر القبيلة القديمة يهوذا وتعد الخليل مدينة مقدسة منذ زمان طويل باعتبارها مكان قبر ابراهيم	• • •
» الوحيدات	بين العريش وغزة وفي الصحراء الواقعة الى الجنوب الشرقي من هذه المدينة الأخيرة	٣٠٠٠ فارس على الأقل
» الامارة	ضواحي الرملة واللد ( ديوسبوليس القديمة )	٢٠٠-٣٠٠ فارس
» ابو كشك	شنواطيء النهر الذي يجري الى الشمال من يافا والمرتفعات التي تطل على هذه المدينة	٢٠٠ فارس

ملاحظات	المصادر والمراجع
كان شيخ القبائل في عام ١٧٧٩ يسمى ابن حسين الداهي وحيدى	مستخلصة من مذكرات السورى خليل مسعد
. . . . .	شبرحه
تسيطر هذه القبيلة القوية على كل البلاد الواقعة اسفل خط عرض ٣١ بين البحر المتوسط والبحر الميت وينتمى اليها على الدوام شيوخ القبائل المجاورة وتقسّم الى عدة فروع أشهرها عدة عرب عيشة أو عيشية الذين يقطنون بالقرب من غزة .	من معلومات استخلصناها من نفس ابحاثها ، وكذلك من مذكرات د. روناتيل .
يقوم الامارة عمادة بحراسة الأشخاص الداهيين للحج الى بيت المقدس وفي عام ١٧٩٩ كان شيخهم يسمى سلامة الأمير .	من معلومات استخلصناها من نفس ابحاثها وكذلك من مذكرات السورى خليل مسعد .
كان شيخ هذه القبيلة في عام ١٧٩٩ يسمى أحمد بكمر .	مستخلصة من معلومات نقلها لنا يعقوب حبيب شيخ الشيفا عمر في سوريا .

اسم القبيلة	أماكن إقامتها	العدد المفترض
عرب المسلاج ( أو باعة الملح ) عرب عدوان » المسعودي	نفس المناطق ضواحي القدس الشريف تجاور القبيلة السفينة وتميش كذلك على شواطئ نهر الأردن	تليلو العدد » »
» النعميات	يعيش هؤلاء العرب في القوافل التي تنقلها بالقرب من قيسارية فلسطين ويرون على السحوم يتجولون في الطلال هذا الممر القديم للمسيبيين	» »
» السعدية	نفس المناطق	تليلو العدد لحد كبير
» الحواريث	»	»
» النعميات	المناطق الواقعة بين قيسارية وروحة وشواطئ البحر حتى طنطورة	»
» براريش	البلاد الواقعة بين المرج وروحة أي سهل جبرائيل القديم أو سهل أزدريلون المشهور بخصوبته ومراعيه	٢٠٠ فارس
» المساعيد	جبل الكرمل	٢٠٠ فارس
» زبيدات	المناطق الظلجية الجبلية من بلدة نابلس وهي شكيم القديمة في بلاد السلبة	٢٠٠ فارس
» السناترة	البلاد الواقعة بين يافا ونابلس التي كانت تسمى قديما قبيلة انزاهم	تليلو العدد



المصادر والمراجع	ملاحظات
من مؤلف المسيو مايو	. . . . .
من مذكرات الشيخ يعقوب حبيب	. . . . .
» » » »	. . . . .
شرحہ وكذلك من معلومات حصلنا عليها بأنفسنا .	كان شيخهم في عام ١٧١٩ يسمى عبد الله السراب .
شرحہ	. . . . .
»	. . . . .
»	. . . . .
»	نستخلص أن هذه القبيلة هي نفس القبيلة التي يشير إليها روفائيل باسم باراريش في مذكراته .
»	. . . . .
»	. . . . .
»	. . . . .
»	. . . . .

اسم القبيلة	أماكن إقامتها	العدد المفترض
عرب الغابة	المناطق التي تشكل ممتلكات قبيلة هنسي	شرح
» الصقر	الصحراء الواسعة التي تمتد من شرق البحر الميت والتي كانت فيما مضى موطنها للرعاة المؤابيين .	٥٠٠٠ الى ٦٠٠٠ فارس
» الحلف	ضواحي صفد	تليلو العدد
» العوج	مكان يسمى العوجة	شرح
» التركمان	من قاقون حتى جسر ابن عامر	شرح
» الصقر بانية	ابتداء من هذا الجسر حتى بيسان وهي مدينة بيتشان القديمة في نابلس	العدد مجهول
» السمكية	بين جسر بنات يعقوب والفنيطرة	كثرة العدد
» السميرات	نفس المناطق	شرح
» الجمالين	شرح	»
» تركمات الطجية	ضواحي الفنيطرة من جهة الشرق وهي بلدة كثيرة الأشجار .	العدد مجهول

ملاحظات	المصادر والمراجع
وكما يدل عليها اسمها فإن البلاد التي تقطنها كثيرة الأشجار .	شرحه ، وكذلك مذكرة الدكتور روناتيل .
تقوم هذه القبيلة القوية الشكية بجولات متعددة في بلاد صندالتي كانت تدعى جزءا من ممتلكات قبيلة نفتالي وحتى أسوار نابلس وعكا وصور .	معلومات استخلصناها في نفس أماكنها ومن معلومات تدعى يعقوب حبيب وكذلك من خريطة المسيو بولتر Poultre
. . . . .	من معلومات الشيخ يعقوب .
كان شيخ هؤلاء العربان في عام ١٧٩٩ يسمى أبو كشك شمانها شأن القبيلة التي تحمل نفس الاسم والتي ذكرناها آنفا .	شرحه ، وكذلك من معلومات السورى خليل مسعد
لا يشترك هؤلاء التركمان الا في الاسم مع القبائل التي تسكن سهل انطاكية وضواحي الجنوب الغربي لمشرق وبلدة عتبية .	شرحه
يسكن هؤلاء العرب البلاد التي كانت فيما مضى تشكل جزءا من قبيلتي يساكر وزبولون ، وقد حاربوا وكذلك العرب الذين استفادهم بعد ذلك الفرنسيين فوق تل طابور .	يعقوب حبيب ومن معلومات استخلصناها في نفس أماكنها . ومن الجغرافى القديم دانفل d'Anville ج ٢ ، ص ١٧٧
. . . . .	يعقوب حبيب
. . . . .	د. روناتيل
يتحدث هؤلاء العربية والتركية . . . . .	د. روناتيل والشيخ يعقوب .
. . . . .	شرحه

اسم القبيلة	اماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب نعيمات الشرقية	ابتداء من القنيطرة حتى منطقة تسمى الجيدور	كبيرة العدد
» خيط بواذي	جنوب بحيرة طبرية بين صفد وجسر بنات يعقوب	١٠٠٠ فارس
» مساعيد امارة وعرب الوهايب	ضواحي اريحا او جيركو القديمة	العدد مجهول
عرب كلظم امارة	الشواطىء الغربية للبحر الميت والجبال الواقعة الى شمال القدس الشريف	شرحه
» التهامية	من القدس الشريف حتى نهر الأردن	»
» الفهيدات	شواطىء نهر الأردن حتى بيسان	»
» الثعالبة	نفس الأماكن	العدد مجهول
» البشتاتوه	الجبل الذي يشرف على بحيرة طبرية الى الشرق	تليلو العدد
» المشايخة	نفس المناطق حتى نهر الأردن	»
» الغور	شواطىء البحيرة الصغيرة المسماة الحولة	٣٠٠ فارس
» صخور الغور	شواطىء بحيرة طبرية الى الشمال حتى البلاد التي يشغلها العرب السابقون (الغور) وهي بلاد متخرية	٣٠٠ فارس
» الفوارنة	نفس الأماكن	العدد مجهول
» الصبيح	ابتداء من شفا الغور حتى الجزء الاوسط من تلطابور	شرحه
» الحكاشرات	الى الغرب من القبيلة السابقة	»

المصادر والمراجع	ملاحظات
معلومات استخلصناها من نفس أماكنها وكذلك الشيخ يعقوب .	هؤلاء العرب أثرياء في مواشيهم
شرحه ، وبخصوص العدد ، من مذكرة د. روناتيل .	. . . . .
يعقوب حبيب	المناطق التي تتجول فيها هذه القبائل العربية تشكل جزءا من أملاك قبيلة بنيامين
شرحه	. . . . .
»	. . . . .
»	كان هذا السهل يشكل جزءا من ممتلكات قبيلة منسى .
شرحه وكذلك د. روناتيل .	. . . . .
شرحه	. . . . .
»	. . . . .
الشيخ يعقوب	. . . . .
خليل مسمود	. . . . .
شرحه	. . . . .

## عرب

اسم القبيلة	أماكن انتميتها	العدد المفترض
عرب الثمرات وعرب محمدات	ضواحي حاصبيا وظهر الهضبة السورية التي تتأخر بلاد القنيطرة	العدد مجهول
» العباد	ضواحي البلقاء والسلط	كثير العدد
» اهتيم أو » العدوان	صحراء بلقة وضواحي شفا الغور والسلط والزرقا	العدد مجهول
» الغفيمات	البلاد المعروفة باسم عمان وجرش الى الشرق من القبيلة السابقة	شرحه
» المهداوي	نفس المناطق	»
» بني حسن	شرحه	»
» بني كلاب	ضواحي ملكه	»
» الموالي	البلاد الواقعة بين حمص وحماه وحلب	٥٠٠ الى ٦٠٠ فارسي
» الحدايد	سهل يسمى الغوطة ويمتد بين لبنان والهضبة السورية	كثير العدد
» بني سعيد	ابتداء من البقاع بالقرب من بعلبك حتى جبل الدروز	تأيلو العدد
» الرشوان	يقضون الصيف في سوريا والشتاء في تونسية	الف خيمة

ملاحظات	المصادر والمراجع
. . . . .	الشيخ يعقوب حبيب
. . . . .	شرحه
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	شرحه وكذلك د. روناتيل .
. . . . .	شرحه ، أما بخصوص موضع القوطة ، فمن الكتب الشرقية Herbelot
. . . . .	شرحه
يتحدثون العربية والتركية لكن اسم قبيلتهم عربى بلا شك .	الشيخ يعقوب ، ومن مؤلف نشر حديثا وعنوانه : Itinéraire d'une partie de l'Asie Mineur

اسم القبيلة	أماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب القنيطرة	شواطئ النهر المسمى النهر الكبير الذي يصب في البحر بالقرب من اللاذقية	العدد مجهول
عرب القدامسة	شواحي اللاذقية	كثيرو العدد
» تره حجلة	شواطئ نهر العاصي	» »
» عترة	الصحراء الواسعة الواقعة بين مكة والفرات واللجاة	» »
» الهواري	الصحراء الممتدة الى الجنوب من دمشق	قليلة العدد
» عرب السردية	الصحراء التي اشتهرت باسم اللجاة	شرحه
» الدبالجة	الصحراء الواسعة التي تعرف اليوم كما كانت تعرف قديما باسم جبل حوران	»



المصادر والمراجع	ملاحظات
يعقوب حبيب ، د. روفائيل ، والؤلف السابق ذكره	تتبع هاتان القبيلتان مذهب القراريين
الشيخ يعقوب حبيب شرحه، د. روفائيل ، خريطة بولتر Poultr الخ الخ . الشيخ يعقوب ؛ خريطة بولتر .	. . . . . عنزة هو الاسم الأصلي لهذه القبيلة القوية التي تنقسم الى عدد لا حصر له من الفروع أشهرها في سوريا بنو منقرة . هذه القبيلة ، البالغة الشهرة في سوريا تشغل البلاد التي كان يقطنها فيما مضى العمونيون أو بنو عمون .
شرحه	. . . . . . . . . .

على الرغم من انه لا يدخل فى موضوعنا ان نعرف القارىء بالقبائل العربية التى تمسك فى مصر العليا والوسطى والسفلى ، وكذلك بتلك القبائل التى تتجول فى ضواحي الاسكندرية ، وعلى الرغم من ان المعلومات

اسم القبيلة	امكن اقلبتها	العدد المفترض
عرب الهوارة	بين اسوان وجرجا	٢٠٠٠ فارس على الاقل
» المبالدة واللبابدة	ولاية جرجا	كثيرو العدد
» زناتى	طهطا	٤٠٠ فارس
» هنادى او الهنداجوة	ولاية جرجا	كثيرو العدد
» العطاييت	بنفلوط	قليلو العدد
» ابن وائى والطحيوى	الى الشمال من بنفلوط	شرحه
» ابو كرايم ومنهم :	ملوى	»
» الجهمه	نواحي بحر يوسف حتى المنيا	»
» القراهونه	تلة	»
» الخوين	ضواحي سيالوط	»
» اللوايد	ولاية بنى سويف	٣٠٠ فارس
» العداييد	شرحه	العدد مجهول
» المسحرات	»	شرحه
» المحتر		»



اسم القبيلة	أماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب محارب	ولاية المنيا	شرحه
» بنى واصل	. . . .	»
ومنهم :		
» السمالو	. . . .	»
» الفرجان	. . . .	»
» الترافع	. . . .	»
» العزايزى	. . . .	العدد مجهول
» بنى وائل	ضواحي المنيا	شرحه
» بنى حرام	ضواحي الأطمحيية	٤٠٠ فارس
» الضعفا	ضواحي شمال بنى سنوف	٢٠٠ فارس
» الخويلد	ولاية البهنسا	٤٠٠ فارس
» نجبا	نفس الأماكن	٢٠٠ فارس
» غزالة أو خبرى	ضواحي الجيزة والمناسطق القاحلة بجوار الأهرام	العدد مجهول
» الزيدية	مكان يسمى اوسيم بالقرب من الجيزة	٣٠٠ فارس

ملاحظات	المصادر والمراجع
. . . . .	شرحه
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
كان شيخها في عام ١٧٩٩ يسمى	مستخلصة من ميخايل صباغ
أبو بكر	
. . . . .	شرحه
على الرغم من قلة عدد هذه التبيلة	»
لهم مرهبون تماما في البهنسا.	
. . . . .	»
. . . . .	»
كان شيخهم في سنة ١٧٩٩ يسمى	»
أحمد	
يقال انهم من نسل الماليك الذين	»
طردهم السلطان نسليم من مصر	
عام ١٥١٧	

اسم القبيلة	اماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب الجوىلى	ولاية البحيرة	٦٠٠ ، ٥٠٠ فارس
» ابن بغداد	ولاية المنوفية	٥٠٠ ، ٤٠٠ فارس
	<b>فواحي الاسكندرية</b>	
» الجوايى	نواحي بحيرات المنطرون	٦٠٠ فارس
» السمالو	نفس الأماكن	٢٠٠ فارس
» مسينيد	الكلان المسمى الميمون	٥٠٠ فارس
» اولاد على أو بنى على	فواحي الجنوب العربى من الاسكندرية	١٠٠٠ الى ١٢٠٠ فارس
» مطيرد	وادي الميمون على مسيرة يومين الى الغرب من الاسكندرية	

المصادر والمراجع	ملاحظات
ميخائيل صباغ	. . . . .
شرحه	. . . . .
	<b>وبحيرات النطرون</b>
شرحه، ومن معلومات استخلصناها فى نفس أماكنها	يبدو أن عرب الجوابى من أصل أفريقى ، وهم يقومون بنقل ملح النطرون من البحيرات حتى الإسكندرية والطرانة وينقل البضائع الخاصة بواحة آمون ( سيوه )
ميخائيل صباغ	. . . . .
شرحه	. . . . .
شرحه، ومن معلومات استخلصناها من نفس أماكنها	هذه القبيلة قوية بنفسها وبخلفائها ويسكن شيخها قرية تسمى القتلية بناها أجداده الى جوار الدير المحرق
شرحه	. . . . .

# الفهرس

## القدمة . . . . . ٧

الدراسة الأولى : جولة في اعليم المريوطية ، تأليف  
جرائيلان لويير . . . . . ١٧ — ٤٠

الدراسة الثانية : رحلة الى وادي التطرون ، تأليف  
الجنرال اندريوسى . . . . . ٤١ — ٧٨

الفصل الأول : عن وادي التطرون . . . . . ٤٥

الفصل الثاني : طبوغرافية البحر الفلرغ . . . . . ٥٥

الفصل الثالث : عن الاديرة القبطية . . . . . ٦٣

الفصل الرابع : عن عرب الجوابى وعن البدو . . . . . ٦٨

الدراسة الثالثة : دراسة موجزة عن عيون موسى ، تأليف  
ج . مونج . . . . . ٧٩ — ٨٦

الدراسة الرابعة : ثباتية وعشرون يوما في سيناء ، تأليف  
ج . كوتل . . . . . ٨٧ — ١٣٤

الدراسة الخامسة : رحلة الى بنى سويف والنبيوم ، تأليف  
ب . م . بلرتان . . . . . ١٣٥ — ١٩٢

القسم الأول : ولاية بنى سويف . . . . . ١٤١

القسم الثاني : ولاية النبيوم . . . . . ١٥٢



### الدراسة السادسة : العرب والعريان في مصر الوسطى

تأليف ا. جومار . . . . . ١٩٣ — ٢٤٤

**الفصل الأول : العرب المزارعون** . . . . . ١٩٧

١ — القبائل التي استقرت في مصر منذ زمن بعيد . ١٩٧

٢ — القبائل التي استقرت حديثا . . . . . ٢٠٨

### الفصل الثاني : المربح المحاربون أو الصربان الرعاة

أو الرحل . . . . . ٢٢٨

### الدراسة السابعة : القصير والجلادة ، تأليف دي بوا —

أبيه . . . . . ٢٤٥ — ٢٦٠

### الدراسة الثامنة : القبائل العربية في صحراوات مصر ،

تأليف دي بوا — أبيه . . . . . ٢٦١ — ٣١٠

### الدراسة التاسعة : كيف خرج اليهود من مصر القديمة ،

تأليف دي بوا — أبيه . . . . . ٣١١ — ٣٧٢

**الفصل الأول :** . . . . . ٣١٣

— مقدمة : . . . . . ٣١٣

— عن الاسمائل . . . . . ٣١٦

— عن الرعاة الرحل . . . . . ٣١٧

— إبراهيم . . . . . ٣١٩

**الفصل الثاني :** . . . . .

— عن العبرانيين حتى عصر دخولهم مصر . . . . . ٣٢٧

— من فتح مصر على يد الزعاة وعن العبرانيين منذ وفاة

يوسف حتى هروهم الى الصحراء . . . . . ٣٣٢

— هروب العبرانيين الى الصحراء . . . . . ٢٣٩

— مسيرة العبرانيين في الصحراء حتى المنطقة التي عبروا

عندها البحر الأحمر . . . . . ٢٤٢

— عبور البحر الأحمر . . . . . ٢٤٦

— المياه المرة تصبح مياه عذبة . . . . . ٢٥٤

— عن السحاب وصود النار ومن بعض الظواهر الأخرى

المثيرة للانتباه . . . . . ٢٥٦

— الشريعة تنزل على جبل سيناء . . . . . ٢٦١

— موت موسى . . . . . ٢٦٨

الدراسة العاشرة : حصر للقبائل العربية التي تقطن بين

مصر وفلسطين ، تليف اميديه جوير . . . . . ٢٧٥ — ٢٩٧

## كتب أخرى للمترجم

أولاً : فى مجال الأدب :

- ١ - المطاردون (مجموعة قصص قصيرة).
  - ٢ - حكايات من عالم الحيوان.
  - ٣ - المصيبة (مجموعة قصص قصيرة).
  - ٤ - موتى بلا قبور (مسرحية تأليف جان بول سارتر).
  - ٥ - السماء تملأ ماء جافا.
- (رواية تسجيلية تتناول وقائع الوحدة المصرية السورية وانفصالها).

ثانياً : فى مجال التاريخ :

- ١ - تطور مصر من ١٩٤٢ إلى ١٩٥٠ : تأليف مارسيل كولمب.
- ٢ - فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية. تأليف أندريه ريمون.

ثالثاً : الترجمة العربية الكاملة لموسوعة وصف مصر :

تأليف علماء الحملة الفرنسية .

- ١ - المصريون المحدثون.
- ٢ - العرب فى ريف مصر وصحراواتها.
- ٣ - دراسات عن المدن والأقاليم المصرية.
- ٤ - الزراعة، الصناعات والحرف، التجارة.
- ٥ - النظام المالى والإدارى فى مصر العثمانية.
- ٦ - الموازين والنقود.
- ٧ - الموسيقى والغناء عند قدماء المصريين.
- ٨ - الموسيقى والغناء عند المصريين المحدثين.
- ٩ - الآلات الموسيقية المستخدمة عند المصريين المحدثين.
- ١٠ - مدينة القاهرة - الخطوط العربية على عمائر القاهرة.

. رابعاً : لوحات موسوعة وصف مصر :

١ - المجلد الأول والثانى للوحات الدولة الحديثة.

٢ - المجلد الأول من لوحات الدولة القديمة.

خامساً : من موسوعة وصف مصر :

(دراسات مختارة من الموسوعة فى كتيبات)

١ - كيف خرج اليهود من مصر القديمة.

٢ - مدينة الإسكندرية.

٣ - مدينة رشيد.

رقم الإيداع / ١٤٩٠٢ / ٢٠٠٢

الترقيم الدولي / I.S.B.N.977-01-8073-0



تمت الطباعة بالتعاون مع  
شركة نهضة مصر للطباعة والنشر



نقد أدركنا منذ البداية  
أن تكوين ثقافة المجتمع  
تبدأ بتأصيل عادة  
القراءة، وحب المعرفة، وأن  
المعرفة وسيلتها الأساسية  
هي الكتاب، وأن الحق في  
القراءة يماثل تماماً الحق  
في التعليم والحق في  
المسححة.. بل الحق في  
الحياة نفسها.

سوزانه مبارك

السعر خمسة جنيهات

Bibliotheca Alexandrina



0447662

مركز القاهرة  
للدراسات  
الاسلامية والاسلام